

النبي سليمان
من وحي القرآن والسنة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

2017م

المحتويات

7	المقدمة
37	سليمان
37	من وحي القرآن
95	صفات النبي سليمان
95	1 . مالك:
96	2 . مُفَهِّم:
98	3 . عدل:
99	4 . عالم:
99	5 . مُشَاهِد:
100	6 . مُسَخَّر له:
103	7 . مُوَرَّث:
104	8 . مُعَلِّم:
105	9 . مؤتى:
105	10 . محشور له:
106	11 . شكور:
107	12 . صالح:
108	13 . مُتَّفِقِد:
108	14 . شديد:

110	15 . مُرْسِلٌ :
111	16 . رَافِضٌ :
111	17 . مُتَحَدِّدٌ :
112	18 . آمِرٌ :
113	19 . مَوْهوبٌ :
113	20 . أَوَابٌ :
114	21 . مَحَبٌّ لِلْخَيْرِ :
115	22 . مَبْتَلَى :
115	23 . مَتَضَرِّعٌ :
116	24 . مُقَرَّبٌ :
117	25 . أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ :
117	26 . خَلِيفَةٌ :
119	1 . عِلَاقَةٌ سَلِيمَانُ بِالذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ :
122	2 . الْعِلَاقَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ :
150	مَلِكُ سَلِيمَانَ :
156	الْمَلِكُ الْمَوْهوبُ :
161	مَشْرُوعِيَّةُ الدَّعَاءِ وَالطَّلَبِ :
164	الْمَلِكُ وَأَثَرُهُ فِي الْإِسْتِخْلَافِ :
166	أَنْوَاعُ الْمَلِكِ :

170	سياسة الملك:
185	العلم جزء من ملك سليمان:
198 صوت الطير .
226	ما بين النبوة والصالح:
231	الصدّيقون:
237	الشهداء:
258	الصالحون:
279	جنود سليمان:
304	جنود سليمان
305	الغوص في البحار:
340	الذي عنده علم الكتاب:
347	الكتاب وطبيعته:
355	العلم ونوعيته:
369	ما أعطي لسليمان:
379	تفنيد الادعاءات:
386	المقرنين بالأصفاد:
393	الإنس:
394	خصائص الإنسان:
404	طبيعة الإنسان:

409	المواهب:
418	العقل والإيمان:
425	الطير:
428	الطير معجزة:
430	العلاقة بين الإنس والجن:
455	تسخير الرّيح:
489	تصريف الرّياح:
496	المسح بالسوق والأعناق:
509	الفتنة جزء من الحياة:
514	الابتلاء:
520	.الابتلاء من ضرورات الإيمان:
523	عدم استعجال التمكين واستدعاء البلاء:
524	إنابة سليمان:
527	الحكمة وفصل الخطاب:
537	أقسام الحكمة:
548	وراثة سليمان فصل الخطاب:
565	قضاء سليمان:
575	موت سليمان:
662	سليمان من السُّنة

- 664 دعوة سليمان:
- 666 مُلك سليمان:
- 667 خاتم مُلك سليمان:
- 668 هيكل سليمان:
- 669 كتاب سليمان لملكة سبأ:
- 671 فتنة سليمان:
- 672 علم سليمان:
- 673 تسخير الرّيح لسليمان:
- 674 إرسالة عين القطر لسليمان:
- 675 بناء بيت المقدس:
- 676 الجن لا تعلم الغيب:
- 677 النملة لغة ومنطق:
- 678 هددهد سليمان وإسلام ملكة سبأ:
- 681 ظلال الطّير:
- 682 منطق الطير:
- 688 اشتراطات وماغذ منطقية:
- 690 الفرق بين منطق الحوار ولغة الحوار:

المقدمة

النبي سليمان عليه الصلّاة والسّلام هو بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر حتى ينتهي نسبه إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وهو أحد أنبياء بني إسرائيل عليهم السّلام، وقد رزقه الله النبوة والملك، وقد سأل ربّه حكما لم يكن من قبل ولا من بعد فكان له، وهو عند أهل الكتاب مجرّد ملك من ملوك بني إسرائيل وليس نبيا من أنبيائهم الكرام، وينسب إليه الهيكل المسمّى باسمه (هيكل سليمان). وقد آتاه الله ملكا متفرّدا حيث سخر الله له الجن والطير والإنس والريّح والاني له عين القطر ليحكم ويتحكم ويسيطر بقوّة الله وعزّته عدلا بلا مظالم؛ فكان كما شاءه الله نبيا وملكاً قد ورث ملك أبيه داوود عليهما الصلّاة والسّلام؛ فسليمان كانت له النبوة والملك إضافة إلى ما ورثه من ملك أبيه عليهما السّلام.

وقد قيل فيه ما قيل، وهذه من سنن الحياة؛ فالمخالفون والكفرة دائما يصفون الأنبياء الكرام بما لم يكن فيهم، فسليمان مع أنّه يمتلك من القوّة المسخّرة له ما يمتلكه، لكنّه كان نبيا لئّن الجانب، وملكاً عادلا لا يحكم إلّا في مشيئة الله ورضوانه ولا شيء غير ذلك.

ومع أنّه نبيا لكنّه بشر يسري عليه ما يسري على بني آدم الكرام من حياة وابتلاء وموت وبعث؛ فهو ابن الملك النبي الذي ورث ملك أبيه، إنّّه من سلالة الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام؛ وهو من أطاعه الجن والطير كما سخر الله له الرّيح آية.

وهب الله تعالى لسليمان ملكا بعد طلب منه وهو ملك لم يكن لأحد من بعده، وقد بدأ سليمان صلّى الله عليه وسلّم قبل طلب الملك بطلب المغفرة، وهذا لا يعني أنّه ارتكب ذنبا أو إثما وجب أن يستغفر

لما بدر منه كما نقف على ذلك في الإسرائيليات ومن أخذ عنها في تفسير بعض الآيات معتمدا على نصوص توراتية يعلم أنها محرفة وأقل ما فيها الطعن على الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام، لذلك حملوا الاستغفار المتقدم على طلب الملك بسبب صدور الزلّة من سليمان صلّى الله عليه وسلّم، وحكموا بأنه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة، ونحن إن شاء الله في صدد هذه الآية قبل أن نتكلّم عن الملك لن نترك شاردة ولا واردة في قوله: (اغفر لي) ممّا افتري عليه بها صلّى الله عليه وسلّم إلا ولنحرقنّها ثم لننسفنّها في اليمّ نسفا بالدليل الواضح والحجّة المقنعة ونأتي بالبرهان الساطع والجواب القاطع بحول الله وقوته ابتغاء وجه الله ودفاعا عن نبيه صلّى الله عليه وسلّم.

إنّ مسألة الاستغفار أو طلب المغفرة لا يقتضي بالضرورة أن يكون استغفارا بسبب ذنب صدر من المستغفر، وإن كان هذا المعهود لدى كثير من الناس.

فلاستغفار ليس بالضرورة أن يكون تكفيرا عن ذنب، وربّما يكون كذلك، ولكن عندما تتعلّق القضية بنبي من أنبياء الله فالمسألة تستوجب التوقّف وتأمّل الأمر من جميع وجوهه، واستنباط الحكمة للوقوف على الحكم من الغاية التي جاء لأجلها الطلب.

إنّ الله سبحانه وتعالى لما اصطفى أنبياءه جعلهم على هدى وعصمهم من الزلّة والذنب والإثم والخطيئة ولكن إضافة إلى ذلك فقد أمرهم بالاستغفار والتوبة والرجوع والإنابة مع درجة الهداية التي خصهم بها، وذلك لأنهم خلفاء الله في أرضه وتتمثل فيهم القدوة والأسوة الحسنة فهم يأمرون بما يفعلون، لذلك قال صلّى الله عليه وسلّم: "إنيّ

لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة وأتوب إليه"1، وهذه بداية الإجابة على ما يقولون، غير أنّ هناك أنواع من الاستغفار لها أسبابها تخرج عن الذنب والإثم والمعصية سنتناول منها ما استطعنا للردّ على تلك الافتراءات

سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتْنِي عَلَى رَبِّي، فَقَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَحَّرَ لِي الرِّيحَ وَسَحَّرَ لِي الشَّيَاطِينَ يَعْمَلُونَ لِي مَا شِئْتُ مِنْ مَحَارِبٍ وَمَثَائِلٍ وَجَفَانٍ كَالْجُؤَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ، وَعَلَّمَنِي مَنَاطِقَ الطَّيْرِ، وَأَتَانِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَضْلًا، وَسَحَّرَ لِي جُنُودَ الشَّيَاطِينِ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَتَانِي مُلْكًا عَظِيمًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، وَجَعَلَ لِي طَيْبًا لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ"2.

فملك سليمان لا مثيل له، ولن يكون لأحد من بعده؛ فقد خدمته الطير وسحرت الريح له، ودانت له ملوك الإنس، وخضعت له عفاريت الجن، وورث ملك أبيه إلى جانب ما آتاه الله من ملك، {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ}3.

ومن هنا؛ فقد ورث سليمان الملك والنبوة معاً، ووراثه النبوة تعبير مجازي؛ لأنّ النبوة اختيار إلهي محض، والمراد منها أنّ الله جعل النبوة له بعد أبيه؛ فكان عهده وأبيه أزهى العهود التي مرّت على بني إسرائيل على الإطلاق، وذلك لما أوتيته هذان النبيان الكريمان من العدل والحكمة مع الطاعة والعبادة لله عزّ وجلّ"4. قال تعالى: {وَحُشِرَ

1 - مسند أحمد، ج 17، ص 42.

2 تفسير ابن كثير ط العلمية، 5، ص 32.

3 النمل 16.

4 دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص 53.

لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} 5، كان يستعرض جنوده من الجنّ والإنس، والطير من فوقهم تظلمهم 6.

وكانت الدولة في عهد سليمان تدار بأسلوب النبوة والملك الذي يستوجب تفقد أحوال الرعية مباشرة، {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّيَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} 7، وما يترتب على التفقد يجوز أن يكون توابا أو عقابا، فالهدهد إن لم يأتي بعدر بين سيعرض نفسه للمعاقبة الشديد، وإن كان له عذرا فليبينه بلا تأخير؛ وهكذا تضبط الدولة وهكذا تُحمل المسؤولية.

ومالك الملك، هو الذي تنفذ مشيئته في ملكه كيف يشاء، ومتى ما شاء فلا مرد لقضائه، ولا يكون ذلك إلا من كمال القوة والمتانة والقدرة والعزة والغنى. وقد تجلّى ذلك في عقاب الأمم السابقة، إذ يقول تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَوُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَاهُ لِكَيْ لَا يَكُونَ مِنْكُمْ آسِرٌ وَلَا يُسْأَلُ عَنْكُمْ فِي يَوْمِ الْحِسَابِ} 17.

⁵ النمل 17.

⁶ دروس الشيخ أحمد فريد، 50، ص 4، بتقييم الشاملة آليا.

⁷ النمل 20، 21.

مَا أَصَابَكُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ {8}. هذه الآيات تعرض أمر الله تعالى النافذ في قوم لوط، فقد كانت البداية بالمرور بإبراهيم الحليم عليه الصلّاة والسّلام، فكان محاورا للملائكة من أجل تأخير أو إسقاط العقوبة عن قوم لوط لأن فيها بعض المؤمنين، فضلا عن ذلك صفة الحلم التي يتمتع بها النبي إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام، فالأمر أصبح واجب التنفيذ، لان أمره تعالى لا يرده أحد، يقول تعالى: {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ {9 هذا العذاب الذي صرح به هنا بأنه آت قوم لوط، لا محالة وأنه لا مرد له، إذ بينه تعالى في مواضع عديدة رسم فيها صورة العذاب المتحقّق عليهم بطريق تتلاءم مع ذنوبهم الفاحشة، يقول تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ {10، وقوله تعالى: {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ {11. أما قوم يونس عليه الصلّاة والسّلام فقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم لكن بصورة مغايرة عن قوم لوط، إذ يقول تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمْنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخُرْجِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ {12 إن قوم يونس كانوا بينوى من أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهم عليه الصلّاة والسّلام قذف الله تعالى في قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح، وأخرجوا المواشي، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، فعجوا إلى الله

8 - هود 74 - 81

9 - هود 76

10 - هود 82 - 83

11 - الحجر 74 - 75

12 - يونس 98

أربعين صباحاً، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم، كشف عنهم العذاب بعد ما تدلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل. 13 فصورة العذاب المتحققّة في قوم لوط تقابلها صورة العذاب غير المتحققّة عند قوم يونس، ممّا يدلّ في كلا الأمرين أن أمر الله تعالى نافذ كما يشاء في تحقّق العذاب وعدمه، ولا يكون ذلك إلا له.

تستعمل لفظة (الملك) بين المستخلفين ضمن إطار حفظ الحقوق، ولهذا أن توزع الميراث الذي ورد في القرآن الكريم استند إلى ما يملكه الميت، قال تعالى: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَيُخَشِ الْأَٰدِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا إِنَّ الْأَٰدِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} 14 وقوله تعالى: {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا} 15 إلا أن ما يملكه الميت هو من باب ما شرعه الله تعالى لكل، بان لهم الحقّ في الأملاك، إلا أنّ كل ما يملكونه هو ملك وقتي ولا بدّ له من زوال، إما ملك الله تعالى فهو دائم لا يزول، إذ تتضح الصورة العظيمة التي يرتسم فيها ملكه الدائم بعد زوال الدنيا وما فيها

13 - الدر المنثور ج 5 ص 269

14 - النساء 8 - 11

15 - الفجر 19

ولا يبقى إلا هو (مالك الملك) جل جلاله، يقول تعالى: {يَوْمَ هُمْ
بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ
الْقَهَّارِ} 16.

أما الحديث عن الوراثة من باب أنّ الله تعالى جعل الخليفة يرثه في
الأرض، فهذا يدخل من باب الاستخلاف الذي أَرَادَهُ اللهُ تعالى
للخليفة، إذ يقول تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أُمَّمًا
يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ} 17. هذه من وعود الله تعالى لعباده الصادقين المخلصين
بأن يستخلفهم في الأرض، فيكونون هم الخلفاء فيها ومن المتصرفين في
تدبيرها، والتصرف يكون بإقامة شرع الله تعالى في أنفسهم وفي غيرهم،
وهذا يدخل ضمن نطاق الأمانة التي قال عنها تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا
الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا
وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} 18.

أما من ناحية الحاجة فإنّ كلّ المخلوقات بحاجة إلى ملك الله
تعالى، وهذا الملك يتمثل في كلّ شيء يكون السبب في دوام الحياة،
من ذلك الهواء فهو سر من أسرار استمرار الحياة وبدونه لا يمكن
للكائنات أن تعيش، فضلا عن ذلك فهو يعد سببا رئيسيا للحركة
والتنقل، فالطائرات لا يمكنها الطيران بدون الهواء وكذلك الطيور بكل
أنواعها لا يمكن لها التحليق دون وجود الهواء، أما الماء فهذا سر

16 - غافر 16

17 - النور 55

18 - الأحزاب 72

عجيب، فهو أصل الحياة، إذ يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} 19 وبالماء يحيي الله تعالى الأرض، فيسوق إليها المطر، يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} 20. فضلا عن ذلك أن كثير من الحيوانات لا تستطيع أن تعيش خارج الماء، فهو المكان الوحيد الذي تعيش فيه، فهي بحاجة له من اجل الاستمرار في الحياة.

مالك الملك، يملك مالكي الملك والملك، ويتضح الأمر هذا من خلال عملية الخلق، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} 21، وقوله: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} 22 والخلق يستدل به على المالك، فالله تعالى هو الخالق ومن يكن الخالق يكن المالك، فالأنفس كلها هي ملك لله تعالى، فضلا عن ذلك أن الله تعالى يملك ما تملكه هذه الأنفس سواء أكان الملك ماديا أم معنويا، لان أصل ما يملكونه هو من عند الله تعالى (مالك الملك)، وبذلك يتأطر هذا الأمر وفق صورة الجلال والعظمة التي رسمتها صفة (مالك الملك) بكل أبعادها وحيثياتها. إذ يتمثل ذلك بالفرضية التي وردت في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ

19 - الأنبياء 30 - 31

20 - السجدة 27

21 - البقرة 21

22 - فطر 11

جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} 23 هنا الحديث للكافرين في بيان العذاب الذي ينتظرهم بما فيه من شدة وهول، فالخطاب هنا على سبيل الفرض والتقدير، لو كان لهم ما في الأرض جميعا، أي لو تحققت الملكية الحقيقية الكاملة لهم في الدنيا بما في الأرض من ذهب وفضة ولؤلؤ وحيوانات وأشجار وقصور وغير ذلك من أملاك الأرض، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب، ما قبل منهم، يقول تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} 24 فهنا المعادلة المفترضة لم تتحقق، يملك في الدنيا ولا يملك في الآخرة، والله تعالى يملكهم ويملك ما يملكونه ويملك مالا يملكون، وهنا نرجع إلى قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ} 25 الذي يرسم صورة واضحة المعالم لا تحيل إلى أي مرجعيات، إلا إلى مرجعية واحدة هي أن ملك الله تعالى ليس له حدود وليس له إطار إنما هو مطلق يشمل الدنيا والآخرة.

إنّ لفظة (الملك) التي يبنى عليها اسم (مالك الملك) تتسم بالإطلاق غير المقيد، فهي تحيل إلى رسم صورة عظيمة، يجمع ما يدور فيها من ملك الله تعالى بحسب ما يمليه التفكير البشري القاصر عن إدراك حجم وعظمة ملك الله تعالى، فهي لم تقتصر على الجانب المادي بل كان للجانب المعنوي المكانة الواضحة في هذا الملك،

23 - الزمر 47 - 48

24 - الشعراء 88 - 89

25 - الفاتحة 4

ارسل سليمان رسالة إلى ملكة سبأ يدعوها وقومها إلى التخلي عن عبادة الشمس من دون الله وأن يعبدوا الله واحد أحد ولا شريك له، فقال: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ} 26، وحمل الهدهد بهذه المهمة؛ فطار بها إلى ملكة سبأ، قال مقاتل: "حمل الهدهد الكتاب بمنقاره فطار حتى وقف على رأس المرأة، وحوها القادة والجنود، فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها. وقال ابن منبّه وابن زيد: كانت لها كوة مستقبلة الشمس، تقع الشمس فيها حين تطلع، فإذا نظرت إليها سجدت لها، فجاء الهدهد تلك الكوة فسداها بجناحه فارتفعت الشمس ولم تعلم، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى بالصحيفة إليها؛ فأخذت بلقيس الكتاب وكانت كاتبة قارئة عربية من قوم تبع بن شراحيل الحميري، فلما رأت الخاتم على الرسالة ارتعدت وخضعت لأنّ ملك سليمان (عليه السلام) كان في خاتمه، وعرفت أنّ الذي أرسل هذا الكتاب هو أعظم ملكا منها، ذلك لأنّ ملكا ورسوله الطير لا شكّ إنّه عظيم، فقرأت الكتاب وتأخّر الهدهد غير بعيد فجاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملاء من قومها؛ فجاءوا وأخذوا مجالسهم؛ فقالت لهم بلقيس: يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ)" 27. فاستجابت بلقيس مع قومها لطلب سليمان بعد أن أقنعتهم بألا طاقة لهم بمواجهة جنود سليمان، وآثرت بكمال عقلها وفطنتها السلم والمصالحة والمسالمة والموادعة على الحرب والقتال، بالرغم من توافر قوة عسكرية كبيرة عندها (نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ)؛ فشيّد لها سليمان صرحا عظيما ومرد أرضه بالزجاج، وهذا فنّ

²⁶ النمل 30، 31.

²⁷ تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 7، ص 205.

مستحدث لا عهد لأهل اليمن به، ثم لما دخلته حسبته ماء، فكشفت عن ساقها لخوض الماء لئلا تبتل ثيابها بالماء، ثم أحضر لها عرشها من بلاد اليمن إلى بلاد الشام، ليكون دليلاً على صدق نبوته، ومعجزة على صحة رسالته، وآية على قدرة الله العجيبة في خرق العادات وتجاوز المحسوسات، مما لم يكتشف العلم سره ونواميسه إلى الآن، فما كان من بلقيس إلا أن أسلمت وأمنت برسالة سليمان، {قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 28.

عَلَّمَ سليمان منطق الطير، وهذا الأمر ليس هينا، أي أن يتعلم المرء لغة من اللغات فهذا الأمر ميسراً، ولكن أن يتعلم الإنسان منطق الطير؛ فالأمر هنا معجز، أي أن سليمان عليه الصلاة والسلام لم يتعلم لغة الطير فقط، بل تعداها إلى معرفة منطق الطير، وهنا تكمن المعجزة التي خصَّ الله بها سليمان عليه السلام.

وعليه فالمنطق لغة يعني: مستويات التفكير، ومن هنا يتضح الفرق بينه وبين اللغة ككلام ونطق وحركة، فالمنطق محاكاة موضوعية بين المتحاورين يعتمد على مبررات وحقائق وليس على جملة من التعبير والخطابات البلاغية والبيانية والكلمات المأخوذة من القواميس، وفي المفهوم العربي المنطق حجة مقنعة لاعتماده على إظهار الحقائق، والحوار المنطقي هو المعتمد على الموضوعية المستندة على مبررات ومعطيات ومقدمات تحمل في أحشائها النتيجة المتوصل إليها.

قد عرّف عبد الرحمن بدوي المنطق في الموسوعة الفلسفية بأنه "العلم الباحث في المبادئ العامة للتفكير الصحيح. وموضوعه البحث في خواص الأحكام، لا بوصفها ظواهر نفسية، بل من حيث دلالتها

²⁸ النمل 44.

على معارفنا ومعتقداتنا"²⁹. وقد عرّفه أما نويل كنت بأنه "علم القوانين الضرورية للدّهن والعقل"³⁰. لقد أرتبط المنطق بالتفكير وملكات العقل ومستوياته، وقد تميّز عن اللغة الناقلة له، ومع ذلك كاد البعض لا يفصل بين المنطق واللغة، وهنا يكمن المشكل الذي يواجه المتحاورين، والذي نسعى لكشفه في هذا المؤلّف.

منطق الحوار أسلوب عقلي ومعرفي يدرك الحقيقة ويعمل بها، ولأنّه عقلي؛ فهو يرتبط بمستويات التفكير الإنساني، حيث يتميّز تفكير الصبي والطفل عن تفكير الرّجل والشيخ، ويتميّز تفكير المتعلّم عن تفكير الجاهل، وتفكير السياسي والاقتصادي عن غيرهما ممّن لا يعرفون شيء عن السياسة والاقتصاد؛ فمنطق الحوار ليس لغة كما يعتقد البعض، بل هو الحجّة التي يستند عليها المتحاورون أو البرهان الذي له الإثبات على أرض الواقع، وما اللغة إلّا وسيلة لنقل المنطق وليس مصدرا لتوليدده، وفي هذا اللبس وقع الكثيرون من السّاسة والمفكرين ورواد الفكر الإنساني حيث أنّهم حلّوا اللغة محل المنطق في حواراتهم السياسية والدينية والحضارية والاقتصادية والاجتماعية، ممّا جعل استمرار اختلافهم وكأنّه الحلّ الذي تنتظره أطراف الحوار.

الحوار المنطقي يُمكن عقل الإنسان وتفكيره من التنقل من المعلوم إلى المجهول، ومن المتوقّع إلى غير المتوقّع، فتزداد المعارف وتتسع دائرتها بما يمكن استيعاب البعض للبعض الذي تعجز عن تحقّيقه اللغة الخالية من المنطق. فالمتوقّع كلّ الناس تدركه، وتسعى إلى الوصول إليه أو تفاديه حسب كلّ حالة وظرف، أمّا غير المتوقّع؛ فهو الذي لا يدرك

²⁹ عبد الرّحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية الجزء الثاني. بيروت: المؤسسة العربية للنشر

والتوزيع، الطبعة الأولى، 1984، ص 474

³⁰ المصدر السابق، ص 474.

مباشرة ولكنة يدرك بالاستنباط والاستدلال بما هو مدرك في ذاته، فالجهاد على سبيل المثال: لا يدركه إلا المؤمن، أمّا سواه فلا يدركه إلا قتالا، والمؤمن يعرف أنّ لكلّ شيء تمن معلوم، ويعرف أنّ في الحياة الدنيا لا ثمن للروح التي علمها عند ربّي، ويعرف أنّ قيمة الأشياء ليس دائما في ذاتها، بل بما يعود منها من خير؛ فالموت كلّ الناس سيموتون دون أن يدفع الناس ثمنا مقابل موتهم، ولكن المؤمن يعرف أنّ ما يقوم به من خير سيجاز عليه في الحياة الآخرة، أمّا غير المؤمن فقد لا يقع في حسابات عقله ما يتوقّعه المؤمن، ولذا ما هو متوقّع عند المؤمن قد يكون في حيز غير المتوقّع بالنسبة لغيره.

وعليه؛ فالمنطق لا يُسلم بأنّ حدوده تنتهي عند حدود المتوقّع فقط، بل يدرك أنّ في مستويات التفكير الإنساني مسافات لاستيعاب المتوقّع وغير المتوقّع، ومن يحاول أن يقصر تفكيره على المتوقّع فقط فقد يفاجئه غير المتوقّع بما لا يحمد عقباه. فالجنة غير المتوقّعة عند البعض هي في دائرة المتوقّع بالنسبة للمؤمن، وبالتالي تُعدّ في دائرة المدركات العقلية التي لا يشوبها الشكّ، والسعي لأجل الوصول إليها هدف وضرورة رئيسة في الحياة الدّنيا، ودخول اللجّة لا يقتصر تحقيقه بالجهاد والاستشهاد، بل بفعل الخير كلّ الخير، من الكلمة الحسنة إلى الفعل الحسن.

ولذا فالجهاد ليس غاية في ذاته، بل الغاية من ورائه حجز بطاقة دخول الجنة، والثمن الذي يدفع لأجل نيل شهادة الاستشهاد هو قبول الموت المباشر لكسر حاجز الخوف الذي يعيق البعض من دخول الجنة، هذه السلسلة من التفكير المنطقي لا تقع في دائرة المتوقّع بالنسبة لغير المؤمن بالله تعالى، وفي الوقت ذاته لا تخرج عن دائرة المتوقّع بالنسبة

للمؤمن، ولأجل التفاهم والتفهم والوصول إلى الحلّ المرضي لأطراف الحوار لا ينبغي قصور التفكير على المتوقع فقط.

ولأنّ سليمان صلوات الله وسلامه عليه كان مُفهِمًا لما يجب في مرضاة الله فقد وهب الله عزّ وجلّ له حكما وملكا، وفهّمه كيف يملك ويحكم مصداقا لقوله تعالى: { وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا } 31.

التفهُم تقدير للظروف التي قد تؤثر على الملك والظروف التي قد تؤثر على سلوك الأفراد والجماعات، ولهذا التفهُم دراية بما ينبغي أن يتم حيال كلّ أمر من أمور الحكم وكيف ومتى وأين يتم؟

وعليه فسليمان مسخّر له، والتسخير إعطاء ما يجب لمن يستحقّ، ولذا فمن يُسَخَّر له الأمر يَتِمَكَّن من توجيه المسخَّر إلى ما سُخِّر إليه. وعليه لقد سَخَّر الله تعالى إلى سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلّ من التسخير المورث والتسخير الموهوب أو المؤتّى ولتوضيح ذلك وتبيانه أقول:

أ. التسخير المورث: هو الذي ورثه سليمان من أبيه داوود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مصداقا لقوله تعالى: { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ } 32. أي أنّ سليمان قد ورث أبيه في الآتي:

* الملك، قال تعالى: { وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ } 33.

31. الأنبياء 78، 79.

32. النمل 16.

33. البقرة 251.

* الحكم، قال تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا أَتَيْنَا حُكْمًا} 34.

* العلم، قال تعالى: {وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} 35.

* الحكمة، قال تعالى: {وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ} 36.

* الزبور، قال تعالى: {وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} 37.

* الجبال المسخرة، قال تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ} 38، وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضَّلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ} 39.

* الطير، قال تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ} 40.

* صنعة لبوس، قال تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ} 41.

* فصل الخطاب، {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ} 42.

34 . الأنبياء . 79.

35 . البقرة . 251.

36 . البقرة . 251.

37 . النساء . 163.

38 . الأنبياء . 79.

39 . سبأ . 10.

40 . الأنبياء . 79.

41 . الأنبياء . 80.

42 . ص . 20.

* أواب، قال تعالى: {وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 43.

* عمل السابغات، قال تعالى: {أَنْ اِعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ} 44.

* التقدير في السرد، {وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ} 45.

* إلانة الحديد، {وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ} 46.

* الاستخلاف في الأرض، {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ} 47.

ب . التسخير الموهوب: وهو الذي أضيف للتسخير المورث، أي أنه التسخير الموهوب لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يكن موهوبا من قبل إلى أبيه، حتى وإن كان ذات النوع أو الصفة، أي لو كان الموهوب له الحكمة وأن الحكمة قد وُهِبَت من قبله لأبيه الذي ورث منه تلك الحكمة فإن الحكمة التي وُهِبَت له لا يمكن أن تكون هي الحكمة التي وُهِبَت من قبل لأبيه داوود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال تعالى: {فَفَقَّهُمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} 48.

أما قوله تعالى (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا) دليل إثبات إمكانية استخدام القوّة في محلّها وهو بأسباب الغياب التي قد يكون من بينها

43 . ص 17.

44 . سبأ 11.

45 . سبأ 11.

46 . سبأ 10.

47 . ص 26.

48 . الأنبياء، 79.

عدم طاعة الهدهد من الطير المسخّر لسليمان ليتصرّف فيه وبه متى ما
يشاء في مرضاة الله تعالى، أي بما أن أمر الحشر قد صدر من سليمان
ليكون الحضور من الجميع دون استثناء فكيف لا يكون الهدهد من
الحاضرين؟

هل هو عاصٍ؟

هل هو متمرّد؟

أم أنّه غير معترف بالأمر؟

أم أنّه غير مقدّر للقوّة والقدرة الموهوبة لسليمان من الله تعالى؟

وتزداد الشدة وفقا للصلاحيات الممنوحة لسليمان حتى بلوغ تنفيذ
أمر القتل في الهدهد إذا لم يكن له عذر في غيابه أو تأخره عن الحضور
المحشور فيه من الإنس والجنّ والطير، مصداقا لقوله تعالى: (أَوْ
لَأَذِّنَنَّه).

وكذلك قوله تعالى: (أَوْ لِيَأْتِيَنَّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) فيه شدّة وتهديد
باستخدام القوّة والقدرة المتاحة من الله تعالى، أي إذا لم يكن هناك
مبررات مقنعة من الهدهد تُرضي سليمان صلّى الله عليه وسلّم فإنّ القوّة
المستخدمة ستكون شديدة جدا من العذاب إلى الذبح أو البديل
الثالث وهو المبرر المنطقي الذي به يُحقّق الحقّ ويزهق الباطل.

وبما أنّ سليمان قد ورث داوود، وداوود صلّى الله عليه وسلّم
جعل الله خليفة في الأرض مصداقا لوله تعالى: { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ
خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ
الْحِسَابِ {49}.

إذن ألا يكون سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليفة وارث من
الخليفة المورث؟ وكذلك كما سبق أن برهنا على أن جميع الصديقين
والأنبياء والمرسلين والصالحين هم خلفاء الله في الأرض، إذا بما أن
سليمان نبيا ورسولا فهو خليفة في الأرض.

إنَّ الله تعالى اختار أنبياءه وهداهم وجعلهم ذرية بعضهم من بعض
ليكونوا مبشرين ومنذرين وآتاهم الحجة من أجل إلزام النَّاسِ بها
وإرشادهم إلى الصراط المستقيم الذي يُوَدِّي إلى الاستدلال على
وحدانية الله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا
هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمَن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَرَكَرِيًّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ
كُلًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَاسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
الْعَالَمِينَ {50}.

وسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي من أعلام النبوة الذين
اصطفاهم الله تعالى، وخصه بملك دون غيره من الأنبياء.

وعليه نتساءل؟! !

لماذا اختص الله تعالى سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالملك؟

ما علاقة الملك بالنبوة؟

49. ص 26.

50 - الأنعام 83 - 86.

أليس هناك نبوة دون ملك؟

ألم يكن ممكناً تأدية رسالة سليمان كبقية الأنبياء دون هذا الملك؟
نحن سوف نحاول الوقوف على إجابات مقنعة لهذه التساؤلات
ولابد أنها موجودة، إذ أن إجاباتها لو لم تكن موجودة لانتفى التساؤل
أصلاً.

ووجود التساؤل وضعها ضمن دائرة الممكن.

والممكن هو: تأدية رسالة النبوة بملك، أو تأديتها دون ملك.

وطالما الأمر كذلك فإن للملك خصوصية في نبوة سليمان.

فهذه الخصوصية استدعتها أسباب لا يمكن تأدية رسالته دون هذا
الملك، لأن وجود أي شيء ناتج عن سبب استدعى وجوده، وخاصة
أن النبوة قائمة على الحقّ وسبق علم الله تعالى به في تقديره ومشيتته.

إذن ليس شيء في النبوة من قبيل المصادفات، أو أنه يطرأ في
حياة النبي أمر جديد يستدعي معطيات جديدة تواجه حدثاً لم يكن في
الحسبان.

ولذا؛ فإنّ كلّ شيء يؤتاه النبي هو جزء من رسالته لا ينفك
عنها بحال من الأحوال سواء أكان:

على سبيل الدعوة

أم على سبيل الابتلاء

أم أنّه جزء من معجزته.

تميّز ملك سليمان بأسلوب منهجي في مخاطبة الملوك في زمانه؛ فمع أنّ سليمان ملك ومعلوم أنّ رسائل الملوك تفتتح بأسمائها في مستهل الكتب، إلا أنّ كتاب سليمان لملكة سبأ قد خالف العرف بالاستهلال، ممّا أوقع في خلد ملكة سبأ أنّ هذا الاسم الذي استُهل به الكتاب لا بدّ أنّه أعظم من سليمان ومن ملكه، ومضمون الكتاب أيضا لا يعبر عمّا تبتغيه الملوك من بعضها سواءً في حالة الرضا أم في حالة السخط، لذلك فإنّ أموراً كثيرة قد أثارها هذا الكتاب لدى ملكة سبأ منها:

أَنَّ الكتاب أُلقي إليها إلقاءً فهو مغاير لرسائل الملوك.

ثم وصفت الكتاب الذي أُلقي إليها بأنه كريم وهي غاية الوصف، فلم تقل كتاب خطير لأسباب كثيرة منها:

. أنّه مفتتح باسم الله الرحمن الرحيم.

. هو غاية اللطف والسلام لما فيه من الرحمة.

. أنّه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم فعظّمته إجلالا لسليمان عليه السلام.

. أنّها أشارت إلى أنّه مطبوع عليه بالخاتم، فكرامة الكتاب ختمه.

. أنّه جاء بطريقة غير معهودة إذ كان الرسول طيرا.

. أُلقي إليها إلقاءً.

. كتاب كريم أي كتاب جيد حسن كما قال تعالى: {وَمَقَامِ

كريم} 51.

. أنه تضمن لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عزّ وجلّ.

. حسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سباً ولا

لعنا.

. لم يتدئ باسم المرسل لأنّ العظماء إذا كتبوا لمن هو أدنى منهم

يتدئون بأنفسهم.

ودليلنا على أن الكتاب لم يتدئ باسم سليمان صلّى الله عليه

وسلمّ كما ذهب البعض، يوضحه سياق الآية ويقبله المنطق السليم،

لأنها بداية عندما أعلمت الملاء من قومها فقد وصفت لهم طريقة وصول

الكتاب بدقة فقالت:

ألقي إلي كتاب.

وهنا يجب أن نقف على الأسلوب الذي خاطبت به الملاء من

قومها، فقد بُني الفعل للمجهول ولم يُصرح بالفاعل لسببين:

الأول: إظهار الطريقة الغريبة التي وصل بها الكتاب وهي الإلقاء.

الثاني: عدم التصريح بالفاعل حتى لا تتهم بعقلها أن طائراً ألقى

إليها الكتاب.

وهنا، ينصرف ذهن المتلقي إلى استفسارات واستيضاحات تنصبّ

على الكتاب ومرسله يُستبعد منها الرّسول وخاصة أنّها لم تلتفت إليه.

وعلى هذا فإنّ الكتاب مفتتح باسم الله تعالى، وليس باسم

سليمان صلّى الله عليه وسلم، ولكن طبيعة الحوار يجب أن تكون على

هذه الصورة لتوضيح طبيعة الأمر، لأنّ أول ما يسأل بهذا الصدد عن:

مرسل الكتاب

مضمون الكتاب

الجواب على الكتاب

ومن ناحية أخرى ما كان لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقدم اسمه وهو يدعو إلى الله تبارك وتعالى، وعلى هذا فقد جاء اسم سليمان أولاً حكاية عن الملكة وهو جواب السائل في التسلسل المنطقي لاستفهام تتبع الأحداث التي ينطوي عليها أي كتاب، إذ ليس من المعقول أن يُسأل عن مضمون الكتاب قبل السؤال عن مرسل الكتاب، وهذا سبب ذكر سليمان قبل اسم الله تعالى من قبل الملكة وليس في نص الكتاب، وعليه كان تقديم سليمان حكاية عن لسانها لا نصاً في الكتاب الذي وصفته.

يترتب على هذه الوصف:

التفاؤل باستقراء الخير.

الافتتاح الاستهلاكي الغريب لهذا للكتاب.

الأمر بعدم التكبر.

لم يطلب صلحاً أو معاهدة.

اقتصر على الأمر دون التهديد.

إذن هي ثقة عالية.

فيه دعوة إلى الإسلام.

ما هو الإسلام؟

إذن، هناك أمر هام أسمى من الماديات يدعو إليه سليمان في تقديم اسم الله بكتابه وعدم التكبر لمن أرسل إليهم بالكتاب ودعوتهم إلى الإسلام، وهنا يكمن الهدف من علاقة النبي بالبشر التي تتمثل بين الإنسان والإنسان من أجل غاية أسمى كونه يحمل رسالة وإن كان من البشر.

إنّ هذا التواصل صحيح أنّه قائم على علاقة إنسان بآخر ولكنّه يسمو بدور النبي إلى غاية جليلة تخفى على كثير من الخلق في معالجة مشاكل البشر في كلّ عصر وحين.

كذلك سخر الله تعالى الشياطين لسليمان صلّى الله عليه وسلّم لتبني له ما يشاء، وتغوص له في البحر والأرض في طلب ما يشاء، وأعطاه السلطة عليهم لعقاب المخالفين والمفسدين ممن سخرهم له، وتكبيّلهم بالأصفاد يكون بطرق منها:

مقرونة أيديهم إلى أرجلهم.

أو مقرونين اثنين اثنين.

أو أكثر في القيود عند الاقتضاء.

وهذا معناه إذا قرنت الشيء بالشيء أو وصلته به وشدته إليه.

فقد سخر الله تعالى له شياطين آخرين لا يبنون ولا يغوصون، وكأنه عليه الصلاة والسلام قسم الشياطين إلى أقسام:

قسم استعملهم في أعمال البناء

قسم مختص بالغوص

قسم مقرونون بالأصفاد (الآخرون)

فلما كان البناءون والغواصون طلقاء فهذا يعني أنهم مطيعون لأنهم ليسوا من (الآخرين) المقرنين بالأصفاد، فمعنى ذلك أنّ المقرنين بالأصفاد هم من العصاة المردة، لذلك قرن بعضهم مع بعض في السلاسل وأوثقهم بالحديد لكفهم عن الشر والفساد.

هذا المعنى الظاهر من تسخير الشياطين لسليمان صلّى الله عليه وسلّم مع القدرة عليهم وتقرين بعضهم بالأصفاد.

فإن قيل إن هذه الآية تدل على أن الشياطين لها قوّة عظيمة قدروا بها على ما يأتي:

بناء الأبنية العظيمة التي لا يقدر عليها البشر

الغوص في الأرض والبحار

استخراج كلّ ما يحتاجونه للبناء والزينة

وعليه: كيف يمكن تقييدهم بالأغلال والأصفاد؟

والذي يراوده هذا السؤال هو محقّق لاختلاف ماهيات الخلق بين

الجنّ والإنس، إذ أنّه كيف يجري القيد والتصفيد على مخلوقات لطيفة؟

وهذا السؤال يبنى عليه تساؤلات.

أليست هذه المخلوقات متجسدة؟!

أيمكن أن نقيّد الرّيح ونصفدّها؟!

أيمكن أن يقيّد أو يصفد المخلوق من النار؟!

إذا كان هذا ممكناً فبأيّ نوع من القيود كان سليمان يقرن

الشياطين ويصفدّها؟

من أجل الوقوف على إجابات مقنعة لهذه التساؤلات نقول: إن هذه الشياطين أما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة.

فإن كانت أجسادهم كثيفة وجب أن يراهم من كانت حواسه سليمة صحيحة.

فلو جاز أن لا يراهم صاحب الحواس السليمة مع كثافة أجسادهم لجاز أن يشاركنا في الوجود مخلوقات عظيمة وأصوات هائلة لا نراها ولا نسمعها.

ذلك أن وجودهم بهذه الطريقة في الكثافة، يجب أن يشغل حيزاً، ونحن لم نقف على حيزٍ مشغول بشيء لا نعلمه.

وإن كانت أجسادهم لطيفة، واللطافة تنافي الكثافة فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفاً بالقوة الشديدة بحيث يقدر بها على ما لا يقدر عليه الإنسان، لأن الجسم اللطيف بطبيعة تكوينه وصفات خلقه يكون ضعيف القوام تتمزق أجزأؤه بأدنى المدافعة فلا يطيق تحمل الأشياء الثقيلة ومزاولة الأعمال الشاقة، ولذا لا يمكن تقييده بالأصفاة والأغلال.

ولكن نحن نذهب إلى ما قال الله تعالى: {وَحَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ} 52.

ومن هذا الدليل نعلم أن:

أجسادهم لطيفة وشفافة.

لطافتها لا تنافي صلابتها

تتحمل الأشياء الثقيلة

تزاول الأعمال الشاقة

تمتنع من التفرق والتجزئة

فلكونها لطيفة لا ترى!

ولكونها صلبة يمكن تقييدها

فلو سلمنا أنّ اللطافة تنافى الكثافة، إلا أننا لا نسلم أن اللطيف الذي لا كثافة له يمتنع أن يتحمل الأشياء الثقيلة ويقدر على الأعمال الشاقة، وخير دليل على ذلك ما سخره الله تعالى من الرّيح لسليمان قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} 53.

فهذا الجسم اللطيف الشفاف كان يحمل سليمان وجنوده وما يحتاجونه من مؤونة وعدة وعتاد ومتاع غدوها شهر ورواحها شهر.

وكذلك فإنّ هذا الجسم اللطيف من الرّيح يكون مهلكا وتفعل ما لا تقدر عليه الأجسام الكثيفة قال تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} 54.

وكذلك فإنّ الرياح التي هي جسم لطيف شفاف يقدم من المنافع ما لا يقدر عليه الإنسان، أو من الكوارث ما يقف الإنسان أمامها حائرا.

53 - الأنبياء 81.

54 - الحاقة 6.

وكذلك الملائكة فإنها أجسام لطيفة شفافة لم يكلف الله خلقا أعظم مما كلف به الملائكة لأنه ليس أحد من خلقه يقدر على القيام بما اختاره الله لهم سواهم:

فمنهم الذين يحملون عرش الرحمن قال تعالى: {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} 55.

ومنهم خزنة جهنم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} 56.

ونرى أن هذا الكلام يحمل على وجهين:

الأول حقيقي:

فهذا الوجه لا يمتنع من أن الأجسام اللطيفة الشفافة تقوى على ما لا تقوى عليه الأجسام الصلبة المتلاصقة لما بيناه من الأدلة. وبذلك يمكن تصفيدهم.

الثاني مجازي:

وقد يراد من ذلك أيضا أن تمثيل كفهم عن الشرور بالتقرين في الأصفاد، لا يمكن تقييده بالأصفاد والأغلال حقيقة مسلّم بها، ويمكن أن يحمل الكلام على حقيقته لأنهم لما كانوا مسخرين مذللين لطاعته عليه الصلاة والسلام بتسخير الله إياهم له، كان قادرا على كفهم عن الإضرار بالخلق، فشبّه كفهم عن ذلك بالتقرين في الأصفاد فأطلق على الكفّ المذكور لفظ التقرين استعارة أصلية ثم اشتق من التقرين (المعنى

55 - الحاقة 17.

56 - التحريم 6.

المجازي) وأصبح اللفظ مقترنين بقدرته عليهم بما سُخِّروا له فأصبحوا ممنوعين عن الشر والأذى.

ولأنّ لكلّ بداية نهاية ولا باقٍ إلا الله الباقي جلّ جلاله؛ فقد قضى الله الموت على سليمان، وهذه من سنن الوجود (حياة موت) ثم (موت الموت) ثمّ (البعث) قال تعالى: {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَهَمَهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} 57.

إنّ كان ينجو أحد من الموت فسليمان صلّى الله عليه وسلّم أولى خلق الله بذلك لما أتاه الله من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ممّا سخره له من:

الجنّ

الإنس

الطير

الريّح

إسالة عين القطر

ما ورثه عن أبيه

ومع ذلك؛ فإنّ الله تعالى قضى عليه الموت وجرت سنة الله تعالى على عبده سليمان صلّى الله عليه وسلّم فيما يجري على الخلق أجمعين.

قضى الله الموت على سليمان صلّى الله عليه وسلّم وفارق الحياة والجنّ ماضية تعمل بأمره فيما كلفها من عمل وهي لا تعلم نبأ موته

حتى جاءت معجزة أخرى من الله تعالى، فلم تعلم الجنّ نبأ موت سليمان صلّى الله عليه وسلّم حتى جاءت حشرة الأرضة تأكلّ عصاه التي كان مرتكزا عليها.

فمن خلال النص القرآني في هذه الآية نستنتج براهين كثيرة في اتجاهين

الأول: القدرة الإلهية فيما جرت به مشيئته بعلمه تعالى منها:

. أنّ الله في خلقه شؤون

. أنّ هذه الحشرة أعلنت موت سليمان

. أعلنت نهاية رسالة سليمان

. صدقت رسالة محمّد

. أنّ الغيب لا يعلمه إلا الله

الثاني: الدلالة الاستنتاجية من السياق والمعنى وهي:

. العذاب المهين لا يتحقّق إلا بطول المدة

. الجنّ لبثت في العذاب المهين مدة طويلة بعد موته

. العذاب المهين دليل على أنهم مجبرون قهرا

. طول المدة دليل على أنّ أجساد الأنبياء لا تبلى

{فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَهَمُهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا
فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} 58.

ومن الآية نعلم أنه كان متكئا على عصاه حين وافاه أجله، والجنّ
تروح وتجيء مسخرة فيما كلفها إياه من عمل شاق شديد فلم تدرك
أنه مات حتى جاءت دابة الأرض وهي الأرضة التي تتغذى
بالأخشاب، وهي تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراهة في
الأمّاكن التي تعيش فيها فلا تبقى على المادة الخشبية، فلما نخرت عصا
سليمان لم تحمله وتداعت العصا فخرّ سليمان صلى الله عليه وسلّم
على الأرض فعلمت الجنّ موته وعندئذٍ: (تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ). والحمد لله ربّ العالمين.

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

سليمان

من وحي القرآن

سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو ابن داوود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اصطفاه اللهُ ووهب له ملكاً خاصاً تَمَيَّزَ به إلى أبد الأبدَيْنِ، ولن تتكرر عظمة ملكه ثانية من بعده، رسولا مرسلًا مُبْرَأً من التهم والتلفيقات التي أطلقها عليه البعض في عصره، ولأنَّه رسول مرسل فله المعجزات الكريمة من ربِّه تعالى بها سيطر على الجنِّ والإنس والطير، وتَمَكَّنَ من تسخير الشياطين للعمل فيما يريد ويرتضي في مرضاة الله تعالى.

مُلِكَ سليمان منه الموهوب من الله تعالى ومنه المورث من أبيه داوود، {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ} 59. ولذلك، يُعد سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مورث بالنبوة والرسالة والملك (الحكم) ولذا فعلينا أن نعرف أنَّه لا عيب في أن يورث الحقَّ بالحق لمن هو على الحقِّ ليحكم به بين النَّاسِ.

سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما حكم بين المختلفين في الأمر حكم بينهم بالعدل ولم يظلم أحداً، إنَّه الأسوة الحسنة في أقواله وأفعاله وأعماله.

يمتلك سليمان القوَّة التي جعلته مهيمناً ومسيطرًا على جنوده من الإنس والجنِّ والطير، ولذا فَجَانِبَهُ يُخْشَى من قِبَلِهِمْ، فعندما تَفَقَّدَ الطير ولم يجده تساءل عنه وهو يُصْرِحُ بتعذيبه الشديد أو قتله إن لم يكن له عذر يُقْبَلُ، ولكنَّه حضر بعذره الذي قبله سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يقول كما جاء في القرآن الكريم: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا

59. النمل 16.

لِي لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْعَائِينَ لِأَعَذِبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ
أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ
وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ {60}.

تَعَلَّمَ منطِق الطير، وحاججه به، وتعلّمه لمنطق الطير يعني أنّه تعلّم
كيف يفكر الطير وليس كيف يتكلّم، أي أنّ تعلّم الكلام أيسر وأسهل
بكثير من تعلّم المنطق، تعلّم اللغة هو تعلّم الكلمات المنطوقة (التي
تقال) لأجل نقل المعلومة، أمّا تعلّم المنطق فهو التمكن من معرفة كيف
يفكر الطير وليس كيف يتكلّم، وبتمكّن سليمان صلّى الله عليه وسلّم
من تعلّم منطق الطير تمكّن من مغالبته والسيطرة عليه والتحكّم في أمره،
حيث لا حيلة للطير أمام سليمان الذي تمكّن من معرفة القواعد التي
على أساسها يفكر الطير.

تَعَلَّمَ لغة النملة اللطيفة والحريصة على نوعها من التحطّم بقولها
كما جاء في القرآن الكريم: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا
أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا {61}. لقد تبسّم سليمان صلّى الله
عليه وسلّم من قولها وهي تلتئم العذر له وجنوده بقولها (وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ)، ولذا، لو لم يعرف سليمان لغة النملة ما تبسّم ضاحكا من
قولها.

وإلى جانب كون سليمان صلّى الله عليه وسلّم محشور له الجنود
من الإنس والجنّ والطير، فهو مؤتى له العلم، ولذلك؛ فالله تعالى ميزه
باصطفائه له رسول عالما، وحاكما عادلا، وملكا وارثا.

⁶⁰. النمل 20 . 22.

⁶¹. النمل 18، 19.

عرف سليمان عن طريق أحد جنوده وهو الهدهد العجيب الذي أخبره بأن امرأة ذات عرش عظيم في مدينة سبأ وقومها يعبدون الشمس من دون الله والشيطان يزين لهم أعمالهم فصدّهم عن السبيل، ولأجل التأكيد قال سليمان للهدهد أذهب بكتابي والقيه إليهم ولنتظر ماذا سيفعلون، { اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأَوْلُو بِأسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا أذَلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ } 62.

بعثت الملكة ذات العرش العظيم بمدينة سبأ هدية إلى سليمان صلى الله عليه وسلم بعد أن استلمت وقرأت الكتاب الملقى إليها منه بعد استشاراتها لجندها عما تفعل تجاه ما كتب إليها لتختبره وتحتب ما يخيفها منه باعتباره ملكا قادرا على أن يفعل إن قرر الإقدام على الفعل، وبالفعل كانت الهدية مُعجّلة لاتخاذ القرار حيث رُفضت من قبل سليمان الذي أصدر أوامره لجنده الكرام بأن يأتوه عرشها فكان عرشها بين يديه وأسلمت معه صلى الله عليه وسلم لله رب العالمين كما جاء في قوله تعالى: { قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجَنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ

62. النمل 28 . 35.

كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ
الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا
الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا
كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً
وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {63}.

سليمان هو صاحب الصرح الممرّد بالقوارير الذي لما رآته ملكة
سبأ وهي تتأهب الدخول إليه فوجئت بجماله وفنه المعماري والذوق
الرفيع الذي به صمم ونقّذ وحسبته لجة فكشفت عن ساقها إلى أن
أذن لها بالدخول مع الداخلين فعرفت أن الأمر عظيم، ولذلك أسلمت
وجهها مع سليمان لله رب العالمين.

سُحِّرَ لسليمان الرِّيحَ العاصفة تجري بأمره إلى الأرض المباركة
لتحقيق الغايات المرجوة لسليمان في مرضات الله تعالى.

سُحِّرَ لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجنَّ ومنهم الشياطين الذين
يعملون له ما يشاء من محارِبٍ وتمائيلٍ وجفانٍ كالجوابي وقدور
راسيات، وكذلك سيَّلَ له عين القطر وأعطى ملكاً لا ينبغي لأحد من
بعده.

لقد وهب مالك الملك تعالى ملكاً لسليمان لم يؤتى لأحدٍ من
قبله، ولن يؤتى لغيره من بعده، قال تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ
لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ
تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ وَآخَرِينَ

⁶³. النمل 38. 44.

مُقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَاْمُنُّنْ أَوْ أَمْسِكْ بِعَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ
عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ {64}

ذلك لأنَّ سليمان نبيا كريما يعلم أنَّ الملك لا يكون لأحدٍ إلاَّ
بوهبٍ من مالك الملك فتوجَّه بسؤاله الى مالك الملك وهو مخلص
الدَّعاء؛ فكان له الملك الذي لن يكون لأحدٍ من بعده. ولتبيان الملك
وكيفية التصرّف فيه وكيف يؤتى وجب البحث في اسم الله (مالك
الملك)؛ فمالك الملك "هو المتصرف بفعله وأمره"65 وهو الذي ينفذ
مشيئته في ملكه كيف شاء وكما شاء إيجادا وعدما وإبقاءً وإفناءً.
والملك هنا بمعنى المملكة والمالك بمعنى القادر التام القدرة، والموجودات
كلها مملكة واحدة وهو مالِكها وقاهرها، وكانت الموجودات كلها مملكة
واحدة لأنَّها مرتبطة بعضها ببعض؛ فإنَّها وإن كانت كثيرة من وجه فلها
وحدة من وجه ومثاله بدن الإنسان فإنه مملكة لحقيقة الإنسان وهي
أعضاء كثيرة مختلفة ولكنها كالمساعدة على تحقيق غرض مدير واحد
فكانت مملكة واحدة فكذلك العالم كله كشخص واحد وأجزاء العالم
كأعضائه وهي مساعدة على مقصود واحد وهو إتمام غاية الخير الممكن
وجوده على ما اقتضاه الجود الإلهي ولأجل انتظامها على ترتيب متسق
وارتباطها برابطة واحدة كانت مملكة واحدة والله تعالى مالِكها66.

مالك الملك الله تعالى يعطي الملك لمن يشاء وهو مالك الملوك
والأملاك يصرفهم تحت أمره ونهيه، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما
منع67.

64 ص 35 - 40

65 أسماء الله الحسنى، ج 10، ص 11.

66 الغزالي، المقصد الأسنى، ص 141.

67 الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، 62.

مالك الملك من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته يوحى بالقدرة والعظمة والتملك المطلق، لم يرد هذا الاسم إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، إلا أنّ دلالاته تشتمل على كلّ ما جاء في القرآن الكريم، وكلّ ما جاء يمثل ملك الله تبارك وتعالى سواء كان الملك مادّياً أم معنوياً، والاسم يدور في فلك إدراك العقل البشري ولا يتجاوزه، فهو في ذاته مطلق ولا يدركه إلا الله تعالى، أمّا العقل البشري فهو يدرك (مالك الملك) من خلال ما تقع عليه عينه، وهو لا يمثل إلا جزءاً يسيراً من ملك الله تعالى.

إنّ هذا التشكل للاسم يوحى بالعظمة والرّهبة والانفراد والجلال، فإضافة مالك إلى الملك رسمت معلماً من معالم تفرد الله تبارك وتعالى في هذا الملك العظيم في جميع خواصه وأشكاله وصوره، فالإضافة هنا أغلقت كلّ المنافذ التي يمكن من خلالها تقييد ملك الله تبارك وتعالى وجعله ضمن أطر ضيقة يمكن تحديدها أو رسم صورتها أو الاختصار على صفة واحدة تكون الأبرز بين باقي الصفات، فلو قال مالك الرحمة أو مالك المغفرة أو مالك السموات والأرض، لكان الاسم لا يعبر إلا عن جانب واحد من جوانب عظمة وقدرة وجلال الله تبارك وتعالى. إلا أن وروده في قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} 68 يتسم بالخصوصية الشديدة لهذا اليوم، وهو يوم القيامة، لأنّ في هذا اليوم تتجلى فيه صورة المالك العظيم من خلال ما يحدث يوم القيامة من وقوف الخلائق وحضور الملائكة والأنبياء وحصول عملية الحساب بكل تفاصيلها، ففي هذا اليوم يظهر للخلائق كمال ملكه ودوامه وعدله وحكمته، وذهاب كل الأملاك وبقاء ملكه العظيم، فإضافة مالك إلى يوم الدين اتسمت بأبعاد عديدة لم تقتصر على جانب واحد بل على

جوانب متنوعة ومتعددة، وهذه الجوانب كلها تتعلق بإظهار (مالك الملك). فضلا عن ذلك أنّ الإضافة فيها تخصيص لا يستطيع أي معاند أن يجادل فيه، إذ يقول تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} 69. ففي يوم القيامة لم يعد هناك مجال لإنكار ملك الله تبارك وتعالى أو التغاضي عن ذلك، لأنّ الإنسان حينها يكون مسلوب الإرادة، وأمام أهوال لا يستطيع فعل شيء تجاهها، بينما لو كانت الإضافة بأمر دنيوي حاصل في هذه الحياة لاستطاع المعاند المجادل أن يجادل مرء كما جادل النمروذ إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام في الإحياء والإماتة مع أن ظاهر الأمر أن إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام لم يرد بالإحياء والإماتة ما عناه النمروذ القتل أو عدم القتل، إنما أراد وهب الحياة من الأساس أو سلبها.

ويوضع مالك الملك ضمن الصفات التي تتحقّق فيها صفة القدرة لله تعالى وهي (القوي، والمتين، والقادر، والمقتدر، والواجد، والعزير، والمقيت، والملك، والوارث).

ويرد اسم (مالك الملك) في كتب اللغة مظهرا جوانب عدة تتمحور حول عدة معاني تثير في تشكيلاها ملكية الله تعالى العظيمة، ضمن اطر معرفية تقول أن الملك الأول عام والثاني خاص 70. لأنه لا يكون مالكا للشيء، إلا وهو يملكه، وقد يكون ملكا للشيء ولا يملكه، كما يقال: ملك العرب. وملك الروم، وإن كان لا يملكهم وقد يدخل في المالك ما لا يصح دخوله في ملك. يقال: فلان مالك الدراهم، ولا يقال: ملك الدراهم. فالوصف بالمالك أعم من الوصف بالملك. والله تعالى مالك كلّ شيء وقد وصف نفسه بأنه: (مالك

69 - غافر 16

70 - مغني اللبيب عن كتب الاعاريب ج 1 ص 250

الملك) يؤتي الملك من يشاء. فكل ملك مالك، وكل مالك ليس ملكا، وإنما قال تعالى (مالك الملك)، لأنه تعالى يملك ملوك الدنيا وما ملكوا إلى جانب ما يملك بالمطلق سبحانه، ولذا فهو يؤتي الملك فيها من يشاء. فأما يوم الدين، فليس إلا ملكه، وهو ملك الملوك يملكهم كلهم: "وقد يستعمل هذا في الناس، يقال: فلان ملك الملوك، وأمير الأمراء، يريد بذلك، أن من دونه ملوكا وأمراء، ولا يقال: ملك الملك، ولا أمير الإمارة، لأن (أميرا) و(ملكا) صفة غير جارية على فعل، فلا معنى لأضافتهما إلى المصدر"71.

إنَّ أسلوبيّة العام والخاص في هذا الاسم ترسم عظمة وسلطان الله تعالى من خلال جمع الاسم (مالك) الذي لا يمكن استعماله كصفة من صفات البشر مع لفظة (الملك) التي هي الحقّ الدائم لله تعالى72، فلذلك قال الله تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}73 فالملك ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم، والملك كالجنس للملك فكل ملك ملك وليس كل ملك ملكا. قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا}74، وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}75، وقوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ

71 - الفروق اللغوية ج 1 ص 474

72 - المفردات في غريب القرآن ص 475

73 - التغابن 1

74 - الفرقان 3

75 - يونس 31

كُنْتُ أَعْلَمُ الْعَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {76}.

يتصل اسم الله تعالى (مالك الملك) بجانب مهم من جوانب التوحيد الخمسة التي تشمل كل أبواب التوحيد في القرآن الكريم وهي:

الجانب الأول: إفراد الله تعالى في الخلق بمعنى أن الله وحده هو الذي خلق كل ما نعلم وما لا نعلم، إذ يقول تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} 77 وكل شيء هنا تشمل الإنسان والسموات والأرض والأنعام والغيث والزرع والرياح وغير ذلك كثير فلا يحصى. إذ ورد الخلق في آيات عدده منها قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 78 وقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} 79.

الجانب الثاني: إفراده تبارك وتعالى في الملك بمعنى أن الله تعالى هو المالك الحقيقي لخلقه، إنه القول الحق، وهذا الجانب الذي يتصل باسم

76 - الأعراف 188

77 - الرعد 16

78 - البقرة 29

79 - البقرة 164

الله تعالى (مالك الملك) مبني على الجانب الأول، فطالما أن الله تعالى هو الخالق إذن هو المالك، ولا يصح ملك غيره، ولنتدبر هذه الآيات الكريمة، إذ يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 80، وقوله تعالى: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَمَنْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} 81، وقوله تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} 82. وأما ما يملكه غير الله تعالى في الظاهر، فهو أولا لا يخرج عن ملك الله تعالى، لأن الله ما في السموات وما في الأرض، فالمالك هذا في حقيقته مملوك لله، ثم أن هذا الملك الذي بيدي الخليفة هو إنما جاء بأمر الله تعالى وتسخيره وتحويله، يقول تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} 83، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} 84. وأما المعاند لهذه الحقيقة، حقيقة ملك الله تعالى لكل شيء، وان ملك الخليفة في هذه الأرض إنما هو بأمر الله تعالى وتسخير منه، فسينكشف ضلاله يوم القيامة يوم يقول الله تعالى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} 85

80 - المائة 120

81 - الفرقان 2

82 - فاطر 13

83 - الجاثية 13

84 - الأنعام 94

85 - غافر 16

وملك الله سبحانه وتعالى لكل ما في السموات والأرض يترتب عليه
الجانب الثالث والرابع من جوانب التوحيد وهما:

الجانب الثالث: إفراد الله تعالى في الحكم والتشريع والأمر والنهي،
لأنه هو المالك الخالق ومن يخلق بالتأكيد يملك ومن يملك لا شك انه
هو الذي يحكم ويتحكم، فهذا الجانب قائم على الجانبين الأولين، فلا
يحق لأحد غير الله تعالى أن يحكم ويتحكم، خلق الله تعالى الذين
يملكهم وكل شيء يحيط بهم، قال تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا
أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا
لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ} 86، وهنا نحن مع يوسف عليه الصلاة والسلام حين يضرب
ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين لصاحبيه في السجن لمن ينبغي أن يكون
السلطان، ومن ينبغي أن يكون الحكم، ومن ينبغي أن تكون الطاعة،
هل هي للخليفة أم للذي خلق الخليفة وأوكل له مهمة تنفيذ الأحكام
في الأرض بأمر الله تعالى؟ وهذا يترتب عليه الجانب الرابع.

الجانب الرابع: إفراد الله تعالى بالعبادة والمقصود الامتثال الكامل
لحكم الله تعالى وأمره وهذا الجانب هو ثمرة الجانب الذي قبله، فبما أن
الله تعالى هو الخالق خلق كل شيء، وهو المالك ملك كل شيء، وهو
الحاكم الذي حكم كل شيء، فلن أن تكون العبادة بعد ذلك أيجوز
أن تكون لغير الخالق والحاكم والمالك؟، فهذا خلاف المنطق والعقل قبل
أن يكون خلاف التشريع والقرآن الكريم، إذ يقول تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} 87،
وقوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي

86 - يوسف 40

87 - الأنبياء 25

الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا
فَخُورًا} 88 ويكفي أن نعلم أن هذا الجانب اعتبره القرآن الكريم غاية
الخلق فقال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} 89.

الجانب الخامس: إفراد الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا
شريك لله تعالى في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، فلا يجوز أن
نصف أو نسمي غير الله تعالى باسم من أسمائه أو صفة من صفاته
على وجه الحقيقة، إذ يقول تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا
وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 90، ولذا
(مالك الملك) اسم وصفة في الوقت نفسه، لكن الصفات في القرآن
الكريم على أقسام عدة لا نستطيع فهم (مالك الملك) إلا بالتعريب على
نوعين من الصفات:

أ . صفات اقترنت بأسمائه تعالى وهي الأسماء الحسنى التي تدل
على صفات معينة لله تعالى، فالأسماء التي تدل على الربوبية والخلق
والعلم والقدرة والرحمة والعظمة كلها أسماء اشتقت من الوصف فهي
أسماء وصفات.

ب . صفات تحمل معاني الصفات المتقدمة غير أنها لم تأت بصيغة
الاسم وكأنها جاءت مؤكدة لهذه الأسماء كالأسماء التي تدل على الربوبية
والخلق مثل (رب العالمين) و(الخالق) والاسم الذي نحن بصدد (مالك
الملك)، فهذه الأسماء جاءت معانيها في صيغ أخرى، يقول تعالى:
{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ

88 - النساء 36

89 - الذاريات 56

90 - الأعراف 180

فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {91، وقوله تعالى: {أَمْ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} {92، وقوله تعالى: {الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} {93، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} {94.

ورد اسم (مالك الملك) في قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} {95 إنَّ ورود هذا الاسم في هذه الآية العظيمة رسم ملمحا معرفيا يركز ضمن تشكيلات عديدة اشتملت عليها الآية، إذ يمكن أن نستعرض ما ورد في هذه الآية وفق معطيات عديدة تنم عن جوانب عديدة إلا أنها تلتقي في منعطف واحد هو تجليات الملك الذي تشربت به الآية الكريمة، فضلا عن ذلك أن اسم الله (مالك الملك) جاء في بداية الآية ثم تبعه بعد ذلك نسق معرفي اشتمل على كل الخصائص والصفات التي تحيل عليه، وهذا النسق اشتمل على عرض قدرة الله تبارك وتعالى، فلو تدبرنا الحديث بعد اسم الله تعالى (مالك الملك) لوجدنا أنه يركز على الحركة التضادية أو الفعل ورد

91 - البقرة 29

92 - البقرة 107

93 - الحج 56

94 - آل عمران 156

95 - آل عمران 26 - 27

الفعل، فكل حدث يجسده فعل أو اسم مرتبط بفعل يعقبه فعل أو اسم مرتبط بفعل يخالف الأول ممّا شكل مجموعة من الثنائيات التضادية تتمحور حول عدة نقاط منها:

1- الملك - العدم:

أول ثنائية تشكل سياق (مالك الملك) في هذه الآيات تتعلق بصفة قريبة جدا من اسم الله تعالى (مالك الملك)، وهو الملك الذي هو في حقيقته موضع مُلك الله تعالى في السموات والأرض وكل الكون، وهو بأمر الله تعالى يهبه لمن يشاء ويمنعه عن من يشاء، لكن السؤال هنا هل الملك الذي يهبه الله تعالى للخليفة مساويا أو مشابها لملك الله؟ والحقيقة أنّما هو ملك ظاهر يتصرف فيه الخليفة عن ضوء أمر الله تعالى، وليس له أن يتصرف به كتصرف الله تعالى، وهنا نتذكر قصة إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام مع الملك النمرود حينما حاول الملك النمرود أن ينازع الله تعالى في ملكه حين حاجّه النبي إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام بأول صفة من صفات المالك وهي الإحياء والإماتة، إذ يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} 96 هنا يرسم لنا مشهد من مشاهد الجرأة والتجاهل والعناد والمجاج، بطله ملك طغى وبغى ممّا حمله على أن حاج إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام في ربوبية الله تعالى، فزعم انه يفعل كما يفعل الله تعالى، فقال إبراهيم (ربي الذي يحيي ويميت) أي: هو المنفرد بأنواع التصرف، وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة

مبدأ ما يكون إلى الآخرة، فقال ذلك المحاج: (أنا أحيي وأميت) ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصا فيكون قد أماته، ويستبقي شخصا فيكون قد أحياه، فلما رآه إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلا عن كونه حجّة، اطرده معه في الدليل فقال إبراهيم: (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق) أي: عيانا يقر به كل أحد حتى ذلك الكافر (فأت بها من المغرب) وهذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقا في دعواه، فلما قال له أمرا لا قوّة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحا يقدح في سبيله (بعت الذي كفر) أي: تحيّر فلم يرجع إليه جوابا وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحقّ ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى: (والله لا يهدي القوم الظالمين) بل يبقّهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان قصدهم الحقّ والهداية لهداهم إليه ويسر لهم أسباب الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرّب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال. 97 نحن هنا أمام وقفة عميقة إذ أنّ هذا الإنسان أعطاه الله تعالى الملك أي وهبه من نعمه فما كان تصرفه، هل ارتقى إلى مرتبة الخلافة أم نزل إلى درجة الكفر؟، إذ ادعى انه يستطيع الإحياء والإماتة، وقد علم سيدنا إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام أنّ هذا الملك الظاهري إنما يجادل مرء فلم يلتفت إلى قوله أنا احي وأميت، إنما أتى له بصفة من صفات (مالك الملك) التي لا يستطيع ردها وهي حركة الشمس بين المشرق والمغرب التي قال عنها الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ

تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ
عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ
سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ {98} وهنا بهت الملك وظهر زيف
ملكه القاصر عن تحريك أي جزء في هذا الكون، إنما هو ملك بحسب
ما يسخره الله تعالى له وليس ملكا حقيقيا أو مطلقا.

وإتيان الملك ونزعه لا يملكه إلا الله تعالى فعلى مر الزمن يتبدل
الملوك ويتغيرون ويأتي غيرهم وكل هذه التقلبات تكون وفق مشيئته
تعالى، فهو الذي يملك الإتيان والنزع، فمن ذلك قوله تعالى: {كَمْ
تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَهِينِ
كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا
كَانُوا مُنظَرِينَ} {99} فترك وأورث يدلان على التغيير والتبديل مما يعزز
فكرة عدم الاستمرار التي يظن كثير من الملوك أنها تدوم لهم، فمن ذلك
قول فرعون، إذ يقول تعالى: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ
لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ
هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ
جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ فَلَمَّا أَسْفُونَا ائْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْفًا
وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ} {100} في هذه الآيات ترسم صورة فرعون المتمرد المعاند
الكافر، فقد تبجح بافتخاره بأنه ملك مصر وأن الأنهار تجري من تحته
في صورة مملوءة بالطغيان والتكبر، فكانت نهايته غرقه في أحد الأنهار
التي ذكرها، إذ يقول تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ
فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ أَمَنْتُ بِأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا

98 - يس 38 - 40

99 - الدخان 25 - 29

100 - الزخرف 51 - 56

الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ
وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً
وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ {101} فقصة فرعون تمثل
أ نموذجاً واضحاً لـ (مالك الملك) في الإتيان والنزع، فقد تحلل هذه القصة
عرض لقدرة وعظمة الله تبارك وتعالى التي كانت واضحة في كل
تفاصيلها.

2- العزة - الذل:

والسؤال الذي يطرح نفسه ما علاقة (مالك الملك) بالعز والذل؟
وتبدو الإجابة يسيرة، لأن من بيده كل شيء يستطيع أن يعطي من
يشاء بغير حساب مما يجعله عزيزاً، أو يستطيع أن يمنعه من ملكه أو
من شيء من ملكه فيكون ذليلاً، ولاحظ كيف أن الصيغة أتت فعلية
مضارعة (وَتُعْزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) للدلالة على اختلاف الناس
بين العز والذل، إذ يقول تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ
قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ
مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} 102 وقوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ
مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ
بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} 103 أما
قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ
كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ
مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنَا

101 - يونس 90 - 92

102 - آل عمران 140

103 - النحل 112

بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ {104} هنا القرآن الكريم يقص أخبار المهلكين والمعاقبين في صورة تتمحور على تشكيلات متعددة لكن أبرز ما يسمها أنها تتكئ على آثار واضحة المعالم ترى بالعين، فتكون للتصديق والموعظة أقرب، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ) والآية التي وردت في النص القرآني يستنطق فيها ما أدرَّ الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا الله ويشكروه، والنعمة التي كانوا عليها تتمثل في جنتين، جنة عن اليمين وأخرى عن الشمال، والثمار تمثل أقواتهم، فضلا عن ذلك أن الله جعل بلدهم، بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها، والأمن الدائم الذي يتمتعون به مما جعل تجارتهم رائجة وعامرة. إن هذه النعمة لم تتوفر لعدد كثير من الناس في وقتهم، إلا أن هذه النعمة لم تدم لان أسباب الدوام فقدت فلا بد لها من الزوال بأمر الله تعالى، ذلك أنهم أعرضوا عن المنعم وعن عبادته ووصل الأمر بهم إلى التمني بأن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى، التي كان السير فيها متيسرا. (وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة، التي أطغتهم، فأبادةا عليهم، فأرسل عليها سيل العرم. الذي حول النعمة التي كانوا عليها إلى تلف وخراب في صورة تنطق بعدالة رب العالمين تجاه هؤلاء الكفرة الجاحدين لنعمته.

ولا نتصور أن العز والذل اللذان هما بيد (مالك الملك) مقصوران على الأمور الحسية المادية كما ذكرنا قبل قليل، بل أن العزة والذل

يكون بالإيمان والكفر، فالمؤمن عزيز وان كان فقيرا، والكافر ذليل وان كان غنيا، إذ يقول تعالى: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} 105، وهذه الآية نزلت في مكة والمسلمون بأضعف حال وأشد عازة، فأين العزة إذن إنها عزة الإيمان وتوحيد الله تعالى والثبات على القيم والمبادئ، ولاحظ كيف أن الله تعالى يعلمنا أن نكون أذلاء مع بعضنا البعض أي الخليفة مع الخليفة الآخر بينما يكون عزيزا مع الكافر والمشرك قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} 106.

3- الليل - النهار:

أول ما يتبادر إلى الذهن ما علاقة اختلاف الليل والنهار ودخول أحدهما بالآخر باسم الله تعالى (مالك الملك)؟ وتبدو الإجابة مرتبطة بأشكال التوحيد التي ذكرناها وقلنا فيها أن الله تعالى هو الخالق، والخالق يكون هو المالك، وعليه فالتصرف في كل الكون يكون بيده، ومن أشكال التصرف في الكون مظاهر الحياة المختلفة التي تدل على ملكه لكل شيء، ولنتدبر هذه الآيات من سورة يس، إذ يقول تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} وَأَيَّةٌ هُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ بَحْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ

105 - المنافقون 8

106 - المائدة 54

سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ} 107 فكل هذه الحوادث الكونية تشير إلى ملك الله تعالى لكل ما في الكون، لأنها تتحرك بحسب أمره تعالى، ويتكرر ذكر الليل والنهار لان المشاهدة لهما تحدث يوميا، وهذه الثنائية ترتبط بالثنائية التي بعدها.

4- الحي - الميت:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} 108، النواة أو الحبة بعدما تزرع أو تغرس في البيئة الصالحة للحياة تنفلق في موتها فتخرج منها النبتة دليل الحياة القابلة للمشاهدة والملاحظة، ومن بعد حياة النبتة، لا بد لها من الموت حيث لكل بداية نهاية، وهنا يخرج الميت من الحي، أي لو لم يكن الحي ما كان الموت، ولأنّ الموت فعل متحقق بالقوّة، فالبعث من بعدها حياة دائمة.

وهنا صورة قرآنية يجسدها مصطلح (الخروج) تعتمد تقابل التضاد المتمثل في مشهد خروج الميت من الحي وما يضاده من خروج الحي من الميت، هذا الخروج الدال على قدرة إلهية مطلقة على الشيء وضده فالحياة والموت "يدب أحدهما في الآخر في ببطء وتدرج، كل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة، ويأكل منه الموت وتبني فيه الحياة! خلايا حية منه تموت وتذهب، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل" 109. كما أن الطبيعة بما فيها من صور خروج الحياة من الموت، وخروج الموت من وسط الحياة خير تمثيل لدلالة الخروج هنا، يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ

107 - يس 36 - 40

108 - الأنعام 95

109 - في ظلال القرآن ج 1 ص 355

الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ {110، وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ {111.

وفي مجال آخر بعيد عن المحسوسات تنسحب دلالة مصطلح الخروج إلى مجال المعنويات، في إطار التذليل على عمل الله تعالى في بعث الحياة المتمثلة بالإيمان وهو الأرفع والأسمى من الحياة الحسية، وأخرج الإنسان من الموت المتمثل بالكفر، يقول تعالى: {اللَّهُ وَبِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {112 فمصطلح الخروج هنا دار في إطار بعث الحياة المعنوية الإيمانية، والانتقال بالإنسان من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بأذن الله تعالى، فهو حياة من نوع آخر، وبالذلة نفسها قوله تعالى: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {113 وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ {114 وقوله تعالى: {رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ

110 - الأنعام 95

111 - يونس 31

112 - البقرة 257

113 - المائدة 16

114 - إبراهيم 5

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا {115}.

إذ إنَّ إخراج الحي من الميت أو إخراج الميت من الحي، بمعنى إعطاء الحياة لمن يشاء وسلبها عن من شاء، لا تكون إلا لمن بيده مقاليد الأمور الذي يستطيع أن يجعل لكل أجل كتاب، ولا يكون ذلك إلا لمن يملك كل شيء، وليس كل شيء ظاهرياً بل جواهر الأشياء وحقائقها التي تحيلها أمواتاً أو تبقئها إحياءاً، فالتراب مثلاً أو الأرض يمكن أن تكون للخليفة كما نرى في حياتنا اليومية، لكن لماذا لا يستطيع الخليفة أن يخلق من الخليفة كائناً حياً أو ينبت شيئاً من غير أمر الله تعالى؟ ذلك أن ملك الخليفة للأرض ملك ظاهر يتعلق بسطح الأرض، أما جوهر وظيفة الأرض في هذا الكون وهي إمداد الحياة بعوامل البقاء فلا يملكها إلا الله تعالى، ولذلك يستطيع أن يجعلها حية أو ميتة، يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} {116} وقوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {117} وقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ

115 - الطلاق 11

116 - السجدة 27

117 - البقرة 22

كُلِّ دَابَّةٌ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ {118}.

أما (خرج) في القرآن الكريم نجد أنها تدور في إطار التدليل على تشكيل الحياة وبعثها في محاور متباينة ومتكاملة معا، بحيث يفضل في النهاية إلى تأكيد قضية القدرة الخالقية من كل الجوانب وعلى كل المستويات.

ففي مجال بعث الحياة البشرية، يقول تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} {119}، فالإخراج هنا جاء للتدليل على بعث الحياة في مجال بشري، إذ أن دلالة (أخرجكم) تتجه نحو الولادة التي تمثل بعثا جديدا للحياة وتشكيلا مستمرا لمفرداتها. وبالذلة نفسها قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} {120} وقوله تعالى: {يُخْرِجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} {121} وفي مجال التدليل على قدرة الله على بعث الحياة في الطبيعة متمثلة بالنبات النامي، يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} {122} نلاحظ تكرار مادة (خرج) ثلاث

118 - البقرة 164

119 - النحل 78

120 - غافر 67

121 - الطارق 7

122 - الأنعام 99

مرات (فأخرجنا) مرتين و(نخرج) مرة واحدة، بدلالة بدء جديدة لحياة متجددة في نبات ينمو ويثمر ويتكاثر، مع ملاحظة استخدام أسلوب الالتفات في (أخرجنا) من الغيبة إلى التكلم، للتنبيه على عظمة الفعل وتأكيد اختصاصه بالله تعالى. كما أن هذا التنوع في صيغ مادة (خرج) فيها إشارة إلى تنوع وتلون أشكال النباتات النامية.

5- الثنائية المتفرقة:

ثنائية واحدة في هذا السياق وردت بشكل منفصل، فهي تتشكل من قوله تعالى: {بِيَدِكَ الْخَيْرُ} 123، و{وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} 124، وعلى الرغم من أن هذه الثنائية غير مرتبطة من حيث السياق الخاص، إذ الخير بمعناه العام هو كل رزق الإنسان، وبما أنه بيد الله تعالى فشيء طبيعي أن يكون الرزق بيد الله تعالى، وأن الخير بيده من الأساس، ولهذا قال: {وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

وترد لفظة البقاء في حديثنا عن (مالك الملك)، فالبقاء دال على حياة بلا فناء، ولا يوجد كائن حي في الكون كله لا يعرف الفناء، فدلالة البقاء في حقيقتها تشير إلى الموت من وجه آخر، إذ يقول تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} 125، فالآية تقرر صراحة أن الفناء جزء من كيان كل كائن حي، وإن البقاء لله وحده، الحي الذي لا يموت، وكل شيء يتعلق بالذات الإلهية يتصف بالحياة الباقية التي لا تعرف الفناء، يقول تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ

123 آل عمران 26.

124 آل عمران 27.

125 - الرحمن 26 - 27

بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 126، فالآية الكريمة حققت المفارقة بين كل ما عند البشر وما في الكون كله، وبين ما عند الله، فما عند البشر مصيره الفناء بعد الحياة، وما عند الله باق إلى أن يشاء الله تعالى، ففرق الله يصفه القرآن الكريم بالبقاء، يقول تعالى: {وَلَا تُمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} 127، والحياة الآخرة عند الله هي الباقية، يقول تعالى: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} 128، وحتى عذاب الآخرة يستمد بقاءه من بقاء الله تعالى، إذ يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} 129، وفي سياق يجمع القرآن الكريم بين الحياة الفانية، وبين الحياة الآخرة الباقية، فيقول تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ} 130، فكل سبب من أسباب الدنيا يحمل الفناء في داخله ولا بقاء له، وكل ما يتعلق بالآخرة يحمل البقاء في وجوده، لاتصاله بالله تعالى، الباقي بعد فناء الخلق كلهم، فالآية الكريمة حققت المقابلة بين دلالة الفناء متمثلاً بالحياة الدنيا ودلالة البقاء متمثلاً بما عند الله تعالى من حياة، فالبقاء في الدنيا محال، فهو وان دلَّ على الحياة فانه يدل على الموت من وجه آخر.

أمَّا دلالة اسم الله تعالى (مالك الملك) فإنها توحى بالبقاء الدائم، من ذلك أنّ الأملاك في الدنيا تقترن بأصحابها، لكنها لا تدوم لان أصحابها في عداد الأموات، لأنهم أنفسهم وكلّ نفس نهايتها الموت، إذ

126 - النحل 96

127 - طه 131

128 - الأعلى 17

129 - طه 127

130 - القصص 60

يقول تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ} 131 وقوله تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} 132 فدلالة الموت توحى أن كل ما هو موجود على الأرض سوف يذهب ويتلاشى ولا يبقى منه شيء، وهذا ما سيتحقق في يوم القيامة، إذ يقول تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} 133 هذا مشهد من مشاهد الآخرة العظيمة، فبعد أن يجتمع الناس جميعاً في صعيد واحد، لا يخفى منهم شيء، يقول الله تعالى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة، الملك {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} إنها الإجابة القاطعة من قالها قال الحق المطلق، فالله الواحد القهار، هو المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. {الْقَهَّارِ} لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصاً في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ. فخطاب (مالك الملك) اتسم بنبرة التحدي للأصوات التي علت في الدنيا وتفاخرت بما ملكت ونسيت (مالك الملك) وأصرت على الكفر والعناد، فكل الأملاك تزول ويبقى ملكه العظيم الدائم سبحانه لا إله إلا هو كل شيء هالك ويبقى وجهه ذو الجلال والإكرام.

131 - آل عمران 185

132 - الزمر 30

133 - غافر 16

إنَّ القراءة للتاريخ البشري تمدنا بسلسلة طويلة من أنعم الله تعالى عليهم من ملكه، ومن بينهم النبي سليمان عليه الصلّاة والسّلام الذي انفرد عن غيره من الأنبياء بما أعطاه الله تعالى، إذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ} 134 يتجلى هنا كرم البارئ عز وجل في منح النبي سليمان عليه الصلّاة والسّلام ملكا لم يحصل عليه احد، إذ يدل هذا الملك على عظمة وجلال صاحبه، فالعطاء هنا ليس طبيعيا متعارفا عليه من قبل بني البشر، فهو يمثل حالة خاصة أرادها تعالى أن تكون للنبي سليمان عليه الصلّاة والسّلام، وقوله تعالى: (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ) صورة واضحة لكن الشخصيات فيها غيبية مما تحمل دلالات كثيرة في إعطاء صورة مهيبه لهذه المكرمة، فالشيطان صورة غيبية لا يمكن تصورها، إلا إنها وردت في القرآن الكريم من باب بث الرعب في نفوس المخاطبين، إذ يقول تعالى: {أَذَلِّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّمَا شَجَرَةُ تُخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَا كَيْلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ} 135. وهذه المكرمة استمرت حتى على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد ورد في الحديث النبوي أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إِنَّ عَفْرِيَّتًا مِنَ الْجِنِّ جَعَلَ يَفْتِكُ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ وَإِنَّ اللَّهَ أَمَكَّنِي مِنْهُ فَدَعْتُهُ فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ

134 - ص 34 - 40

135 - الصافات 62 - 68

إِلَى جَنْبِ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ
أَوْ كُلُّكُمْ ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا
يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي } فَرَدَّهُ اللَّهُ خَاسِتًا 136.

أما المتجربون والطغاة فكان لهم نصيب وافر من ملك الله تعالى،
لكن هذا الملك سرعان ما يزول نتيجة أفكارهم وأعمالهم التي حولت
ملكهم إلى ذكرى من ذكريات التاريخ، فمن هؤلاء قارون، إذ يقول
تعالى: { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ
مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ
الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ
أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ
عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا
الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ
يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ
اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } 137، هذه الآية
تتحدث عن شخصية مهمة من شخصيات التاريخ، حتى أصبحت
مضربا للمثل بما أُوتي من مال، فقارون من بني إسرائيل الذين فضلوا
على العالمين، وامتن الله تعالى عليهم بما أومن به، فكانت حالتهم

136 - صحيح مسلم ج3 ص 147

137 - القصص 76 - 82

مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا بغى على قومه وطغى، بما أوتي من الأموال العظيمة، إلا أنّ القرآن الكريم ذكر الأموال العظيمة ثم ذكر بعدها مفاتيح خزائنه في صورة توحى بعظمة الأموال التي كان يملكها، فإذا كان حال المفاتيح بهذا الثقل فكيف تكون خزائنه؟ أمّا موقف قومه فلم يكن موقف المتفرج بل كان موقف الناصح والمحذر له، إذ بينوا له أنّ هذه الأموال هي من الطرق الموصلة إلى الآخرة (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ) وان هذه الأموال ليس كلها تتصدق بها، بل استمتع بدنياك بما يرضي الله تعالى (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) وابتعد عن التكبر وارتكاب المعاصي (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) بل يعاقبهم على ذلك، أشد العقوبة. ثم كانت العقوبة وهي الخسف، فقد اختص هذا الشكل من الموت في القرآن الكريم بقارون المتكبر لترابط واضح بين تكبره وتعاليه ودلالة الخسف، وخسف الله به الأرض خسفاً أي غاب فيها 138، والخسف يشبه الزلزال العظيم الذي يضرب الأرض ثم يحدث فيها شق كبير فيسقط فيه كل ما هو موجود على سطح الأرض، فيموت كل ما دخل فيه إلا ما شاء الله، فعقاب قارون كان متناسباً مع جرمه.

ولقد هدد الله تعالى في كتابه العزيز الظالمين بعقوبة الخسف، فقال تعالى: {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً} 139، فالسياق في إثبات قدرة الله تعالى المطلقة على إهلاك الظالمين سواء في البر أو البحر، لكن لما كان البر أكثر إشعاراً بالأمان من الماء واستبعاداً للإهلاك ذكره تعالى تأكيداً لقدرته على إهلاك الظالمين في أي جانب كان البر أو البحر فهما على السواء

138 - لسان العرب ج 9 ص 67

139 - الإسراء 68

بالنسبة لقدرته تعالى، وفي قوله تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} {140}، يلحظ في هذه الآية الكريمة مقابلة بين السماء والأرض، أظهرت قدرت الله تعالى العظيمة، فمن في السماء هو الله تعالى يقابله من في الأرض، وفي هذا إشارة إلى عظيم القدرة إذ لا يحتاج تعالى أن يكون في موضع الإهلاك ليكون قادرا على الإهلاك كعادة الناس، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون بلا أسباب موصلة لذلك إن شاء.

ويلاحظ دقة استعمال الخطاب القرآني للصيغ الفعلية في سياقات الخسف، إذ ورد الفعل الماضي في مواضع تتحدث عن خسف حدث وانتهى كقوله تعالى عن قارون: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ} {141}. أما الصيغ الفعلية للمضارعة فجاءت في مواضع تتحدث عن حكم عام له تعالى متجدد في كل زمان كما قال تعالى: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} {142} فالفعل المضارع (يخسف) يعطي دلالة التجدد في هذا الحكم والاستمرارية له.

أما الغرق فكان مع فرعون، إذ يمثل هذا الشكل صنفا من أصناف الموت صورة العقاب والهلاك الجماعي لأمة كاملة، ذلك أنه جاء في الخطاب القرآني عقابا لقوم نوح عليه الصلاة والسلام وقوم فرعون، ويمثل كل منهما أمة كافرة بذاتها.

140 - الملك 16

141 - القصص 81

142 - النحل 45

والغرق في اللغة: "الغَرَقُ الرُّسُوبُ في الماء ويشبّه الذي ركبهُ الدَّيْنُ وغمَرْتُهُ البَلَايا يقال رجل غَرِقٌ وغَرِيقٌ وقد غَرِقَ غَرَقًا وهو غَارِقٌ" 143 ورد هذا الشكل من أشكال الموت في القرآن الكريم اثنتين وعشرين مرة في اثنتين وعشرين موضعاً، ودلالته في هذه المواضع "كلها على اختلاف صيغها، فعلاً ومصدراً واسم مفعول. ومن الغرق بمعناه الأول القريب، بصريح سياقها في اليم والبحر والموج، أو في قوم موسى والكفار من قوم نوح" 144 قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرِّسْلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا} 145. الغرق هو البلاغ في الشيء إلى غايته بحسبه، فإن كان في الهلاك فهو غاية وظهر معناه في الماء والبحر لبعده قعره، وهو في الماء بمنزلة الخسف في الأرض 146، ويلاحظ أن هنالك ربطاً بين الغرق والخسف وذلك لأن كليهما موت بالاختناق وانقطاع النفس بسبب الغور في باطن البحر أو الأرض.

والآيات السابقة كما نلاحظ تربط بين هلاك فرعون وقومه وقوم نوح عليه الصلّاة والسّلام "فلما أخبر الله تعالى أنه دمر آل فرعون تدميراً أخبر بأنه أغرق قوم نوح، وكل من الفعلين (دمر) و(أغرق) يُعين الآخر في بيان هول العقوبة ونوعها، فأما (دمرناهم) فإعلام بعقوبة الفناء التام العام لفرعون وجنوده، وأما (أغرقناهم) فإخبار بنوع العقوبة

143 - لسان العرب ج 10 ص 283

144 - التفسير البياني ج 1 ص 110

145 - الفرقان 35 - 37

146 - ألبقاعي ج 1 ص 90

وتخصيصها وهي الغرق، وكلا الفئتين أبيدت غرقا، فتماثلت العقوبتان
باتحاد الذنب وهو تكذيب الآيات والرّسل "147.

ففائدة الفعل (أغرقناهم) هو تكرار معنى الإهلاك بالتدمير وبيان
نوعه. ويلاحظ أن الآيات السابقة ولأنها جاءت لإثبات قدرة الله تعالى
المطلقة على إهلاك الظالمين، عمد الخطاب القرآني إلى حذف كثير من
تفاصيل القصتين اللتين تتحدثان عنهما موجهها السياق نحو شكلية
الإهلاك وقوته، كما نلاحظ ذلك من قوله تعالى: {فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى
الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا} 148 إذ حذف من السياق
دعوة موسى وهارون عليهما الصّلاة والسّلام لقومهما، والأحداث التي
جرت بينهما وبين فرعون، ووجه السياق مباشرة بعطفه بالفاء الدالة
على التعقب السريع إلى النتيجة النهائية وهي التدمير غرقا، وهو غرق
السياق الأول لإثبات قدرة الله تعالى المطلقة في إهلاك الكافرين.
وبالمعنى نفسه ورد قوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرِّسْلَ أَغْرَقْنَاهُمْ
وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا وَعَادًا وَثَمُودَ
وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا
تَتْبِيرًا وَقَدْ آتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مِنْ السَّمَاءِ عَلَيْهَا مِطْرًا
بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا} 149.

إن استعمال (الغرق) بصيغة المصدر الدال على الثبات المطلق
والحدث المجرد يرسم لنا صورة مخيفة لعظم الماء الذي غمر فرعون
وجنوده، وكان هذا الغرق راسخ لفرعون وجنوده وهو نوع خاص بهم
عقوبة لهم على كفرهم، وعمق هذه الصورة مجيء الفعل أدرك قبل فعل

147 - أساليب التوكيد من خلال القرآن الكريم ص 19

148 - الفرقان 36

149 - الفرقان 37 - 40

الغرق والذي يدل على بلوغ أقصى الشيء. وهو يؤذن بأن الغرق دنا منه تدريجياً بهول البحر ومصارعته الموج، وهو يأمل النجاة منه، وأنه لم يُظهر الإيمان حتى أيس من النجاة وأيقن بالموت، وذلك لتصلبه في الكفر¹⁵⁰. ومعنى هذا الكلام أن الله تعالى لم يقبل توبته لأنه قالها بعد أن غرق وكأنه قالها في نفسه تحت الماء، ولعلنا نلمح من لفظ أدرك تشخيصاً للغرق، وكأنه وحش مخيف يجري وراء فرعون وهو يحاول الخلاص منه!!.

وبعد الغرق وذهاب فرعون ومن على شاكلته تتجلى صورة (مالك الملك) الدائم الباقي، إذ يقول تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ} 151 فترك وأورث يدلان على التغيير والتبديل مما يعزز فكرة عدم الاستمرار التي يظن كثير من الملوك أنها تدوم لهم، فمن ذلك قول فرعون، إذ يقول تعالى: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أَلْقِيَا عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا أَسْفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخَرِينَ} 152 في هذه الآيات ترسم صورة فرعون المتمرد المعاند الكافر، فقد تبجح بافتخاره بأنه ملك مصر، وأن الأنهار تجري من تحته في صورة مملوءة بالطغيان والتكبر، فكانت نهايته غرقه في أحد الأنهار التي ذكرها، قال تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا

150 - التحرير والتنوير ج 7 ص 60

151 - الدخان 25 - 29

152 - الزخرف 51 - 56

حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ {153} فقصة فرعون تمثل أمودجا واضحا ل(مالك الملك) في الإتيان والنزع، فقد تخلل هذه القصة عرض لقدرة وعظمة الله تبارك وتعالى التي كانت واضحة في كل تفاصيلها.

ومالك الملك، هو الذي تنفذ مشيئته في ملكه كيف يشاء، ومتى ما شاء فلا مرد لقضائه، ولا يكون ذلك إلا من كمال القوّة والمتانة والقدرة والعزّة والغنى. وقد تجلّى ذلك في عقاب الأمم السابقة، إذ يقول تعالى: { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرَ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ {154}. هذه الآيات تعرض أمر الله تعالى النافذ في قوم لوط، فقد كانت البداية بالمرور بإبراهيم الحلیم علیه الصلّاة والسّلام، فكان محاورا للملائكة من أجل تأخير أو إسقاط العقوبة عن قوم لوط لأن فيها بعض المؤمنين،

153 - يونس 90 - 92

154 - هود 74 - 81

فضلا عن ذلك صفة الحلم التي يتمتع بها النبي إبراهيم عليه الصلّاة والسلام، فالأمر أصبح واجب التنفيذ، لان أمره تعالى لا يرده أحد، يقول تعالى: { يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } 155 هذا العذاب الذي صرح به هنا بأنه آت قوم لوط، لا محالة وأنه لا مرد له، إذ بينه تعالى في مواضع عديدة رسم فيها صورة العذاب المتحقّق عليهم بطريق تتلاءم مع ذنوبهم الفاحشة، يقول تعالى: { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ } 156، وقوله تعالى: { فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ } 157. أما قوم يونس عليه الصلّاة والسلام فقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم لكن بصورة مغايرة عن قوم لوط، إذ يقول تعالى: { فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمْنَتْ فَفَنَعَهَا إِنَّمَا هِيَ إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا أَمْنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ } 158 إن قوم يونس كانوا بنيوى من أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهم عليه الصلّاة والسلام قذف الله تعالى في قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح، وأخرجوا المواشي، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، فعجوا إلى الله أربعين صباحا، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم، كشف عنهم العذاب بعد ما تدلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل. 159 فصورة العذاب المتحقّقة في قوم لوط تقابلها صورة العذاب غير المتحقّقة عند

155 - هود 76

156 - هود 82 - 83

157 - الحجر 74 - 75

158 - يونس 98

159 - الدر المنثور ج 5 ص 269

قوم يونس، مما يدل في كلا الأمرين أن أمر الله تعالى نافذ كما يشاء في تحقيق العذاب وعدمه، ولا يكون ذلك إلا له.

تستعمل لفظة (الملك) بين المستخلفين ضمن إطار حفظ الحقوق، ولهذا أن توزيع الميراث الذي ورد في القرآن الكريم استند إلى ما يملكه الميت، قال تعالى: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِلْمِثْلِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْمِثْلِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} 160 وقوله تعالى: {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا} 161 إلا أن ما يملكه الميت هو من باب ما شرعه الله تعالى للكل، بان لهم الحق في الأملاك، إلا أن كل ما يملكونه هو ملك وقتي ولا بد له من زوال، إما ملك الله تعالى فهو دائم لا يزول، إذ تتضح الصورة العظيمة التي يرتسم فيها ملكه الدائم بعد زوال الدنيا وما فيها ولا يبقى إلا هو (مالك الملك) جل جلاله، يقول تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} 162.

160 - النساء 8 - 11

161 - الفجر 19

162 - غافر 16

أما الحديث عن الوراثة من باب أنّ الله تعالى جعل الخليفة يرثه في الأرض، فهذا يدخل من باب الاستخلاف الذي أَرَادَهُ اللهُ تعالى للخليفة، إذ يقول تعالى: {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} 163. هذه من وعود الله تعالى لعباده الصادقين المخلصين بأن يستخلفهم في الأرض، فيكونون هم الخلفاء فيها ومن المتصرفين في تدبيرها، والتصرف يكون بإقامة شرع الله تعالى في أنفسهم وفي غيرهم، وهذا يدخل ضمن نطاق الأمانة التي قال عنها تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} 164.

أما من ناحية الحاجة فإنّ كلّ المخلوقات بحاجة إلى ملك الله تعالى، وهذا الملك يتمثل في كلّ شيء يكون السبب في دوام الحياة، من ذلك الهواء فهو سر من أسرار استمرار الحياة وبدونه لا يمكن للكائنات أن تعيش، فضلا عن ذلك فهو يعد سببا رئيسيا للحركة والتنقل، فالطائرات لا يمكنها الطيران بدون الهواء وكذلك الطيور بكل أنواعها لا يمكن لها التحليق دون وجود الهواء، أما الماء فهذا سر عجيب، فهو أصل الحياة، إذ يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} 165 وبالماء يحيي الله تعالى الأرض، فيسوق إليها

163 - النور 55

164 - الأحزاب 72

165 - الأنبياء 30 - 31

المطر، يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} 166. فضلا عن ذلك أن كثير من الحيوانات لا تستطيع أن تعيش خارج الماء، فهو المكان الوحيد الذي تعيش فيه، فهي بحاجة له من اجل الاستمرار في الحياة.

مالك الملك، يملك مالكي الملك والملك، ويتضح الأمر هذا من خلال عملية الخلق، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} 167، وقوله: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} 168 والخلق يستدل به على الملك، فالله تعالى هو الخالق ومن يكن الخالق يكن المالك، فالأنفس كلها هي ملك لله تعالى، فضلا عن ذلك أن الله تعالى يملك ما تملكه هذه الأنفس سواء أكان الملك ماديا أم معنويا، لان أصل ما يملكونه هو من عند الله تعالى (مالك الملك)، وبذلك يتأطر هذا الأمر وفق صورة الجلال والعظمة التي رسمتها صفة (مالك الملك) بكل أبعادها وحيثياتها. إذ يتمثل ذلك بالفرضية التي وردت في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} 169 هنا الحديث للكافرين في بيان العذاب الذي ينتظرهم بما فيه من شدة وهول، فالخطاب هنا على سبيل الفرض

166 - السجدة 27

167 - البقرة 21

168 - فطر 11

169 - الزمر 47 - 48

والتقدير، لو كان لهم ما في الأرض جميعاً، أي لو تحققت الملكية الحقيقية الكاملة لهم في الدنيا بما في الأرض من ذهب وفضة ولؤلؤ وحيوانات وأشجار وقصور وغير ذلك من أملاك الأرض، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب، ما قبل منهم، يقول تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} 170 فهنا المعادلة المفترضة لم تتحقق، يملك في الدنيا ولا يملك في الآخرة، والله تعالى يملكهم ويملك ما يملكونه ويملك مالا يملكون، وهنا نرجع إلى قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} 171 الذي يرسم صورة واضحة المعالم لا تحيل إلى أي مرجعيات، إلا إلى مرجعية واحدة هي أن ملك الله تعالى ليس له حدود وليس له إطار إنما هو مطلق يشمل الدنيا والآخرة.

إنّ لفظة (الملك) التي يبنى عليها اسم (مالك الملك) تتسم بالإطلاق غير المقيد، فهي تحيل إلى رسم صورة عظيمة، يجمع ما يدور فيها من ملك الله تعالى بحسب ما يمليه التفكير البشري القاصر عن إدراك حجم وعظمة ملك الله تعالى، فهي لم تقتصر على الجانب المادي بل كان للجانب المعنوي المكانة الواضحة في هذا الملك، ومن بين مظاهر (مالك الملك) الآتي:

1- الرزق:

هذه المفردة تكررت في النص القرآني ضمن سياقات كثيرة تدلّل بمجملها أن الرزق هو بيد الله تبارك وتعالى يتصرف به كما يشاء، ومن خلال هذا التصرف تتجسم الملكية المتحققة في ذات الله تعالى، فمن المواضع التي ورد فيها الرزق قوله تعالى: {فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ

170 - الشعراء 88 - 89

171 - الفاتحة 4

وَلَا بَيِّعَ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {172} تشكلت هذه الآيات في بدايتها من عنصر مهم يمثل أحد الأماكن المهمة في مزاوله العبادة ألا وهو المسجد، ثم بعد ذلك جاء ذكر الزمن المتمثل فيه وقت العبادة، وقد خص الله تبارك وتعالى هذين الوقتين لشرفهما، ولهذا نجد أن أذكار الصباح والمساء تقدم ذكرهما على باقي الأوقات في ذكر الله تعالى، وهذه الأعمال لا يقوم بها إلا رجال اتسموا بخصائص وصفات مهمة فهم (لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ) وهذه الأعمال رغم كل ما فيها فهي لا تشغلهم عن عبادة الله تبارك وتعالى من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه، نجد أن نسق الآية الكريمة كله اشتمل على وصف لعباد الله اتسموا بصفات يريد بها الله تبارك وتعالى ويحث عليها، فكان ختام الآية بالرزق (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) فالرزق هنا مفتوح غير مقيد ففيه زيادة عن الاستحقاق، وهذا الأمر يتعلق بكمال قدرة الله تبارك وتعالى، ونفاذ مشيئته في توزيع الرزق بين العباد. هذه صور من صور الرزق التي بينها الله تعالى جاءت بعد وصف للعباد بصفات لا تليق إلا بالعباد الطائع، بينما هناك صورة أخرى مغايرة رسمتها آية كريمة وانتهت أيضا بان الله تعالى بيده الرزق، إذ يقول تعالى: {رُزِقَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} {173} هذه الآية رسمت صورة واضحة عن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله، ويرغم كل الصفات التي اتسم بها هؤلاء تبقى قضية

172 - النور 36

173 - البقرة 212

الرزق فيها إطلاق، بمعنى أنها لا تقتصر على أحد من الخلق فهي لهم جميعا وهذا بطبيعة الرزق الدنيوي فهو للمؤمن وللكافر، إذ يقول تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هُوَآءًا وَهَؤَآءًا مِّنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} 174. أما الرزق الآخر المتمثل برزق القلوب من العلم والإيمان والمحبة، والتعلق بالله ومحبهه والخشية منه، فالله تعالى يعطيها إلا لمن أحبه. ومن أحبه الله دخل في رضوانه الذي هو مبلغ عظيم.

الرزق هو بمثابة الحياة والموت لكل الخلق، ومن يملك الرزق يملك الحياة والموت، إلا أنّ الله تعالى لم يقطع الرزق عن العاصين والكافرين، بل جعل رزقهم كرزق الذين آمنوا من أجل إعطائهم فرصة للتدبر والتفكير، فضلا عن ذلك يكون شاهدا عليهم ولتسقط كل الحجج الواهية التي يتمسكون بها في الكفر والعصيان.

إنّ إحدى صور الرزق تتمثل من خلال عملية الزرع بما تمر فيها من أطوار ابتدأت من وضع الحبة في الأرض إلى الحصول على الثمر، إن هذه العملية لا يملكها الخليفة وان ملك الأرض وما عليها، فهي من ملك الله تبارك وتعالى، فهو الذي ينبت الحبة حتى تصبح ثمرا يستفاد منه، ومالك النباتات يعرض قصة تتحدث عن عظمته في العطاء، إذ يقول: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَآئَهُمَا نَهْرًا وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّآكَ رَجُلًا لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا

إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتِ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرْنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحُ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا} 175 ضرب الله تعالى للمشركين المستكبرين مثلاً برجلين جعل لأحدهما بستانين من أعناب محفوفتين بالنخل وفي خلالهما الزرع، وكل ما فيهما مثمر، فضلاً عن ذلك أن الأنهار تحترقهما، بعد عرض ما في الجنتين يبدأ حوار بين الرجلين، إذ يقول صاحب الجنتين وهو في حالة الافتخار والجدال: (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) هنا بداية الكفر والتمرد والتجبر، فهو يرى أن ما أمامه من خير ونعمة هي دائمة لا تزول، وإن هذا الملك دائم له، وهنا تجلّى فيه الغرور الذي يقوده إلى الهلاك، ففكره متفوق على فكرة الدوام وهي محالة لان كل ما في الكون هو ملك لله تعالى، فهو بيده كل شيء يعطي ويأخذ وينبت ويهلك ويتلف.

ويتأرجح الرزق بين ثنائية البسط والقدر، وهذا التأرجح نابع من مشيئة الله تعالى "والبسط: مستعار للكثرة وللدوام. والقدر: كناية عن القلة" 176. ومن ذلك قوله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ} 177، وقوله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 178، وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي

175 - الكهف 32 - 42

176 - التحرير والتنوير ج 7 ص 369

177 - الرعد 26

178 - العنكبوت 62

يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {179 إن آية التوزيع هذه تنم عن التملك القائم لله تعالى الموحي بالملك الطلق، فضلا عن ذلك أن هذا التوزيع يتبعه الصلاح الذي يريده تعالى وهذا بطبيعة الحال يكون وفقا لعلمه العظيم.

2- الإتيان بخلق جديد:

الخلق صورة من الصور الدالة على (مالك الملك)، إلا انه لا يتسم بالثبات بمعنى أن الخلق يمرون بأطوار حددها الباري، إذ يقول تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِمَّنْ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِّنْ كُلِّ زَوْجٍ بَّهِيحٍ {180. هذا هو التدرج الطبيعي للخلق من البداية إلى النهاية المتحققة بالموت، إلا أن الله تبارك وتعالى عمد في خطابه إلى المؤمنين إلى استعمال صيغة الخلق ضمن الاختيار الأمثل للخلق المطيعين له، إذ وصفهم بخلق جديد يحبهم ويحبونه، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {181 هذه الآية ترسم ملمحا معرفيا يتصل بصفة من صفات الله تعالى وهي انه تعالى غني عن العالمين، ذلك أن الارتداد عن دين الله لن

179 - سبا 36

180 - الحج 5

181 - المائدة 54

يضر إلا من يرتد، وبذلك ينحصر الضر بالمرتد، وهذا يدخل ضمن إطار الضعف الذي يتسم به بني آدم، لأنّ عملية الارتداد تنبع من أصل فكري محدود مما يضع صاحبها في نهاية تناسب مع فعل الارتداد. وتتجلى قدرة الله تعالى في الإتيان بقوم فيهم صفة تسمو على كل الصفات إلا أنّ أجل صفة فيهم أن الله تعالى (يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّونَهُ) وتصل درجة الحب مرتبة عظيمة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَتَهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ" 182 فضلا عن ذلك أنهم (أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورافتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله (أعزة)، قد اجتمعت همهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} 183 وقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي

182 - صحيح البخاري ج 20 ص 158

183 - الأنفال 60

الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ
الزُّرْعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ
مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا { 184، فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب
العبد إلى الله، فهنا تتأصل المحبة التي يريدتها الله تبارك وتعالى من خلال
الغلظة والشدة، فضلا عن اللين الذين يكون في الدعوة إلى الله تعالى،
وكلا الأمرين يتسمان بمحبة الله تعالى. إن فعل القدرة هذا لا يستطيع
أحد أن يفعله إلا ملك الملوك، فالإتيان بالأقوام يتسم بالتحدي
والتهديد لكل العاصين، وهو باب ينم عن جلال الله تعالى وقدرته
وعظمته في ملكه.

3- الضر والنفع:

الضر والنفع من الثنائيات التي وردت في النص القرآني في كثير من
المواضع، يقول تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا
أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ
زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} { 185، وقوله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ
نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ
عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} { 186 السياق في هذه الآيات
يدور حول الإنسان في قضية مهمة تحدد توجهه العقائدي، فبعد
تعرضه إلى ضر لا يفكر في أي شيء إلا الله تعالى داعيا له ليكشف ما
به من ضر، وبعد كشف العذاب نسي ما كان فيه من الشدة والبلاء،
وترك الشكر لربه الذي فرج عنه ما كان قد نزل به من البلاء، كما زُيِّنَ
لهذا الإنسان استمراره على جحوده وعناده بعد كشف الله عنه ما كان

184 - الفتح 29

185 - يونس 12

186 - النحل 53 - 54

فيه من الضر، زُيِّنَ للذين أسرفوا في الكذب على الله وعلى أنبيائه ما كانوا يعملون من معاصي الله والشرك به. وهنا اتضحت ثنائية الضر والنفع من خلال وجود الضر ورفعته، فلا يستطيع أحد أن يرفع الضر إلا مالك الملك، فهو بيده الضر والنفع، ومن الأمثلة الشاحصة في هذا المضمار قصة سيدنا أيوب عليه الصلّاة والسّلام، إذ يقول تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أُنِّي مُسَيِّئٌ ضُرُّهُ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ} 187. إن النبي أيوب عليه الصلّاة والسّلام كان ذا ثروة واسعة وعائلة صالحة متواصلة، ثم ابتلي بإصابات لحقت أمواله متتابعة فأتت عليها، وفقد أبناءه السبعة وبناته الثلاث في يوم واحد، فتلقى ذلك بالصبر والتسليم. ثم ابتلي بإصابة قروح في جسده وتلقى ذلك كله بصبر وحكمة وهو يبتهل إلى الله بالتمجيد والدعاء بكشف الضر. وتلقى رثاء أصحابه لحاله بكلام عزيز الحكمة والمعرفة بالله، وأوحى الله إليه بمواعظ. ثم أعاد عليه صحته وأخلفه مالا أكثر من ماله وولدت له زوجته أولادا وبنات بعدد من هلكوا له من قبله 188. إن هذه القصة رسمت بريشة عكف صاحبها على الانتظار ليرى ما يفعله صاحب الضر وإن كان نبيا، فكانت النتيجة أنه صبر صبرا صار مضربا للمثل عليه الصلّاة والسّلام، فبعد دعائه كشف الله تعالى عنه الضر وأعطاه أكثر مما كان عنده.

ويأتي الحديث عن الضر والنفع من خلال أفراد الله تعالى بالعبادة وعدم عبادة غيره، إذ يقول تعالى: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 189، ومعنى (لا

187 - الأنبياء 83 - 84

188 - التحرير والتنوير ج 9 ص 195

189 - المائدة 76

يملك ضرباً) لا يقدر عليه، وحقيقة معنى الملك التمكن من التصرف بدون معارض، ثم أطلق على استطاعة التصرف في الأشياء بدون عجز 190 والضر والنفع يكون وفق مشيئة الله تعالى وإرادته، فضلا عن ذلك انه يدخل في الأمور الغيبية، إذ يقول تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} 191 هذه الآية تؤكد ملكية الله تعالى لهذا الأمر بوصفه أمرا يدخل ضمن الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا هو، لذلك ورد في سياقات عديدة في النص القرآني منها قوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} 192، وقوله: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} 193.

4-الرياح:

الريخ نسيم الهواء وكذلك نسيم كل شيء وهي مؤنثة وجمعها رياح 194، وفي التنزيل يقول تعالى: {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} 195 وتمثل الرياح صورة من صور ملك الله تعالى، وهذا الملك هو بيده ويصرفه كيفما يشاء فهو مالكة، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى

190 - تفسير التحرير والتنوير ج 4 ص 263

191 - الأعراف 188

192 - يونس 49

193 - الجن 21

194 - لسان العرب ج 2 ص 455

195 - آل عمران 117

إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُفِنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ
كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ {196} وقوله تعالى:
{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ
الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} {197} تمثل الرياح
علامة من علامات رحمة الله تبارك وتعالى، فحركة الرياح تمثل البشارة
بسقوط المطر فهي تثير السحاب وتجمعه ثم بعد ذلك يبدأ المطر
بالنزول، إن هذه العملية بكل تفاصيلها بدأ من حركة الرياح إلى نزول
المطر، تمثل دليلاً واضحاً على المتصرف العظيم في هذه الرياح، وكيف
يسيرها كيفما يشاء إلى أي جهة شمال جنوب شرق غرب، يختار
المكان الذي يريد له غاية هو يعلمها، فتكون الرياح طوع أمره، وتكون
هي السبب في الحياة على الأرض، يقول تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ
الرِّيحَ فُتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى
الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لُمُبْلِسِينَ فَاَنْظُرْ
إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {198}، ترسم هذه الآيات العظام صورة
الحياة التي أوجدها الله تعالى من خلال مراحل متتابعة كل واحدة
تفضي إلى الأخرى، فتكون النتيجة هي الحياة للأرض وكل ذلك يحققه
(مالك الملك)، البداية تكون بإرسال الرياح التي تثير السحاب الذي
يمده ويوسعه الله تعالى كيفما يشاء، ثم يتحول ذلك السحاب إلى كسفا
ثخيناً قد طبق بعضه فوق بعض، فيكون السحاب نقطا صغيرة متفرقة،
لا تنزل جميعاً فتفسد ما أتت عليه، فبعد رؤية هذه الصورة المشاهدة

196 - الأعراف 57

197 - الروم 46

198 - الروم 48 - 50

يبشر العباد بعضهم بعضا بنزوله وذلك لشدة حاجتهم إليه، فهو ضرورة مهمة لاستمرار الحياة، وبشرتهم هذه جاءت بعد يأسهم لتأخر وقت مجيئه. وبعد نزول المطر تكون الأرض متسمة بالحياة، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم.

هذه الصورة المتحققة أمام عين العباد هي من قدرة الخالق، والتي تحيل إلى صورة أخرى ترددت في النص القرآني وهي إحياء الله تعالى للأمموات، إذ يقول تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ} {199}، وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَنْ يَعْبُدُ بِحُلُقُهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {200}.

5- إرسال الرّسل:

إن إرسال الرّسل يمثل مظهرا مهما من مظاهر تملك الملك لله تبارك وتعالى، وتمثل الإرسال في القرآن الكريم من خلال لفظة (أرسلنا) التي شغلت حيزا كبيرا في خطاب الله تعالى للكافرين والمكذبين، إذ يقول تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} {201}، وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} {202}. النص القرآني هنا يحمل في طياته كثيرا من الأمور التي تنم عن جوانب مهمة تمثل ما يملكه الله

199 - يس 12

200 - الأحقاف 33

201 - البقرة 151

202 - النساء 64

تعالى إلى جانب امتلاكه إرسال الرّسل وكل ما يملك مما نعلم وما لا نعلم، ومنها الرأفة والرّحمة والغفران والعفو، ومالك الملك تجلى في هذا الأمر الذي تشكل فيه مظهران:

المظهر الأوّل: إنّ إرسال الرّسل لا يكون إلا من الله تعالى فهو يملك هذا الأمر ولا يملكه غيره.

أمّا المظهر الثاني: فإنّ إرسال الرّسل يتضمن أموراً لا يمتلكها إلا الله تعالى في محاسبته لعباده وهي الرّحمة والعفو والغفران، فهو ملك داخل ملك، ولا يملكهما إلا الله تبارك وتعالى.

وإرسال الرّسل شمل الأقوام التي كفرت بالله تعالى، إذ يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَبْلِغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 203، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} 204، وقوله تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ} 205.

203 - الأعراف 59 - 62

204 - إبراهيم 5

205 - المؤمنون 44 - 48

إنَّ إرسال الرُّسُل لم يتوقف طول الفترة الزمنية المتصلة من خلق آدم عليه الصَّلَاة والسَّلَام إلى مبعث نبينا محمد عليه الصَّلَاة والسَّلَام، فبرغم تكذيب الرُّسُل وقتلهم في بعض الأحيان كما فعل اليهود مع يحيى عليه الصَّلَاة والسَّلَام، إلا أن إرسال الرُّسُل لم يتوقف بل استمر من أجل إصلاح الأرض الذي هو الهدف المنشود من إرسال الرُّسُل في الحياة الدنيا.

ولعل إرسال الرُّسُل خلق قصصا مختلفة تتحدث كل واحدة عن سمات وخصائص الأقسام المختلفة، من حيث ذنوبهم المختلفة، وصورة العقوبة التي كانت لهم، فدلالة (مالك الملك) أيضا تجلت في العقوبة التي وقعت على الأقسام الذين رفضوا دعوة أنبيائهم، فلا أحد يملك العقوبة إلا الله تعالى، فتحديد العقوبة وتنفيذها لا يملكها إلا الله تبارك وتعالى، إذ يقول: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَرَبِّانَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} 206.

فلم يكن هذا العذاب إلا بعد أن استنفد الرُّسُل عليهم الصَّلَاة والسَّلَام كل الوسائل في سبيل إقناع هؤلاء الكفار الجاحدين، فلا يبقى لهم أي حجة على الله تعالى يوم القيامة، لان الحجج والبراهين الدامغة كانت أمامهم على أيدي رسل الله تعالى، ولهذا نجد أن الخطاب الموجه لهم في الآخرة يبنى على ما كان في الدنيا، إذ يقول تعالى: {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا

قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرَجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ احْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوُكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ {207}. هذا الخطاب تقرير من الله تعالى لأهل النار وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم، كيف تفعلون ذلك وقد أرسلت لكم الرسل، ومعهم كتيبي وقد بينت فيها لكم الحلال من الحرام كالشمس الساطعة، فتسقط هنا كل الحجج، لان الله تعالى قال: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَعَلَّ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} {208} فضلا عن ذلك أن طلب العودة إلى الدنيا معناه الاعتراف بذنوبهم التي ارتكبوها، ويتردد مثل هذا الخطاب في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ذَلِكَُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَعَزَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}.

207 - المؤمنون 105 - 111

208 - النساء 164 - 165

6- الأمر والنهي:

الأمر والنهي من الأسس التي بني عليها هذا الكون من آدم عليه الصلاة والسلام إلى قيام الساعة، وبعد قيام الساعة ينتهي العمل بهما وتبدأ مرحلة جديدة، وهي مرحلة الحساب التي وعد الله تبارك وتعالى خلقه من خلال رسله والكتب التي أنزلها، والحساب يكون وفق للأسس التي وضعت في الدنيا، وهنا نبدأ من النهاية وليس من البداية، فالنهاية هي عملية الحساب المتحققة والتي يرسم من خلالها نهاية الخلق إما إلى الجنة، حيث يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ {209، وإما إلى النار، حيث يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ {210 وهذا الحساب المتحقق بيني وفق مرجعيات متحققة في الدنيا، وهي إرسال الرسل والكتب التي أنزلت معهم، وعملية الحساب هذه لا يملكها إلا الله تبارك وتعالى، ومن يملك الحساب لا بد وأن يملك أسسه التي يستند عليها في المحاسبة، ولهذا نجد أن حساب الآخرة يتسم بصيغ تحيل إلى الدنيا، قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُم آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّهْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ {211، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ لَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَإِنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ

209 - البقرة 82

210 - البقرة 39

211 - الأنعام 130

أَعْيَنَهُمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى
مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مَضِيًّا وَلَا يُرْجِعُونَ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ
أَفَلَا يَعْقِلُونَ} 212. فضلا عن ذلك أن الأمر والنهي ينظم الأمور
الدينيية والأخروية وهو ما يعرف بالحدود التي أوجدها الله تبارك وتعالى
في أحكامه، والحدُّ الفصل بين الشئيين لئلا يختلط أحدهما بالآخر أو
لئلا يتعدى أحدهما على الآخر وجمعه حدود 213. والحدود وردت في
سياق الأحكام الشريعة التي تنظم حياة الخلق وتوجهها توجيها صحيحا
يتسم بالعدل والحق، فمن القضايا المهمة قضية توزيع الميراث، وهي من
الأمر الشائكة التي يتخللها كثير من التفرعات، إلا أن القرآن الكريم
أدارها بطريقة واضحة تعطي كل ذي حق حقه، من ذلك قوله تعالى:
{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ
اِثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ
وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ
أَبَوَاهُ فَلِأُمَّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ
يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا
فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمْ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ
وَصِيَّةِ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَهُنَّ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ
كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ
وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ
مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ
وَصِيَّةِ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ تِلْكَ
حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

212 - يس 60 - 68

213 - لسان العرب ج 3 ص 140

خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ {214} هذا التنظيم لمال الميت والعمل به يدخل ضمن الطاعة والعصيان لله تعالى، مما يترتب على ذلك الثواب والعقاب، فمن أدى الأوامر واجتنب النواهي فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار. (وَذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ) الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بثوابه ورضوانه بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون. (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ) ويدخل في اسم المعصية الكفر بما دونه من المعاصي، فقد رتب الله تعالى دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله. ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب. ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك بما دونه، دخل النار وخلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدون الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها 215.

والحدود تحدد قبول الفرض أو عدمه من خلال الالتزام بشروط معينة، ومن هذه الحدود قوله تعالى: {أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ هُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي

214 - النساء 11 - 14

215 - تفسير السعدي ج 1 ص 170

الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ {216}. هذه الآيات الكريمة تحدثت عن أحد أركان الإسلام وهو صوم شهر رمضان، هذا الركن يمثل أحد العبادات التي تقرب العبد إلى الله، وطبيعة العبادات أنها تتسم بضوابط تحدد من قبل الله تعالى، والتي يكون على أساسها قبول العبادة أو رفضها مما يترتب على ذلك الثواب أو عدمه، فكانت الحدود هنا هي تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام وتحريم الفطر على غير المعذور، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات، فكان النهي هنا في قوله تعالى: (فَلَا تَقْرُبُوهَا) الذي هو أبلغ من قوله: "فلا تفعلوها" لأنَّ القربان، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه، فضلا عن ذلك أن كفارة الفطر أيضا تكون ضمن الحدود التي حددها الله تعالى.

الأمر والنهي من المفردات المهمة في قاموس الخليفة، فبهما يحاول زرع الخير في الأرض من خلال تبصير الخلق بأحكام الله تعالى، فضلا عن ذلك أنه يركز على قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُعَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ" 217.

7- العدل:

العدل من الأحكام المهمة التي مثلت الشغل الشاغل لكل الأنبياء الذين بعثهم الله تبارك وتعالى، فبه تستقيم الحياة ويأخذ كل ذي حق حقه، إذ يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ

216 - البقرة 187

217 - صحيح مسلم ج 1 ص 167

كَانَ سَمِيْعًا بَصِيْرًا} 218، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 219، والعدل من صفات (مالك الملك)، والعدل، هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعامل الخلق في عقود البيع والشراء وسائر المعاملات، بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقًا ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحبة وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره. وإقامة العدل يعد من الأمور المهمة التي لا يقبل فيها أي استثناء فعن عائشة رضي الله عنها "أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَحْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاحْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبَلُكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَإِيمَ اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا" 220. يتشكل هذا الحديث والآيات التي سبقته ضمن دائرة العدالة التي أراها الله تعالى فهي ترسم الطريق الحق للمسلمين بغية الحصول على مرضاة الله تعالى.

العدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفورة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده،

218 - النساء 58

219 - النحل 90

220 - صحيح البخاري ج 11 ص 294

ويعامل الخلق بالعدل التام. أما قوله تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ
أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} 221
يعطي الله تعالى من يشاء ذرية من الزوجين الذكور والإناث، ويجعل من
يشاء عقيماً بلا نسل، وهنا تتضح أمور في غاية الأهمية هي أن الله
تعالى قادر على أن يعطي الجميع ذكورا وإناثا إلا أن المنع هنا بالعبء
يعود إلى أمرين الأول علمه والثاني قدرته، والعلم والقدرة لا احد يتدخل
بهما إلا هو تعالى إذ يمكن القول انه تعالى عليم بمن يستحق كل نوع
من هذه الأنواع قدیر على ما يريد أن یخلق، وفي كل الحالات لا بد من
قول ما قالته مريم عليها السلام في قوله تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ
وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} 222.

ويدخل العدل ضمن الأمور المهمة التي تعد من الركائز الأساسية
للدین الإسلامي، فقد أمر الله تعالى بالعدل مع العدو والصديق إحقاقاً
للحق، وحرّم الظلم على نفسه، وجعله محرماً بين عباده وأمر بالأمانة
والصدق، وحرّم الخيانة، وأمر ببر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان
إلى الفقراء، والمشاركة في الأعمال الخيرية، وأمر بالإحسان إلى كل شيء
حتى الحيوان، فقد حرم الله تعذيبه، وأمر بالإحسان إليه.

221 - الشورى 49 - 50

222 - آل عمران 37

من

صفات النبي سليمان

1 . مالك :

المالك بالمطلق هو الله تعالى الذي يُملِّك من يشاء وفقا لمشيئته
على أوجه منها:

أ . يُملِّك من يشاء من عباده .

ب . متى ما يشاء في زمانه .

ج . كيفما يشاء بمنهاجه .

د . أينما يشاء من مكانٍ .

هـ . ممّا يشاء من ملكه .

وفي مقابل ذلك هو الذي ينزع الملك ممن يشاء، متى ما يشاء،
كيفما يشاء، أينما يشاء، ممّا يشاء .

والمالك بالحقّ من مُلكه تعالى لا يتصرف في معصية، يصلح في
الأرض ولا يفسد فيها ولا يسفك دما بغير حقّ، أمّا المالك بظلم فهو
في غير طاعة ولا هداية تُرتضى .

سليمان صلّى الله عليه وسلّم وهب الله تعالى له مُلكا من ملكه
الواسع فكان مَلِكا طائعا، ورسولا هاديا، وعبدا شاكرا، فنعم العبد إنّه
أواب .

لقد أحسن سليمان صلّى الله عليه وسلّم إدارة الملك الذي وهبه
الله إياه، فأمر لإطاعة الحقّ واتباعه، ونهي عن المفاسد وأجبر المفسدين

من شياطين الجنّ والأنس على الطاعة حتى اسلموا معه لله ربّ العالمين. قال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 223.

الملك يُسّاس ويستوجب إحسانا في الإدارة والتخطيط والتنظيم والمنهج والأسلوب، ولهذا كان سليمان صلّى الله عليه وسلّم خير مديرٍ للملك، عادل لم يظلم، انحاز للحقّ وابتعد عن الباطل.

الملك في الدار الدنيا يُملّك بالحقّ لأهله أي يورث مصداقا لقوله تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ} 224، أمّا في الآخرة فالملك لله الواحد القهار، وعليه الملك في الدار الدنيا تُحكّم في الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والذوقية والثقافية، ولذا فالملك في دائرة النسبية لا يكون إلا بأرض وشعب وفضائل وقيم تنظم نواميس الحياة بين الأفراد والجماعات والمجتمعات الإنسانية.

2. مُفَهَّم:

التفهّم لا يتم إلا بعد إلمام بحيثيات الأمر والظروف المحيطة به والمعطيات التي أظهرته على السطح أو أنتجته بين الأيدي، وهو دراية عن كتب ومعرفة تامة بالأسباب والعلل والمبررات والخفايا المؤلمة والمفرحة ألسالبة والموجبة، ولذا فالتفهّم يتطلب توفير الوسائل الممكنة للنجاح مع وضوح الغايات المستهدفة بالتحقيق والبلوغ.

ولكي يتم استيعاب مفهوم كلمة (مُفَهَّم) علينا بمقارنة ما تدل عليه مع مفهوم كلمة (متفهّم)، فالأولى مُفَهَّم التي تنطبق على سليمان صلّى الله عليه وسلّم تدل على انه مُفَهَّم من عند الله عزّ وجلّ مصداقا

223 - آل عمران 85.

224 . النمل 16.

لقوله تعالى: { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ } 225، أما متفهم فتدل على التفهم الذاتي للفرد الذي به يُقدّر الآخر أو يُقدّر أمر من الأمور أو موقفا من المواقف، ولذلك فالفرق كبير بين من يُفهم من قبل الله بما يجب أن يفهمه حتى يتصف به، وبين من يعتمد على قدراته الشخصية في فهم الأمور وإدارة ما يتعلق بها من أمر.

ولأنّ سليمان صلوات الله وسلامه عليه كان مُفهمًا لما يجب في مرضاة الله فقد وهب الله عزّ وجلّ له حكما وملكا، وفهمه كيف يملك ويحكم مصداقا لقوله تعالى: { وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا } 226.

التفهم تقدير للظروف التي قد تؤثر على الملك والظروف التي قد تؤثر على سلوك الأفراد والجماعات، ولهذا التفهم دراية بما ينبغي أن يتم حيال كلّ أمر من أمور الحكم وكيف ومتى وأين يتم؟

التفهم قيمة تقديرية يُقدّر الأنا فيها الآخر، ويفسح له مجالا واسعا يسمح له بالحركة والامتداد الحر، وباعتماد التفهم قيمة بين الأفراد والجماعات والمجتمعات تُقدّر ظروف كلّ خصوصية وتحترم ممّا يؤدي إلى تفعيل مبدأ التقبل الذي يترتب عليه تأثير وتأثر موجب، وتخفيف للآلام وعلى ضوئه يتحقق التوافق الاجتماعي والسياسي والاقتصادي بين الأفراد في ظل ملك تسوده العدالة والانسجام والتعاون والوحدة.

225 . الأنبياء 79.

226 . الأنبياء 78، 79.

وعليه فمن يوهب صفة المفهّم من عند الله تعالى كما هو حال سليمان صلّى الله عليه وسلّم يُطمأن له ويوثق به ويؤخذ بأمره ويطاع مع الصّلاة والسّلام عليه.

3. عدل:

العدل فضيلة من الله للعباد، وقيمة أخلاقية بها تنظم العلاقات البشرية بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، وهي صفة من صفات سليمان صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} 227.

العدل قيمة بينية تحكيمية تتوسط طرفين أو أكثر، مركزها الاتزان وأطرافها من توازن. تؤسس قيمة العدل على إعطاء كلّ ذي حقّ حقه. لذا فهي قول حقّ وفعل حقّ، ولهذا فالعدل بالتمام كما عدل سليمان صلّى الله عليه وسلّم بين المتخاصمين هو قاعدة، قال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ} 228 قال: إذا حكمتم بين الناس ولم يقلل إذا حكمتم الناس، فالذين يريدون أن يحكموا الشعوب باسم الدين، فالدين لا ينص على حكم الناس، بل ينص على أن يكون الحكم بينهم بقوله تعالى: {وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} 229 جاء الأمر هنا مطلقا، والأمر هو كلّ ما يتعلق بالناس ومصائرهم، (السلم والحرب، والسياسة الداخلية والخارجية، الزواج والطلاق وكلّ ما يتعلق بالإنتاج ووسائله).

227 . الأنبياء 78.

228 . النساء 58.

229 . الشورى 38.

4 . عالم:

العالم الذي يلم بما لا تلم به العامة من الناس ولذا فالعلم غاية للعموم وصفة للخصوص، فمن بلغها تمكّن من المعرفة الوافية التي بها يتمكن من فعل الخير والانتها عن ارتكاب فعل الشر.

ومع أنّ العالم هو الملم بالعلل والأسباب التي وراء المواضيع والمواقف والصعاب إلا أن جميع العلماء وما أوتوا من علم فهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا من علمه الواسع.

وعليه فمن يلم بالعلم في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع يوصف بأنّه عالما، ولهذا فنحن عرفنا هذه الصفة من صفات سليمان صلّى الله عليه وسلّم من قوله تعالى: {وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} 230، إنّه العلم الوافر لأنّه العلم المؤتى من الله تعالى إلى داوود وسليمان إتيانا، ولذلك كان سليمان بعلمه الوافر مسيطر على أمره وعلى شياطين الجنّ والإنس في دائرة الممكن التي منحت له من الله ربّ العالمين.

5 . مُشَاهِد:

المشاهد هو الذي يخضع للمراقبة من قبل غيره لأجل مراقبته فيما يأمر وينهى ويجازي ويعاقب وفقا لما أمر به من عمل وفعل.

والشاهد هو الحاضر الذي لا يغيب عمّا يُشَاهَدُ ويلاحظ، ولذلك فالمشاهدة تكون لأجل غاية أو غايات منها:

230 . الأنبياء .79.

أ . المراقبة الدقيقة لما يفعل ويعمل أو لما يواجهه من صعاب أو أعمال أو مواقف وذلك لمعرفة تصرفاته في الأمور المختلفة أو المتعددة والمتنوعة.

ب . العناية الوافية به وبالأمر الذي به مُكَلَّف .

ج . المساندة القوية لأجل التدخل معه عند الحاجة إذا لزم الأمر ذلك التدخل من قبل المشاهد المساند.

د . الدراسة الواسعة عندما يكون المشاهد تحت التدريب والاختبار ليُعد إعدادا تاما على المهمة التي بها يُكَلَّف .

وعليه: فسليمان مُشَاهَد في كلِّ شيء وبالخصوص فيما وُورث ومُلِك وحُكِّم وعِلِّم من عند الله عزَّ وجلَّ مصداقا لقوله تعالى: {وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} 231. أي؛ كان حكمهم على يد الله تعالى، ولهذا فإنَّ الله شاهد عليه وعلى أبيه داوود عليهما الصَّلَاة والسَّلَام بالحقِّ.

6 . مُسَخَّرٌ لَهُ:

التسخير إعانة ودعم بالقوَّة والقدرة المميَّنة من إنجاز المهام وإتمام المعجزات التي وهبها الله تعالى لسليمان صلَّى الله عليه وسلَّم، ولذلك فالتسخير إعطاء وسائل القوَّة بالأمر (كن) لسليمان لينفذ مشيئة الله على يديه في الإنس والجنِّ والطير.

التسخير إعطاء ما يجب لمن يستحقُّ، ولذا فمن يُسَخَّر له الأمر يَتِمَّكَّن من توجيه المُسَخَّر إلى ما سُخِّر إليه. وعليه لقد سَخَّر الله تعالى إلى سليمان صلَّى الله عليه وسلَّم كلَّ من التسخير المورث والتسخير الموهوب أو المؤتَّى ولتوضيح ذلك وتبيانه أقول:

231 . الأنبياء 78.

أ . التسخير المورث: هو الذي ورثه سليمان من أبيه داوود صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ} 232. أي أنّ سليمان قد ورث أبيه في الآتي:

* الملك، قال تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمَلِكُ} 233.

* الحكم، قال تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمْنَا حُكْمًا} 234.

* العلم، قال تعالى: {وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} 235.

* الحكمة، قال تعالى: {وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمَلِكَ وَالْحِكْمَةَ} 236.

* الزبور، قال تعالى: {وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زُبُورًا} 237.

* الجبال المسخرة، قال تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ} 238، وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ} 239.

* الطير، قال تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ} 240.

232 . النمل 16.

233 . البقرة 251.

234 . الأنبياء 79.

235 . البقرة 251.

236 . البقرة 251.

237 . النساء 163.

238 . الأنبياء 79.

239 . سبأ 10.

* صنعة لبوس، قال تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ لُبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّنْكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ} 241.

* فصل الخطاب، {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ} 242.

* أواب، قال تعالى: {وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 243.

* عمل السابغات، قال تعالى: {أَنْ اِعْمَلِ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ} 244.

* التقدير في السرد، {وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ} 245.

* إلانة الحديد، {وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ} 246.

* الاستخلاف في الأرض، {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ} 247.

ب . التسخير الموهوب: وهو الذي أضيف للتسخير المورث، أي أنه التسخير الموهوب لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يكن موهوبا من قبل إلى أبيه، حتى وإن كان ذات النوع أو الصفة، أي لو كان الموهوب

240 . الأنبياء 79.

241 . الأنبياء 80.

242 . ص 20.

243 . ص 17.

244 . سبأ 11.

245 . سبأ 11.

246 . سبأ 10.

247 . ص 26.

له الحكمة وأن الحكمة قد وُهِبَت من قبله لأبيه الذي ورث منه تلك الحكمة فإن الحكمة التي وُهِبَت له لا يمكن أن تكون هي الحكمة التي وُهِبَت من قبل لأبيه داوود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال تعالى: {فَفَقَّهُمَنَّاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلاَّ أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} 248.

وقال تعالى: {فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ} 249، وقال تعالى: {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَرِغِ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلًا مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ} 250.

7. مُورَث:

التوريث انتقال ما كان يملكه الآباء إلى الأبناء دون حرمان من شيء مما يملكون، مع حقهم التصرف فيه، ووفقاً لهذه القاعدة ورث سليمان داوود عليهما الصلاة والسلام {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ} 251.

الوارث هو الممكّن مما ورث، دون أن يخاصمه أحد فيه وهو الحق الذي يتصرف فيه دون استشارة أحد، والمتعارف عليه هو أن يرث الأبناء آباءهم فيما يتكونه لهم من أملاك وثروات وفقاً للفضائل المنصوص عليها في مصادر التحكيم، إلا أن إرث سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من ذلك فهو على وجوه منها:

248 . الأنبياء، 79.

249 . ص 36 . 40.

250 . الأنبياء 12، 13.

251 . النمل 16.

أ . توريث النبوة .

ب . توريث الرسالة .

ج . توريث الملك .

د . توريث الحكم .

هـ . توريث المعجزات .

8 . مُعَلِّمٌ :

تم تعليم سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما عُلِّمَ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ فَأَلِّمَ بِهِ حَتَّى اتَّصَفَ بِأَنَّهُ مُعَلِّمٌ ، قَالَ تَعَالَى : { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا } 252 ، وَقَالَ تَعَالَى : { عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } 253 .

المُعَلِّمُ هُوَ مَنْ يُعَلِّمُ بِالْعِلْمِ مِنْ قَبْلِ الْمَعْلَمِ فِي دَائِرَةِ الْمُمْكِنِ الْبَشَرِيِّ وَفِي الْمَطْلُوقِ يُعَلِّمُ مِنْ قَبْلِ الْعَلِيمِ كَمَا هُوَ حَالُ سُلَيْمَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي عَلَّمَهُ تَعَالَى مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَلُغَةَ النَّمْلَةِ وَكَلَامَهَا وَأَتَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَمَيَّزَهُ بِهِ ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : { فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَزَّشِكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ } 254 .

252 . الأنبياء . 79 .

253 . النمل . 16 .

254 . النمل . 42 .

9 . مؤتى:

قال تعالى: { وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } 255، من كل شيء تُقرأ من زاويتين:

أ . إتيانه تعالى لسليمان صلى الله عليه وسلم من كل شيء تدل على انه لم يستثني شيء من الأشياء ولهذا يُعد إتيانه له مطلق.

ب . إنَّ قوله من كل شيء تدل على أنه لم يؤته كل شيء بل آتاه من كل شيء، أي أنه آتاه من كل شيء شيئاً، ولهذا يُعد إتيان في دائرة النسبية.

المؤتى هو من يملك من غير ما يحتسب، ولذلك فكان سليمان مؤتى علماً ومُلْكاً وحكماً وحكمة وتسخييراً من غير أن يحتسب.

10 . محشور له:

أي مُعطى له الكثير من كل شيء، ولذا فالإعطاء المحشور إعطاء قوّة، ممّا يجعل المعطى (الشيء) لا رأي له ولا إرادة في حشره بل يساق سوقاً، وفي مقابل ذلك يُمكن المحشور له من السيطرة والتحكم بالأمر الذي به حُشر من حُشر.

المحشور له من عند الله تعالى ذو حظ عظيم، يُمكن من الوراثة في الأرض ويدخل الجنة وهو دليل على أنه من الوارثين في الدارين، ملكاً في الدنيا وملكاً في الآخرة مع الفارق في التصرف، ولهذا فلسليمان صفة الحشر التي بها استطاع أن يعمل ما يشاء في ضوء المشيئة الإلهية، قال تعالى: { وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ

255 . النمل 16.

يُوزَعُونَ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا
مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ
ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ
وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ
لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ مَحِطُ بِهِ وَحِثُّكَ مِنْ سَبِّا بِنَبِيٍّ يَقِينٍ {256}.

11 . شكور:

من يُكثر الشكر يتصف به، ومن يقلله لا يتمكن من امتلاك
هذه الصفة الحميدة، التي تُعبّر عن فائق الرضا والطاعة، والشكر في
مفهومه لا يتجاوز اللفظ القولي، ولذا فهو اعتراف من الشاكر بفضل
من المشكور، ولا يكون إلا على البينة من عطاء وإتيان وإيمان، ولهذا
فالشكر لا يُعطى بل هو دليل اعتراف جميل بفضل المعطي الكريم يقوله
الموصوف به دون انتظار لاستجابة آنية، مما يجعل المكافئة عليه أخروية
وفقا لمستوجبات نيل الرضا من نية وإخلاص وإيمان وهداية وطاعة لله
ربّ العالمين.

ولأنّ الشكر صفة من صفات سليمان صلّى الله عليه وسلّم فكان
سليمان شكورا لفضل ربّه عزّ وجلّ عليه، قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَهُ
مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ
فَأِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} {257}.

الشكر بالنسبة لسليمان درجة من درجات الإيمان بالله تعالى لا
يصلها إلا مؤمن أو مسلم أو حكيم أو عليم أو كلّ ذلك إلى جانب

²⁵⁶. النمل 17 . 22.

²⁵⁷. النمل 40.

كونه مرضيا عليه وذو حظ عظيم من العظيم الذي جعل الشكر رحمة وفضيلة بين العباد لنيل الاعتراف والتقدير ومبادلة المودة. قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 258. إذا الشكر اعتراف مترتب على النعمة التي أنعمها الله تعالى على سليمان ووالديه الكرميين، وهذا الاعتراف ترتب عليه واجب يتطلب أن يؤدي وهو ما يحقق مرضاة الله عز وجل، ثم تلاه سليمان بطلب دخول الجنة غاية كل من أسلم وجهه لله تعالى رب العالمين.

12. صالح:

الصالح غير الفاسد، وهكذا المصلح غير المفسد، والاتصاف بهذه الصفة الحميدة لا يتم إلا بالعمل، مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 259. يفهم من هذه الآية الكريمة أن سليمان صلى الله عليه وسلم يتضرع ربه تعالى بأن يُمكنه برحمته الواسعة من العمل الصالح الذي به يفوز مع الصالحين في الجنة.

ولأن سليمان صلى الله عليه وسلم مورث خليفة في الأرض مصداقا لقوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا الْحِسَابَ} 260،

258 . النمل 19.

259 . النمل 19.

260 . ص 26.

فهو بطبيعة الحال أن يكون مصلحا في الأرض غير مفسد فيها ولا سافك دما بغير حق.

13 . مُتَّفَقٌ:

التفقد مراقبة دقيقة وتفصّ دقيق وتتبع مع إحصاء به يتم معرفة الحاضرين من الغائبين وهذا ما جرى مع الهدهد الذي تفقده سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن تدقق في الحضور للإنس والجنّ والطير، مصداق لقوله تعالى: { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحُطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ } 261.

التفقد لا يتم إلا بوعي وإدراك من المتفقد للمتفقدات، وكذلك لا يتم إلا بمعرفة تامة بمواصفات وخصائص الأشياء أيضا.

14 . شَدِيدٌ:

الشدّة تمسك مع إمكانية استخدام القوّة والقدرة كلّما تطلب الأمر أو استدعت الظروف، ولذلك من يمتلك مقاليد القوّة والقدرة يستخدمها متى شاء وكيفما يشاء ولكن إن كان من المؤمنين الذين اسلموا وجوههم لله ربّ العالمين فلن يستخدم قوته وقدرته في غير ما يجب لأجل نيل مرضاة الله تعالى، وإن كان من غيرهم من الضالين والظالمين والفاسقين والحاسدين والماكرين والكائدين فقد يستخدمها فيما لا يجب؛ ولأننا نتكلّم عن سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإننا نتكلّم عن المؤمن الذي أخصه الله تعالى بمعجزات وآيات كريمة ميّزته عن غيره من العباد المؤمنين والمسلمين وجعلته في عليين، { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ

²⁶¹. النمل 20.

فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْعَائِينَ لِأَعْدَبْنَهُ عَدَابًا شَدِيدًا
أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا
لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ {262}.

وعليه قوله تعالى (لَأَعْدَبْنَهُ عَدَابًا شَدِيدًا) دليل إثبات إمكانية
استخدام القوّة في محلّها وهو بأسباب الغياب التي قد يكون من بينها
عدم طاعة الهدهد من الطير المسخّر لسليمان ليتصرّف فيه وبه متى ما
يشاء في مرضاة الله تعالى، أي بما أن أمر الحشر قد صدر من سليمان
ليكون الحضور من الجميع دون استثناء فكيف لا يكون الهدهد من
الحاضرين؟

هل هو عاصٍ؟

هل هو متمرّد؟

أم أنّه غير معترف بالأمر؟

أم أنّه غير مقدّر للقوّة والقدرة الموهوبة لسليمان من الله تعالى؟

وتزداد الشدة وفقا للصلاحيات الممنوحة لسليمان حتى بلوغ تنفيذ
أمر القتل في الهدهد إذا لم يكن له عذر في غيابه أو تأخره عن الحضور
المحشور فيه من الإنس والجنّ والطير، مصداقا لقوله تعالى: (أَوْ
لَأَذْبَحَنَّهُ).

وكذلك قوله تعالى: (أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) فيه شدّة وتهديد
باستخدام القوّة والقدرة المتاحة من الله تعالى، أي إذا لم يكن هناك
مبررات مقنعة من الهدهد تُرضي سليمان صلّى الله عليه وسلّم فإنّ القوّة

262 . النمل 20 . 22.

المستخدمة ستكون شديدة جدا من العذاب إلى الذبح أو البديل الثالث وهو المبرر المنطقي الذي به يُحقّ الحقّ ويزهق الباطل.

قال تعالى: (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ)، إي أنّه قد تأخر قليلا إلا أنه حضر بوجه السرعة وهو يجيب على تساؤل سليمان صلّى الله عليه وسلّم بما جاء به من أمر لم يحط به سليمان من قبل، فنجى من التعذيب والقتل وتحولت الشدة وانقلبت إلى لين.

15 . مُرْسِل :

بدون شك سيطرة سليمان على الإنس والجنّ والطير تجعله قادرا على استخدامهم وتوجيههم لما يجب أن يُعمل أو يُفعل، وكذلك تجعلهم تحت قبضة سيطرته بالتمام، يُرسل من يُرسل منهم ويعذب من يعذب ويذبح ما يُذبح.

المرسل هو الذي يصدر الأمر ويوجه به ويوجه إليه، لذلك كان سليمان صلّى الله عليه وسلّم مُرسلا لملكة سبأ الهدهد الذي شاهدها ولاحظها من قبل أن يُرسل إليها من قبل سليمان بالكتاب، مصداقا لقوله تعالى: { اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } 263. إذا الإرسال بالقوّة والقدرة للإنس والجنّ والطير هو صفة من صفات سليمان صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا فإنّ سليمان مُرْسِل.

²⁶³. النمل 28.

16 . رافض:

الرفض امتناع مع عدم القبول، والرافض من المؤمنين الصالحين هو الممتنع عن الإقدام على ما لا يجب، وهو الذي لا يقبل المساومة في الحق وإحقاقه، يتمسك بالفضائل ويحترم القيم ويتبع أحسنها، أما الرافض من غير المؤمنين المحسنين فهو الذي لا يطيع ما يجب أن يتبع ويطاع، ولذلك فسلیمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤمن صالح ومحسن، رفض العرض المقدم له من أجل أن يتنازل عن مطالبته بإحقاق الحق واتباع ما أمر به من عند الله عز وجل، قال تعالى: {وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} 264.

يفهم من الآيات الكريمة السابقة رفض سليمان للمساومة التي عرضت عليه من ملكة سبأ، والتي ترتب عليها اتخاذ سليمان للقرار الذي على ضوئه أصبحت وجنودها أذلة وهم صاغرون، وكانت النتيجة قد أسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

17 . مُتَحَدِّ:

التحدي صفة لمن يمتلك الحجّة ويكون قادرا على إظهارها في مواجهة الباطل ودحضه، قال تعالى: {ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ} 265.

المتحدي الذي يمتلك الحجّة والقوة ويتمكن من إظهار الأولى واستخدام الثانية يستطيع أن ينقل أقواله إلى أفعال وأعمال مما يجعل التحدي متحققا على أرض الواقع وشاهدا على سلامة الحجّة وإظهار القوة واستخدامها فيما يجب، ولذلك أصدر سليمان الأمر لجنوده بأن

²⁶⁴. النمل 35، 36.

²⁶⁵. النمل 37.

يُنَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا وَلْتَفْعَلْ مَا تَفْعَلْ فَهُوَ لَنْ يَتَرَدَّدَ عَنْ إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَدَمْعِ
الْبَاطِلِ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: { قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَهْتَدِي أَمْ
تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ } 266.

18 . أمر:

الأمر عندما يصدر من يملك يكون قابلاً للتحقق والتنفيذ،
وعندما يصدر من غير ذلك فهو لا يتجاوز حدود اللغة والكلام الذي
ينتهي بقوله ولا يكون له حيز على أرض الواقع ولا ينفذ.

تنفيذ الأمر يتطلب جنود طائعين لمن يصدر لهم الأمر، وهذا
الأمر لن يكون متحققاً هو الآخر إلا إذا كان المصدر يمتلك قوة وقدرة
وعزيمة وإرادة كما هو حال سليمان صلى الله عليه وسلم الذي كان
مصدراً للأوامر بطبيعة ملكه وحكمه وعدله، مصداقاً لقوله تعالى:
{ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ
عَفْرِيْتُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ
أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ
طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ
أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ قَالَ
نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ فَلَمَّا
جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا
مُسْلِمِينَ } 267، وقال تعالى: { قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ
حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ
رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } 268.

266 . النمل 41.

267 . النمل 38 . 42.

268 . النمل 44.

19 . موهوب :

الموهوب المسخر مع غيره أو المسخر له عوناً وسنداً، كما هو حال سليمان مع أبيه داوود عليهما الصلّاة والسّلام في قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 269.

الوهب بالمطلق لا يكون إلا من الوهّاب، والوهب في دائرة الممكن مهما عظم فهو لا يخرج عن دائرة النسبية أي المحدودية. ومع أنّ الواهب بالمطلق هو واحد أحد إلا أنّ الموهوبات منه تتعدد وتتنوع في غير محدودية، فهناك وهب العلم والملك والحكم والمال والبسط في الجسم وكذلك وهب الجنّد المسخرين من الإنس والجنّ والطيور وكثيراً ممّا نعرف وممّا لا نعرف فهو على كلّ شيء قدير.

20 . أواب :

الأواب هو المتمسك بما يأمر الله والمنتهي عمّا ينهى عنه والمتجنب لما يجب تجنبه، وهو المهتدي وفي كلّ أمر لا ملجأ له إلا إليه عزّ وجلّ. الأواب كثير الرجوع إلى الله من ارتكاب الذنوب، فهو من يدعو ربّه أمام أي ذنب بِنِيَّةٍ صادقةٍ وهو يقول: (أعود بالله من الذنوب) لأجل أن يجتنبها ويحفظ من ارتكابها ومن الزلات التي تقود إليها.

ولذا فالأواب هو التائب من الذنوب وهو المطهّر لنفسه من ارتكابها أيضاً، طائع لله تعالى مصلح في الأرض غير مفسد فيها ولا سافك دماً بغير حقّ، وهو المكثّر من التسبيح باسمه تعالى، وهو المستمد للرحمة من الرّحمن الرّحيم والعامل عليها مع ربّه والعامل بها مع العباد، ومن ينطبق عليه هذا الأمر يوصف بأنه أواب كما وصف الله

269 . ص 30.

تعالى سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِذَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 270.

21. محب للخير:

الخير مع انه معرّف إلا أنه غير محدد، ولذلك فالخير مطلق، ومع أنه مطلق، إلا أنه لا يتحقّق شيء منه إلا في دائرة النسبية، ولذا، أي خير يتحقّق لا يخرج عن كون نسبيا في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

وعليه مهما أكثرنا من أفعال الخيرات أو مهما حصدنا من خيرات حسان فهي لا تخرج عن كونها نسبية، وهي كالعلم مهما أوتينا منه فإننا لم نؤت إلا قليلا، ولذلك علينا بالإكثار من أفعال الخيرات لكي نؤتي خيرا كثيرا، كما أتى سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم من خير فزاده محبة للخير مصداقا لقوله تعالى: {فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ} 271.

في الآية الكريمة السابقة لم يقل (أحببت الخير) بل قال (أحببت حب الخير)، ولذا فالفرق كبير بين ما تدل إليه الأولى من معنى وهو (حب الخير) الذي يقود إلى الأخذ من كلّ خير، وبين الثانية التي تدل على معنى (محبتة حب الخير)، أي محبتة لأن يقوم بأفعاله، ولذا فالفرق كبير بين من يطلب لنفسه خيرا وبين الذي يطلب أن يقوم به للآخرين، وهذا الخير بطبيعته إن فُعل للآخرين تحقّق لفاعله أولا.

وعليه فمن يُكثر من زرع الخير يحصد ويجني أكثرها.

270. ص 30.

271. ص 32.

22 . مبتلى :

كما سبق أن بينا مع الأنبياء الكرام الذين سبق ذكرهم صلوات الله وسلامه عليهم بأن الابتلاء صفة من صفاتهم فالأمر ينطبق بالتمام على سليمان باعتباره أحد منهم، ولذلك فالمبتلى هو الموثوق فيه والموثوق منه لأجل أن يتخذة الناس أسوة حسنة لهم في كل ما يقال أو يُفعل أو يُعمل.

الابتلاء دروس عظيمة في الحياة لا يُلقاها إلا ذو حظ عظيم، ولذا فالعظماء من الصديقين والأنبياء والرسل الكرام تعرضوا لهذه الدروس وبلغوا رسالاتهم وبلغوا غاياتهم.

قال تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ} {272}، فتنة سليمان بما فُتِنَ به هو ابتلاء ترتب عليه نجاح وفوز لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان من الوارثين في الدارين.

23 . متضرع :

التضرع تعلق وعشق يُظهر محبة الله تعالى، والتضرع من هذا النوع يرتبط بصفاء النية وصدق النفس وطمأنينة القلب فمن بلغها بلغ مراده.

المتضرع هو المؤمن الذي أسلم وجهه لله رب العالمين الذي إن دع لا يدعو إلا ربه تعالى ولا يشرك به أحدا، كما هو تضرع سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ بَجْرِي بِأَمْرِهِ رُجَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَأخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ

فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَاْمُنُّنْ أَوْ أَمْسِكْ بِعَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا
لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَأْبٍ {273}.

في الآيات السابقة تضرع واستجابة شككت ثلاثة أضلاع غير
متساوية هي:

أ. طلب من سليمان لربه.

ب. عطاء من الله لسليمان (إجابة على الطلب).

ج. أخذ من جانب سليمان لما أعطاه الله تعالى.

24. مُقْرَبٌ:

بدون شك بالنسبة للمؤمنين والمسلمين وجوههم لله تعالى هم
يؤمنون بأنه القريب السميع العليم المجيب وكلّ الأسماء الحسنى ذات
الصفات الحسان، أي انه القريب من الجميع، وفي مقابل ذلك هم
يؤمنون بأنه ليس الجميع مقربين منه، أي بطبيعة الخلق القاعدة هي:
(الخالق دائما قريب مما خلق، والمخلوق قد يبتعد عن خالقه)، ولذا
فمن أيقن الحقّ اتبعه كما هو حال سليمان صلّى الله عليه وسلّم ومن لم
يوقنه كفر أو أشرك وضل، قال تعالى: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ
مَأْبٍ {274}.

التقرب من الخالق لا يكون إلا بالعبادات والطاعة التامة
والإخلاص في القول والعمل والثبات على الحقّ والإكثار من أفعال
وأعمال الخيرات الحسان.

273. ص 35 .40.

274. ص 40.

25 . أسوة حسنة:

الأسوة الحسنة هو الذي يُقتدى به فيما يجب أن يقال أو يُفعل أو يُعمل أو يُسلك. وهذا الأسوة الحسنة لا يكون إلا بعد إيمان ونية صادقة وخوف من الله وطاعة له واهتداء بما أمر ونهى، ولذا فبالإمكان أن يكون الإنسان قدوة حسنة، عندما يقول يصدق، وعندما يعمل يخلص، وعندما يحكم يعدل، وعندما يؤتمن يحرص كما حرص سليمان صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} 275.

26 . خليفة:

الخليفة هو من يُمكن من العباد في الأرض ويعمر فيها ويصلح ولا يُفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حق، ولذلك؛ فالاستخلاف يورث كما وُورث من داوود إلى سليمان من بعده مصداقا لقوله تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْتُمْ أَنْطِقَ الطَّيْرَ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} 276.

وعليه: بما أن سليمان قد ورث داوود، وداوود صلى الله عليه وسلم جعله الله خليفة في الأرض مصداقا لوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا الْحِسَابَ} 277.

275 . الأنبياء 78، 79.

276 . النمل 16.

277 . ص 26.

إذن ألا يكون سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليفة وارث من الخليفة المورث؟ وكذلك كما سبق أن برهنا على أن جميع الصديقين والأنبياء والمرسلين والصالحين هم خلفاء الله في الأرض، إذا بما أَنَّ سليمان نبيا ورسولا فهو خليفة في الأرض.

إِنَّ الله تعالى اختار أنبياءه وهداهم وجعلهم ذرية بعضهم من بعض ليكونوا مبشرين ومنذرين وآتاهم الحجة من أجل إلزام الناس بها وإرشادهم إلى الصراط المستقيم الذي يؤدي إلى الاستدلال على وحدانية الله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَرَكَرِيًّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ} 278.

وسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي من أعلام النبوة الذين اصطفاهم الله تعالى، وخصه بملك دون غيره من الأنبياء.

وعليه نتساءل؟

لماذا اختص الله تعالى سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالملك؟

ما علاقة الملك بالنبوة؟

أليس هناك نبوة دون ملك؟

ألم يكن ممكنا تأدية رسالة سليمان كبقية الأنبياء دون هذا الملك؟

نحن سوف نحاول الوقوف على إجابات مقنعة لهذه التساؤلات ولا بدّ أنّها موجودة، إذ أنّ إجاباتها لو لم تكن موجودة لانتفى التساؤل أصلاً.

ووجود التساؤل وضعها ضمن دائرة الممكن.

والممكن هو: تأدية رسالة النبوة بملك، أو تأديتها دون ملك.

وطالما الأمر كذلك فإنّ للملك خصوصية في نبوة سليمان.

فهذه الخصوصية استدعتها أسباب لا يمكن تأدية رسالته دون هذا الملك، لأن وجود أي شيء ناتج عن سبب استدعى وجوده، وخاصة أنّ النبوة قائمة على الحقّ وسبق علم الله تعالى به في تقديره ومشئته.

إذن ليس شيء في النبوة من قبيل المصادفات، أو أنه يطرأ في حياة النبي أمر جديد يستدعي معطيات جديدة تواجه حدثاً لم يكن في الحسبان.

ولذا؛ فإنّ كلّ شيء يؤتاه النبي هو جزء من رسالته لا ينفك عنها بحال من الأحوال سواء أكان:

على سبيل الدعوة

أم على سبيل الابتلاء

أم أنه جزء من معجزته.

وعلى ما تقدّم فإنّ توضيح هذه القضايا يتطلب تجزئتها على النحو الآتي:

1 . علاقة سليمان بالذات الإلهية:

وهو دور الأنبياء والرّسل بين الخالق والمخلوق.

إنَّ أصل العلاقة بداية قائمة على التسليم بالأمر والانقياد للمشئئة وهي حقيقة العلاقة بين الخالق والمخلوق، وتنظيمها وفق أسس:

العلاقة قائمة على العقيدة.

مناط العقيدة والعبادة قائم على الثبات.

الثبات هو التوحيد.

سليمان صلّى الله عليه وسلّم موحد.

التوحيد حقق العلاقة بين سليمان والذات الإلهية.

وهنا يجب التفريق بين علاقة سليمان مع الله تعالى كونه نبيا يوحى إليه، وبين علاقة بقية البشر مع خالقهم كونهم يأخذون عن الأنبياء الموحى إليهم.

علاقة سليمان مع الخالق جاءت غير مباشرة عن طريق الوحي درجة أعلى.

علاقة عامة الخلق مع الخالق جاءت غير مباشرة عن طريق النبوة درجة أدنى.

وعليه فخصائص علاقة سليمان مع الله تعالى تتلخص في ثلاثة أمور:

آ . تقبل الوحي .

ب . الاستيعاب .

ج . التبليغ .

بينما تكون خصائص علاقة بقية الخلق بالخالق هي:

آ . تقبل النبوة .

د . التسليم .

ج . العمل .

فسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعرّف على حقيقة العلاقة بينه وبين خالقه لذلك قال اللهُ تعالى: {نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 279.

ولأنّه كان أوابا

فهو كثير الرجوع إلى الله تعالى في جميع الأمور .

من كان أوابا فهو نعم العبد لأنّه تعرف على الحقّ المبين .

إنّ تمام المعرفة هي معرفة الحقّ لذاته والخير لأجل العمل به .

رأس المعارف وعمود الأمر كلّه هي معرفة الله تعالى .

رأس الطاعات هو الاعتراف بأنه لا يتم شيء من الخيرات إلا

بإعانة الله تعالى .

من كان كذلك كان كثير الرجوع إلى الله تعالى فكان أوابا .

فثبت أنّ كلّ من كان أوابا وجب أن يكون نعم العبد .

ولأنّ سليمان نعم العبد فقد أدرك دوره والأعمال المنوطة به من

خلال الوحي الإلهي الذي يركّز على أسس تنبثق عنها جزئيات .

أمّا الأسس فهي:

التوحيد .

العدل.

الرّحمة.

وأما الجزئيات فما يتفرع من تلك الأصول في تنظيم العلاقة بين الخالق والمخلوق وبين الإنسان والإنسان في هذه الحياة الدنيا من الخلافة في الأرض وإعمارها وإصلاحها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبهذا يتحقّق هدف النبوة في بناء:

القلب السليم

العقل الصحيح

النفس المطمئنة

فعللاقة سليمان صلّى الله عليه وسلّم بالله تعالى لا تخرج عن المسار العام في النبوة بما اختص الله أنبياءه، غير أنّ السمة البارزة في نبوة سليمان صلّى الله عليه وسلّم تتميز في أمرين هما، الخلافة والمملك وستكلم عن ذلك في موضعه إن شاء الله.

2 . العلاقة الإنسانية:

كما بيّنا دور سليمان والعلاقة بين الخالق والمخلوق، فهنا نوضح دوره صلّى الله عليه وسلّم في علاقة الإنسان بالإنسان،

قد يتبادر إلى الذهن أن علاقة الإنسان بالإنسان تتركز على دور الفرد . الجانب الذاتي وإغفال دور الواقع الموضوعي إيماننا من الذين يعتقدون ذلك.

ونحن نقول: لا هذا ولا ذاك.

ولا اجتماعهما يؤدّي إلى بناء النموذج.

إنّ الإرث الفكري والثقافي الإنساني بتراكمه الذي كوّن مجمل الأخلاق العامّة للبشرية لم يكن نتاج أفراد منسلخين عن الواقع الاجتماعي.

ولم يكن نتاج مجتمع ليس فيه فرد متميّز.

ولم يكن نتاج فرد خارج عن المجتمع.

ولم يكن هذا النتاج الفكري الإنساني من تلقاء نفسه.

إذن لا بدّ من مجموعة أسباب وعوامل تضافرت في ظل ظروف مواتية أدت إلى ذلك، لأن المبدع والمفكر الذي يؤسس لنظرية أخلاقية لا بدّ أن يكون على علاقة وطيدة بالمجتمع الذي يعيش فيه حتى يقف على الضرورات الأخلاقية والإنسانية لذلك المجتمع الذي تربّطه به علاقة، فإن كانت الأعمال العظيمة سواء أكانت أخلاقية أم فنية أم حضارية هي نتاج أفراد مبدعين، والابداع نفسه هو جزء من الحياة الاجتماعية التي أقرت ذلك الابداع وقبلت به.

إذ ليس بمقدور أية عبقرية فردية أن تخلق نظاماً أخلاقياً.

ليس بمقدورها أن تخلق تياراً فنياً.

ليس بمقدورها أن تخلق نظرية أدبية.

ولهذا؛ فإنّ الجانب الاجتماعي في العلاقات الإنسانية هو أساس الرفض أو القبول لأن قُصارى ما تفعله العبقرية الفردية أن تدمغ بطابعها الفردي مرحلة من المراحل ذات المصدر الاجتماعي، أمّا الذي يقيم أسس العلاقة لا يعبر عن مجتمعه وعصره إلّا إذا كان ثمة تفاعل وتأثير إيجابي، بين (الأنا) و(الآخر) وعندما تكون العلاقة بين النبي والإنسان يدخل هنا عنصر آخر وهو الإلهام أو الوحي الإلهي الذي

يضع أسس هذه العلاقة التي تحمل قيما عقلية تصل للآخر عن طريق الحوار، وقيما غيبية لا سبيل إليها إلا من باب التسليم القائم على صدق القضايا العقلية، لأن النبي يحمل رسالة غايتها دائما خير الآخرين.

وهنا، نريد أن ننفي الآراء التي يبالغ أصحابها في إكبار دور الجماعة والبيئة أو ينسبون كل شيء إلى قدرات فردية ترقى إلى العبقرية في صناعة نموذج إنساني مصدره الفرد ومورده المجتمع، وإغفال جانب المشيئة الإلهية بما يوحي الله تعالى للنبي خارج القدرات البشرية والعبقرية الإنسانية، إذ أن هذه الأسس مجتمعة هي عماد علاقة سليمان صلّى الله عليه وسلّم بالإنسان وهي:

الوحي

الوهب

الإنسان

المجتمع

فالوحي هو القانون الإلهي الذي تقوم بموجبه أسس العلاقة، والملك الذي وهبه الله تعالى لسليمان صلّى الله عليه وسلّم خدمة لهذه العلاقة في الإصلاح والإعمار، والإنسان حامل الرسالة يتمثل في سليمان، والمجتمع وهم القوم الذين بعث فيهم ومن هذه المعطيات يكون الإنسان الذي أراده الله خليفة في الأرض.

وهذا يعني أن علاقة إنسان نبي يحمل رسالة بإنسان مدعو لتقبل الرسالة، يختلف تمام الاختلاف عن الأفراد سواء أكانوا عظماء وعباقرة

أم غير ذلك يحملون رسائل في اتجاهات شتى لذلك لا يمكن أن يكون
منهم:

خليفة

قدوة

أسوة حسنة

ولأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي فهو الأسوة الحسنة والقدوة المتبعة
تتجسد فيه الخلافة، لأن هذه الصفات لا تقوم على معطيات مادية
ولكنها أعلى درجات السمو لأن مصدرها يتمثل فيما يأتي:

التوحيد الذي يترتب عليه

الدعوة إلى الخير

الأمر بالمعروف

النهي عن المنكر

الإحسان للآخر كما أحسن الله إليه

فالقاعدة التي تقوم عليها العلاقة السليمة بين الإنسان والإنسان
بعد التوحيد تتمثل في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ} 280.

وهذا أمر بمجامع الخير كله ونهي عن مهالك الشر كله، لذلك
فإن ملكة سبأ عندما ألقى إليها كتاب سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وصفته بالكتاب الكريم قبل أن تعرف سليمان أو تعرف طبيعة دعوته وحيثية منهجه، غير أن الكتاب أوقفها على حسن التعامل الإنساني في العلاقة الطيبة مع من عرفت أو من لم تعرف من الناس، فوقع في قلبها أنه لا يدعو إلا إلى خير قال تعالى: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ} 281.

فهذا الكتاب غاية في الإيجاز من تأدية المراد في الطلب، وسليمان نبي ملك أرسل كتابه إلى ملكة، ورسائل الملوك عادة ما تقتصر على الطلب وعندما وصلها الكتاب كان الأمر على النحو التالي حيث قالت:

هذا كتاب من سليمان يقول فيه:

آ . بسم الله الرحمن الرحيم

ب . لا تتكبروا عليّ

ج . عليكم أن تأتوني مسلمين

ومع أن سليمان ملك ومعلوم أن رسائل الملوك تفتتح بأسمائها في مستهل الكتب، إلا أن هذا الكتاب في نظر ملكة سبأ قد خالف العرف بالاستهلال، مما أوقع في خلدها أن هذا الاسم الذي استهل به الكتاب لا بد أنه أعظم من سليمان ومن ملكه، ومضمون الكتاب أيضا لا يعبر عما تبغيه الملوك من بعضها سواء في حالة الرضا أم في حالة السخط، لذلك فإن أمور كثيرة قد أثارها هذا الكتاب لدى ملكة سبأ منها:

أنّ الكتاب أُلقي إليها إلقاءً فهو مغاير لرسائل الملوك.

ثم وصفت الكتاب الذي أُلقي إليها بأنه كريم وهي غاية الوصف، فلم تقل كتاب خطير لأسباب كثيرة منها:

. أنه مفتتح باسم الله الرحمن الرحيم.

. هو غاية اللطف والسلام لما فيه من الرحمة.

. أنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم فعظّمته إجلالا لسليمان عليه السلام.

. أنّها أشارت إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم، فكرامة الكتاب ختمه.

. أنه جاء بطريقة غير معهودة إذ كان الرسول طيرا.

. أُلقي إليها إلقاءً.

. كتاب كريم أي كتاب جيد حسن كما قال تعالى: {وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} 282.

. أنه تضمن لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عزّ وجلّ.

. حسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعنا.

. لم يتدئ باسم المرسل لأنّ العظماء إذا كتبوا لمن هو أدنى منهم يتدئون بأنفسهم.

ودليلنا على أن الكتاب لم يتدئ باسم سليمان صلّى الله عليه وسلّم كما ذهب البعض، يوضحه سياق الآية ويقبله المنطق السليم،

لأنها بداية عندما أعلمت الملاء من قومها فقد وصفت لهم طريقة وصول
الكتاب بدقة فقالت:

ألقي إلي كتاب.

وهنا يجب أن نقف على الأسلوب الذي خاطبت به الملاء من
قومها، فقد بُني الفعل للمجهول ولم يُصرح بالفاعل لسببين:

الأول: إظهار الطريقة الغريبة التي وصل بها الكتاب وهي الإلقاء.

الثاني: عدم التصريح بالفاعل حتى لا تتهم بعقلها أن طائرا ألقى
إليها الكتاب.

وهنا، ينصرف ذهن المتلقي إلى استفسارات واستيضاحات تنصبّ
على الكتاب ومرسله يُستبعد منها الرسول وخاصة أنّها لم تلتفت إليه.

فما ينبغي لهم أن يسألوا عنه تأدبا مع الملكة، إذ البديهي أنّ هذه
الاستفسارات وأجوبتها ستكون على النحو التالي:

ممن الكتاب؟

من سليمان.

ما يقول فيه؟

بسم الله الرحمن الرحيم.

ثمّ ماذا؟

لا تتكبروا.

هذه نصيحة وماذا بعد؟

أن تأتوني مسلمين.

وعلى هذا فإنّ الكتاب مفتوح باسم الله تعالى، وليس باسم سليمان صلّى الله عليه وسلّم، ولكن طبيعة الحوار يجب أن تكون على هذه الصورة لتوضيح طبيعة الأمر، لأنّ أول ما يسأل بهذا الصدد عن:

مرسل الكتاب

مضمون الكتاب

الجواب على الكتاب

ومن ناحية أخرى ما كان لسليمان صلّى الله عليه وسلّم أن يقدم اسمه وهو يدعو إلى الله تبارك وتعالى، وعلى هذا فقد جاء اسم سليمان أولاً حكاية عن الملكة وهو جواب السائل في التسلسل المنطقي لاستفهام تتبع الأحداث التي ينطوي عليها أي كتاب، إذ ليس من المعقول أن يُسأل عن مضمون الكتاب قبل السؤال عن مرسل الكتاب، وهذا سبب ذكر سليمان قبل اسم الله تعالى من قبل الملكة وليس في نص الكتاب، وعليه كان تقديم سليمان حكاية عن لسانها لا نصاً في الكتاب الذي وصفته.

يترتب على هذه الوصف:

التفاؤل باستقراء الخير.

الافتتاح الاستهلاكي الغريب لهذا للكتاب.

الأمر بعدم التكبر.

لم يطلب صلحاً أو معاهدة.

اقتصر على الأمر دون التهديد.

إذن هي ثقة عالية.

فيه دعوة إلى الإسلام.

ما هو الإسلام؟

هذه التساؤلات تدفع العاقل إلى المشورة للوصول إلى رأي مشترك تكون المسؤولية فيه جماعية كونها قضية مصيرية تتعلق بأمن المملكة ورعاياها، وقد دلّ على رجاحة عقلها عندما جمعت أركان دولتها وطلبت منهم المشورة: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ} {283}. غير أنهم فوضوا الأمر إليها بعد أن أطلعوها على ما يتمتعون به من استعداد لمواجهة جميع المواقف والمتغيرات: {قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ} {284} وهنا ثلاثة أمور لا بدّ من ذكر في الرأي والموقف الذي توصلوا إليه:

آ. أنهم يتمتعون بقوة مادية بالعدد والعدة.

ب. أنهم أصحاب بأس وشدة وهي قوة معنوية تدل على الثبات.

ج. إظهار السمع والطاعة لما تتخذه الملكة من قرار.

وهنا تظهر الحكمة بدفع البلاء بأقل الخسائر، لأنّ الصراعات بصرف النظر عن الإمكانيات المتاحة في المواجهة والنتيجة التي تسفر عنها فلا بدّ من الخسائر لذلك قالت: {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَزةَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} {285}. ممّا دفعها إلى اختبار سليمان صلّى الله عليه وسلّم وذلك من أجل:

283 - النمل 32.

284 - النمل 33.

285 - النمل 34.

استبيان حقيقة أمره.

ما الغرض من هذا الكتاب؟

ما الذي يريده على وجه التحديد؟

حربًا

صلحا

جزية

تساؤلات كثيرة تداعت في أفكارها، وخاصة أنها لا تستطيع إعادة الجواب مع الرسول الذي حمل الكتاب إليها إذ لا سبيل لها إلى ذلك.

فكانت الحكمة إرسال الرّسل للوقوف على الأمر: {وَأَيُّ مَرْسَلَةٍ إِلَيْهِمْ يَهْدِيَةٌ فَنَازِرَةٌ يَمْ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} 286.

وهنا أرادت أن تستشف من خلال الهدية جلاء الموقف الذي اتضح بقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ} 287.

ولتوضيح معنى (أتمدونني) نقول: هو استفهام إنكاري، أي أنتم تزيدونني مالا على الرغم مما تشاهدونه من أموال، حيث أبدى إنكاره لهذا التصرف لأن الهدية لها موجبات حتى لا تخرج عن مقصدها منها:

. أن تكون بين المتعارفين.

286 - النمل 35.

287 - النمل 36 - 37.

. أن يكون هناك علاقة صداقة ومودة بين من يهدي ومن يُهدى إليه.

. أن يكون من يُهدى إليه صاحب فضل وإحسان سابق على مرسل الهدية.

فإن لم تتوفر هذه الأسباب فإن الهدية تخرج عن حقيقتها لأغراض أخرى، لذلك أظهر بهذا الجواب الإنكاري قلة الاكتراث بتلك بالهدية.

فكان جوابه (فما آتاني الله خير مما آتاكم) أي ما أعطاني من الإسلام والمملك والنبوة خير مما أعطاكم من المال وزينة الحياة الدنيا لذلك أنتم تفرحون.

فالله تعالى آتاه خير الآخرة الذي هو السعادة القصوى، وآتاه من الدنيا ما لا مزيد عليه، فكيف من كان هذا حاله يستمال بعرض الدنيا بمثل هذه الهدية.

لذلك، كان جوابه بل أنتم تفرحون بما يهدى إليكم، أمّا أنا فحالي خلاف ذلك.

وهنا يجب أن نقف عند جوابه:

بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون، وفيه أكثر من معنى نحاول أن نقف على أيها أقرب للواقع:

هو بلا شك لم يقبل تلك الهدية، بقيت قضية فرحهم على أي شيء كانت؟

هل كان الفرح على قدرتهم أن يقدموا مثل هذه الهدية العظيمة لسليمان؟

أم أنهم فرحوا لأنها ردت إليهم؟

أم أنهم يفرحون عندما تقدم إليهم الهدايا؟

أم أنهم فرحوا بقدرتهم على الإهداء؟

أم فرحوا لأنهم فهموا منه: بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم
وتفرحوا بها؟

أم أنهم يفرحون بما يهدى إليهم حبا بزيادة المال ووطنوا ذلك
بالآخرين؟

أم أن فرحهم ناتج عن كونهم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا؟

أم أن الهدية من عظيمها كانت من نفس الملكة بمكان، وأرادت
أن تدفع بها أهون الشرين بحيث تدفع بالهدية لتحافظ على الملك؟
فكان فرحهم برد الهدية؟

وعليه نقول: أنه مهما تبادر لأذهانهم من أسباب الفرح التي
ذكرناها، فإن لم تكن كلها فقد راودهم جلّها، غير أن سليمان صلى الله
عليه وسلّم قد نفى كلّ ذلك بما آتاه الله تعالى، لأن الدنيا أصغر قدرا
عند سليمان صلى الله عليه وسلّم من أن يفرح بشيء منها أو يحزن
على شيء فيها.

والمسألة التي لم ينتبه إليها أحد في هذا الموقف وبخاصة أنّ الآية
ذكرت الفرح، والذي نظنه أن الفرح لم ينتابهم في هذه اللحظة برد
هديتهم إليهم، وإنما انتابتهم أشياء أخرى لا علاقة لها بالفرح وهي:

الخوف

الحرب

فقدان الملك

هذه الأمور التي راودتكم في موقفهم بين يدي سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، وإنما قضية الفرح بالهدية ترتبط بأنفسهم وليس بموقفهم في تلك اللحظة، أي بطبيعتهم من حب هذه الأشياء لأنهم أهل دنيا وهم على شرك، فغاية مناهم وهمهم الأموال والهدايا التي يفرحون بها لأنهم:

يفرحون بما اعتادوا عليه

الذي جاءهم من سليمان مخالف لما اعتادوا عليه

وعليه: ينتفي فرحهم بالذي اعتادوا عليه

وهذا الفرح طبيعي لما زُين للناس من حُب هذه الأشياء حيث قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} 288

وهنا يقدم سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم درسا في التعامل الإنساني الذي يريد أن يأخذ بيد الإنسان من المتاهات المادية إلى ما هو أسمى ليجسد دوره خليفة في الأرض وأن المال ليس الهدف الذي يوصل إلى الغاية، فهم لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ولكن هناك ما هو أبعد من الدنيا وأرفع درجة وأسمى منزلة منها.

نعم إن الهدية موجبة لاستمالة القلوب ورغبات النفوس، ولكن النبوة وما تدعو إليه عندما يعرض لها أمر الدين في مقابلة منافع دنيوية كثيرة ترجح طرف الدين على طرف المنافع الكثيرة الدنيوية، فتستقل كثيرها لأنها فانية زائلة، وتستكثر من أمور الآخرة لأنها باقية، وهذا ما

فعله سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم لما جاءه الرّسول بالهدية استقل كثرتها وقال: فما آتاني الله من كمالات الدين والقربات والدرجات الأخروية خير ممّا أتاكم من الدنيا وزخارفها بل أنتم وأمثالكم من أهل الدنيا بمثل هديتكم الدنيوية الفانية تفرحون لما خفي عليكم من السعادات الأخروية الباقية.

ولذا تمّ رفض الهدية من هذه الجوانب وقال: ارجع إليهم

وهنا يجب أن نتوقف قليلا حتى نستيقن حقيقة أمر مهم في معالجة توجيه الخطاب الذي صدر من سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم

هل أن الخطاب موجه للهدهد؟

أم أنّه موجه لرئيس الوفد الذي كان يحمل الهدية؟

إن المفسرين الذين تناولوا هذه الآية لم يقدموا الدليل على توجيه الخطاب، فمنهم من اقتصر على واحد فقال:

الخطاب للهدهد

الخطاب لرئيس الوفد

أو جمعهما معا فقال: "ارجع إليهم فليل ارجع خطاب للرسول، وقيل للهدهد محملا كتابا آخر"289.

ومنهم من حدد اسم رئيس الوفد فقال: "ارجع إليهم أي قال سليمان للمنذر بن عمرو أمير الوفد ارجع إليهم بهديتهم"290.

289 - تفسير الرازي، ج 12، ص 13.

290 - تفسير القرطبي، ج 1، ص 4163.

ومهما يكن من الأمر فإن الذي جمع بين الهدهد ورئيس الوفد،
أو الذي تفرد بواحدٍ منهما لم يقدم الدليل فيما ذهب إليه من ترجيح
المخاطب أو المقصود بالخطاب، ولذا ارتأينا أن نوضح المقصود
بالخطاب ونحدده من خلال ما استتجنا من أدلة في سياق النص
ف نقول:

إن رئيس الوفد ليس مقصودا بالخطاب لما يأتي:

قال: ارجع إليهم

قال: فلنأتينهم بجنود

قال: لا قبل لهم بها

قال: ولنخرجنهم

فلو كان المخاطب رئيس الوفد الذي جاء بالهدية لكان الخطاب
بالاسم الصريح في بعض سياق النص:

ارجع إلى قومك

وبضمير المخاطب(الكاف) في البعض الآخر:

فلنأتينكم

لا قبل لكم بها

ولنخرجنكم

فإنّ قال قائل: إنما استخدم ضمير الغائب للتعظيم

فنقول: ليس هنا موضعه، لأنّ استخدام ضمير الغائب للتعظيم في خطاب الحضور يكون في مجال المدح كقوله تعالى: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 291.

وبهذا يخرج رئيس الوفد الذي جاء بالهدية من أنه مقصود بالخطاب.

ولذا؛ فإنّ الهدهد هو المخاطب لما يأتي:

أنّ الهدهد كان قد عاد من بلادهم فهو مناسب لقوله ارجع إليهم.

أنّ الهدهد أسرع في تنفيذ الأمر وإيصال التبليغ.

أنّ الهدهد هو المقصود بالخطاب لعلاقة الحضور بالغياب.

إظهار الاقتدار بعدم مخاطبتهم مباشرة وإسماعهم الخطاب بضمير الغائب يحمل الدم.

وعلى ما تقدم فإنّ المخاطب بكلام سليمان صلّى الله عليه وسلّم هو الهدهد، ويعزز ذلك بقية سياق الآية عندما وصف الحال التي سيكونون عليها إن لم يستجيبوا فقال: (أذلة وهم صاغرون) فوصف حالهم قبل وقوع الحدث دلالة على القدرة والاستطاعة.

وهنا، لا بدّ من الكلام أيضا عن قوله: (أذلة وهم صاغرون) لنقف على البعد الدلالي للمعنى من خلال المفهوم النحوي والمفهوم اللغوي.

. المفهوم النحوي من حيث الإعراب:

أذلة: (حال منصوب بالفتحة) وهو وصف للهيئة.

وهم: (الواو عاطفة هم ضمير مبتدأ)

صاغرون: (خبر للمبتدأ)

جملة وهم صاغرون في محل نصب حال

فكلمة (أذلة) جاءت حال مفردة في وصف حالهم.

الواو عطفت جملة الحال على مفردة الحال.

الضمير المنفصل (هم) جاء للتعين.

كلمة (صاغرون) إخبار عن حال الضمير المنفصل المعين وإن كان

خبراً مرفوعاً.

. المفهوم اللغوي من حيث المعنى

أذلة: يذهب عنهم ما كان يعزهم أو يعتزون به من المال والملك.

وهم صاغرون: وهم منقادون، والانقياد هو الصغار لأنهم سيقعون

في الأسر والاستعباد،

وهذا يترتب عليه أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكاً.

وآخر دليل تقدمه على ذلك من سياق التعبير القرآن وهو تغيير

اتجاه النص في انحاء توجيه المعنى من المخاطب بضمير الحضور بقوله:

(بل أنتم بهديتكم تفرحون).

إلى تحول خطاب الحضور بضمير الغائب بقوله: (ارجع إليهم) وما

بني على ذلك من تتابع في توجيه المعنى إلى ذات الاتجاه بقوله:

فلنأتينهم بجنود

لا قبل لهم بها

ولنخرجنهم

وعليه: فإنّ الخطاب الذي صدر من سليمان صلّى الله عليه وسلّم كان موجهاً للهدهد، لأنّ الموقف لا يُحتمل أن يكون لرئيس الوفد، وإنما جاءت علاقات الحضور عن طريق ضمير الغياب وذلك:

تأدياً مع الضيف في إيصال القصد والمعنى.

استخدام ضمير الغائب في تحقّق الغرض يكون أوقع في النفس.

إظهار التباين في المكانة بين سليمان صلّى الله عليه وسلّم وبين الوفد.

فمن خلال ما أوردنا من الأدلة النصّية والاستنتاجية فإنّ الخطاب كلّه في هذه الآية كان موجهاً للهدهد بناءً على ما تقدم ذكره من أدلة.

إنّ سليمان صلّى الله عليه وسلّم يبين العلاقة بينه وبين الله تعالى في إطاعة أمره وإنفاذ المشيئة من جانب، وعلاقته بالإنسان في سبيل نجاة هذا الإنسان من جانب آخر، لذلك فهو يسعى ضمن الثوابت في ترسيخ هذه العلاقات وذلك:

أنّه نبي خليفة في الأرض مكلف بإصلاح البلاد والعباد.

أنّ الله تعالى آتاه السعادة القصوى بملك لن يتأتى لأحد من بعده ورضا الله تعالى والفوز بالجنّة.

وآتاه من الدنيا ما لا مزيد عليه.

كان التعامل مع القضية بنظرتهم المادية ونظرتهم الروحية، ولذا لم يكن هناك توافق بالمواقف الذي كانت صورته جلية من خلال الكتاب وطريقة الردّ بالهدية.

إذن، هناك أمر هام أسمى من الماديات يدعو إليه سليمان في تقديم اسم الله بكتابه وعدم التكبر لمن أرسل إليهم بالكتاب ودعوتهم إلى الإسلام، وهنا يكمن الهدف من علاقة النبي بالبشر التي تتمثل بين الإنسان والإنسان من أجل غاية أسمى كونه يحمل رسالة وإن كان من البشر.

إنّ هذا التواصل صحيح أنّه قائم على علاقة إنسان بآخر ولكنّه يسمو بدور النبي إلى غاية جليّة تخفى على كثير من الخلق في معالجة مشاكل البشر في كلّ عصر وحين، وقد تجلّى ذلك في أنّه:

جمع الزمان والمكان.

دعوة الكبير والصغير.

المساواة بين الغني والفقير.

دمج الخاصة والعامة.

وذلك في دعوتهم إلى الصراط الحميد الذي يضعهم على جادة الحقّ ليقفوا على اليقين واقتضى ذلك:

آ . دعوة التوحيد وإصلاح ما فسد من عقائد الناس.

ب . وضع أسس علاقات التعامل التي يكون بها إصلاح دنياهم.

ج . توضيح المنهج الإنساني الذي يقوم عليه أمر الدنيا والآخرة

د . تنظيم العلاقة السليمة بين الدنيا والآخرة التي تربط المخلوق

بالخالق

3 . هل أنّ رسالة سليمان كونها خاصة لا تدخل في العموم؟

إنّ رسالة سليمان صلى الله عليه وسلّم وإن كانت خاصة فإنها لا بدّ أن تخرج عن خصوصيتها إلى بعض الأمور العامة لهدف النبوة الذي يحقّق الغاية ويتمثل في:

آ . الدعوة إلى التوحيد حيث قال تعالى على لسان سليمان: {أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ} 292؛ فهي دعوة خاصة لأهل سبأ والإسلام غاية قصوى لمن في الأرض.

ب . بيان مقاصد الرسالة من تحقيق المصالح العامة للناس ودفع المفاسد عنهم قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ} 293 فهذا المقصد وإن كان خاص في رسالة سليمان لقومه فهو يخرج إلى العموم لأن الذي يحقّق خير الدنيا والآخرة هو الهدى وليست الهدايا، وذلك غاية النبوة.

ج . تطهير الأرض من الوثنية والجهل والشرك قال تعالى: {وَجَدْتُمَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَانَهُمْ فَصَدَّتْهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} 294 وهذا يخرج إلى العموم وإن خصّ به ملكة سبأ وقومها.

292 - النمل 31.

293 - النمل 36.

294 - النمل 24.

د . بناء الإنسان الفرد الذي يكون بمجموعه المجتمع الإنساني وهذا شامل في النبوة .

4 . إذا كانت نبوة سليمان تخرج عن خصوصيتها إلى العموم ألا يعني ذلك امتدادها

للمستقبل، وما جاء بعدها هو تصحيح لانحراف البعض وإصلاح ما أفسده المبطلون؟

إنّ رسالة سليمان صلّى الله عليه وسلّم خرجت من الخصوص إلى العموم في أصلها الكلّي بالدعوة إلى التوحيد ورفض عبادة ما دون الله تعالى والدعوة إلى مكارم الأخلاق فهذه القضايا التي أشرنا إليها هي التي تخرجها إلى العموم وتبقى خصوصيتها قائمة على الجزئية بتوجهها إلى قسم من البشر دون القسم الآخر، ولكن اشتراك عمومها يتوافق مع رسل العموم في دعوتهم حيث يتمثل هذا الاشتراك فيما يأتي:

آ . أنها من الضرورات الإنسانية

ب . القيم السامية ثوابت في العرف الإنساني

ج . تشمل الزمان والمكان (قضية التوحيد)

د . بناء الإنسان وإصلاحه ليصلح الأرض ويعمرها هو من مهام الخليفة

ولذا؛ فإنّ نبوة سليمان صلّى الله عليه وسلّم هي امتداد للمستقبل من هذه الجوانب كما أنّها اتصال بسابقتها من جانب الهبة والإرث

وانتفاء الفترة بين انقضاء نبي ومبعث نبي مصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا
لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} {295}.

5 . جاء تخصيص الخلافة بالنص على داوود، فما هو نصيب
سليمان منها؟

هل هو خليفة بالتخصيص استنتاجا وليس بالتنصيص استدراجا؟

كيف نستنتج خصوصية خلافة سليمان دون أن يأتي نصّ بها؟

للإجابة عن خلافة سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لابدّ من
الوقوف على المراد من المشيئة الإلهية في المنهج العام للنبوة لنقف على
خصوصية نبوة سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن الخلافة أبرز سماتها بعد
التوحيد وإن لم يرد في ذلك نصّ.

فالله سبحانه وتعالى جعل المنهج الإلهي الذي ارتضاه للإنسان
وراثه في ذرية النبوة، لأن هذه الذرية التي ارتبطت بآل النبوة من إبراهيم
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كتب الله لها
الهداية وأنعم على آل النبوة بالنعم الباطنة والظاهرة في الآخرة والأولى
وجعلهم خاصة تتمثل فيهم الخلافة التي أرادها الله تعالى من أجل
إصلاح والبلاد والعباد على حدّ سواء، وهم على ذلك لم تكن الحياة
الدنيا مبتغاهم ولا يريدون علوا في الأرض، لذلك ألقى عليهم مودة
ورحمة وجعلهم أئمة يدعون إلى الخير وبه يعملون.

إنّ سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو واحد من هؤلاء الأنبياء
الذين اختصهم الله تعالى بالنبوة، فهو نبي ابن نبي بالتواصل قال تعالى:

{وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 296 فهو نبي مهتدٍ من الله، هادٍ إلى سبيله ومنهجه وهو هبة من الله تعالى لداوود صَلَّى اللهُ عليه وسلّم.

ومن هذه الآية نقف على ثلاثة أمور في غاية الأهمية:

آ . أنّ سليمان هبة من الله لداوود عليهما الصلّاة والسّلام والهبة هي عطاء الواهب بطريق الإنعام والتفضل على سبيل التكريم وليس بمعنى العوض والجزاء الموافق لأعمال الموهوب له.

ب . هو نبي بالتواصل ولم تكن فترة بينه وبين النبي الذي سبقه. فلماذا لم تكن فترة قبل سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم؟

إنّ النزوع الفطري في الإنسان على مستوى الفرد الذي يكون بمجموعه القوم المرسل إليهم، هو الذي يشكلّ قابلية التهيؤ لاستقبال الهدى الإلهي، وما يترتب على ذلك التهيؤ من الاستعداد والإرادة في ممارسة الفعل، وبقدر ما تكون درجة التهيؤ في الاتجاه الصحيح نزاعة إلى الخير، يترتب عليها الاستجابة العالية لتلك الدواعي.

وعليه نقول:

إنّ عدم استكمال التهيؤ في المجتمع أدّى إلى انتفاء الفترة، فكان سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم هبة من الله متممًا للرسالة الإلهية من بعد أبيه من أجل تهيئة من لم يتهيأ لتحقيق الغاية الإلهية حتى لا تحلّ التقاليد الاجتماعية والعادات محلّ الشرعية وتعاليمها.

ج . أنّ الرسالة التي سبقته كانت بحاجة إلى إكمال دعوتها.

ودليلنا في ذلك أمران جاءت بهما النصوص النقلية وهما:

الوهب: قال تعالى {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 297.

الوراثة: قال تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} 298

وهنا يجب أن نوضح ميراث سليمان صلى الله عليه وسلم وهو:

الرسالة

العلم

الخلافة

فهو لم يرث ملكا، لأن ملك سليمان جاء هبة من الله تعالى والذي سنتكلم عنه لاحقا، غير أن الذي يذكر في هذا المجال أن النبوة لا تورث الملك المادي، وإنما ميراث النبوة نفسه يتسلسل من الأعلى إلى الأدنى على النحو الآتي:

آ . التوحيد.

ب . العلم.

ج . الحكمة.

د . مكارم الأخلاق.

297 - ص 30.

298 - النمل 16.

إنّ مجموع هذا الإرث حقّق الخلافة لسليمان صلّى الله عليه وسلّم ليكون قدوة وأسوة حسنة يجب اتباعها لأنها متفقة مع رسائل جميع الأنبياء على الإصلاح، ومن هنا كانت مطابقة للخلافة.

فسليمان صلّى الله عليه وسلّم هو النعمة التامة التي أنعم الله تعالى بها على نبيه داود بعد الخلافة حيث قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ {299}.

الخلافة الإلهية في الأرض لداود صلّى الله عليه وسلّم بتكليف إلهي منصوص عليه.

جميع الأنبياء خلفاء الله في الأرض بالجعل.

خلافة سليمان صلّى الله عليه وسلّم تتمثل في ثلاثة أمور:

الأول: خليفة بالجعل كونه نبيا: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً).

الثاني: خليفة بالوراثة: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ).

الثالث: خليفة بالوهب: وذلك باستجابة دعائه في قوله تعالى:

{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} {300}.

ولذا؛ فإنّ الخلافة في سليمان صلّى الله عليه وسلّم من متمّات ملكه إن لم تكن قطب الرحي الذي يدور حولها ذلك الملك، حيث تمثلت فيه الخلافة من ثلاثة جوانب وهي:

299 - ص 26.

300 - ص 35.

خلافة الجعل.

خلافة الإرث.

خلافة الوهب.

فالله تعالى بإجابته لدعاء سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ملك لا ينبغي لأحد من بعده إنما هو دليل على تمام خلافته في الأرض بحيث أن هذا الملك سيكون مسخرا خدمة للخلافة التي أرادها الله في توضيح المقصد الإلهي ورسم صورة المجتمع الإنساني من خلال أنبيائه الخلفاء الذين هم قدوة للبشر وأسوة حسنة وجب اتباعها من أجل تحقيق الخلافة كما أرادها الله تعالى بقوله: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 301.

ولأن سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوتي من الملك ما لا ينبغي لأحد من بعده (ولم يقل لبشر من بعدي) فإن الخلافة أظهر ما تكون في نبوته بأدواتها الروحية والعلمية والمادية التي ظهرت من خلالها نتائج الخلافة في إصلاح الأرض وما فيها من مخلوقات تتمثل في المرئي المشاهد:

الإنسان.

الحشرات(النمل).

الطير(الهدهد)

الجماد (عين القطر).

وغير المشاهد وهو المعلوم بالدليل النقلى:

الجنّ.

والمحسوس غير المشاهد:

الريح

لقد كان هذا التكريم من الله في هذا النوع من الملك الذي كان أمانة لديه صلى الله عليه وسلم، وهو الخلافة التي نزل سليمان منها منزلته التي أرادها الله تعالى للإنسان في تجسيد معنى الاستخلاف في الأرض الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} 302.

وعندما تساءلت الملائكة مستغربة الاستخلاف في الأرض بقولهم: {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} 303، جاء الجواب من الله عزّ وجلّ ليزيل كلّ استغراب ويعلن إرادته العليا ومشئته التي قضاها في حكمته بقوله تعالى: {قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 304.

وبهذا الجزم الإلهي دخلت قضية الاستخلاف علم الغيب متجاوزة حضرة الجدل الملائكي لتصبح نتائجهما قضية غيبية أودعت في علم الله ولا يعلم نتائجهما أحد من خلقه ملائكة كانوا أم بشرا.

وربّ قائل يقول: أليس جميع الأنبياء خلفاء الله في أرضه؟

والجواب على هذا لا يمكن أن يكون إلا بالإيجاب.

302 – البقرة 30.

303 – البقرة 30.

304 – البقرة 30.

فجميع الأنبياء هم خلفاء الله في الأرض، غير أننا أردنا من هذا التخصيص أن نقف بالقارئ على ما غفل عنه جميع من تناول القصص القرآني من الذين كتبوا في التفسير وقصص الأنبياء فنقول:

. إنّ جميع الأنبياء آتاهم الله تعالى القدرة على أن تكون النار بردا وسلاما عليهم، وتمثل ذلك في إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم.

. إنّ جميع الأنبياء آتاهم الله تعالى القدرة على إبطال السحر وتفجير الماء وفرق البحر، وتمثل ذلك في موسى صلّى الله عليه وسلّم عندما أمره ربّه.

. إنّ جميع الأنبياء آتاهم الله القدرة على إبراء الأكمه والأبرص والأعمى وإحياء الموتى، وتمثل ذلك في عيسى صلّى الله عليه وسلّم.

. إنّ جميع الأنبياء آتاهم الله الخلافة وتمثل ذلك في داوود وسليمان عليهما الصلّاة والسّلام.

ومعنى هذا أن: السمة البارزة في نبيّ من أنبياء الله تعالى هي خاصة فيه من جهة وعامة في جميع الأنبياء من جهة أخرى، إلا أن إظهار هذه الخصوصية في نبيّ أكثر من الآخرين له دلالاته في معطيات عصره وطبيعة التحديات التي يواجهها في ذلك العصر لتوضيح مقصد إلهي، وعلى ما تقدم:

الخلافة عامة في جميع الأنبياء.

الخلافة خاصة في داوود بالنص.

الخلافة خاصّة في سليمان بالاستنتاج.

ملك سليمان:

قال تعالى: { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } 305 وقبل الكلام عن الملك لابد من تناول قضية مهمة تصدرت هذه الآية وهي طلب المغفرة من الله تعالى لنبيه سليمان صلى الله عليه وسلم، وقد ذهب فيها كثيرون مذاهب شتى وأقوال ما أنزل الله بها من سلطان في حق نبي من أنبياء الله اختصه بالنبوة واصطفاه من الخلق ووهب له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده بما سخر له من الجنّ والريح وعلمه منطق الطير، ثم إنّ الله تعالى لا يستحيي من الحق، فلو كان سليمان ارتكب ذنبا أو إثما لكان القرآن الكريم صرح بذلك كما هو الحال في أكثر من موطن مثل نسيان آدم ومغاضبة يونس عليهما الصلاة والسلام.

فقال في آدم: { وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا } 306

وقال في يونس: { وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } 307

فالذي بدر منهما عليهما الصلاة والسلام لم يكن ذنبا ولا إثما ولا معصية، وأما هو شيء من طبائع البشر سواء أكان النسيان أم المغاضبة، ولم يكن غضبا وإنما كان شيء مشترك بينه وبين قومه لأنهم غاضبوه فغاضبهم، وكان الأولى أن يحلم عليهم لعلمه وجهلهم، فكيف لسليمان أن يرتكب ذنبا ثم يستغفر استغفارا خاصا لذلك الذنب.

305 - ص 35.

306 - طه 115.

307 - الأنبياء 87.

إنّ الذي ذهب في فهم الآية وحمل الاستغفار نتيجة بسبب الذنب، فقد ذهب مذهب اليهود والنصارى.

فأما اليهود فليس لنبي إلا ولهم عليه ماخذ: {قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} 308.

وأما النصارى فلا يستثنون من ذلك إلا عيسى صلّى الله عليه وسلّم.

فالذين قالوا بمثل قولهم تشابهت قلوبهم في العقيدة والاتجاه والهوى

لقد بدأ سليمان صلّى الله عليه وسلّم قبل طلب الملك بطلب المغفرة، وهذا لا يعني أنّه ارتكب ذنبا أو إثما وجب أن يستغفر لما بدر منه كما نقف على ذلك في الإسرائيليات ومن أخذ عنها في تفسير بعض الآيات معتمدا على نصوص توراتية يعلم أنّها محرّفة وأقل ما فيها الطعن على الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام، لذلك حملوا الاستغفار المتقدم على طلب الملك بسبب صدور الزلّة من سليمان صلّى الله عليه وسلّم، وحكموا بأنه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة، ونحن إن شاء الله في صدد هذه الآية قبل أن نتكلّم عن الملك لن نترك شاردة ولا واردة في قوله: (اغفر لي) ممّا افترى عليه بها صلّى الله عليه وسلّم إلا ولنحرقنّها ثم لننسفنّها في اليمّ نسفا بالدليل الواضح والحجّة المقنعة ونأتي بالبرهان الساطع والجواب القاطع بحول الله وقوته ابتغاء وجه الله ودفاعا عن نبيه صلّى الله عليه وسلّم.

إنّ مسألة الاستغفار أو طلب المغفرة لا يقتضي بالضرورة أن يكون استغفارا بسبب ذنب صدر من المستغفر، وإن كان هذا المعهود لدى كثير من الناس.

فالاستغفار ليس بالضرورة أن يكون تكفيرا عن ذنب، وربما يكون كذلك، ولكن عندما تتعلّق القضية بنبي من أنبياء الله فالمسألة تستوجب التوقّف وتأمل الأمر من جميع وجوهه، واستنباط الحكمة للوقوف على الحكم من الغاية التي جاء لأجلها الطلب.

إنّ الله سبحانه وتعالى لما اصطفى أنبياءه جعلهم على هدى وعصمهم من الزلة والذنب والإثم والخطيئة ولكن إضافة إلى ذلك فقد أمرهم بالاستغفار والتوبة والرجوع والإنابة مع درجة الهداية التي خصهم بها، وذلك لأنهم خلفاء الله في أرضه وتتمثل فيهم القدوة والأسوة الحسنة فهم يأمرّون بما يفعلون، لذلك قال صلّى الله عليه وسلّم: "إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة وأتوب إليه"309، وهذه بداية الإجابة على ما يقولون، غير أنّ هناك أنواع من الاستغفار لها أسبابها تخرج عن الذنب والإثم والمعصية سنتناول منها ما استطعنا للردّ على تلك الافتراءات. حيث يتمثل معظم الاستغفار بما يأتي:

آ . الاستغفار المفروض:

وهو جميع العبادات المستطاعة التي أمر بها الله تعالى وفرضها على عباده فهي من الاستغفار حيث جعل العلماء أعظم أنواع الاستغفار أداء الفرائض لقول النبي صلّى الله عليه وسلّم حكاية عن ربّه تعالى: "وما تقرب إلي عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه، وما زال عبدي المؤمن يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا، إن دعاني أجبته وإن سألتني أعطيتته، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته، ولا بدّ له منه، وإنّ من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من

309 - مسند أحمد، ج 17، ص 42.

العبادة فأكفه عليه ألا يدخله عجب فيفسده ذلك، وإنّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا السقم، ولو أصححته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير"310.

فهذا باب من الاستغفار يدخل في العبادات المفروضة لا لذنب ولا إثم، وإمّا هو من الطاعة والانقياد فيما افترض الله تعالى على عباده.
ب . الاستغفار الواجب:

إنّ الاستغفار هو طبيعة الفطرة والعقيدة الصحيحة والقلب السليم والعقل الرجيح وهذا النوع من الاستغفار لا يستوجب أن تكون سبقتة معصية أو ارتكاب ذنب أو إثم، وفي هذه الحالة يكون الاستغفار حمداً وتسبيحاً لله تعالى بما تفضل على الإنسان من نعم لا تحصى، أدناها السمع والبصر والرزق، حتى وإن كانوا مؤمنين يعملون الصالحات لذلك قال تعالى: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}311 وهذا واجب على كلّ عبد من عباد الله، فما بالك عندما يكون هذا العبد نبياً كسليمان صلّى الله عليه وسلّم.

ج . الاستغفار المخصوص:

لقد غفر الله تعالى لمحمد صلّى الله عليه وسلّم ما تقدم من ذنبه وما تأخر حيث يقول تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ

310 - شرح السنة، ج 2، ص 382.

311 - سبأ 4.

مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا {312 فقد جاء الفعل (ليغفر) بصيغة المضارع، فلو كان هناك ذنب لجاء الفعل بصيغة الماضي.

ومع هذا فقد أمره بالاستغفار:

لا من قبيل الطاعة فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطوع خلق الله لله.
ولا عن وجوب لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي علّم البشرية واجباتها.

ولا عن ذنب وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر مع نفي الذنب وحاشا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومع هذا فقد أمره الله بالاستغفار بقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ حَصِيمًا وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا {313.

د . استغفار الرغبة والرغبة:

وهو استغفار دفع العذاب والبلاء قبل وقوعه أو خوف وقوعه وهو في علم الغيب وذلك لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ {314.

هـ . الاستغفار من متممات الإيمان:

إذ ليس كل من يقيم الفرائض يستزيد من النوافل، لذلك خص الله تعالى قسما من خلقه باستغفار الأسحار حيث قال تعالى: {الَّذِينَ

312 - الفتح 1، 2.

313 - النساء 105-106.

314 - الأنفال 33.

يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ الصَّابِرِينَ
وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ {315}.

و . الاستغفار للآخرين:

من المعلوم أن الدعاء من المسلم والمؤمن للمسلمين والمؤمنين هو
من ضمن الطاعات والعبادات وفعل الخيرات، ومن شرط الدعاء
للآخرين أن تبتدىء بالدعاء لنفسك ثم تدعو لمن شئت، وهذا النوع من
الدعاء فيه من الحسنات والأجر بعدد من تدعو لهم والله يضاعف لمن
يشاء لذلك قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا
وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا
إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 316 وهنا أصبح الأمر واجبا على الأنبياء
بالاستغفار لمن سبقهم من المؤمنين.

ز . استغفار الطلب:

ويكون هذا النوع من الاستغفار بنية طلب الغيث أو الملك أو
البنين أو كلها مجتمعة، وأما بنص الآية لعلمه تعالى بما تُكفُّ الأنفس وما
تخفي الصدور فقال تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ
لَكُمْ أَنْهَارًا} 317

ح . الاستغفار من الذنب:

وهذا الاستغفار هو طلب العفو من الله تعالى لذنوب أو إثم صدر
عن الإنسان فذكر ربه وندم على ما كان منه فوجبت عليه التوبة

315 - آل عمران 16-17.

316 - الحشر 10.

317 - نوح 10.12.

المشروطة بالاستغفار حيث قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} 318 وهذا من فعل فاحشة أو ظلم نفسه بذنب من الذنوب فيستغفر بالدعاء المعروف (سيد الاستغفار) حيث قال صلى الله عليه وسلم: "سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أبوء لك بالنعمة وأبوء لك بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" 319.

الملك الموهوب:

قال تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} 320. وهنا نتساءل: لماذا قال:

هب لي

ولم يقل:

أعطني

امنحني

إنّ كلّ كلمة من هذه الكلمات تعطي معنى معين غير مترادف وإن اشتركت جميعها في الأخذ والامتلاك، ولكن هذا الأخذ والامتلاك أمّا أن يكون:

جزئياً

318 - آل عمران 135.

319 - مسند أحمد، ج 37، ص 42.

320 - ص 35.

أو كلياً

أو مؤقتاً

أو دائماً

أمّا المنح فهو أخذ الشيء إلى أجل للانتفاع به ثم رده بعد ذلك فقد جاء في لسان العرب: "المنحة مردودة، والمنحة أيضاً تكون في الأرض يمنح الرجل آخر أرضاً ليزرعها"321.

وأمّا العطاء فلا يصح إلا لشيء مادي يتم فيه التناول والتداول، "وقد أعطاه الشيء وعطوت الشيء تناولته باليد والمعاطاة المناولة"322.

وأمّا الوهب فإنه لا يتقيد بأجل أو زمان أو مكان ولا يكون جزاء عمل أو فضيلة سبقت من الموهوب له لذلك فالوهب هو: "الهبة العطية الخالية عن الأعواض والأغراض فإذا كثرت سمي صاحبها وهاباً"323. ولذلك قال سليمان صلّى الله عليه وسلّم: (هب لي) ثم أكد بقوله: (إنك أنت الوهاب).

لقد طلب سليمان صلّى الله عليه وسلّم ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، ومعلوم أن هذا الملك هو ملك في الدنيا بدليل إجابة الدعاء فيما ملكه الله تعالى، ومعلوم أيضاً أن الدنيا عند الله مذمومة وذلك أنّها:

ليست غاية المؤمنين

321 - لسان العرب، ج 2، ص 607.

322 - لسان العرب، ج 15، ص 68.

323 - لسان العرب، ج 1، ص 803.

مدعاة للفتنة واللهو

ما ينبغي أن يطلبها الصالحون فكيف يطلبها نبي؟

وعليه:

لماذا أقدم سليمان على طلب ملك الدنيا؟

والجواب على ذلك يقتضي أن يكون الملك أنواع:

بيع

إرث

تسلط

هبة

والثلاثة الأول من أنواع الملك كثيرا ما يدخلها:

حب المفاخرة

غريزة حبّ التملك

الميل إلى الغنى والثراء

التمتع بمباهج الدنيا وملذاتها

عدم الشكر على النعم

هذه الأمور تغري المالك بالتوسع في أسباب الكسب حلاله
وحرامه، فلا يبالي بأكل أموال الناس بالباطل من ربّا وسرقة وغصب
واختلاس وغش ونحو ذلك إلا ما رحم ربّي، وهذا يترتب عليه حب

التسلط والتعالي والتعاضم فيستكبر ويتجبر على الخلق ويحقرهم ويسخر منهم، وقد تجسد هذا النوع من الملك في قارون.

وكثير من الملك يقوم على:

الغضب

هضم الحقوق

انتشار الظلم

السطوة

إضاعة حقوق الله تعالى

أما ملك الهبة من الله تعالى فهو يختلف عن هبة مخلوق لمخلوق لأنه قائم على:

أداء حقوق الله تعالى في سياسة ملكه

أداء حقوق الخلق

ترتيب منازل الخلق

إقامة حدود الله والمحافظة على رسومها

تعظيم شعائر الله

إظهار عبادته

لزوم طاعته

تنظيم قوانين الأحكام النافذ وفق ما أمر به تعالى

يترتب على ذلك تحقيق الوعود في أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ما صرح بذلك لملائكته فقال: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 324.

ولذلك يخرج طلب سليمان عليه الصلاة والسلام من أن يكون سؤاله طلب الدنيا لذاتها، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أزهّد خلق الله فيها.

ومع ذلك فإنه يدخل في ملك سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ملك ما أحل الله له

ملك الزهد فيما أيدي الآخرين

ولذا، نجد الغاية التي يحرص عليها القرآن الكريم وأحاديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دعوة الإنسان لأن يسعى إلى ما هو أفضل دائما فيما أحل الله له، ولذلك بين الحلال من الحرام، فالحلال يملكه الإنسان، وأمّا الحرام فإنه يملك فيه الإرادة في الامتناع عنه، ولذا كان التفريق في ملك الإرادة أيضا بين من يعبد المادة وبين من يعبد الذي خلق المادة لأن الغاية الإلهية ومراد الله تعالى لخلقه أن الإنسان لا يحتاج إلا إلى اله تعالى لما وهب لخلقه من ملك على تفاوت هذا الملك بين إنسان وآخر، ولكنهم جميعهم يملكون على قدر حاجتهم بما علمه الله تعالى فقدره لهم، وأراد للإنسان أن يكون غنيا:

بالبدن

بالنفس

بالروح

وبقدر ما يتعاضم الشكر من العبد تتعاضم نعم الله عليه، ومن هنا كان الإيمان رابطاً لبلوغ العلو والرفعة ولذا نجد نبي اله سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ {325}.

فالشكر سبب في حفظ النعم وزيادتها، وشكرها يكون في ذكر فضل المنعم بها والمحسن إلينا فيها.

الزهد فيما أيدي الآخرين من أعظم الشكر

عدم الزهد فيما يملكه الإنسان يكون من الشكر

عدم الإسراف والتبذير يكون من الشكر.

مشروعية الدعاء والطلب:

لقد كان سؤال سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده من أجل إعمار الأرض وإصلاحها، إذ ما كان لني أن يدعو الله تعالى إلا لخير من بعث إليهم، فما ينبغي له ولا لني من أنبياء الله تعالى أن:

يدعو بمعصية

يدعو من أجل معصية

يدعو من أجل الدنيا

إنّ دعوة سليمان في طلبه أو سؤاله لله تعالى لا يمكن أن يُحمل على زيادة الخير لنفسه وهو مبعوث من أجل الآخرين، فلا بدّ أن تكون هناك حكمة من وراء دعوة وهب الملك، ذلك أن أدعية الأنبياء مستجابة:

ولأنّها مستجابة لا بدّ أن تكون شاملة

ولأنّها شاملة فهي لعموم الخير

عموم الخير يعني الإصلاح

ولذا، وجب أن نستشهد ببعض أدعية الأنبياء لنقف على حقيقة ما نقول في أنّ هذا الملك لم يكن لسليمان إلا من قبيل التصرف في إعلاء كلمة الله وتسخيره لهدى الناس، إذ أن دعاء النبي أو طلبه لا يمكن أن يكون لمحض الدنيا، فإن كان قد طلب الدنيا، فمن أجل تسخيرها وجعلها طريقا وسبيلا للآخرة وهذه سنة النبوة في دعاء الأنبياء أو طلبهم:

فقد دعا نوح صلى الله عليه وسلّم ربه في قوله تعالى: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجِرًا كَفَّارًا} 326 فكانت دعوة من أجل الإصلاح وإهلاك الفجار والكفار.

ودعوة إبراهيم صلى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ

الأصنام} 327، أي اجعله آمنا في الدنيا من أجل التوحيد وإقامة الشعائر التي أمره الله تعالى بها.

دعوة موسى صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا} 328 فلم تكن دعوته إلا من أجل إعلاء كلمة الله.

دعوة عيسى صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} 329؛ فقد كان طلب قومه طلبا ماديا فجعله تشريعا وآية.

دعوة سليمان صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} 330؛ فقد أوتي سليمان صلى الله عليه وسلم ملكا لا ينبغي لأحدٍ من بعده.

فهل من الممكن أن تخرج دعوة سليمان صلى الله عليه وسلم في طلب الملك عن سنن النبوة التي كانت في الدعاء من أجل الخير والإصلاح، وإن كان ظاهر بعضها يشير إلى الهلاك كدعوة نوح صلى الله عليه وسلم، إلا أنّ نتائجها عموم الخير.

327 - إبراهيم 35.

328 - طه 29-34.

329 - المائدة 114.

330 - ص 35.

الملك وأثره في الاستخلاف:

لقد كان ملك سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هبة من الله تعالى
كما نص على ذلك في محكم التنزيل، من عدة وجوه:

وأول هذه الوجوه هي الاستخلاف الذي أَرَادَهُ اللهُ تعالى ونص
عليه في القرآن الكريم في مواضع كثيرة تأكيداً للخلافة:

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ
خَلِيفَةً} 331.

وقوله تعالى: {أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ
وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ} 332.

وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ
فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} 333.

وقوله تعالى: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ
فِيهِ} 334.

إنَّ هبة الملك لسليمان بحكم استخلاف النبوة في الأرض

هو مستخلف في الأرض لاستعمارها واستغلال خيراتها لمصلحة

النوع

أصل الاستخلاف للفرد والجماعة

331 - البقرة 30.

332 - النمل 62.

333 - الأنعام 165.

334 - الحديد 7.

كلّ إنسان مكلف بأن يكون خليفة

مصلحة النوع تكمن في الهداية

أساس الملك خدمة للهداية

ولذا فملك سليمان للأمة والجماعة وهو مأمور بأن ينفق ممّا
استخلفه الله فيه لقوله تعالى: { وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ } 335.

فإذا كان العدل هو أساس الملك في المفهوم الأخلاقي لصاحب
الملك بما تفرضه عليه الأخلاق لأنّه:

من بني البشر

ينتمي للإنسانية

الإنسانية تحمل قيم

هذه القيم تفرض على الإنسان حسن التصرف بالملك لأنه يؤمن
بهذا المفهوم الأخلاقي الذي يحمل تلك القيم في حسن سياسة ملكه
مراعاة لمصلحة الإنسان، لذلك فإن صاحب الملك يفي بما لا يلزم به
من الآخرين، لأنه هو يريد ذلك، لا لأن المجتمع يرغبه عليه وذلك
بسبب الفطرة السليمة التي تعي أن:

العقل يحرك الضمير

الصراع بين الضمير والعقل

الضمير يستجيب بدوره للعقل

مغالبة هوى النفس

السيطرة على الهوى انتصار للعقل

العقل يختار الوفاء امتثالاً لنداء الأخلاق

اختار الوفاء طمعاً في الثواب لا خوفاً من العقاب

بُعدا عن الشهوة التي تحرك الرغبة في التملك

واقتراباً من السلوك الأخلاقي المثالي

تقرباً إلى الله

استجابة لنداء الإيمان

تحقيقاً لأهداف العقيدة الدينية الأخلاقية.

وصولا للغاية الإلهية.

فإذا كان هذا هو نهج الفطرة السليمة في الملك، فمن باب أولى عندما تضاف إليها النبوة وجب أن يكون الملك خالصاً لله من أجل إعلاء كلمته وتحقيق إرادته.

وعندما نمعن النظر في ملك سليمان صلى الله عليه وسلم نجد أن سوادها الأعظم هو ملك قوّة قال تعالى: {وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} 336. إضافة إلى الملك المادي، فلماذا طغى الجانب المعنوي الذي تمثل في القوّة على الجانب المادي؟

أنواع الملك:

إنّ الطباع البشرية نزاعة إلى الشر أكثر من نزوعها إلى الخير، فلو كانت مفطورة على الشر لفسدت الأرض ومن عليها، ولو كانت

مفطورة على الخير لانتفت الحاجة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لذلك كانت النفس نزاعة، وهذا النزوع يغويها ويعددها عن طريق الحق والعدل والهداية. والقوة أكثر ما يردع النفس عن جموحها وشهواتها، وتمثل هذه القوة بالترغيب والترهيب، لذلك كان ملك سليمان ملك قوة وليس ملك جبروت، وهذا الملك هو هبة من الله تعالى لسليمان صلى الله عليه وسلم حيث ينقسم ملكه على أنواع منها:

. ملك بالأمر قال تعالى: { اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } 337.

. ملك بالطاعة قال تعالى: { أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ } 338.

. ملك بالتصرف قال تعالى: { يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } 339.

. ملك بالتسخير قال تعالى: { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ } 340.

. ملك بالقهر قال تعالى: { فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانَُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ } 341.

337 - النمل 19.

338 - النمل 31.

339 - سبأ 13.

340 - سبأ 12.

وعلى ما تقدم يتبين أنّ سياسة الملك لا تتم بالعدل وحده، وإنما تحتاج إلى جملة من الروادع والزواجر، فهي من أعظم مصالح العباد في المعاش والمعاد؛ فلا تتم سياسة الملك إلا بزواجر وعقوبات تضمنها القوة التي يتحقّق لسليمان من خلالها:

نشر كلمة التوحيد

ردع العصي

اطمئنان المطيع

تحقيق العدالة

نشر الأمن

تصحيح الاعوجاج والانحراف

ومعلوم أنّ قواعد الملك لا تقوم إلا على أسس ولا تستقر إلا على أمور وإن قال قائل إن سليمان نبي وملكه هبة من الله تعالى والذي وهبه الملك يثبته له

نحن نسلم بهذا الرأي، والله تعالى وهبه الملك وثبته له وأرشده إلى التصرف فيه، غير أنّ الملوك من غير الأنبياء يضعون أسساً وقواعد يسرون عليها من أجل استتباب ملكهم وضمنان أمن رعيتهم والحفاظ على أرواح الناس وممتلكاتها، فما بالك عندما يكون هذا الملك نبي من أنبياء الله تعالى

أليس الأحرى أن يكون قدوة في رسم معالم طرق الملك وسبله؟

أليس الأجدر أن يكون المثال الذي يحتذى؟

إذن، من باب أولى أن تتضح هذه المعالم في ملك سليمان صَلَّى
الله عليه وسلّم كونه ملك هبة من الله تعالى الذي خلق الكون ونظمه
وجعل كلّ شيء فيه بحسبان لا مجال فيه للصدفة ولا للأمنيات إلا
العمل وفق منهج مرسوم وطريق معلوم يبين للخلق سياسة الملك
الصالح، وعليه لا بدّ من:

تأسيس ملك

سياسة ملك

فأمّا تأسيس الملك فيكون في تثبيت أوائله ومبادئه وإرساء قواعده
ومبانيه، وقد رأينا من خلال التتبع أن ملك سليمان صَلَّى الله عليه
وسلّم تأسس على ثلاثة ركائز تتضح من خلال النصوص القرآنية وإن
كانت موزعة في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم، فهي تنقسم
على ثلاثة أقسام:

ترسيخ دين:

وهو أثبتها قاعدة وأدومها مدة وأخلصها طاعة وهو أعظم ركن
وأجله ومن أجله كان ملك سليمان قال تعالى: { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } 342 النمل فهو
لم يطلب غير كلمة التوحيد.

إظهار قوّة:

تكون بكثرة العدد ونوعية العدة وإظهار الشجاعة قال تعالى:
{ وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ } 343

342 - النمل 39 - 31

343 - النمل 17

فما كان لنبي ولا لغير نبي من الجنود في كثرة عددها وتنوعها ما كان
لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المال والثروة:

إنَّ الثروة والمال في ملك سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن كان
موجودا وهو أمر لا بدّ منه إلا أن أثره في الملك غير ظاهر فهو من هذا
الجانب يختلف عن بقية الملوك في الاستحواذ على المال والثروة، وهو
استثناء خاص ينفرد به سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جميع الملوك
قال تعالى: { فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا
آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ } 344 فكانت الاستعاضة عن مال
الدنيا بما آتاه الله تعالى من خير الدارين

سياسة الملك:

إنَّ الملك الذي يؤسّس على دعائم ويبنى على ركائز، لا بدّ له من
سياسة محكمة

فبم يساس الملك؟

كما أنّ لتأسيس الملك نظم وأسس وقواعد، كذلك فإن سياسته
تحتاج إلى أمور من أجل الحفاظ عليه وعلى الرعية، ويعتمد على عدة
أمور:

. استمرار القوّة في حراسته والحفاظ عليه حيث قال تعالى:
{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ
وَعَدُوَّكُمْ وَالْآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ } 345.

36 – 344

345 – الأنفال 60.

فقد أكد الله تعالى على إرهاب عدو الله وعدونا، فكيف يكون
الإرهاب؟

إعداد القوّة للترهيب وليس للاستخدام

تبيان مقاليد القوّة الظاهرة للخصم

استعراض القوّة الظاهرة منعا للعدوان

إعداد قوّة غير ظاهر إيمانية فكرية روحية عقلية تشكلّ عنصر
المفاجأة

كلّ هذه العناصر تكون ضمن الإعداد من أجل إرهاب العدو
حتى لا يتجرأ ويعتدي، أمّا في حال وقوع العدوان فقد وجب استخدام
هذه القوّة المعدة من الإرهاب إلى الردع، ولذا فالإرهاب واجب ديني
أخلاقي لكي تنال:

التقدير

الاحترام

الاعتراف

الاعتبار

ولذا؛ فإنّ مفهوم الإرهاب هو إعداد القوّة لمنع العدوان من
المتربّصين الذين يتحينون الفرصة المناسبة من أجل إيقاع الأذى بمن لا
يجعل الإعداد ضمن الإرهاب الرادع.

. الرأي والحكمة في حسن تدييره وانتظامه قال تعالى: { خُذِ الْعَفْوَ
وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } 346.

. المكيدة في فلّ أعدائه من أجل الذود عنه، وهو ردّ الكيد بالكيد
والمكر بالمكر قال تعالى: { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا } 347.

والقوّة لا تتمثل في الجانب المادي فقط مثل العدد والعتاد وما إلى
ذلك من أمور الدول وممالكها، لأن ملك النبوة مغاير لملك البشر
فالقوّة أيضا نراها على ثلاثة أنواع:

قوّة مختصة بالعقل:

قوّة العقل التي أكرم بها ورشح للخلافة في الأرض لإعمارها وإقامة
العدل فيها ولهذا ذلت له طوعا وكرها فانقادت مسخرة له من أجل
مصلحة العباد، إضافة إلى أن:

الإيمان يزيد من قوّة النفس ويبعثه على فعل الخيرات، ذلك لأنه
يجعل صاحبه بين أيدي الله العليم القدير الذي بيده الأمر وإليه المصير،
فما بالك عندما يكون نبيا

قوّة الرأي المختصة بالتدبير:

ويرفد ذلك الحزم في الإدارة والتنظيم النابع من العقل والعلم
وأخلاق النبوة، وأمّهات الأخلاق في النبوة وأصولها أربعة:

الحكمة

العدل

346 - الأعراف 199.

347 - الطارق 15 - 16.

الشجاعة

العفة

فالحكمة حالة يدرك بها الصواب من الخطأ

والعدل حالة للنفس وقوة بها تكبح الغضب والشهوة وتحملهما
على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب
مقتضيات الخير

والشجاعة تكمن في انقياد قوة الغضب للعقل في إقدامها
وإحجامها

والعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب الشرع والعقل

فمن اجتمع هذه الأصول الأربعة تنبع مكارم أخلاق النبوة، ومن
اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير الذي ينطوي على:

جودة الذهن

ثقابة الرأي

إصابة الظنّ

التفطن لدقائق الأمور

فهذه الأمور تحمل ثمرة الحكمة، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة
وبذلك تتم عدالة الملك على الوجه الذي أراده الله تعالى.

لقد انقطع ملك سليمان عن غيره بسبب دعوته في ملك لا
ينبغي لأحد من بعده، إضافة إلى أنه ورث أباه داوود:

وراثه الزبور من ضمن العلم

وراثة القضاء

عُلم التفهيم

عُلم التعليم

عُلم منطق الطير

عُلم قول النمل

الفهم من المجالس وقت القضاء

لذلك جمع سليمان من ملكات الوهب والكسب والوراثة والتجربة
فكان يمتلك:

الرأي: وهو توظيف العقل في التمييز بين القضايا، ولا يتكون
الرأي إلا مع اثنين أو أكثر (أنا والآخر).

الحكمة: يتوصل بها إلى نتيجة من خلال الاستماع.

الاختيار: هو الحزم في صواب الأمر من مجموع التصورات العقلية.

وقوله: (لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي) فيه أكثر من وجه من حيث
معني أحد وهي:

. لفظ أحد جاء بصيغة المفرد

. دلالة التنكير أعطت معنى العموم

. هذا العموم أفاد نفى الملك الموهوب لغير سليمان

. الملك لا ينبغي لاثنين

. رسالة النبوة لا تنبغي لاثنين فهارون وزير لموسى

. الملك لا ينبغي إلا لواحد

. مصدر تمكين الملك واحد

. الملك المطلق واحد

. {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا

يَصِفُونَ} 348.

. الملك لا يصلح إلا لواحد

. لأنّ الملك لا يأتي إلا من الواحد

فالواحد سبحانه وتعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ
لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ} 349، "حكم الله تعالى بأنّ مثل مثله ليس بشيء، ولا
شك أن كلّ شيء مثل لمثل نفسه، وثبت بهذه الآية أن مثل مثله ليس
بشيء ينتج أنه تعالى غير مسمى بالشيء، فإن قالوا إن الكاف زائدة،
قلنا هذا الكلام معناه أن هذا الحرف من كلام الله تعالى لغو وعبث
وباطل، ومعلوم أن هذا الكلام هو الباطل، ومتى قلنا إن هذا الحرف
ليس بباطل صارت الحجّة التي ذكرناها في غاية القوّة والكمال.

كما إنّ لفظ الشيء لا يفيد صفة من صفات الجلال والعظمة
والمدح والثناء، وأسماء الله تعالى يجب كونها كذلك ينتج أن لفظ الشيء
ليس اسماً لله تعالى، أمّا قولنا إن اسم الشيء لا يفيد المدح والجلال
فظاهر، وذلك لأن المفهوم من لفظ الشيء قدر مشترك بين الذرة
الحقيرة وبين أشرف الأشياء، وإذا كان كذلك كان المفهوم من لفظ

348 - الأنبياء 22.

349 - الشورى 11-12.

الشيء حاصلًا في أحسن الأشياء وذلك يدل على أن اسم الشيء لا يفيد صفة المدح والجلال، وأمّا قولنا: إن أسماء الله يجب أن تكون دالة على صفة المدح والجلال، فالدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ {350، والاستدلال بالآية أن كون الأسماء حسنة لا معنى له إلا كونها دالة على الصفات الحسنة الرفيعة الجليلة، فإذا لم يدل الاسم على هذا المعنى لم يكن الاسم حسنا ثم إنه تعالى أمرنا بأن ندعوه بهذه الأسماء ثم قال بعد ذلك وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ، وهذا كالتنبيه على أن من دعاه بغير تلك الأسماء الحسنة فقد أهدى في أسماء الله، فتصير هذه الآية دالة دلالة قوية على أنه ليس للعبد أن يدعو الله إلا بالأسماء الحسنة الدالة على صفات الجلال والمدح، وإذا ثبت هاتان المقدمتان فقد حصل المطلوب"351.

وانتفاء التماثل علته تعالى الواحد عما سواه، فالواحد أكبر من كلّ شيء فتعالى الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو المراد من قوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، وأمّا تعاليه عن كلّ شيء في ذاته، فيحتمل أن يكون المعنى جل بوجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغير عليه، وأن يكون المعنى جل بفرديته ووحدانيته عن مشابهة شيء من الممكنات، وأمّا تعاليه عن كلّ شيء في صفاته فيحتمل أن يكون المعنى جل أن يكون علمه ضروريا أو كسبيا أو تصورا أو تصديقا وفي قدرته أن يحتاج إلى مادة ومدة ومثال وجلب غرض ومنال، وأمّا في أفعاله فجل أن يكون الوجود والبقاء وصلاح حال الوجود إلا من قبله352.

350 - الأعراف 180.

351 - تفسير الرازي، ج 1، ص 106.

352 - تفسير الرازي، ج 11، ص 381.

فالواحد له أحادية الوجود، فليس هناك حقيقة إلا حقيقته، وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده، وكلّ موجود آخر إنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة.

وهي من ثم أحادية الفاعلية، فليس سواه فاعلا لشيء، أو فاعلا في شيء، فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصور، خلص القلب من كلّ غاشية ومن كلّ شائبة، ومن كلّ تعلق بغير هذه اللذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية³⁵³.

وعليه: فالملك للواحد

وتمكن الملك من الواحد

والذي مكن لسليمان هو الواحد

فالواحد المطلق هو المتمكن من الأحادية لعدم التماثل مع الغير لانتفاء وجود من يماثله جل في علاه لدواعي هي:

1 . التماثل يكون حقيقة في أخص الأوصاف وهو الذات³⁵⁴.
ولفهم هذا الافتراض يجب أن نعرف عن الذات ما يؤكد عدم التماثل مع ذات أخرى، يجب أولا البحث في ماهية الذات، ولا بدّ لهذا النمط المعرفي من سلسلة افتراضات هي:

هل الذات جزء لكلّ؟

هل الذات كلّ لأجزاء؟

هل الذات مطلق؟

353 - في ظلال القرآن، سيد قطب، ج 8، ص 127.

354 - الفروق اللغوية، ج 1، ص 481.

لمناقشة الافتراض الأول نقول لا يمكن أن تكون الذات جزءاً لكلّ لأن ذلك يقتضي وجود كلّ يتجزأ منه بفعل إرادي أو لا إرادي ويزمن استغراقي يتمخض لا محالة عن وجود أجزاء مكملة.

والذات منتفٍ عنها هذا، فلا توالد أوجدها ولا أوجد لها، {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} 355، فالإيجاد (لم يولد) معناه حدوث وإقرار بأسبقيه سواء عزّ وجلّ، والتوالد (لم يلد) معناه الاشتراك في الصفة والحكم والفعل وهو ما ذهب إليه أصحاب الثالوث، {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} 356. أي أنهم جعلوا لله جزءاً كما يقول سبحانه وتعالى: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ} 357.

وهذا كفر مبین لا يقبله العقل لان الاشتراك يوجب أن تكون الأجزاء المكونة لكلّ بذات القدرة على الإتيان بفعل واحد في برهة واحدة وبجودة متطابقة كليّة، وهذا وهم وقع فيه أصحاب هذا الادعاء لأن الله سبحانه وتعالى يفوق عيسى صلّى الله عليه وسلّم بالمطلق، ويعجز عيسى عن أن يكون بعض ذات الله بالمطلق وهو ما أقر به لسانه صلّى الله عليه وسلّم كما يخبرنا العليم عزّ وجلّ فيقول: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْتِنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ

355 - الإخلاص 3.

356 - النساء 171.

357 - الزخرف 15.

فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ
وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {358}.

ولذا؛ فإنَّ الخالق لا يقارن بالمخلوق وذلك لانعدام التماثل، وهذا
مرتبط بخلق عيسى صلى الله عليه وسلم فهو يمرض ويجوع ويغضب
ويهلح ويضعف ثم بعد ذلك هو يموت، فمن أين جاء الاشتراك مع الله
في صفة أو حكم أو فعل؟

فالذات ليست جزءا، فهل تكون كلاً لأجزاء كما في الافتراض

الثاني؟

هذا غير ممكن أيضا لأن الكلّ قابل للتجزئة بكلّ حال من
الأحوال، ممّا يفضي إلى وجود أجزاء متحدة للتكوين، وهو يستلزم
وجود قوّة رابطة للأجزاء وكلّ ذلك محتاج ولا بدّ من استغراق الزمن
للتكون والاتحاد، ثم بعد ذلك يتوجب اتفاق الأجزاء، وهو أمر
مستحيل كما يخبرنا الخبر عزّ وجلّ: {أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ
يُنشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ
هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ {359}.

358 - المائدة 116-117.

359 - الأنبياء 21-24.

بقي الفرض الثالث: (المطلق) وهو يليق بوصف الذات لأن المطلق يدل على الماهية بلا قيد³⁶⁰، أي ينتفي عن الوصف بالمطلق البداية والنهاية، والزمن واستغراقه، كما أن المطلق لا يحتويه الحيز وهو محتويه. والمطلق يوجب اتصاف الذات بإطلاقية الفعل، فإذا عرفنا هذا نسأل هل هناك ذوات تماثل ذات الله في مطلقية الفعل؟ الجواب بالطبع موجود في بقية الذوات فلا يوجد تماثل قادر على إقامة المماثلة مع ذات الله سبحانه وتعالى. ونقول الجواب في بقية الذوات لان ذات الله باقية من قبل ومن بعد فهو الباقي، أما الذوات فإنها متغيرة ومتجددة ولكن مع تغيرها ومع تجددها فهي غير قادرة على أن تماثل ذات الله وإن سعت كلّ السعي.

2- التماثل هو التعادل في تناظر وتناسب³⁶¹. { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ }³⁶².

يَعْدِلُونَ من العدل بمعنى العدول أو منه بمعنى التسوية، والكفر يحتمل أن يكون بمعنى الشرك المقابل للإيمان، أو بمعنى: كفران النعمة، والمعنى: أنه سبحانه خلق هذه النعم الجسام والمخلوقات العظام التي دخل فيها كلّ ما سواه، ثم إنّ هؤلاء الكفرة أو هؤلاء الجاحدين للنعم يسوّون به غيره ممن لا يقدر عليها وهم في قبضة تصرفه ومهاد تربيته³⁶³.

³⁶⁰ - محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ج 1، ص 663.

³⁶¹ - معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 145.

³⁶² - الأنعام 1.

³⁶³ - تفسير الالوسي، ج 5، ص 220.

والعقل البشري مهما توسع ونضج وارتقى فإنه عاجز عن إيجاد مُعادل يناسب وينظر الله جل تعالى عما يشرك المشركون، لأنه الله الذي لا إله إلا هو، ولأنّ ما سواه مطوق بالعجز عن معادلة الله في فعل أو قول أو اسم أو صفة، لذا فإن بعض الكفار عندما أرادوا إقامة المعادلة أعيتهم الحيلة فأقاموا المعادلة بين أرضي وأرضي لأنهم يعلمون علم اليقين أن ما من أرضي يعدل الله في عرشه فقالوا للرسول وكما يخبرنا عنهم العليم الخبير جل في علاه: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَأَلْهِنَّا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} 364، فالكفار لما سمعوا أنّ النصارى يعبدون عيسى قالوا إذا عبدوا عيسى فألهتنا خير من عيسى، روي أنه لما نزل قوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} 365، قال عبد الله بن الزبير: هذا خاصة لنا ولألهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: بل لجميع الأمم فقال خصمتك وربّ الكعبة، ألسنت تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيرا وعلى أمه، وقد علمت أنّ النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيزا والملائكة يعبدون، فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وألهتنا معهم فسكت النبي صلى الله عليه وسلم وفرح القوم وضحكوا وضحجوا، فأنزل الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} 366. وهكذا فإنّ الكفار لم يستطيعوا إيجاد من يقوموا بمعادلته بالله فكان مثاهم أن عادوا عيسى صلى الله عليه وسلم بألهتهم وهي معادلة فارغة

364 - الزخرف 57-59.

365 - الأنبياء 98.

366 - الأنبياء 110.

من المعنى والمضمون لأنها تفتقر إلى مساحة علائقية تربط أطراف المعادلة.

3- التماثل هو المشاركة في النوع والماهية لا مطلق المشاركة، فالفرس الكيس وإن كان بالغاً في الكياسة ما بلغ لا يكون مُمَثِّلاً للإنسان لمخالفته له بالنوع وإن شابهه بالكياسة التي هي عارضة خارجة عن المقومات للإنسانية؛ وأنت تعلم بأدنى التفات أنه لا يتصور الشركة بين الله تعالى الحي العليم المرید القادر المتكلم السميع البصير وبين العبد المتصف بالحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر إلا في إطلاق الاسم لا غير 367.

وهذه مسألة في غاية الأهمية لمن يريد معرفة الواحد سبحانه، لأنّ النظير والشبيه منتفٍ للنقص الحاصل في الكلّ سواه سبحانه وتعالى عما يشركون.

وسليمان صلّى الله عليه وسلّم علم معنى الواحد وفهمه وفق ميزان النبوة في التصرف والاتصاف والتمثل في المعنى والسلوك، فيتخذ لنفسه منهجاً متميزاً يجعله واحداً من الخلق متميزاً بقدرته على الفعل المميز والمتفوق الواعي دون أن يغفل عن أنه الواحد بالإضافة وأن الواحد المطلق هو الله جل في علاه.

فالواحد له الكمال المطلق الذي لم يرتق إلى قدرته أحد لأنّه يملك القدرة المطلقة، فهو القادر على كلّ شيء، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ 368، وهو القادر على فعل الأشياء بما يفوق أي فعل لقادر آخر لأنّ قدرة الآخر ناقصة لا محالة

367 - تفسير الألوسي، ج 6، ص 465.

368 - آل عمران 189.

وقدرته مطلقة فهو واحد في قدرته، وسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واحد في نبوته بعصره لأنه اتصف بصفات الله تعالى، فكان واحدا في قدرته بما يمتلك من الوسائل جعلته واحدا في كلِّ شيء على المستوى البشري، لأنَّ تلك الوسائل كانت هبة من الواحد المطلق سبحانه، وهي وسائل مشروعة من الله تعالى لا تنبغي لأحد من بعد سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولفظ (واحد) يراد به في اللغة ما يقابل المتعدد ومن تتبع مواقفه في القرآن وغيره من الكلام العربيّ الفصيح وجده يأتي وصفا لموصوف ويكون هناك شيء محكوم عليه بالموصوف مع وصفه، فعدم التعدد يكون للمحكوم عليه باعتبار الموصوف، قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ {369}، حكم على الناس فيما كانوا عليه بقوله (أمة واحدة) فعدم التعدد ثابت للناس باعتبار (أمة) أي لم يكونوا أمتين أو أكثر، وقد يصرح في الكلام بالمحكوم عليه وبالموصوف كما رأيت، وقد يطوى ذكر أحدهما فيعرف بالتدبر. وعلى كلِّ حال، فإنه يأتي على أحد معنيين:

الأول: نفي التعدد في المحكوم عليه نفسه كالمثال السابق: نفي أن يكون الناس أمتين أو أكثر.

المعنى الثاني: نفي أن يكون مع المحكوم عليه مثله أو مثلاه أو أمثاله باعتبار الموصوف فيكون المجموع متعددا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ {370}، أي ليس معه إله آخر أو أكثر فيكون المجموع متعددا، ومن هذا الثاني قولهم: فلان واحد في فنه. واحد زمانه، أي لا نظير له في ذلك.

369 - البقرة 213.

370 - البقرة 163.

فالواحد المطلق هو الله تعالى، وكلّ نبي من أنبيائه هو واحد زمانه،
لأنّه يستمد هذه الصفة بالنسبية من الواحد عزّ وجلّ، وعليه لأن
سليمان استمد صفة الواحد النسبية من الواحد المطلق واتصف بها
فكان واحد زمانه صلّى الله عليه وسلّم.

وهذا يطرح تساؤلات جديدة مبنية على ما تقدم:

. أياكون الملك الموهوب من الواحد عبثاً؟

. ألا يكون وراء هذا الملك الواحد هدف؟

. ألا يكون طالب الملك على بينة من الهدف في ملكه؟

. ألا يكمن وراء هذا الهدف غاية؟

. ألا تكون هذه الغاية مرضاة الله تعالى في تأسيس هذا الملك

وسياسته؟

ولأن الغاية هي مرضاة الله تعالى في طاعته من أجل الأجر
والدرجة والجزاء، وعليه: يكون الملك ابتلاء، وفي الابتلاء يكون أعظم
الأجر وأرفع الدرجة ولذلك تتعلق إجابات كثيرة بهذا الطلب من حيث
الهدف والغاية الأمر الذي يطرح أسئلة عديدة من وراء طلب هذا الملك
منها:

هل سأل منع السؤال بعده حتى لا يتعلق به أمل أحد؟

أم سأل منع الإجابة؟

أم سأل خصوصية يستدل بها على مكانته عند الله؟

إنّ سؤاله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده أول ما يبدو منه:

محلّه وكرامته من الله ظاهر في خلق السماوات والأرض.

عظمة هذا الملك جزء من ملك الله تعالى

الاستدلال على عظمة الكلّ من خلال عظمة الجزء

تسخير هذا الملك في الوجه الذي يجعل سليمان في محل تنافس

لأنّ الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام لهم تنافس في المحل والرفعة والمكانة عند الله تعالى، لذلك قال صلّى الله عليه وسلّم: "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه من صلّى على صلاة صلّى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنّة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة" 371.

العلم جزء من ملك سليمان:

إنّ العلم الذي آتاه الله تعالى لسليمان صلّى الله عليه وسلّم هو أيضا جزء من الملك فقد قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} 372. ومع أنّ العلم هو لداوود وسليمان عليهما الصلّاة والسّلام، إلا أننا نرى أن نصيب سليمان منه كان أكثر من نصيب أبيه وذلك:

أنّ الله تعالى آتى داوود وسليمان علما

أن علم كلّ واحد منهما لم يكن مطابقا لعلم الآخر

لو كان مطابقا لكانت الكفاية في علم واحد منهما

371 - صحيح مسلم، ج 2، ص 4.

372 - النمل 115.

ورث سليمانُ داوود

أولى المواريث من داوود لسليمان هو العلم

أجتمع لسليمان علمه وعلم أبيه

سليمان وهب ملكا فهو أيضا وهب علم ملكه

اجتمع لسليمان من العلم ما لم يجتمع لأبيه

وهذا العلم من العليم المطلق الذي يتصف به والعلم صفة من

صفاته.

فالعليم صفة لازمة لله تعالى مطلقة يمكن استمدادها من قبل

المستخلفين في الأرض ويمكن أن تُوهب لهم هبة من العليم المطلق ممّا

يجعلهم علماء في دائرة النسبية وهذا ما قصد إليه سليمان صلّى الله

عليه وسلّم.

العليم: هو المدرك لما يخلق قبل خلقه، والمدرك لأمره أثناء خلقه،

وهو الذي لا تخفى عليه خافية فيما جرى قبل الخلق وأثنائه، وهو

المذكّر لمن أراد أن يتذكر أو يهتدي للحقّ الذي هو أعلم به. إنه مصدر

العلم الناقل من الظلمة إلى النور. العلم الذي لا يقتصر على الأبصار

فقط، بل العلم الذي يمتد إلى البصيرة فيدرك إدراكا. العلم الذي

تستنبطه العقول وتستدل عليه بالحجّة والبرهان والآية الدالة على

الإثبات بالمطلق.

فسليمان صلّى الله عليه وسلّم عليم بالإضافة فهو المؤقت الذي لا

يقتى مهما أمّ من علم العليم المطلق، ولذا فالعلم الدائم للحي الدائم

والعلم المؤقت للعليم المؤقت.

ولأنّ سليمان عُلِّمَ من العليم المطلق فهو متمكن من العلم الذي أظهره عليه العالم المطلق مباشرة كما هو حال الرّسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أو كالمؤمنين الذين اهتدوا بالعلم الذي أظهره لهم الرّسل والأنبياء وبما تركوه لهم من علوم ومعجزات.

والعلم الذي آتاه الله لسليمان هو محتوى ومضمون لكامن وظاهر، يُعَلَّم من عالم ويُستمد من عليم حكيم.

وللعلم علاقة مباشرة بالحكمة، والسمع والخلق والعزة والقدرة والفتح والخبرة وفقا لما جاء في قوله تعالى في الآيات التالية:

1 . علاقته بالحكمة مصداقا لقوله تعالى: { قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } 373.

2 . علاقته بالسمع كما قال تعالى: { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } 374.

3 . علاقته بالخلق كما قال تعالى: { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } 375.

4 . علاقته بالعزة، مصداقا لقوله تعالى: { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } 376.

5 . علاقته بالقدرة، قال تعالى: { يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقُدِيرُ } 377.

373 . البقرة، 32.

374 . الأنفال، 61.

375 . الحجر، 86.

376 . الزخرف، 9.

6. علاقته بالفتح، قال تعالى: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} {378}.

7. علاقته بالخبرة، قال تعالى: {وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} {379}.

فسليمان صَلَّى الله عليه وسلّم هو عليم بالإضافة وهو الملم إلماما بالعلوم التي أظهره عليها العليم المطلق، ممّا يجعله يعلم ما لم يعلمه غيره وفي هذه خصوصية لمن يصطفاهم الله لسرّ من أسراره وحكمة من حكمته، فكما علّم سليمان كذلك علّم يوسف صَلَّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: {وكذلك يجتبيك ربّك ويُعلّمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أمّتها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إنّ ربّك عليم حكيم} {380}. ولأنّ أمر الأسرار والحكم التي من وراء العلم ليس هينا فيتولى الله اختيار وتفضيل من هم متهيئون لهذه المهمة الصعبة فيصطفاهم لها، ويعلمهم ما لم يعلموا إظهارا، فتصبح رؤاهم سابقة على حدوث الفعل، أي أنّ المعلومة التي تتعلق بأمرٍ سيحدث يتم اطلاع البعض عليها حتى يصبحوا أهل قدرة على الأنباء بما قبل حدوثها وإن حدثت فهم لها خير مفسرٍ. حيث قال تعالى حكاية عن سليمان: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} {381}. ووفقا لهذه القاعدة كذلك كان يوسف صَلَّى الله عليه وسلّم خير مفسر للأحاديث، التي علمه العليم تأويلها.

377 - الروم 54.

378 - سبأ، 26.

379 - التحريم، 3.

380 - يوسف، 6.

381 - النمل 38.

وقوله: (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) يقصد بالنعمة النبوة التي أخص بها الله آل إبراهيم والذين جاءوا من أصلاهم إسحاق ويعقوب ويوسف وداوود وسليمان وآخرين من بعدهم ومن بينهم موسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا الصلاة والسلام.

ومع أنّ الله سبحانه وتعالى أطلع بعض من اختصهم على بعض من العلم إلا أنّ علم الغيب لا يعلمه سليمان ولا غيره حيث قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 382؛ فقد احتوت هذه الآية الكريمة على ثمانية علوم هي:

- 1 . علم الساعة الذي لا يعلمه إلا هو. (إنّ الله عنده علم الساعة).
- 2 . علم الغيث الذي لا ينزله إلا هو سبحانه وتعالى: (ويُنزل الغيث).
- 3 . علم الأرحام لا يعلم تمامه وكماله إلا هو. (ويعلم ما في الأرحام).
- 4 . علم النفس وما تخفي في باطنها لا يعلمه إلا هو. (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت).
- 5 . علم الاكتساب والجزاء ثوابا أو عقاب في الآخرة لا يعلمه إلا هو. (ماذا تكسب غدا).

6 . علم الزّمن المطلق الذي سينقلنا إلى يوم غدٍ علم غيب . وهو الزمن المستنبط ممّا تحويه الآية بداية من الساعة إلى ما ستكسبه النفس غداً).

7 . علم الموت ومكانه الذي يعرفه الجميع ويؤمنون به لا يعلمه إلا هو . (بأيّ أرض تموت).

8 . علم الخبرة والدراية التامة لا يعلمه إلا هو: (إنّ الله عليم خبير).

ومع أنّ الله هو عالم الغيب والشهادة، إلا أنه يُظهر على علمه من يشاء من رسول، وما يظهره من علم لرسول يشاءه يظهره على يديه للآخرين ليعلموا أنهم لم يؤثروا من العلم إلا قليلاً فقد علم سليمان منطق الطير قال تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} {383، وليعلموا أن وراء العلم عليم يعلم ما في السماوات وما في الأرض فإن أرادوا علماً فعليهم بالتوجه إلى عالم الغيب الذي بيده ما لا يعلمون، مصداقاً لقوله: {عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عدداً} {384.

ولذا؛ فمن يتوجه بالإيمان إلى عالم الغيب ليزيده علماً من علمه يزدده حتى يرفعه درجة، ومن يطلب المزيد يزيده ليرفعه إلى درجة من العلم أكبر، وهكذا كان سليمان صلّى الله عليه وسلّم دائماً يطلب المزيد العلمي بشكره لله تعالى الذي يظهره على الآيات العظام ويُمكنه

383 - النمل 16.

384 - الجن، 27، 28.

من إصلاح الأرض وإعمارها، والشكر مدعاة لزيادة النعم حيث نقف على ذلك عند سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 385. وكلما زاد الشكر زادت النعمة كما قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} 386. الدرجات مراتب من العلم لا يتمكن منها إلا من يطلع عليها ويدركها لأجل أن ينقلها للآخرين ليتمكنوا من المزيد العلمي الذي يفيدهم في حياتهم ومآتهم ويوم بعثهم.

وهنا نقف على إحدى مهام الأنبياء التي تتمثل في إظهار علم الله الذي أظهرهم عليه ليكونوا للناس قدوة في رسم طرق الألفة والمحبة والعمل الصالح الذي يرضي الله تبارك وتعالى. ولذلك لا ينبغي أن يُحجب العلم الذي هو من عند الله عن عباد الله، ومن يجب علمه عن عباده مهما أُوتي من درجات العلم فلن يبقى على درجته إن لم يسع لتعميمه، فالذي يُسقط العالم من درجات علمه هو أن يجب ما ظهر عليه من علم منه تعالى عن الذين يُراد لهم أن يكونوا خلائف في الأرض، وليتخذوا الرُّسُل قدوة حسنة لهم في ذلك، فهم الذين ظلوا على أعلى الدرجات بما بذلوه من جهد في سبيل التبشير والدعوة والإنذار والتحريض على القول الحقّ والفعل الحقّ والسلوك الحقّ طاعة لأمر الله تعالى، {قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} 387. ولذلك، لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فالذين يعلمون

385 - النمل 18-19.

386 - المجادلة، 11.

387 - الملك، 26.

يُظهرون ما أظهرهم الله عليه للعباد حتى يؤمنوا ويهتدوا إلى الحقّ
والسبيل السليم. والذين لا يعلمون هم يجهلون وهم في حاجة لمن
يظهرهم من الظلمات إلى النور ليروا الحقّ ويتبينوه من الباطل. قال
تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُولُو الْأَلْبَابِ} {388}.

ومع أنّه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إلا أن العبد
المؤمن هو الذي دائما يذكر ربّه بإيمانه فيما يقول وفيما يعمل، ولذا
فالعلم الذي به يكسب العباد يجب أن يُدرك ويُبلغ بالحلال لا بالحرام،
ولا ينبغي أن يغش المؤمن بعلمه أي إنسان في مشرّبه ومأكّله ومركوبه،
وفي الحديث: (فمن غشنا ليس منا) أي لا ينبغي أن تغش بما عرفت
من علم المكاسب والطعام الذي منه يتغذى البشر، ولا تغش الدواء
الذي به يعالجون أمراضهم ومرضاهم، ولا تسهم بعلمك فيما يُدمر
الخلق والخلائق، فالعلم النافع هو الذي ينفع الناس ولا يضرهم، فإن
كان الناتج من وراء العلم ضرر، فإن هذا العلم لا يعد بالعلم الحقّ، إنه
العلم الباطل الذي يستوجب أن يُبطل بعلم الحقّ النافع.

فسليمان عليم بالنسبية لما علمه الله فكان عليما من هذا الوجه،
وأما من ناحية الحرص على إحصاء المعلم وحصره فلا يمكنه الإتيان به
لا من حيث النوع ولا من حيث الكم، فمن حيث النوع:

يستطيع الأنبياء بما علمهم الله الحصول على الظاهر أو المعلن أمّا
المخفي المكنون فلا يمكنهم ذلك بينما العليم يعلم المطلق، فهو الذي

يقول عن نفسه جل شأنه: {وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ
وَأَخْفَى} 389.

حيث الكم:

فلا يمكن لنبي أن يحيط بكل المعلومات لأن قدرته محدودة على
الحفظ وعلى الاستيعاب، لكن ذلك لا يثنيه عن القيام بدوره فيعمل
على قدر استطاعته ويترك الباقي للعليم وله في ذلك عذر لأن العليم
يقول سبحانه: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا
مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا
إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ
وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ} 390.

ومن وجوه النقص التي تمنع المخلوق من أن يكون عليما بالمطلق،
أن كشفه وإن اتضح فلا يبلغ الغاية في معرفتها، بل تكون مشاهدته
للأشياء كأنه يراها من وراء ستر رقيق ولا تنكرن درجات الكشف فإن
البصيرة الباطنة كالבصر الظاهر، كما أن علم العليم سبحانه وتعالى
بالأشياء غير مستفاد من الأشياء بل الأشياء مستفادة منه وعلم العبد
بالأشياء تابع للأشياء وحاصل بها 391.

العليم هو الذي يعلم علما مطلقا، ويقوم بتعليم من يشاء من
خلقه، ولكن يجب أن نعرف أن العليم لا يهب العلم مطلقا وهذه
إرادته سبحانه نص عليها بقوله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ

389 - طه 7.

390 - البقرة 286.

391 - المقصد الأسنى 1، 86.

أَمْرٍ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} {392، وهي حقيقة يعرفها الأنبياء قبل غيرهم من العباد، {قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} {393.

وتعليم العليم ينقسم على قسمين:

القسم الأول: علم عام غير مخصوص وهو لكل العباد كما يقول الخالق سبحانه: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} {394 والمراد من الإنسان هو الجنس.

والقسم الثاني: هناك العلم المخصوص، والمخصوص يحتل خصوصية الاختيار للمعلم، والعلم المخصوص، فالعليم سبحانه يختار من يشاء من خلقه فيخصصهم بالعلم مثل العبد الصالح في قوله تعالى {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا} {395، وداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} {396. فقد علم داود صناعة الدروع، {وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ لُبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّنْكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ} {397. وهو علم تطور فيما بعد ليصل إلى مراتب دقيقة ومتطورة وصلت الآن إلى ما يسمى بالدرع الصاروخي وسيستمر الإنسان بتطوير علم داود إلى أن يشاء الله.

392 - الإسراء 85.

393 - الملك 26.

394 - الرحمن 1-4.

395 - الكهف 65.

396 - النمل 15.

397 - الأنبياء 80.

وعلم سليمان منطق الطير بكل أصنافه وأمه، {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} 398، وعلم لغة النمل مصداقا لقوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 399، وإذا كان العليم قد ذكر الطير والنمل فإن في ذلك آية لذوي الألباب لفهم أن العلم المخصوص هنا (منطق الحيوان) شامل لما موجود في السماء من الكائنات يمثلها الطير، والنملة.

فالله سبحانه وتعالى اختصه بجزء من العلم مثلما علم آدم أصول العلم وعلم أبناءه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جزئيات تقتضيها المرحلة أو الفترة الزمنية أو الحاجة الإنسانية وفق التطور الطبيعي للحياة لذلك سنعرض لجزء من هذا العلم الذي علّمه الله تعالى لبعض خلقه في تسلسله وتدرجه حسب مشيئة الله تعالى في عموم العلم أو تخصيص بعض العلوم لبعض عباده أو أنبيائه:

. علم الله تعالى آدم صلى الله عليه وسلم أصول العلم فقال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} 400

398 - النمل 16.

399 - النمل 18-19.

400 - البقرة 31.

. عَلمَ العبد الصالح من لدنه علما وهو علم الفراسة فقال تعالى:
{فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا
عِلْمًا} 401.

. عَلمَ يوسف صَلَّى اللهُ عليه وسلّم تعبير الرؤيا فقال تعالى: {قَالَ
لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا
عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
كَافِرُونَ} 402.

. علم داوود صَلَّى اللهُ عليه وسلّم صنعة الدروع قال تعالى:
{وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ لُبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّنْكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ
شَاكِرُونَ} 403.

. وعلم سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم منطق الطير قال تعالى:
{وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} 404. عَلمَ عيسى صَلَّى اللهُ
عليه وسلّم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل قال تعالى: {وَيُعَلِّمُهُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} 405.

. علم محمد صَلَّى اللهُ عليه وسلّم ما لم يكن يعلم فقال تعالى:
{وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ

401 - الكهف 65.

402 - يوسف 37.

403 - الأنبياء 80.

404 - النمل 16.

405 - آل عمران 48.

فَضَّلُ اللَّهَ عَلَيْكَ عَظِيمًا {406. فهذا المنهج الرباني أوجده الله تعالى لتوجيه الحياة البشرية في كل اتجاهاتها:

الدينية

السياسية

الاقتصادية

الاجتماعية

الفكرية

الروحية

الخلقية

ضمن المنهج الذي أنزله اللطيف الخبير العليم الحكيم. لأن الذي خلق النفس البشرية، هو أعلم بمصالحها وما يصلحها وما يصلح لها. وهو أعلم بأدوائها وبطريقة شفائها ورغباتها وميولها فكان العلم باب من مصالح الخلق في دينهم ودنياهم.

لقد ورث سليمان داود فصار إليه العلم والنبوة والملك بعد موت أبيه وكان أول ما ذكره بعد الميراث أن قال: (وعلمنا منطق الطير) وهذا من ملك سليمان صلى الله عليه وسلم، فلماذا لم يقل علمنا:

. لسان الطير

. لغة الطير

. كلام الطير

. صوت الطير

إنَّ المنطق يختلف كلّ الاختلاف عن اللسان واللغة والكلام والصوت حسب مفهوم ودلالة كلّ منها ممّا توضحه من مفاهيم:

اللسان: هو مترجم للغة التي يتلکم بها مجتمع معين قال تعالى: {لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} 407.

اللغة: هي مجموع الكلمات التي يتكلم بها مجتمع معين سواءً دلت على معانٍ أم لم تدلّ فهي من اللغة.

الكلام: هو جزء من اللغة التي يتكلم بها هذا المجتمع أو ذاك ولا يكون الكلام إلا فيما فيه فائدة.

الصوت: ما تلقته حاسة السمع سواءً أكان له معنى دلالي مثل الكلام أم لم يكن كذلك كأصوات الطيور والحيوانات والجمادات وما إلى ذلك.

ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم: (علّمنا منطق الطير).

ولذا فقد ذكر سليمان صلّى الله عليه وسلّم مفهوما محّدا هو (المنطق) لأنّ تحديد المفاهيم يساعد على إزالة اللبس والغموض الذي قد يراود المتلقي، أو قد يشكلّ على المتحاورين في لغة الحوار، وعدم تحديد المفاهيم يؤدّي بالضرورة إلى اللبس.

فالمنطق:

محتوى ومضمون

متربط بقوة الحجّة

مثبت بالحقيقة

مبرهن عنه بالأدلة

لا يحتمل غير الصدق

أما اللغة:

نطق صوتي

مسموع

مكتوب

مقروء

تحتمل الصدق والكذب

إنّ المنطق الذي علمه الله تعالى لسليمان صلّى الله عليه وسلّم له خصوصية وأبعاد تتجاوز اللغة إلى ما هو أعمق لأن هناك فرق كبير بين حوار اللغة: الذي يعتمد على الرموز التي يترجمها اللسان على مصطلحات ومفاهيم مستخدمة شائعة بين الأفراد

منطق الحوار: الذي يعتمد على أسلوب التفكير وملكاته وكيفية الإدراك الواعي للمعطيات والمقدمات وما يترتب عليها من نتائج.

ولذا يتم التركيز في المنطق على معرفة الكيفية التي يتم بها التفكير أو ما يعبر عنه بالمنطق سواء أكان للطير أو غيره من المخلوقات، ذلك أن غاية المنطق هي الإصلاح من خلال تفهم الظروف بمنطق المخبر عن الحدث وهنا نقف على منطق الحوار بين سليمان صلّى الله عليه وسلّم وبين الهدهد من خلال قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا

أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْعَائِيْنَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطُ بِهِ وَحِثُّكَ مِنْ سَبِّ بَنِي يَاقِينَ {408؛ فسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفقد الطير ولم يجد الهدهد، فلماذا تفقد الطير دون سائر الأنواع؟

والجواب على ما نعتقد أنه لم يتفقد الطير وحدها فحسب، وإنما تفقد:

جنده من الإنس

جنده من الجنّ

جنده من الطير

والتفقد هذا هو طلب ما غاب عنه من ملكه، فعندما نظر في الطير تفقدا وجد أن الهدهد غائب، وفي هذا الأمر أدلة على:

سعة علم سليمان بملكه

صغر حجم الهدهد لم يخفَ عليه

الحرص على أحوال الرعية ضمن الملك

دليل على إحاطة سليمان بملكه العظيم

ومن عجيب النظم في السياق القرآني لهذه الآية قوله: (ما لي لا أرى الهدهد)؛ فهو تساؤل استغرابي يفيد توجيه الآخر.

ولأنّ الهدهد غائب كان يجب أمّا أن يقول:

أين الهدهد

من رأى الهدهد

ما للهدهد لا أراه

إنّما مقصد الكلام هو الهدهد الغائب، لكنه أخذ بإحدى لوازم
الدلالة عن مغيبه ولم ينسبها إليه، وإنّما نسب ذلك إلى نفسه احترازا
وتحوطا عن مغيب الهدهد وهو أنه لا يراه، فأرجع السبب إلى نفسه
بقوله: (ما لي) وهذا يعني تفقد نفسه بداية، ومراجعة نفسه توحى بعدة
احتمالات منها:

هل أصابه شيء؟

أىكون قد قصر في شيء؟

أىكون قد اقترف ذنبا؟

أىكون قد قصر في حقّ رعيته؟

أىكون قد قصرت في الشكر؟

ألا يمكن أن الطير من منطقتها الحضور؟

ومن منطقتها عدم الغياب

هي تعلم بمنطقها أنّها جزء من هذا الملك

إذن، لا ينبغي لها أن تغيب

هذه التساؤلات التي أخذت من سليمان صلّى الله عليه وسلّم
موضع الشك من نفسه دعته لأن يقول: (ما لي لا أرى الهدهد) فهو
يعلم أنه أوتي من الملك والعلم العظيم ما لن يؤتاه أحد، وسخر الله له
الخلق أنواعا، لذلك وجب عليه حقّ الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العدل

وسياسة الملك، فلما فقد الهدهد توقع أن يكون قصر في حقّ الشكر،
فلأجل ذلك سلب الهدهد إنذاراً أو تنبيهاً فجعل يتفقد نفسه قبل أن
يتفقد الهدهد.

وسليمان عليه الصلاة والسلام لما تفقد الطير إنما تفقده لأمر
يختص به ذلك الطير:

لأجل ضبط الملك

خصوصية دور الهدهد

وعندما تفقد الطير بما علّمه من منطقته وافترقه الهدهد (فَقَالَ
مَالِي لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ) فالمسألة ليست قضية حضور
أو غياب وإنما منطق يدل على:

تمام العزم والحزم

حسن التنظيم لجنوده

تدبير الأمور الجليلة والصغيرة

الاطمئنان على جميع الملك

فمن قال إنّه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها ليدله على بعد
الماء وقربه، كما زعم كثير من المفسرين نقلاً عن مصادر نحن لا نثق بها
من أنّ الهدهد يبصر الماء تحت الأرض وعمقه وحجمه ويعلم الأجاج
من العذب الفرات، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل، مع أن الله على
كلّ شيء قدير إلا أننا في علمنا لا نجزم أنّه من علمه أن يقوم بهذا
العمل، بل الدليل العقلي واللفظي يدلان على بطلانه مع سليمان:

أمّا العقلي:

آ . فإنه معلوم بالعادة والتجارب والمشاهدات أن هذه الحيوانات كلها، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك لذكره الله لأنه من أكبر الآيات.

ب . لو كان الأمر كما زعموا من أنّ الهدهد دليل الماء، لكان الجرنّ أولى من الهدهد بهذا الأمر لأنّ له قدرة اختراق الأرض والبحار والصعود في السماء

ج . لو كان الهدهد للبحث عن الماء لكان الملك ناقصا

د . إن الملك الذي آتاه الله تعالى لسليمان ملك في الحياة الدنيا التي لا تقوم دون الماء، ولذا فالماء جزء من ملكه.

وأما الدليل اللفظي:

فلو أريد هذا المعنى لقال:

طلب الهدهد لينظر له الماء

فتش عن الهدهد

ببحث عنه

ونحو ذلك من العبارات الدالة على الغرض، وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها. وكذلك فإن سليمان عليه الصلاة والسلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء بحيث لا يستطيع أن يحصل عليه دون الهدهد، فإن كان الأمر كذلك فإن عنده من الشياطين والعفاريت ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف يحتاج إلى الهدهد في هذا الأمر؟

إن حاجة سليمان للهدهد قد صرح بها القرآن الكريم وهو الإحاطة بقضية كانت خافية على سليمان صلى الله عليه وسلم للدلالة على قلة علم سليمان قياسا بعلم الله تعالى وأنه يختص بذلك من يشاء من خلقه عاقلا أو غير عاقل.

إنّ الذين ذهبوا مذاهب شتى في حاجة سليمان للهدهد من أجل الماء، أخذوا ما اشتهر من الأقوال المتناقلة من القصص والأحاديث التي لا تقوى على مقاومة الأدلة سواءً أكانت:

نقلية

عقلية

لفظية

بل كانت تنقل هذه الأقوال من الإسرائيليات مجردة دون نقد أو مقارنة لفظية أو عقلية ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل وينقلها المتأخر مسلما بها للمتقدم حتى أصبحت من المسلمات التي لا يجوز مناقضتها حتى يظن البعض أنها الحقّ.

إنّ الباحث المتفحص والدارس الناقد لديه من الفطنة ما يعلم بها أنّ هذا القرآن الكريم هو مبين لكلّ ما جاء به، والذي خاطب الله به الخلق كلّهم، عالمهم وجاهلهم وأمرهم بالتفكر في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه المعروفة المعاني التي لا تجهلها العقول، فإذا وجد فيه أقوالا منقولة دون سند موثوق أو سند مشكوك بصحته ردها إلى أصل الألفاظ وإحكام عقله، فإنّ وافقته قبلها لكون اللفظ دالا عليها، وإن خالفته لفظا ومعنى أو لفظا أو معنى ردها وجزم ببطلاؤها، لأنّ عنده أصلا معلوما مناقضاً لها وهو ما يعرف من:

معنى الكلام

دلالة الألفاظ

مطابقة السياق

وعلى هذا يكون تفقد سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للطير، وفقده

الهدهد يدل على:

محاسبة نفسه

تدبير ملكه

إحاطته بهذا الملك

الحزم في هذا الملك

إذ ما كان للهدهد ولا لغيره ضمن مملكة سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتصرف من تلقاء نفسه سواء بالغياب أم بعدم تنفيذ ما يصدر إليه من أوامر إلا بسلطان قاهر دعاه للتخلف أو التأخير أو المغادرة، وهنا تكمن الحكمة من الحزم في الضبط والتنظيم والإدارة لأصحاب الملك في إدارة شؤون ملكهم.

ولذا كان يتوجب على الهدهد أن يكون حاضرا ساعة التفقد لأسباب يعلمها سليمان والهدهد، ومهما قيل من حاجة سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للهدهد ساعة غيابه من أنه دليل الماء أو غير ذلك، فإن له مهمة محددة في ملك سليمان ولو لم يكن كذلك لما توقعده:

بالعذاب الشديد

بالذبح

أن يأتي بعذر مقنع

ومن الملاحظ أن سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم لم يقطع القول في عذاب الهدهد، وإنما استثناه بعذر مقنع فيه سبب دعاه للغياب أو التأخير فقال: (أو ليأتيني بسُلطان مبین) والسُلطان يكون فيه نجاته من العذاب الذي توعد به، وهذا من العلم الذي يؤخذ عن النبوة في سياسة الملك والقضاء، وذلك أن نبي الله سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم وإن توعد الهدهد، فقد كان هذا الوعيد قائم على:

توجيه التهمة

الاستماع إلى الحجّة

أدلة الإثبات

أدلة النفي

الفصل في القضاء

إصدار الحكم

ولأنّ الهدهد يعلم منطق سليمان كما أنّ سليمان يعلم منطقهُ فمكث غير بعيد، فجاء بصفة الزمان بدلالة المكث المتضمنة معنى المكان في إضافة (غير بعيد) لاستكمال المعنى الشمولي من حيث الدلالة الزمانية والمكانية، فجاء الكلام بيان:

لمقدار الوقت

وبعد المسافة

فهذا الزمن وهذه المسافة تقع بين تفقد سليمان وحضور الهدهد، لذلك مكث غير بعيد زمنا قليلا، ووصف:

زمان المكث

بيان مكان المكث

الغرض من المكث

وذلك، للدلالة على إسراعه خوفا من سليمان عليه الصلاة والسلام، فالجمع بين المكث وغير بعيد أعطى صفة المكان ووقت الانتظار، لأن الهدهد يعلم أنه أخلف موعدا كان عليه أن لا يغيب عنه لذلك:

لم يمكث قريبا

لم يمكث بعيدا

لم يأتي مباشرة

فمكوته غير بعيد له أسبابه المنطقية التي يعلمها الهدهد مما دعاه إلى المكوث كي يستطلع الخبر عن نتيجة غيابه لأنه يعلم:

عظمة ملك سليمان.

تسخير الإنس والجنّ والطير والريح له.

لا يستطيع أحد أن يخالف الأمر.

الهدهد أصغر الجنود نسبيا في هذا الملك.

صدرت منه مخالفة.

هل لديه عذر في ذلك.

ما القرار الذي اتخذه سليمان بحقه.

هل هناك سبيل للنجاة.

عليه: أن يقف على ردة الفعل

وكونه من جنود سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم فيترتب عليه:

طلب الاستئذان

انتظار الأمر من أجل الدخول

ينتظر أن يُسأل لأنه جاء بالنبأ

أهمية النبأ

المحافظة على حسن النظام

مكث تأدبا مع القائد

منطقه يستوجب الأدب لتقديم الاعتذار

فيحصل بذلك على:

الاحترام

التقدير

الاعتبار

فلا بدّ أن الهدهد عندما علم بمنطق الطير (بمنطق نوعه) أن سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم استثناه من العقوبة بالسلطان المبين لذلك تقدم إلى سليمان وقال: (أحطت بما لم تحط به) لأنه علم أن هذه الإحاطة بالنبأ الذي جاء به ربّما سيكون سبيله الوحيد إلى النجاة من العذاب الذي توعدده به.

فما هي الإحاطة؟

وهل أن إحاطته أعظم من إحاطة سليمان؟

هل هناك تناقض بين العلم الذي عند سليمان وعدم الإحاطة بما أحاط به الهدهد؟

ما هي الحكمة من إحاطة الهدهد وعدم إحاطة سليمان؟

الإحاطة بالنسبة للمخلوق لا تعني معرفة دقائق العلم بما كان قبل الإحاطة وبما سيكون عليه بعدها، وإنما هي من باب العلم بالشيء من جميع جهاته:

مشاهدة

وصفا

معرفة

والذي أحاط به الهدهد كان من الأمور المحسوسة التي لا تعدّ الإحاطة بها فضيلة ولا الغفلة عنها نقيصة لعدم توقف إدراكها إلا على مجرد إحساس يستوي فيه العقلاء وغيرهم، فقد أحاط الهدهد بما لم يحط به سليمان علما ومعرفة وحفظه من حيث الوصف من جميع جهاته وهو ممّا لم يشاهده سليمان صلّى الله عليه وسلّم ولم يسمع خبره من جنده من الجنّ أو الإنس.

وأما الحكمة من إحاطة الهدهد بما لم يحط به سليمان صلّى الله عليه وسلّم تكمن في أن الله تعالى ألهم الهدهد أن يتخلف وسخره ليأتي نبأ لا يعلمه سليمان على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والمملك والعلوم الجمّة والقوّة والإحاطة بما علمه الله له إنما هو دليل على:

قلة علم سليمان

ابتلاؤه فيما آتاه الله من العلم

أن لا يُعجب أحد فيما أوتي من العلم

أنّ علم الله تعالى لا يحاط به

تنبيهه على أن في أدنى خلق الله من أحاط علما بما لم يحط به نبي

وأما قول الهدهد لسليمان صلّى الله عليه وسلّم أحطت بعلم لم تحط به على علمك الواسع وعلى ملكك الكبير، فلا يخفى أن الهدهد لم يرد بما ادعى من الإحاطة به ما كان من الحقائق العلمية والدقائق المعرفية التي تكون معرفتها والإحاطة بها من وظائف أرباب العلم والحكمة لتوقفها على علم رصين وفضل مبين لا يقوم إلا لأصحاب العقول، وإنما معنى الإحاطة هنا لا تتعدى المشاهدة العينية لحقائق واقعية كان له الفضل في وصف المشاهدة وهذا ما يخرج عن باب العلم وعليه فإنّ:

الهدهد نقل المشاهدة.

ملك سبأ بالنسبة لسليمان كان غيبا.

هذا دليل على أن الأنبياء لا يعلمون الغيب.

العلم الضروري والعلم الاضطراري:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} 409، وهذا لا يعني أن الله تعالى لم يُؤت علما لغير داوود وسليمان، ولكن عندما خصهم بالذكر وورث

سليمانُ داوودَ فقد خصَّ سليمان بنوع من العلم غير علم الآخرين
ذلك أن العلم:

علم وهب

علم كسب

علم فطرة

وعليه نتساءل:

أتكون جميع هذه العلوم ضرورية؟

أم أن بعضها ضروري وبعضها اضطراري؟

أم أن الضرورة العلمية من سنة الله في خلقه؟

ألا يمكن لبعض الخلق أن يستغني عن بعض العلوم؟

ألا يقوم عالم مقام جمع غفير من الخلق؟

إن قام عالم مقام جمع من الخلق فما حاجة الآخرين للعلم؟

لماذا قال الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ﴾ 410.

ونحن نرى أن الضرورة غير الاضطرار لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ
الْمَيْتَةُ وَالِدًا وَالْحَمُّ وَالْحُنْزِيرُ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ
وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ
وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسَنُقُّ إِلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِبِئْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ
فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِيْمِ
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {411}.

هذه الآية تبين الضرورة من الإضرار حيث أن الضرورة واجبة في
الالتزام بالأوامر والنواهي، فما ورد فيها استثناء كان اضطرارا لذلك
أباح أكل الميتة لمن يشرف على الهلاك من الجوع، ولم ييح الكفر لمن
أشرف على الهلاك في رده عن دينه، مع أنه يجوز الاستثناء لمن كان
قلبه مطمئنا قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ
مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ
وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {412}.

وقد يفهم من الضرورة ما يضطر إليه الإنسان دون نظر في تصور
أصحاب الضرورة وهذا مخالف للمنطق لأن سليمان صلى الله عليه
وسلم علمه ضرورة فقد أوتي من العلم ما لم يؤتاه غيره وذلك من أجل
الآخرين ضرورة لهم، وعليه يكون:

علم سليمان لسليمان ضرورة

علم سليمان لغير سليمان اضطرارا

المضطر يسأل أهل الذكر

سليمان صلى الله عليه وسلم من أهل الذكر

ليس كل الآخرين من أهل الذكر

الآخر يسأل عن علم قضية يجهلها

411 - المائدة 3.

412 - النحل 106.

لا يسأل عن كلّ العلم

سليمان عالم بالضرورة

الآخرون يعلمون بالاضطرار

لذلك، نرى كثير من الناس يخلط بين العلم الضروري والعلم
البديهي بناء على قاعدة ما اضطر إليه الإنسان إذا تصور العلم بقضية
ما سواء أكان ذلك التصور ضرورياً أو لم يكن، والتصورات العلمية لا
تأتي على وتيرة واحدة للجزم بالقضايا وذلك لأن أنواع التصورات كثيرة
ومتنوعة ومتعددة منها:

تصورات صادقة

تصورات كاذبة

تصورات صحيحة

تصورات خاطئة

تصورات وهمية

تصورات واقعية

تصورات قياسية

تصورات افتراضية

تصورات خيالية

وعليه: فليس جميع التصورات ترقى إلى مستوى الحقائق التي يكون
الحكم بها في قضية صادقا، وإن وجد شيء من هذا القبيل فإن ذلك لا

ينسحب على جميع التصورات، لذلك كان علم الوهب الذي هو جزء من ملك سليمان هو الحدّ الفاصل في هذا المجال لأنه علم ضرورة.

فكيف كان علم سليمان ضرورة؟

نحن عندما نتكلم عن أية قضية ونبحث عن:

أسبابها

مسبباتها

المؤثر فيها

ما تركته من أثر

ما ظهر فيها من نتائج

بصرف النظر عن الأدلة والبراهين التي نقف عليها ونستشهد بها في التطابق والتوافق والاختلاف والافتراق والقرب والبعد عمّا نقدمه من أدلة وصولاً إلى حقائق منطقية يقبلها العقل السليم، فهذا لا يخرج عن المشيئة الإلهية التي شاءها الله تعالى واحتفظ بها في علم الغيب وأمرنا بالتفكير والتدبر وصولاً إلى ما شاءه الله تعالى.

وعلى ما تقدم نقول:

من المعلوم أن المراحل البشرية تمر بانعطافات حادة يتعد فيها الإنسان عن إنسانيته وعن الوجه الذي وجد من أجله:

{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } 413.

والدور الذي كلف به:

413 - الذاريات 56.

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} 414

فإذا ابتعد الإنسان عن التوحيد والعبادة وترك خلافة الأرض باتباع الشهوات والملذات بالركون إلى الدنيا والانغماس في الماديات الأمر الذي يترتب عليه مفارقة الجانب الروحي والإيمان اللذين يشكّلان أسس الخلافة التي تقوم على:

طاعة الله توحيدا وإيمانا

الخلافة في الأرض

إعمار الأرض بإصلاحها وإصلاح من فيها

وهنا تبرز الضرورات المترتبة تباعا لدى متبوعي الرّسل، بحيث تنبع التالية من الأولى والسابقة من اللاحقة التي توضح مكمّن العلم الضروري وحاجة العلم الاضطراري على النحو الآتي:

ضرورة الإصلاح

ضرورة النبوة

ضرورة علم النبوة

العلم أصبح ضرورة

الضرورة خاصة

الاضطرار عام

علم سليمان ضرورة

وهنا نختلف من يقول: إن جميع العلوم ضرورية باعتبار أسبابها، لأنّ العلم الحاصل بالنظر والكسب والاستدلال لا يكون ضروريا، إذ أنّ الضرورة حاجة إنسانية عامة يترتب عليها مصالح الدنيا والآخرة.

وعليه: فإن علم الصناعات والدواء والزراعة والفلسفة والأدب وما إلى ذلك ممّا يماثلها في الشرع من فروض الكفاية ما يقوم بها أفراد دون آخرين ليس لعدم الحاجة وإنما لسد الحاجة، وإن اشترك علم الضرورة مع علم الاضطرار في عدم الحصول على أسبابه لامتلاكه بين جميع الأفراد.

علم الضرورة وهب لا يمتلك أسبابه إلا القلة من الناس

علم الاضطرار نظر وكسب واستدلال لا يمتلك أسبابه إلا القلة من الناس

نتائج الوهب والكسب هي التي تكون ضرورة للناس

علم منطق الطير ضرورة لسليمان

علم منطق الحشرات ضرورة لسليمان

نتائج هذا العلم يكون اضطرارا للآخرين بدليل:

قال تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمُوا ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا } 415.

لقد فهم سليمان صلّى الله عليه وسلّم منطق النملة بما علّمه الله تعالى وهو علم مخصوص بالضرورة لم يعلم ذلك أحد من جنوده، فقد

415 - النمل 18-19.

شعرت النملة بمقدم سليمان وجنوده فقد جاء في بعض التفاسير أن النملة: "لما رأتم متوجهين إلى الوادي فرت منهم فصاحت صيحة نبهت بها سائر النمل الحاضرة فتبعتها في الفرار فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم ولذلك أُجروا مجراهم حيث جعلت هي قائلة وما عداها من النمل مقولا لهم مع أنه لا يمتنع أن يخلق الله فيها النطق وفيما عداها العقل والفهم" 416

فالنملة عندما رأتم أو شعرت بهم فقد امتلكت نوعا من العلم خاصا بها لأمر مخصوص، وعليه نتساءل أيكون علم النملة بالحدث الذي وقعت من باب:

العلم الضروري

العلم الاضطراري

العلم الفطري

العلم الوهبي

علم الإلهام

علم الوحي

العلم الكسبي

العلم البديهي

العلم النظري

العلم التجريبي

416 - تفسير حقّي، ج 10، ص 27.

نحن نعتقد أن علم النملة بهذا الحدث لا يندرج تحت أي نوع من الأنواع الأنفة الذكر وإن كان النمل أمم أمثالنا:

{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ
مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ } 417.

لكنّ علمها ليس من هذا القبيل وذلك أنها:

ليست من جنود سليمان

لم تسخر له

علمها ضمن نوعها

فطرت عليه بمنطقها

وعليه: فإننا لا نتفق مع من قال: "فإن قلت بم عرفت النملة سليمان، قلنا مأمورة بطاعته فلا بد أن تعرف من أمرت بطاعته ولها من الفهم فوق هذا فإنّ النمل تعرف كثيرا من منافعها من ذلك أنّها تكسر الحبة قطعتين لئلا تنبت، إلا الكزبرة فإنها تكسرها أربع قطع لأنها تنبت إذا كسرت قطعتين وإذا وصلت النداوة إلى الحبة تخرجها إلى الشمس من حجرها حتى تجف" 418.

فلو كانت مأمورة بطاعته على غرار جنوده لكانت من المسخرين

له

ولو كانت من المسخرين له لم تدع قومها للفرار خوفا من سليمان

وجنوده

417 - الأنعام 38.

418 - تفسير حقّي، ج 10، ص 28.

وأما أنّ النمل يكسر الحبة إلى قطعتين وحبة الكزبرة إلى أربع كي
لا تنبت في قريتها فإن الجواب على ذلك من اليسر بما لا يحتاج إلى
جهد في إثباته ومن ذلك:

كلّ مسخرٌ لما خلق له.

فطرة خلقها ليس له علاقة بالعلم.

طبيعة معرفة العدو ومكامن الخطر بالغريزة.

الإنسان عَلم من النمل أن حبة الكزبرة يجب أن تقطع إلى أربع
قطع كي لا تنبت.

معرفة النمل بطبيعة حبة الكزبرة لا يقود إلى معرفة سليمان
وجنوده.

وعليه نقول: علم النملة بسليمان وجنوده لم تمتلك أسبابه كي
تصل إليه وتنذر النمل وتحذره فهذه المعرفة التي توصلت إليها النملة إنما
هو علم إلهام من الله تعالى لا يتوقف على أسباب العلم نفسه، وإنما
أسبابه تكمن في نتائجه.

وعليه: كيف تكمن الأسباب في النتائج؟

إن نتائج قول النملة لقومها تمثلت فيما يأتي:

تحذير النملة لقومها

الخطاب لم يكن لسليمان مع أنه أدركه

علم سليمان منطقتها دون علمها

نجاة النمل من سليمان وجنوده بتحذيرها

تبسم سليمان من قولها

شكر سليمان بعد تبسمه

إن هذه المقدمات هي بحد ذاتها نتائج قول النملة لكونها ظهرت بعد كلامها، وأما كونها أسباباً فهي تتمثل فيما يأتي:

تحذير النملة كان سبباً في نجاة النمل

تحذير النملة كان سبباً في إدراك سليمان منطقتها

تبسم سليمان من قولها نتيجة علمه بمنطقها وجهلها بمنطقه

علم سليمان بمنطقها كان سبباً في شكره نعم الله.

شكر سليمان

الشكر لم يكن على فهمه قول النملة فحسب، وإنما قول النملة وتبسمه يدل على أنه تذكر جميع النعم التي أنعم الله عليه بها حيث نقف على معظمها في قوله تعالى: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 419.

فكيف فهم سليمان صلى الله عليه وسلم كلام النملة وهو قد علم منطق الطير؟

الإجابة على هذا السؤال تكون من وجهين:

الأول: قوله: (عَلَّمْنَا) في بناء الفعل للمجهول يدل على عظمة المعلم

المعلم هو الله:

قال تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 420.

الله هو العليم المطلق:

قال تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 421.

الذي يكون علمه من العليم المطلق يعلم ما لا يعلمه غيره:

قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} 422.

الثاني: قوله: (وأوتينا من كل شيء)

أعطاه الله تعالى مفاتيح العلم

بالضرورة أنه يعلم كلام النملة

النملة تعرف سليمان لأنه برأته

قالت لقومها: وهم لا يشعرون

لو أنهم يشعرون لا يحطمون النمل

420 - البقرة 282.

421 - الحديد 3.

422 - البقرة 31.

ذكر أسم سليمان من قبل النملة دليل على أنها تعرفه

هي ليست من جنسه

تعرف أن لسليمان جنود متنوعة

يحطمون كل من يعترضهم في باطل

لو يشعرون بالنمل لا يحطمونه

فهم قول النملة من معجزات سليمان

المعجزات أسرار سليمان

أسرار سليمان من أجل إثارة الناس

تبسمه ضاحكا:

فرحه بالعلم الذي أتاه الله تعالى

تزكية سليمان وجنوده من قبل النملة

زكته النملة لأنه مصلح

وهذه النعم هي:

وراثه العلم والنبوة عن أبيه قال تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ

دَاوُودَ} 423

تسخير الريح بأمره قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي

بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} 424

423 - النمل 16.

424 - الأنبياء 81.

أسأل الله له عين القطر قال تعالى: {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ
الْقَطْرِ} 425.

الجنّ تعمل بين يديه قال تعالى: {وَمَنْ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ
بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ} 426.

الجنّ تصنع له ما يشاء قال تعالى: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ
مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ} 427.

تعليمه منطق الطير قال تعالى: {وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْتُمْ
الطَّيْرَ} 428.

إعطائه من كل شيء قال تعالى: {وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} 429.

الاعتراف بالفضل المبين قال تعالى: {إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ
الْمُبِينُ} 430.

حشر الجنود من الجنّ والإنس والطير قال تعالى: {وَحَشِرَ
لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} 431.

تحذير نملة لقومها من هذا الموكب قال تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ
وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ
سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} 432.

425 - سبأ 12.

426 - سبأ 12.

427 - سبأ 13.

428 - النمل 16.

429 - النمل 16.

430 - النمل 16.

431 - النمل 17.

إدراك سليمان لمقالة النملة قال تعالى: {فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا} 433.

الشكر على النعم التي أنعم بها عليه قال تعالى: {أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ} 434

طلب الرحمة والدخول مع الصالحين قال تعالى: {وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلَنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 435.

إنَّ سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي من أنبياء الله وهم أرفع خلق الله درجة ومرتبة، ومع ذلك فقد طلب أن يدخله مع الصالحين الذين هم آخر رتبة من المخصوصين بالذكر لقوله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} 436 فهذه المراتب الأربع التي ذكرها الله تعالى لأصحاب الدرجات العلا متسلسلة من الأعلى نزولا ومن الأدنى صعودا وهم:

النبیون

الصدیقون

الشهداء

الصالحون

432 - النمل 18.

433 - النمل 19.

434 - النمل 19.

435 - النمل 19.

436 - النساء 69.

فسليمان صلّى الله عليه وسلّم في أعلى درجة من الذين أنعم الله عليهم وهم النبيون، فكيف لسليمان أن يطلب درجة أدنى من التي أنعم الله بها عليه وهي درجة النبوة؟

وعليه نقول: إنّ الأمر ليس كذلك، لأن هذه الدرجات شاملة متضمنة بعضها البعض نزولا من الأعلى إلى الأدنى وصعودا من الأدنى إلى الأعلى، مع أنّ كلّ أهل التوحيد يدخلون الجنّة إن شاء الله، إلا أنّ هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بنعمة خاصة الذين ذكرهم وعليه يكون:

النبي: له أجر النبي ومكانته وأجر ومكانة الصديق والشهيد
والصالح

الصديق: له أجره ومكانته وأجر ومكانة الشهيد والصالح

الشهيد: له أجره ومكانته وأجر ومكانة الصالح

الصالح: له أجره ومكانته

وبمعنى آخر: لتوضيح طلب دخول سليمان في الصالحين يكون التضمين على هذا النحو:

النبي: نبي وصديق وشهيد وصالح

الصديق: صديق وشهيد وصالح

الشهيد: شهيد وصالح

الصالح: صالح

وعليه: يكون طلب سليمان أن يدخله الله في الصالحين لسببين:

الأول: زيادة الصلاح في مرتبة النبوة التي هي مجال تنافس بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعا

الثاني: تواضعا لله وخشية منه زيادة في التقوى من أجل زيادة النعمة.

ما بين النبوة والصلاح:

لماذا طلب سليمان من الله تعالى أن يدخله برحمته في عباده الصالحين؟

بداية نقول مستشهدين بقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} 437.

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ

سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ

سليمان من الذين اصطفاهم الله تعالى لأنه من الآل

سليمان نبي من أنبياء الله

الاصطفاء هو إناعام من الله تعالى

وعليه: فإنه نبي مصطفى فبالضرورة أنه صديق شهيد صالح، ذلك أن قوله تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا} 438. فالآية فيها مجمل وفيها مفصل

437 - آل عمران 33.

438 - النساء 69.

المجمل: من يطع الله والرّسول فأولئك مع هؤلاء من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين المنعم عليهم، فأولئك مع هؤلاء في
درجة واحدة، ولو لم يكن كذلك لكان السياق يقول:

منهم مع الأنبياء

ومنهم مع الصديقين

ومنهم مع الشهداء

ومنهم مع الصالحين

فعندما جعلهم جميعاً مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين
ولم يفصل ذلك أفاد وحدة الجمع المطلق وبذلك توحدت الدرجة وفق
هذا السياق لهذه الرؤية

المفصل: هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون

وهنا تختلف المكانة مع اتفاق الدرجة لقوله تعالى: {وَأذْكُرْ فِي
الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} 439.

ويكون اختلاف الدرجة في جوانب كثيرة منها:

الأول: تعدد الصفات فلو كانوا درجة واحدة لاقتصر على وصف

واحد فقال:

مع النبيين

أو مع الصديقين

أو مع الشهداء

439 - مريم 56، 57.

أو مع الصالحين

الثاني: لو كانوا درجة واحدة لجمع الصفات المتعددة بالإضافة
فقال:

مع النبيين الصديقين الشهداء الصالحين

الثالث: الجمع بينها بالواو العاطفة

الواو أظهرت التمايز

الواو العاطفة تفيد مطلق الجمع بين متغايرين

المتغاير لا يتطابق ولا يتساوى

وعليه: كلّ صفة لها درجتها

إذن: الصفة السابقة هي شاملة ومتضمنة للصفات اللواحق،
وليس بالضرورة أن تكون الصفة اللاحقة شاملة للصفات السوابق.

نحن نعلم أن القرآن الكريم من الدقة في الإعجاز أنه يوضح المعنى
المقصود ولو بحرف واحد ليدل على التمايز في المكانة الواحدة بين من
تجمعهم هذه الدرجة، فانظر عندما قبل الله تعالى توبة المنافقين جعلهم
مع المؤمنين في درجة واحدة في قوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ
الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا
بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
أَجْرًا عَظِيمًا} 440؛ فأين العدل في هذا التساوي بين المؤمنين وبين من
كان منافقا ثم تاب فتاب الله عليه:

هنا تبرز قيمة الحرف في توجيه المعنى

من كنت معه

أنت في رعايته

هو أفضل منك

من كان معك

هو في رعايتك

أنت أفضل منه

الذين تابوا أصبحوا مع المؤمنين

المؤمنون أفضل منهم

لا يرتقون إلى درجاتهم وإن كانوا معهم

لا يتساوون فيهم

الله يؤتي المؤمنين أجرا عظيما

سيصيبهم أجرا من فضل أجر المؤمنين

بسبب المؤمنين أصابهم خيرا

وعليه: وإن كانت الدرجة واحدة إلا أن المكانة مختلفة

ولذا فإننا نقول إن الحرف الواحد في القرآن الكريم له دلالة على

معنى مقصود وجد من أجله في توجيه هذا المعنى علمه من علمه أو

خفي على من خفي عليه.

فالآية المتقدمة هي وعد لأهل الطاعة:

بالأجر العظيم

الثواب الجزيل

الهداية إلى الصراط المستقيم

ثم ذكر الوعد بكونهم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وهو توحيد في الدرجة واختلاف في المكانة على ما وضحناه وعليه يكون:

اتفاق في الدرجة

اختلاف في المكانة

والاتفاق في الدرجة للذين أنعم الله عليهم مختلف عن درجة الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام لأن الأنبياء درجاتهم مختلفة فيما بينهم لقوله تعالى: { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ } 441.

فهم مع الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين درجة

وهم دون الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين مكانة

وعليه: فإنّ الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين وإن اتفقت درجاتهم فإن المكانة لا بدّ أنّها متفاوتة في الرتبة.

وليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرّسول مع النبيين والصدّيقين، كون الجميع في درجة واحدة، لأن هذا يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، وإنّه لا يجوز، وربّما المراد كونهم في الجنّة بحيث يتمكن كلّ واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بعد المكان إلا أنه يشاهد بعضهم بعضا وبهذا يكونون معهم.

441 - البقرة 253.

ثمّ إنه تعالى ذكر النبيين، ثم ذكر ثلاث صفات:

الصدّيقون

الشهداء

الصالحون.

ولقد ذكرنا استنادا إلى النصوص القرآنية أن الأنبياء اصطفاهم الله تعالى وخصهم بالنبوة فهذا يعني أن النبيين مغايرون للصدّيقين وللشهداء وللصالحين.

فأما هذه الصفات الثلاثة فتحتمل الوجوه الآتية:

الأول: أنّ هذه الصفات كلّها لموصوف واحد، وهي صفات متداخلة فإنّه لا يمتنع في الشخص الواحد أن يكون صدّيقا وشهيدا وصالحا.

الثاني: يمكن أن يُحمل المعنى على أصناف متغايرة من الناس بين صدّيق وشهيد وصالح لأن المعطوف يجب أن يكون مغايرا للمعطوف عليه، وكما أن النبيين غير من ذُكر بعدهم، كذلك الصدّيقون يجب أن يكونوا غير من ذُكر بعدهم، وكذلك الشهداء فإنهم غير الأنبياء والصدّيقين وكذلك القول في الصالحين. وهنا يتعين علينا البحث في كلّ صفة للوقوف على اشتغال صفة على أخرى وافتراق صفة عن أخرى.

الصدّيقون:

وهو اسم لمن عادته الصدق ومن غلب على عادته هذا الفعل والصدق صفة كريمة فاضلة من صفات المؤمنين، وكفى الصدق فضيلة أن الإيمان ليس إلا التصديق.

وجاء في لسان العرب: "والصدّيق المصدّق وفي التنزيل وأمه صدّيقة أي مبالغة في الصدق والتصديق على النسب أي ذات تصديق وقوله تعالى: والذي جاء بالصدق وصدق به روي عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه أنّه قال الذي جاء بالصدق محمّد صلّى الله عليه وسلم والذي صدق به أبو بكر رضي الله عنه وقيل جبريل ومحمّد عليهما الصلّاة والسّلام وقيل الذي جاء بالصدق محمّد صلّى الله عليه وسلم وصدق به المؤمنون، وقال الليث كلّ من صدق بكلّ أمر الله لا يتخالجه في شيء منه شك وصدق النبي صلّى الله عليه وسلم فهو صدّيق وهو قول الله عزّ وجلّ والصدّيقون والشهداء عند ربّهم والصدّيق المبالغ في الصدق"442.

ومن هذا التعريف يكون للصدّيق عدة معانٍ:

أحدها: أنّ الصدّيق مبالغة في كونه صادقاً لكثرة صدقه ولم يعهد عليه غيره وهو الذي يكون عادته الصدق.

الثاني: أنّه الذي يكون كثير التصديق بالحقّ يصير مشهوراً به فيكون صدّيقاً.

الثالث: أنّ كلّ من آمن بما أمر الله وصدّق النبي فهو صدّيق.

والمصدق بالشيء لا يوصف بكونه صدّيقاً إلا إذا كان صادقاً في ذلك التصديق

لأنّ الأمر يعود إلى تصديق الصدق وتصديق من أخبر به أنّه صدّيق وذلك لأنّه:

يأتي خبر صادق على لسان كاذب فتصدق الخبر وتكذب ناقله

442 - لسان العرب، ج 10، ص 193.

يأتي خبر كاذب على لسان صادق فتكذب الخبر وتصديق ناقله

يأتي خبر صادق على لسان صادق فتصدق، فأنت صادق

تأتي الأخبار كلها صادقة على لسان صادق فتصدق فأنت وإياه

صدّيقان

فإن قيل أليس قد قال تعالى ﴿والذين آمنوا بالله ورُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ وَالشّٰهَدَاءُ﴾ {443} فالمؤمنون بالله ورسله وجب أن يكونوا صادقين في ذلك التصديق، لأنّ هناك من ليس صادقا في تصديقه فيدخل في زمرة المنافقين.

والأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام وجب أن يكونوا صادقين في كلّ ما أخبروا عنه لأن الله تعالى صدّقهم، ومصّدق الله صادق فيلزم من هذا كون الأنبياء والمرسلين صادقين في كلّ ما جاؤوا به أو أخبروا عنه لذلك قال تعالى: ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ {444}.

وعليه فإنّ سليمان صلّى الله عليه وسلّم صدّيق من جانبين:

الأول: وإن لم يذكر صديقا بالنص المنقول فهو صديق بالمعقول كونه مصدقا لله تعالى بكلّ ما أخبر به من ربّه، وصادقا في كلّ ما أخبر به عن ربّه

الثاني: بما أن الرّسُل شهداء الله على النّاس كما قال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ {445}. فالنبي الواحد يشهد على أمة بكاملها لأن شهادة

443 - الحديد 19.

444 - مريم 41.

445 - النساء 41.

الأنبياء صدق صادقة مصدقة لأنها صادرة عن صديق ولهذا جازت شهادة النبي على أمة، علما أن الشهادة لا تصح إلا بشاهدي عدل يشهدان على رجل واحد.

ولأن كل نبي صديق فقد جازت شهادته على أمة بكاملها.

هذه الآيات وغيرها تبين بالدلائل الظاهرة أن كل نبي يجب أن يكون صديقا ولا يجب في كل صديق أن يكون نبيا قال تعالى: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ} 446

وهنا نشير إلى تصديق مريم عليها السلام لأنها صدقت ابنها، وتصديقها له واضح من جوانب ثلاثة:

الأول: قوله تعالى: {وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ} 447.

الثاني: تصديقها له عندما ناداها حيث قال تعالى: {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزِنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا} 448.

الثالث: عندما أشارت إليه لأنها صدقته حيث قال تعالى: {يَا أُخْتِ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنَّي عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} 449.

وبهذا تظهر قرب مرتبة الصديق من مرتبة النبوة فهي:

446 - المائة 75.

447 - المائة 75.

448 - مريم 24.

449 - مريم 28-30.

أما ملازمة كقوله تعالى: {وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} 450.

وأما متقدمة عليها كقوله تعالى: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ} 451 فوجب أن يكون كلّ نبي صديقا.

والأنبياء من رفعة القدر وعلو الدرجة وجلال المكانة عند الله وعند الناس أن جعلهم الله واسطة بينه وبين عباده لتبليغ الأمر الحقّ الذي يحمل الدين الحقّ فهو صدق عن صدق عن صدق لا يكلف به إلا صديق لذلك فقوله: (كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) أي أنه وجد صديقا نبيا من أول وجوده إلى انتهائه موصوفا بالصدق.

وفي الصديق معانٍ أخرى لا تمتنع ولكنها درجات في الصديقية منها:

الأول: أنّ كلّ من صدّق بكلّ الدين لا يخالجه فيه شك فهو صديق، والدليل عليه قوله تعالى: {وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ} 452.

الثاني: الصديقون أفاضل أصحاب الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام.

الثالث: الصديق اسم لمن سبق إلى تصديق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فصار في ذلك قدوة لسائر النّاس، وإذا كان الأمر كذلك كان أبو

450 - مريم 41.

451 - يوسف 46.

452 - الحديد 19.

بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أولى الخلق بهذا الوصف أمّا بيان أنه سبق إلى تصديق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد جاء في الحديث عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "ما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له نظرة غير أبي بكر فإنه لم يتلثم"453.

فأبو بكر وخديجة رضوان الله عليهما هما صديقان لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الرسالة لأنهما ضمن دائرة التهيؤ، أمّا مريم فلم تكن داخل دائرة التهيؤ.

وعلى ما تقدم فإن الصديق ممّا بيناه من الأدلة النقلية والعقلية فإنه لا مرتبة بعد النبوة في الفضل والعلم إلا هذا الوصف وهو كون الإنسان صديقاً، وهناك أدلة أخرى كثيرة في القرآن الكريم على ما ذهبنا إليه، فإنه أينما ذكر الصديق والنبي لم يجعل بينهما واسطة، فقال في وصف إسماعيل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

{وَأذْكَرٌ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا}454.

وقال في صفة إدريس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

{وَأذْكَرٌ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}455.

وقال تعالى: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ}456.

وقال تعالى: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ

الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ}457.

453 - ج امع الأحاديث، ج 19، ص 52.

454 - مريم 54.

455 - مريم 56.

456 - يوسف 46.

وقوله تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} 458.

فقد أجمعت معظم التفاسير في هذه الآية على القول أن: "الذي جاء بالصدق والذي صدق به، وفيه قولان الأول: أنّ المراد شخص واحد فالذي جاء بالصدق محمد، والذي صدق به هو أبو بكر، وهذا القول مروى عن علي بن أبي طالب عليه السلام وجماعة من المفسرين رضي الله عنهم والثاني: أن المراد منه كلّ من جاء بالصدق، فالذي جاء بالصدق الأنبياء، والذي صدق به الأتباع" 459.

فلم يكن بين النبي والصدّيق في الآيات الكريمة واسطة أو فاصل يفصل بينهما وعلى ما تقدم يكون نبي الله سليمان صلّى الله عليه وسلّم صديقاً.

ومسك الختام في كلامنا عن الصّدّيق أن الله تعالى وصف إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم بالصدّيق في قوله تعالى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} 460.

وإبراهيم في ذريته النبوة، ومن متمّمات النبوة أن يكون النبي صديقاً، ولذا وجب أن يكون كلّ نبي صديقاً.

الشهداء:

لا يمكن أن يقتصر مفهوم الشهيد أو الشهادة على من قتله عدو كافر، لأن كثيراً من الناس لا يعلمون من الشهيد إلا من خرج مجاهداً

457 - المائدة 75.

458 - الزمر 33.

459 - تفسير الرازي، ج 13، ص 263.

460 - مريم 41.

في سبيل الله وقتل في الجهاد فكان من الشهداء وهو كذلك، ولكن هذا الأمر هو أحد معاني الشهادة.

إنّ الآيات في القرآن الكريم تدل على أنّ مرتبة الشهادة بما يخص البشر هي مرتبة عظيمة في الدين والدنيا وهي على وجوه كثيرة، وأوّل الشهداء هو الله تعالى بمعنى مستقل عن الشهداء من البشر ولذا نبدأ بشهادة الله تعالى والشهادة أنواع منها:

الله الشهيد:

الأوّل: شهادة الله تعالى لذاته بالوحدانية

شهادة الحقّ: قال تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {461} فهذه أعلى مراتب الشهادة وأوجبها من وجوه:

الثاني: أنها شهادة الحقّ والاعتراف بالألوهية والرّبوبية لله تعالى.

الثالث: لا تقوم النبوة إلا بهذه الشهادة ومن هنا كان الأنبياء شهداء.

الرابع: لا يكون الشهيد شهيدا ما لم يقر بهذه الشهادة.

ولذلك ففي معنى قوله تعالى (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ) أن الشهادة من الله تعالى ومن الملائكة ومن أولي العلم بمعنى واحد ولكنه يختلف في المفهوم بحيث الشهادة تكون:

من الله تعالى إخبار

من الملائكة وأولي العلم إقرار

461 - آل عمران 18.

فكانت الشهادة من الله تعالى (أنّه لا إله إلا هو) إخبار مقرون بالأدلة من آيات الخلق لذلك قرن هذا الإخبار بالعلم أنه حاصل:

من الله صدقا وتصديقا بأنه (شهد)

من الملائكة بما أعلمهم

من أولي العلم بما علّمهم

ولذا؛ فإنّ معنى هذه الشهادة واحدة، وهي: العلم بالألوهية الحاصلة لله تعالى والإخبار عنها، وهذه الشهادة قد حصلت:

في حقّ الله تعالى

في حقّ الملائكة

في حقّ أولي العلم

أمّا من الله تعالى فقد أخبر وهو الشهيد عن كونه واحدا لا إله معه، وأمّا من الملائكة وأولي العلم فكلّهم أخبروا بما شهدوا أن الله تعالى واحد لا شريك له، فثبت من ذلك أن مفهوم الشهادة معنى واحد في حقّ الله، وفي حقّ الملائكة، وفي حقّ أولي العلم.

والشهادة عبارة عن الإظهار والبيان لأدلة القضية بالبراهين، فقد أظهر الله تعالى ذلك وبينه بأن خلق ما يدل على ذلك، أمّا الملائكة وأولوا العلم فقد أظهروا ذلك وبيّنوه بالأدلة والبراهين:

فالملائكة بيّنوا ذلك للرسل عليهم الصّلاة والسّلام قال تعالى:
{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى
وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} 462.

والرّسل بيّنوه للعلماء وغيرهم قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ
لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} 463.

والعلماء بيّنوه للخلق قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا
نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} 464.

إن شهادة الله تعالى على توحيدِهِ، هي هذه الآيات من خلق
الدلائل الدالة على توحيدِهِ، وشهادة الملائكة وأولي العلم هي الاعتراف
والإقرار بذلك، ولما كان كلّ واحد من هذين الأمرين يسمى شهادة،
لذلك جمع اللفظ بشهادة الجميع وعطف شهادة الملائكة وشهادة أولو
العلم على شهادته سبحانه وتعالى.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي وصف نفسه بالوحدانية،
فكيف يكون شاهداً؟

إنّ الشاهد الحقيقي الأوّل ليس إلا الله، وذلك لأنه تعالى هو
الذي خلق الأشياء وجعلها دلائل على توحيدِهِ ولولا وجود تلك
الدلائل لما صحت الشهادة ثم إن تلك الدلائل من آيات الخلق هي
التي دعت أولو الألباب للتفكير حيث قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ

462 - النحل 102.

463 - النحل 44.

464 - النحل 43.

يَذُكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {465}.

فكانت هذه الدلائل المنصوبة والآيات المبتوثة من الله تعالى مدعاة
لمعرفة الخالق والإقرار بالشهادة في معرفة الواحد والإقرار له بالتوحيد،
وإذا كان الأمر كذلك كان الشاهد على الوحدانية ليس إلا الله وحده،
ولهذا قال تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ} {466}. أي الله أكبر شهادة فشهادته أكبر من شهادة الخلق
لأن شهادة الخلق وعلومهم لا تحيط بحقائق الأشياء كلها والله سبحانه
هو الذي يحيط علمه بجميع حقائق الأشياء لأنه:

هو الموجود أزلا وأبدا

كلّ ما سواه لم يكن شيئا

الذي لم يكن فهو في حكم الغائب

الغائب لا تصح شهادته

الموجود في حكم الحاضر

كلّ ما سوى الله كان غائبا

ولكن بخلقهم وإيجادهم وإقرارهم بشهادة الحق وشهادة الخلق
أصبحوا شهداء لله تعالى بواحديته وشهداء على أنفسهم، وكان الحق
شاهدا على جميع خلقه فلماذا قال: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ).

465 - آل عمران 190، 191.

466 - الأنعام 19.

فعندما خلق الخلق وأشهدهم على أنفسهم صحت شهادتهم لله تعالى ولأنفسهم ولذا جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} 467

فهذا وإن كان في صورة الشهادة، إلا أنه في معنى الإقرار، لأنه لما أخبر أنه لا إله سواه، كان الجميع عبيدا له، فكان هذا الكلام جاريا مجرى الإقرار من جميع الخلق.

فهم شهدوا على ربوبية الله تعالى ووحدانيته بالدلائل القاطعة لأن الشهادة إنما تكون مقبولة إذا كان الإخبار بما مقرونا بالعلم، فلما أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم علموا أنه لا خالق إلا الله فشهدوا بما علموا.

إنَّ شهادة الله تعالى لذاته بالألوهية والربوبية هي أول شهادة من الشهيد الأوّل، ثمَّ إنَّ الله تعالى بعد ذلك كان شهيدا على كلّ شيء قال تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} 468؛ فهو شهيد على الظواهر والسرائر والخبايا والخفايا، فهو مشاهد لا يخفى عليه شيء مطلقا ولا يغيب عنه أمر من الأمور فالشهيد بمعنى الشاهد من الشهود وهو الحضور، والشهيد هو العليم ومنه قوله تعالى (شهد الله) أي: علم الله والشهيد الحاضر وحضوره بمعنى علمه ورؤيته وقدرته والشهيد مبالغة من المشاهدة، فالله تعالى شهيد يعلم الأفعال ويرى الأحوال.

467 - الأعراف 172.

468 - المجادلة 6.

أمّا هذه الكلمة العظيمة، فهي التي شهد الله بها لنفسه، وشهد بها له ملائكته، وأولو العلم من خلقه، أنه قائم بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم فجعل القسط الذي هو العدل ممّا هو لازم لتوحيده في الألوهية ممّا هو قائم به وممّا شهد به لنفسه وشهد له به خواص خلقه وأهل معرفته، فبدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم، ونحن نشهد بما شهد الله تعالى به لنفسه وشهدت به ملائكته وأولو العلم من خلقه ونستودع الله هذه الشهادة ونرجو أن تكون عنده وديعة ونسأله حفظها لنا حتى نلقى وجهه الكريم وهو راضٍ عنّا.

الأنبياء شهداء:

إنّ أنبياء الله تعالى علاوة على أنهم شهداء لله بالوحدانية فهم شهداء على عباده، فما من أمة إلا وقد خلا فيها رسول ليبلغهم ويكون شاهدا عليهم بما أجابوا ونقف على ذلك من قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} 469.

وفي هذه الشهادة يبين الله تعالى منتهى عدالته بأنّه جعل خير خلقه الذين اصطفاهم يشهدون على عباده مع أنه على كلّ شيء شهيد، ولكن وجه النظم هو أنه تعالى بيّن أن في الآخرة لا يجري على أحد ظلم، وأول هذه الأدلة اختيار الشهود من الأنبياء والرّسل حتى يجازي المحسن على إحسانه ويزيده على قدر حقّه، فبين تعالى في هذه الآية أن ذلك يجري بشهادة الرّسل الذين جعلهم الله الحجّة على الخلق، لتكون الحجّة على المسيء أبلغ، وحسرتة أشد وأعظم، ولذا كان:

من كلّ أمة شهيد

أول الشهداء على الأمم هم الأنبياء

الأنبياء صديقون

أهل الفترة التي تخلو من نبي يشهد عليهم الموحدون

فالنبي يشهد على أمته بأعمالهم وأفعالهم وما كانوا عليه، لأن الأنبياء شهداء على أممهم بأنهم قد بلغوا الرسالة ودعواهم إلى الإيمان، وبما أمر به الله تعالى أنبياءه من التبليغ والتبشير والإنذار لذلك كان جواب عيسى صلى الله عليه وسلم: { مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } 470.

ومن عجيب النظم في سياق هذه الآية ما أجاب به عيسى صلى الله عليه وسلم ربه في دحض الافتراء الذي افتراه عليه الناس عندما سأله ربه (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْتِنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)؛ فكان دقيقا في إجابته من حيث تأدية الشهادة فقال:

ما قلت لهم إلا ما أمرتني به

وكان من الممكن أن يقول: ما أمرتهم إلا بالذي أمرتني به

فأضرب عن هذا الجواب حتى لا يتساوى الأمران

وضع القول موضع الأمر بين الربوبية من العبودية

بإضراجه عن الأمر بما أمر الله إلى القول نقل الأمر إلى التبليغ

بهذا التبليغ كان شاهدا عليهم

أدى الشهادة على وجهها

براً نفسه مما نسب إليه ظلما

فيعسى صلى الله عليه وسلم كان شاهد عدل على أمته ما دام
فيهم وأدى الشهادة على وجهها وهو أول نبي تطلب منه الشهادة على
أتمته

وقوله تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } 471

أي يشهد لكم بالإيمان.

يشهد عليكم بالتبليغ لكم.

ولكن في نظم الآية واستخدام الحروف حسب معانيها ما يجب
الوقوف عنده من جانبين هما:

استخدام الحرف (على) بدل (اللام)

تقديم الجار والمجرور (عليكم) على خبر يكون (شهيذا)

الجانب الأول:

عندما نقول شهد له إنّ هذه الشهادة كانت لصالح المشهود له،
وعندما نقول شهد عليه فإن في هذه الشهادة مضرة للمشهود عليه؛
فاللام التي تفيد المصاحبة والتملك تعطي معنى الاطمئنان لأنها له
وأصبحت من ملكه فهو يتصرف بها لأنها تحت سيطرته.

أمّا (على) فإنّها بمعنى الاستعلاء والمشهود عليه وقع تحت سيطرتها
فهي التي تتصرف به ولا يملك منها شيئاً، وعليه:

فإنّ الشاهد إذا أضّرّ بشهادته كانت التعديّة للفعل بالحرف (على)

وأمّا إذا انتفع المشهود له بالشهادة وجب تعديّة الفعل بحرف

(اللام)

ولذلك، كان يجب أن يقال: ويكون الرسول لكم شهيداً بخلاف
شهادة الأمة على الناس فإنّها شهادة عليهم أنهم لم يتبعوا الإسلام، ولما
قال: ويكون الرسول عليكم شهيداً يظهر منه معنى القسر والاستعلاء
الذي ليس في صالح المشهود لهم.

إن الأمر هنا ليس كذلك لما تضمنه الشهيد من معنى الرقيب
والمطلّع فعدي الفعل بالحرف المناسب للمعنى لأن الرقيب:

يراقب ما لك

يراقب ما عليك

الرقيب شاهد

ولذلك، كانت تعديّة الفعل بالحرف المناسب للمعنى (عليكم)
وليس بالحرف المناسب للفظ (لكم) فظهر المعنى أن التعديل والتزكية إنما
يكون عن خبرة ومراقبة من الشاهد فإذا شاهد منهم الرشد والصلاح
عدله وزكاه وأثنى عليهم وشهد لهم بذلك، وإن شاهد منهم غير الرشد
والصلاح فقد شهد عليهم بما قدمت أنفسهم، وهذا سبب استخدام
الحرف (على) مكان حرف (اللام).

الجانب الثاني:

لقد قدم الجار والمجرور على خبر (يكون) إظهارا للاختصاص بأنه شهيد على أمته. لأنه لو قدم خبر يكون (شهيدا) على الجار والمجرور (عليكم) لكان فيه احتمال أكثر من وجه إذا كان الكلام على هذه الصورة: ويكون الرسول شهيدا عليكم

ففيه احتمالات أخرى يحذف لفظها لظهور معناها ومنها:

يكون الرسول شهيدا عليكم مع من شهد

يكون الرسول شهيدا عليكم مع غيره

يكون الرسول شهيدا عليكم وعلى غيركم

فتقديم الجار والمجرور (عليكم) على خبر يكون (شهيدا) أفاد حصر المعنى، كما في قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} 472.

فتقديم المفعول به (إياك) على نعبد وعلى نستعين حصر العبادة في الله تعالى لانقطاع الجملة بتمام معناها، حيث فصل الضمير المؤخر عن الفعل المتصل به من (نعبدك ونستعينك) وجعله منفصلا مقدما على الفعل لإفادة الحصر والقطع وعدم احتمال أي شيء آخر، ولو آخر المفعول به (إياك) عن الفعل لأفاد احتمالات أخرى ويكون الكلام على النحو الآتي:

نعبدك ونعبد غيرك

نستعينك ونستعين سواك

نعبدك مع غيرك

نستعينك مع الآخرين

ولهذا قدم (عليكم) وآخر (شهيدا) لإفادة هذا المعنى
وربّ قائل يقول فكيف يشهد صلّى الله عليه وسلّم على الأمم
الأخرى إذا اختصت شهادته بأمته؟
نقول إنّ هذا الاختصاص لا ينافي أن يشهد على الأمم الأخرى
لما يأتي:

أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم هو النبي الخاتم
النبي الخاتم وجب أن تكون رسالته كافة
الرسالة الكافة ضمت علوم الأولين والآخرين من الأنبياء
الذي جاء به محمّد صلّى الله عليه وسلّم هو الخبر الصادق عن
رّبّه

النبي اللاحق هو شهيد على أمته وعلى من سبقه من الأمم
محمّد صلّى الله عليه وسلّم آخر الأنبياء والمرسلين
هو شهيد على أمته وعلى الأمم السابقة
شهادته خاصة على أمته وعامة لجميع الأمم
لا يشهد على أمة محمّد نبي غيره
لذلك كانت أمته شهداء على النّاس
كان هو شهيد على أمته
ولذا، جاء قوله: ويكون الرّسول عليكم شهيدا، أي لا يشهد
أحد من الأنبياء عليكم سواه.

ولهذا؛ فقد جاء في الحديث الصحيح قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
"يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم.
فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير أو ما أتانا
من أحد. قال: فيقال لنوح من يشهد لك فيقول: محمد وأمته. قال
فذلك قوله: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال: الوسط العدل. قال:
فتدعون فتشهدون له بالبلاغ قال: ثم أشهد عليكم"473.

ولقد ثبت من الأحاديث الصحيحة شهادة الأنبياء على أممهم
وشهادة أمة محمد على من أنكر ذلك على نبيه من تلك الأمم حيث
قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يجيء النبي يوم القيامة، ومعه الثلاثة والأربعة
والرجلان حتى يجيء النبي وليس معه أحد قال: فيقال لهم: هل بلغتم
فيقولون: نعم، قال: فيدعى قومهم فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون:
لا، قال: فيقال للنبيين: من يشهد لكم أنكم قد بلغتم؟ قال: فيقولون:
أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فتدعى أمة أحمد فيشهدون أنهم
قد بلغوا قال: فيقال: وما علمكم بهم أنهم قد بلغوا قال: فيقولون جاءنا
رسولنا بكتاب أخبرنا أنهم قد بلغوا فصدقناه، قال: فيقال صدقتم قال:
وذلك قول الله عز وجل في كتابه: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا
شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا)"474.

وهذا ما يفسره قوله تعالى: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ
مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ}475. لأن الأنبياء شهداء
على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة ودعواهم إلى الإيمان، ففي
كل زمان شهيد وإن لم يكن نبيا، فهناك من بقي على دين نبي سبقه

473 - مسند أحمد، ج 24، ص 119.

474 - شعب الإيمان، ج 1، ص 287.

475 - النحل 89.

فبقي على التوحيد يدعو قومه إلى الهدى، كمن بقي على ملة إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل مبعث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل قس بن ساعدة وورقة بن نوفل، فهذان شاهدان على أهل الفترة قبل مبعث النبي.

الشهيد العدل:

إِنَّ أَوَّلَ شَهَادَةٍ مَطْلُوبَةٍ مِنَ الْعِبَادَةِ بَعْدَ شَهَادَةِ التَّوْحِيدِ، الشَّهَادَةُ لِلْأَنْبِيَاءِ بِصِحَّةِ مَا أُرْسِلُوا بِهِ، وَأَنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ، لِذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْكَرَ عَلَى مَنْ ادَّعَى أَنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ دِينَ فَقَالَ تَعَالَى: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} 476.

فالذي يقول بغير ما بعث الله به رسله؛ فقد كتم الشهادة وأنكرها لأن ذلك يفضي إلى:

أ. اختلاف دين الأنبياء يعني اختلاف مصادر الرسائل

ب. اختلاف مصادر الرسائل يفضي إلى تعدد الأديان

ج. تعدد الأديان يعني تعدد الآلهة

د. إذا تعددت الآلهة انتفتت الوجدانية

هـ. الذي يقول بهذا فقد كتم الشهادة الحقّ

لأن الحقّ هو التوحيد والدين عند الله الإسلام باتباع دين الأنبياء الذي ارتضاه الله لهم ومن وضوح كتمان الشهادة لدى هؤلاء وإنكارها:

. أنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم ثبتت نبوته بسائر المعجزات وبما أخبرهم عن قبله من الأنبياء فثبت كتمان شهادتهم.

. شهادة الكتب السابقة على أن الأنبياء كانوا على التوحيد.

. أنّ التوراة والإنجيل أنزلا بعد إبراهيم وإسحاق ويعقوب فكيف يكونون هودا أو نصارى دعوتهم هذه محض افتراء لأنّه لا يقوم عليها دليل وعليه: فقد تبين أنهم كتموا الشهادة فكانوا من الظالمين لذلك بيّن الله تعالى بأسلوب إنكاري على ما يدعون أنهم لا يشهدون شهادة الحقّ بقوله: (قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّٰهُ) فالله تعالى أعلم وخبره أصدق وقد أخبر في التوراة والإنجيل وفي القرآن على لسان محمّد صلّى الله عليه وسلّم أنهم كانوا مسلمين وكتم الشهادة وعدم إظهارها لا يضر الله شيئاً ولا يغير من الحقيقة شيئاً.

أما قوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّٰهِ) ففيه ثلاثة أوجه.

. من أظلم عند الله ممن كتم شهادة علم حقيقتها فمنع إظهارها.

. دخل في هذا القول الخالق والمخلوق.

. لو صح ما يقولون لما كتم الله هذه الشهادة.

. الله تعالى عنده شهادة الحقّ فأظهرها.

. لو كان الأمر كما يقولون لدخل الله في زمرة الظالمين: (حاشا

لله).

. الله سبحانه وتعالى نفى الظلم عن نفسه.

. نفى الظلم عن نفسه تعني أن شهادته هي الحقّ.

. شهادة الله تعالى دليل على كتمانهم شهادة الحقّ.

. ليس أظلم ممن كتم شهادة جاءته من عند الله فجحدها.

ولم تقتصر الشهادة من الشهداء على الوحدانية والدين، ولكن إظهار الشهادة من الشهداء في حقوق الآخرين من أعظم الواجبات في المعاملات والدين والبيع والشراء فقد فصل الله تعالى القول وبينه لعباده حتى يكونوا شهداء عدول على حقوق الخلق فيما بينهم حيث قال تعالى: {وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 477.

لقد أمر الله تعالى الشهداء أن يشهدوا بما علموا من حقوق الآخرين لأنهم شهداء عدل على الناس حيث رتب الله تعالى أنواع الشهادة بحكمته في الحقوق المالية والشخصية والبدنية والحدود وجعل في كل باب شهيدين إلا في الزنا فقد جعله أربعة شهداء لما يترتب على هذا الأمر من نتائج لا تكون في غيره، وشهيد مبني على صيغة المبالغة وفي ذلك دلالة على من شهد وتكرر منه ذلك معاينة من أجل الوضوح، فكأنه إشارة إلى توخي الحق في الشهادة وصولاً إلى العدالة.

وقوله: واستشهدوا شهيدين من رجالكم فيه تخصيص واستثناء

التخصيص:

من رجالكم أول ما يفهم منه أن يكون على دينكم

يخرج من الشهادة الطفل والصبي

مشهود له بالرجولة غير البنية والتي يدخل فيها:

الحق

العدل

الأخلاق

الاستثناء:

امرأتين تقومان مقام الرجل الواحد

اشترط العلماء وجود شهادة الرجل مع امرأتين. أمّا ظاهر النص فلا يمنع أربع نسوة تقوم شهادتهن مقام رجلين من الشهداء بالقياس.

وأما عظمة هذه الشهادة في تأدية حقّها للمشهود له فقد أوجب الله تعالى تأديتها بقوله: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} 478. فقد نهى الله تعالى الشهيد عن كتمان شهادته لأن هذا الكتمان سيضر بصاحب الحقّ وهو نهى على الوجوب بقرائن الوعيد. لذلك وجب على الشهيد أن يشهد حيثما استشهد ويخبر متى استخبر وأن يشهد لصاحب الحقّ بحقّه،

لذلك، وجب إظهار الشهادة من الشهيد سواء عرف صاحب الحقّ تلك الشهادة أم لم يعرف، لأن كاتم الشهادة:

يكون آثماً

الآثم فاجر

الفجور يؤدّي إلى النار

ولذا قال صلّى الله عليه وسلّم: "ألا أخبركم بخير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها"479.

وعلى ما تقدم فإن الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام:

شهداء لله

شهداء على أممهم

شهداء بالحقّ

فسليمان صلّى الله عليه وسلّم شهيد لأنه أدى الشهادة لله تعالى وشهد أمام قومه بوحدانية الله وألوهيته كما شهد الله تعالى بها لنفسه.

شهداء الجهاد:

معلوم أن المؤمنين يقولون: اللهم ارزقنا الشهادة، فلو كانت الشهادة عبارة عن قتل الكافر للمؤمن لكان هذا الطلب غير جائز إذ ليس القتل بمحدّ ذاته هو الذي يجعل المجاهد من الشهداء، ولكن هناك أسباب أخرى يكون المؤمن فيها من الشهداء حتى وإن لم يرّ عدوا ولم يشهد زحفا ولم يجرّد سيفاً، فانظر إلى قوله تعالى: {لَكِنَّ الرّسولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}480.

فمن هذه الآية يتبين أن شهادة الجهاد تكون:

479 - صحيح مسلم، ج 11، ص 404.

480 - التوبة 88.

جهاد بالأموال

جهاد بالنفس

جهاد للنفس

جهاد في سبيل الله

فتكون شهادة الجهاد بحضورها أو ممارسة أسبابها ومنها جهاد الشهادة في القتال لذلك قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يا أيها النَّاسُ لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلل السيوف" 481.

إنَّ الشهادة ليست عبارة عن القتل في سبيل الله فحسب، بل نقول: الشهيد هو الذي يشهد بصحة دين الله تعالى في الدفاع والذود عنه من أجل إعلاء كلمة التوحيد ويكون هذا الأمر:

بالحجة والبيان

بالسيف والسنان

بالمال والبنين

فالشهداء هم القائمون بالقسط لأمر الله تعالى وجميعها تتطلب البذل والعطاء، ومن هنا يقال للمقتول في سبيل الله شهيد حيث أنه بذل نفسه في نصره دين الله، وشهادته له بأنه هو الحق وما سواه هو الباطل، وإذا كان من شهداء الله في الدنيا بهذا المعنى كان من شهداء الله في الآخرة، ولهذا فإن الأنبياء هم خير شهداء الجهاد لأنهم جاهدوا بجميع أركان الجهاد من المجادلة في الحجة والقول والجهاد بالنفس

481 - صحيح مسلم، ج 5، ص 143.

والجهاد بالمال فمنهم من قتل مثل يحيى صلى الله عليه وسلم ومنهم من لم يقتل حال معظم الأنبياء فالذين قتلوا والذين لم يقتلوا جميعهم من الشهداء.

والشهادة تتعدى هذه الأحوال إلى مواطن كثيرة يكون أصحابها من الشهداء فقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "وما تعدون الشهادة قالوا: القتل في سبيل الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله، المبطون شهيد والغريق شهيد المنكر ذات الجنب شهيد والمطعون شهيد المنكر الحريق شهيد والذي يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت بجمع"482.

فقوله صلى الله عليه وسلم وما تعدون الشهادة؟ هو سؤال لهم عن المعنى الذي تفهمونه من الشهادة ليختبر بذلك علمهم ويفيدهم من هذا الأمر ما لا علم لهم به قالوا: القتل في سبيل الله.

فالملاحظ هنا أن السؤال كان:

عن جنس جميع الشهادة

كانت إجابتهم:

عن نوع الشهادة فقالوا القتل في سبيل الله

فأخبرهم صلى الله عليه وسلم أن الشهادة سبعة سوى القتل في سبيل الله تسلية للمؤمنين وإخباراً لهم بتفضل الله تعالى عليهم فإن الشهادة قد تكون بغير القتل وإن شهداء أمة محمد صلى الله عليه وسلم أكثر مما يعتقدونه، ثم فسر ذلك فقال:

482 - صحيح ابن حبان، ج 7، ص 449.

المطعون شهيد والمطعون هو المصاب بالطاعون

والغرق شهيد وهو من مات غرقا في الماء

وصاحب ذات الجنب شهيد، وهو داء ومرض

المبطون شهيد وهو الذي يموت من مرض بطنه

الحرق شهيد وهو من يموت بالنار

والذي يموت تحت الهدم شهيد

والمرأة تموت بجمع شهيد

وفيها معنيان:

أن تموت بالولادة هي وحدها، أو هي وولدها

أن تموت جمعا بكرة غير ثيب لم ينلها أحد

فهؤلاء كلهم شهداء خارج القتل وخارج الجهاد بالنفس والمال،
فقد جعلها تكفيرا لذنوبهم وزيادة في أجرهم مما يلاقون من ألم أنواع
الموت حتى بلغهم مراتب الشهداء.

وعلى ما تقدم فإنّ جميع الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام شهداء
حقّ وعدل وتبليغ وجهاد: سليمان صلّى الله عليه وسلّم من الأنبياء

جميع الأنبياء شهداء

سليمان صلّى الله عليه وسلّم شهيد.

الصالحون:

الصالح هو منتهى الصفات الحميدة التي لا يشوب صاحبها فساد رأي أو اعتقاد لذلك مدح الله تعالى أنبياءه وعباده بهذه الصفة، وقد جاء في تعريفها اللغوي أنّ: "الصالح ضد الفساد صلح يصلح ويصلح صلاحا وصلوحا، وهو صالح وصليح والجمع صلحاء وصلوح وصلح وصالحون، ورجل صالح في نفسه من قوم صلحاء ومصلح في أعماله وأموره وقد أصلحه الله وربما كنّوا بالصالح عن الشيء الذي هو إلى الكثرة كقولهم هي مطرة سالحة، وهذا الشيء يصلح لك والإصلاح نقيض الإفساد والمصلحة الصلاح والمصلحة واحدة المصالح والاستصلاح نقيض الاستفساد وأصلح الشيء بعد فساده أقامه"483.

فالصالح فضيلة يحمل صاحبها

التوحيد

الإيمان

العقيدة

الأخلاق

ولذا؛ فقد خصّ الله تعالى أنبياءه وعباده المقربّون بهذا الوصف فقال في حقّ عيسى صلى الله عليه وسلّم: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا

483 - لسان العرب، ج 2، ص 516.

وَالْآخِرَةَ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ {484}.

إن عيسى صلى الله عليه وسلم:

كَلِمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى

وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

مِنَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى

مَكَلِّمًا لِلنَّاسِ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا

فكل واحد من هذه الصفات من العظمة والشرف بمكان، ومع ذلك فقد ختم الكلام بما وصفه به أن جعله من الصالحين وعليه:

فإنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحا لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال من الأوامر والنواهي مواظبا على:

النهج الأصح

الطريق الحق

السبيل الرشيد

وهذا النهج هو صلاح الدين والدنيا لأنه يتناول جميع أفعال الجوارح والقلوب فلما ذكر الله تعالى بعض التفاصيل عن عيسى صلى الله عليه وسلم أردفه بهذه الصفة التي تدل على أرفع الدرجات.

484 - آل عمران 45، 46.

وأما قوله تعالى في يونس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ
فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} 485. فهذا لا يعني أنه لم يكن صالحاً، فكيف
وهو النبي المصطفى، ولكن هذا يدل على:

أن الصلاح يكتسب

الصلاح درجة عالية لا يناها إلا أهل الاجتباء

صفة الصلاح تنسلخ عن من يتصف بها

صفة الصلاح تعود لمن انسلخت عنه

النبوة ثابتة لا تنسلخ

النبوة اصطفاء

الصلاح اجتباء

فعندما اجتباه وجعله من الصالحين عصمه من أن يفعل فعلاً
يكون تركه واجباً، وجعله من الصالحين لأن الصلاح إنما يكون بجعل
الله وخلقه وإن كان للعبد مدخل فيه بسبب الكسب بصرف إرادة
جزئية.

فهذا يوضح لنا طلب سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن لا يقع بما
وقع به يونس في قوله تعالى: {وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي
بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 486.

لقد طلب سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التوفيق إلى العمل الصالح
ومن ثم الدخول في العباد الصالحين، ومع أنّ درجات الأنبياء أعظم من

485 - القلم 50.

486 - النمل 19.

درجات الصالحين إلا أنه أراد من ذلك ألا يخرج من الصلاح مطلقاً
كما خرج يونس صلى الله عليه وسلم إلى أن اجتباه ربه، ولذلك قال
يوسف صلى الله عليه وسلم: {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي
بِالصَّالِحِينَ} 487.

وعلى هذا يكون قد طلب الصلاح التام وهو الذي لا يعصي الله
ولا يهم بمعصية وعلى هذا يكون هذا الطلب مبني على:

جعله صالحاً أبداً

إزالة الأسباب التي قد تسلك عن الصلاح

فالصالحون الذين استوت سريرتهم وعلانيتهم في الخير وصلحت
أحوالهم عند الله تعالى فرضي عنهم، فهذه الصفة هي غاية المدح ويدل
عليها النقل والعقل، أما النقل: فهو أن الله تعالى مدح بهذا الوصف
الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام

فقال بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل: {وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي
رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ} 488.

وقال مبشراً إبراهيم: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ
الصَّالِحِينَ} 489.

وذكر حكاية عن سليمان عليه السلام قوله تعالى: {وَأَدْخَلْنِي
بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 490.

487 - يوسف 101.

488 - الأنبياء 86.

489 - الصفات 112.

490 - النمل 19.

وأما العقل فيعلم أن الصلاح ضد الفساد، وكلّ ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد، سواء أكان ذلك في العقائد أم في الأعمال أم في الأخلاق، فإذا كان كلّ ما يحصل من باب ما يجب أن يكون فقد حصل الصلاح الذي يدل على أرفع الدرجات.

فالصالح هو الذي يكون صالحا في اعتقاده وفي عمله وسلوكه وتصرفاته وكلّ ما يصدر عنه أو ما يكنه في قلبه ونيته.

وبعد هذا فقد تبين لنا معنى الصديق والشهيد والصالح وظهر ما بين هذه الصفات من التفاوت، وذلك لأن كلّ من كان اعتقاده صوابا وكان عمله طاعة وغير معصية فهو صالح، ثم أن الصالح قد يكون بحيث يشهد لدين الله بأنه هو الحقّ وأنّ ما سواه هو الباطل، وهذه الشهادة تارة تكون بالحجّة والدليل وحينما بالسيف والقتال، وقد لا يكون الصالح موصوفا بكونه قائما بهذه الشهادة، فثبت أنّ كلّ من كان شهيدا كان صالحا، وليس كلّ من كان صالحا شهيدا، فالشهيد أشرف أنواع الصالح، ثم أن الشهيد قد يكون صديقا وقد لا يكون: ومعنى الصديق الذي كان أسبق إيمانا من غيره، وكان إيمانه قدوة لغيره، فثبت أنّ كلّ من كان صديقا كان شهيدا، وليس كلّ من كان شهيدا كان صديقا، فثبت أنّ أفضل الخلق هم:

الأنبياء عليهم السلام، وبعدهم الصديقون، ثم الشهداء ويليهم الصالحون

ومن مجمل ما تقدم من توضيح أن هناك معنيين لكلّ من الصديق والشهيد

الصديق:

المعنى الخاص الذي تقدم في مطلع البحث

المعنى العام وهو من صدق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برسالته، فلو كان هذا المعنى هو المقصود بالصديق لتساوى جميع أفراد الأمة بأبي بكر رضي الله عنه وهذا محال.

لشهادة أكثر من معنى، فلو كان معنى الشهيد هو شهادة الحق في التوحيد لتساوى جميع أفراد الأمة مع الأنبياء وهو محال، ولو كان كذلك لما خصص صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولئك السبعة إضافة إلى قتيل الجهاد في الحديث الذي أوردناه ومنهم: الحريق والغرق والمطعون والمبطلون ومن جاء ذكرهم في الحديث

وأما الصلاح فهي فضيلة أخلاقية مشاعة يتصف الإنسان بها اختيارا بتوفيق الله تعالى وذلك أن الإنسان يستطيع أن يكون صالحا بإرادته، ولا يستطيع أن يكون نبيا لأن النبوة اصطفاء من الله تعالى.

والصلاح درجات لدى الإنسان لا من حيث المكانة، وإنما من حيث الخصوص أو الشمول وذلك أن يكون الإنسان:

صالح في نفسه لنفسه

صالح لنفسه ولأهله

صالح لنفسه وأهله والآخرين

وهناك أسباب أخرى يعلمها سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما خص الله تعالى أنبياءه ورسله فوصفهم بأحسن الوصف ومدحهم بأجل الصفات بأنهم من الصالحين فقد سار سليمان في هذا الطلب على سنة الله في أنبيائه:

حيث جعلهم ورثة الأرض قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ
بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} 491.

إبراهيم أبو الأنبياء منهم قال تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ
إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ
الصَّالِحِينَ} 492.

بشر الله زكريا بنبي من الصالحين قال تعالى: {أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ
بِغُلَامٍ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنْ
الصَّالِحِينَ} 493.

عيسى صلى الله عليه وسلم منهم قال تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ
يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ
الصَّالِحِينَ} 494.

{وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ} 495.

بشر إبراهيم بإسحاق وهو منهم قال تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ
نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} 496.

عندما اجتبى يونس جعله منهم قال تعالى: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ
مِنَ الصَّالِحِينَ} 497.

491 - الأنبياء 105.

492 - البقرة 130.

493 - آل عمران 39.

494 - آل عمران 45، 46.

495 - الأنعام 85.

496 - الصافات 112.

فهل بعد هذا استغراب إذا طلب سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وهو نبي أن يدخله الله برحمته في عباده الصالحين، وأن يوزعه أن يشكر
النعمة التي أنعم عليه بها.

ولذا فإننا نقف في طلب سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نقاط
تربوية تعطي أمثلة ودروسا تعليمية مما أوتي من العلم وهي:

نموذج العبد الشاكر

الذي يسأل ربه التوفيق

شكر نعمته عليه

المتدبر لآيات الله

لا يغفل عنها

لا تبطره النعمة

لا تطغيه القوة

لا تغريه المكانة

الوزع والشكر:

ونرى من حرص سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على شكر النعمة
أنه قال (ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك) فلا يصلح لسليمان بما أوتي من
ملك أن يشكر بغير كلمة (أوزعني)

فهو لم يقل:

أجعلني

ألهمني

وإنما قال أوزعني لأنّ الوزع يعطي معنى كف النفس عن الهوى وكف الآخرين عن التفرق وهو يمتلك من الجيوش والجنود والأمم والخلائق ما يحتاج معه إلى هذا الوزع وقد جاء في اللسان أنّ: "الوزع كف النفس عن هواها وزعه وبه يزرع ويزع وزعا كفه فاتزر وكذلك وزعته والوازع في الحرب الموكّل بالصفوف يزرع من تقدم منهم بغير أمره ويقال وزعت الجيش إذا حبست أولهم على آخرهم"498.

وبهذا المعنى، جاء في الحديث أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "ما زُوِيَ الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أذحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما أُرِيَ يوم بدر قيل وما رأى يوم بدر يا رسول الله قال: أمّا أنه قد رأى جبريل يزرع الملائكة"499.

فجبريل عليه السلام عندما يزرع الملائكة فهو يصفهم للقتال ويمنعهم أن يخرج بعضهم عن بعض في الصف ويعبّوهم تعبئة قتالية في إدارة وانتظام فالوازع الذي يزرع:

يرتب الصفوف

يسددها

يديرها وينظمها

يكف بعضها عن بعض

يمنعها من التداخل

498 - لسان العرب، ج 8، ص 390.

499 - الموطأ، ج 1، ص 422.

يحبسها عن المضي إلا بأمر

ولهذه الأسباب كان سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وازعا وطلب
المزيد من الوزع ليستطيع أن يحافظ على هذا الجَمِّ الغفير من الجنود
المتنوعة الذين وصفهم الله تعالى بقوله: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ
الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} 500.

فالمحافظة عليهم وضبطهم وفق نظام وأمر ينصاعون فيه إلى
سليمان لا يتم إلا بالوزع فهو يريد أن يزع هذا الملك ويكفه عن التفرق
ويمنعه من الانتشار والتفكك من يده بشكره لله تعالى لذلك قال:

اجعلني أزع شكر نعمتك

بالكف

بالرّبط

بالتقييد

بالصلاح

بالحقّ

بالعدل

وبذلك لا ينفلت هذا الملك عنه طالما أن الشكر لا ينفك منه
لأنه سأل عليه الصلاة والسلام أن يجعله الله وازعا لعدم تشتت هذه
الملك الذي يحتوي هذه النعم.

وأما النعم التي أنعم الله عليه بها فإن شكرها يكون بين الحقّ
والواجب:

حقّ الله الواهب والمِنعم لهذه النعم أن تشكر له

واجب سليمان المِنعم عليه أن يشكر فضل الله

لأنّ الشكر على النعمة الحاصلة مدعاة لاستدرار نعم كثيرة، ولا
يكون العطاء وحده نعمة وإنما المنع للصالحين نعمة أيضا، لأن الصالح:

إذا أعطي شكر

إذا منع صبر

وفي كلاً الحالين تحصيل للأجر لأنّه في الأوّل أعطي النعم من
العلم والملك وما إلى ذلك فشكر هذه النعم فكان أجره حاصل

وفي الثانية التي هي أعظم من الأوّل لأنه إذا منع فصبر على ذلك
كان أعظم، وصبره على وجهين:

الأول: أنّه أعطي نعمة الصبر

الثانية: بصبره أعطي أجر الصبر على نعمة الحرمان

ولذا فإن سليمان صلّى الله عليه وسلّم مدرك بعلمه حجم ما وهبه
الله له من النعم مثل:

النبوة

العلم

الملك

العدل

القضاء

منطق الطير

كلام النملة

تسخير الريح

ومن دقيق علمه في كيفية الشكر (الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده) وهذا دليل على أن هناك عبادا لله أفضله منه لذلك استثنى فلم يقل:

فضلنا على عباده

فضلنا على جميع عباده

فضلنا على قليل من عباده

وذلك لأن الأولى تعطي معنى الشمول

الثانية تستغرق النوع

الثالثة تخرجه من الاصطفاء

ولذلك قال (على كثير من عباده)

لأنّ القليل هم الذين اصطفاهم الله من الكثير وفضلهم

يوجد في القليل من هم أفضل منه عند الله

وازن نفسه بأمثاله

لم يوازن نفسه بجميع العباد

ومن هذا نتبين دقة شكر سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم في مراعاة درجته ومرتبته قياسا لما أوتي من العلم والنبوة والملك وهذا فيه أدلة منها:

1 . شكره الدقيق دليل على سعة علمه

2 . إنّ الكثير الذين فضله الله عليهم لم يؤتوا علما أو من لم يؤتوا مثل علمه

3 . فُضِّلَ هو على كثير، وفُضِّلَ عليه كثير

4 . فُضِّلَ عليه ممن يعلم أنهم أفضل منه من هذا القليل

5 . دليل على علو مرتبة العلم عنده، لأنه أوتي من الملك ما لم يؤت غيره فلم يكن شكره على الملك كشكره على العلم

6 . لم يفضل نفسه على الجميع

والذي يبدو أن تلك الفضيلة التي قصد إليها سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم ليست إلا فضيلة العلم المميز عن كثير ممن لديه علم.

لأنّ العلم حاصل لجميع المؤمنين ولكنه غير متساوٍ لدى الجميع فيستحيل أن يكون قد ذهب إلى فضيلة الملك لسبب واضح جلي وهو قوله (ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) فلم يقل:

ملكا ما ينبغي لأحد من قبلي

وسبب ذلك أنه ربّما كان هناك ملك لأحد قبله أعظم من ملكه

فإن كنا لا نعلم هل ينبغي لأحد من قبله فهو يعلم، وإن كنا نعلم أن هناك من امتلك ملكا كبيرا غير سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم إلا أننا لا نستطيع المقارنة بينه وبين من أوتي من ملك قبله

فمن الذين أتوا ملكا قبل سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

آدم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

كانت له الجنة في السماء سكنا:

قال تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} 501.

وإن كانت مقيدة بشرط وهو عدم الاقتراب من تلك الشجرة إلا أن:

ملك سليمان لا يمكن أن يقارن بالجنة

لا يمكن أن يقارن بالسكن في الجنة

أهبط آدم إلى الأرض ولم يكن فيها أحد سواه فهي ملك له من جانبين:

الأول: عدم المنافسة

الثاني: الشيوخ

ملك (ذو القرنين):

بلغ مغرب الشمس:

قال تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ أَمَا أَنْ تَعْدِبَ وَأَمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا} 502.

501 - البقرة 35.

502 - الكهف 86.

بلغ مطلع الشمس:

قال تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدَهَا تَطَّلَعُ عَلَىٰ قَوْمٍ
لَمْ يُجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا } 503

مكن الله له في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً:

قال تعالى: { إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا
فَاتَّبَعَ سَبَبًا } 504.

السد الذي أقامه لا يستطيع أحد أن يدكه حتى يأتي وعد الله

قال تعالى: { قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي
الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا
مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا أَتُونِي زُجُرَ
الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ
أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا قَالَ
هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي
حَقًّا } 505.

إلا أن جزئيات ملك آدم وذي القرنين ليس لدينا علم بهما على
وجه الدقة، لأن الله تعالى لم يوضحهما لنا كما بين ملك سليمان، غير
أن آدم نسي، قال تعالى: { وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ
لَهُ عَزْمًا } 506

فهل أن آدم نسي لأن علمه كان أكثر من علم سليمان

503 - الكهف 90.

504 - الكهف 84، 85.

505 - الكهف 94 - 98.

506 - طه 115.

آدم عُلِّمَ الأصول

سليمان عُلِّمَ الفروع

سليمان لم ينسَ

وقد بحثنا هذا في موضعه عند آدم صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

وعليه فإن فضيلة ملك سليمان سببها العلم، وعلم سليمان علم يقيني يرتقي إلى معالم فضيلة العلم، وهو أن يصير العلم بالله وبصفاته جلّيا بحيث يصير المرء مستغرقا فيه لا يخطر بباله شيء من الشبهات ولا يغفل القلب عنه في حين من الأحيان ولا ساعة من الساعات، ثم أن العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره، فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على هذا العلم الذي بني عليه الملك، ولو لم يكن العلم أشرف من الملك وأرفع منه درجة لما استطاع سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يحيط بهذا الملك وعليه:

سعة الملك دليل على سعة العلم

العلم هو الذي يحكم الملك

الأقوى يسيطر على الأضعف

العلم يسيطر على الملك

الشكر للنعمة العظمى

العلم أعظم من الملك

إذن، الشكر للواهب على نعمة العلم وليست على نعمة الملك.

لأنّ شكر واهب الملك متضمن في شكر واهب نعمة العلم لأنه فرع من الأصل وجزء من الكلّ، ولأنه صلّى الله عليه وسلّم شكر نعمة الأصل والكلّ فقد دخل فيه الفرع والجزء.

وكذلك فقد شمل بالشكر النعمة التي غمرت والديه (وعلى والدي) إلا أنّ هناك نعم من الله تعالى على والديه تستحقّ الشكر من سليمان وبخاصة أنّ النعم التي أنعم بها على أبيه قد شهدها وعابنها ومن هذه النعم:

نبوة داوود

آتاه الزبور

تسبيح الجبال معه

تسبيح الطير

ألان له الحديد

علّمه صنعة لبوس الحديد

وأما والدته فقد ذكرت المظان أن والدته قالت له: "يا بني لا تكثرن النوم بالليل فإنه يدع الرجل فقيرا يوم القيامة" 507 لقد أدرج ذكر والديه بشكر النعم لأنّ الإنعام عليهما إنعام عليه مستوجب للشكر ضرورة وذلك:

ميراث سليمان من داوود يقتضي ميراث تلك النعم

نعم داوود آلت إلى سليمان

507 - تفسير حقّي، ج 10، ص 31.

ذلك يقتضي شكر من كان سببا فيها

انتساب الابن إلى أب شريف نعمة من الله تعالى مدعاة للفخر

والشكر

بُرَّ سليمان بوالديه أوجب عليه الشكر

أمر الله تعالى أوجب عليه الشكر أيضا لقوله تعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلًا مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ} 508.

إذن فالشكر أصبح على سليمان فرض عين بأمر من الله تعالى لأنه من آل داوود، وقد استغرق الأمر بالشكر لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلَيْتَهُ عَلَى الْإِطْلَاق:

النية

القول

العمل

الجوراح

وهذا يبين لنا أن التكلّيف على قدر الطاقة ممّا يعني أن شكر الكثيرين لا يرقى إلى شكر آل داوود، لأنه قال: (وقليل من عبادي الشكور) وظاهر النص يفهم منه أن الواجب الذي ينبغي أن يُكثر منه هو العمل الصالح الذي يكون شكرا، غير أن إنعام النظر في ورود (شكرا) واصفة (اعملوا) تعطي احتمالين:

التخصيص لآل داوود في أفعالهم وأقوالهم

العموم لغيرهم على قدر الطاقة

وذلك لأنّ شكرا تحتمل ثلاثة أوجه من حيث الإعراب الذي
يوجه المعنى:

الأول: أن يكون مفعولا له لقوله: اعملوا أي اعملوا للشكر كقول
القائل جئتكم محبة (للمحبة) وعبدت الله رجاء غفرانه (للرجاء).

الثاني: أن يكون مصدرا مفعولا مطلقا كقول القائل شكرت الله
شكرا ويكون المصدر من غير لفظ الفعل كقول القائل جلست قعودا،
وقمت وقوفا وذلك لأن العمل شكرا وعليه يكون (اعملوا) يقوم مقام
قوله (اشكروا) أي اشكروا شكرا.

الثالث: أن يكون مفعولا به كقولك: أخبز خبزا فلا يمكن خبزا أن
يكون مصدرا وإن كان من جنس لفظ الفعل، وهو كما تقول أعمل
صالحا. فلا يحتمل أن يكون:

اعمل عاملا

أصلح صالحا

ولهذا، جاء الاستثناء في قوله تعالى: {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ
الشُّكْرُ} دليل على:

أنّ الله خفف الأمر على عباده

أنّ في عباده من هو شاكر لأنعمه

الذي يعمل شكرا قليل

الشكر بقدر الطاقة البشرية

الشكر الذي يناسب نعم الله لا قدرة عليه

لا يكلف الله نفسا إلا وسعها

وعليه: يتضح ممّا تقدم أن الشكر واجب لكن شكر نعمه كما ينبغي لا يمكن:

لأنّ حقّ الشكر لا يكون إلا بتوفيق الله

هذا التوفيق هو نعمة أخرى

هذه النعمة تحتاج إلى شكر آخر

هذا الشكر لا يكون إلا بتوفيق آخر

وعند تتابع النعمة والشكر، يكون العبد مقصرا دائما بحيث تكون نعمة الله بعد الشكر خالية عن الشكر أو لم تشكر بعد والسبب في ذلك نوضحه بما يلي:

التعم سابقة على الشكر

الشكر لاحق للنعمة

التوفيق لشكر النعمة السابقة نعمة أخرى وجب شكرها

التوفيق لشكر الشكر على النعمة الثالثة وجب شكرها

التوفيق لشكر الشكر على الشكر نعمة رابعة وجب شكرها

بمعنى أن كلما شكرت نعمة فأنت مأجور ومثاب عليها وجب عليك شكر ذلك، وإن شكرت الأجر والثواب فأنت مأجور ومثاب مجددا ومطلوب منك شكر ذلك، وهكذا دواليك فتكون النعمة دائما متقدمة على الشكر وسابقة عليه، وهذا ما يفسر لنا جزءا من قوله

تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} 509؛ فهذا جزء واحد من باب النعمة لا يستطيع أحد أن يفيها حقها من الشكر لله تعالى فما بالك ببقية النعم التي نعلمها والنعم التي نتنعم بها ولا نعلمها. فإن كانت النعم لا تحصى فإن أبواب شكرها لا يحاط به، فلو ذكرنا بعض النعم التي منها:

خلق الإنسان

حاسة السمع

حاسة البصر

حاسة اللمس

حاسة الشم

خلق السماوات والأرض

إنزال الماء من السماء

إخراج الثمرات بهذا الماء لتكون رزقا

تسخير الفلك لتجري في البحر بأمره

تسخير الأنهار

تسخير الشمس والقمر دائبين

تسخير الليل والنهار

هذه الآيات والنعم الكثيرة بعض الخلق لا يفطن إلى هذه الأشياء
أنها من النعم التي أنعم الله بها على عباده والتي وجب عليهم شكرها له،
فكيف يفطن إلى شكرها إن لم يتذكر أنها من النعم.

ولذا؛ فإنّ الله تعالى يعلم أن عباده لا يقدرّون على الشكر التام
فليس في ذلك حرج عليهم، فإن عباده قليل منهم الشكور، ولكن في
إضافة ضمير المتكلم لله تعالى أدخل الجميع في قوله: (عِبَادِي) مع
الإضافة إلى نفسه.

وعبادي بلفظ الإضافة إلى ذات المتكلم (الله تعالى) لم ترد في
القرآن إلا في حقّ الناجين:

كقوله تعالى:

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} 510.

وكذلك قوله تعالى:

{إِنَّ عِبَادِيَ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا} 511.

جنود سليمان:

قال تعالى: {وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ} 512.

510 - الزمر 53.

511 - الإسراء 65.

512 - النمل 17.

قبل الكلام على جنود سليمان صلى الله عليه وسلم نتوقف عند
كلمات ثلاث في هذه الآية لأنها توضح قوة الجنود ونوعهم وطريقة
التعامل معهم وهي:

. حُشِر .

. جنوده .

. يوزعون .

أولاً . حشر:

إنّ الحشر لا يستعمل إلا مع الجماعة الكثيرة للدلالة على الجَمِّ
الغفير مع القدرة عليه وذلك كقوله تعالى: { وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ } 513.

لا يستعمل إلا إذا كان فيه نوع من القهر والسيطرة ما لم توضحه
قرينة دالة على غير معناه قال تعالى: { وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ
بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا } 514.

إنّ الحاشر أو المحشور له عنده العلم والإحصاء بكلّ من حشر من
الأنواع والأجناس وذلك كقوله تعالى: { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا
طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ
إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ } 515.

513 – الأنعام 111.

514 – الكهف 47.

515 – الأنعام 38.

ثم إنّ فعل الحشر بأزمته المختلفة في القرآن الكريم استخدم للمؤمن والكافر والطائع والعاصي والعاقل والبهيم للدلالة على السيطرة المطلقة قهرا من الحاشر لا سبيل لأحد ممن يشمله الأمر إلا أن يحشر انصياعا، ومن الملاحظات العجيبة في استخدام هذا الفعل في القرآن الكريم لجميع الخلق أنّ الله تعالى لم يجعل المؤمن والكافر في مرتبة واحدة في فعل الحشر، فتتبع آيات الحشر فيها من الدقة ما جعل الله به حشر الكافر وعيد، وحشر المؤمن وعد، وبون شاسع بين الوعد والوعيد.

ففي ذكر الحشر مع الكافرين ينسب الحشر إلى المكان الذي يحشرهم فيه ولم يذكر فيه نفسه جلّ وعلا ترفعا عنهم وبعدا لهم قال تعالى: {الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا} {516}، ودلالة الوعيد ظاهرة بينة بأنهم:

استبعدوا من رحمة الله بخطاب الغائب

يحشرون تحمل معنى القسر والقهر

المحشورون مسيطر عليهم

المحشور لا يمكن أن يفلت لأنه هو وإرادته تحت السيطرة

يحشرون على وجوههم وليس على أقدامهم

يحشرون إلى جهنم

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ} 517.

ففي الآيتين نسب الحشر إلى المكان وليس إلى الله تعالى، لأنه
عندما ينسب الحشر إلى نفسه تبارك وتعالى يعطي دلالة غير هذه
الدلالة مفادها الاستبعاد وخاصة أن الخطاب لهم كان بضمير الغائب
حتى يستبعدهم من رحمته.

وأما حشر المؤمنين فقد نسبه إلى ذاته سبحانه وتعالى ليمنح
قلوبهم دعة وطمأنينة بأنهم محشورون إلى ربِّ رحيم كريم قال تعالى:
{وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ
تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ} 518.

وقوله تعالى: {وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ
وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ} 519.

وإن كان الحشر لا يختلف من حيث المعنى اللغوي في حشر المؤمن
والكافر إلا أن لفعل الحشر مع المؤمنين قرينة موضحة للمعنى المقصود
من هذا الحشر ففي قوله (واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) وفي
الآية الثانية قوله: (لإلى الله تحشرون) فالضمير ولفظ الجلالة قرينتان
موضحتان لمعنى الحشر الذي يجري على المؤمنين بما وعدهم الله به، وبما

517 - الأنفال 36.

518 - البقرة 203.

519 - آل عمران 157، 158.

علموا أنّهم يحشرون إليه من أجل نيل الأجر والثواب ولهذا نسب الحشر إلى نفسه.

وربّ قائل يقول: إنّ الله سبحانه تعالى نسب حشر الخلق إلى نفسه وفيهم المؤمن والكافر في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} 520.

فهنا نقول: هذا الخطاب عام في جميع الخلق ليس فيه دلالة الثواب والعقاب ولا هو مكانه، وإّما هو دلالة على ألوهية الله تعالى بأنه الخالق لجميع الخلق فهو ذرأ المؤمن والكافر في هذه الأرض ثم إنّ الآيات التي تتلو هذه الآية توضح هذا المعنى بأنّ الله تعالى هو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار، فكما أنه ذرأ الجميع من الخلق مؤمنهم وكافرهم وطائعهم وعاصيهم وتقيهم وفاجرهم، فكذا الخلق الذي خلقه يحشرون إليه جميعا تأكيدا على أن الذي خلقهم هو الذي سيعيدهم حشرا بدلالة القدرة على الإعادة وليس حشرا من باب الثواب والعقاب.

وعلى ما تقدم تبين معنى (وحُشر لسليمان) وهو الذي يدخل فيه:

أنواع الخلق المختلفة

طوعا أو كرها

المؤمن وغير المؤمن

الطائع والعاصي

الهيمنة والسيطرة المطلقة على المحشورين

. أمّا بناء الفعل للمجهول (حُشِرَ) فهو مقصود لذاته لأنه كان من

الممكن أن يقول:

وحشرنا لسليمان

وحشرتُ لسليمان

وحشر الله لسليمان

فبناء الفعل للمجهول له دلالة حرية التصرف من قبل سليمان

ذلك أنّ:

الحاشر بالأمر هو الله تعالى

سليمان محشورٌ له

فهو صلى الله عليه وسلّم يتصرف ويأمر وينهى في جنوده المحشورين له بأمر الله بحيث تظهر الخصوصية في الموقف والمشهد وفيمن حُشر له، وذلك يستلزم سياقاً خاصاً ونسيجاً لغوياً له دلالاته، ولذا تمت صورة المشهد بفعالين مبنيين للمفعول في التسخير (حُشِرَ - يُوزعون) الذي لا ينبغي لأحد من البشر سوى نبيّ الله سليمان عليه السلام وهو تسخير يأتيه من قبل الله عزّ وجلّ لا طاقة له به، فهو قوّة غيبية مصدرها المباشر من الله تعالى.

وكذلك فإنه لا يخفى على الذوق اللغوي من حيث المعنى أنه لو جيء بذلك بالفعل غير مبني على للمفعول لوجدنا اللفظ قد نبا عن المعنى، والمعنى قد زال عن الحال التي قصدت والتي ينبغي أن تكون عليها.

ثانيا . جنوده:

بداية نقول عن جنود سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَدًّا على من قال أنه ملك الدنيا: إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ بِأَنَّ سُلَيْمَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ قَدْ مَلَكَ الدُّنْيَا كُلَّهَا بِأَكْمَلِهَا كَمَا يَزْعَمُ بَعْضُ الَّذِينَ يَنْقُلُونَ الْأَخْبَارَ مِنَ الْمَصَادِرِ عَلَى عَوَاهِنِهَا دُونَ أَنْ يَلْجَأُوا إِلَى:

مناقشة تلك الأخبار

التدقيق في مصداقية المصدر

الوقوف على المعنى من خلال السياق

تحليل النص بما يحمل من وجوه

تفسير النص وفق المعنى اللغوي

الوصول إلى نتائج

تفسير تلك النتائج

تعميم النتائج

ولعل من يقول أنّ سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ قَدْ مَلَكَ الدُّنْيَا اسْتَدَّ فِي ذَلِكَ إِلَى الْمَصَادِرِ الَّتِي نَقَلَتْ عَنِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي لَا نَثِقُ بِهَا أَوْ بِكَثِيرٍ مِمَّا جَاءَ فِيهَا، وَنَحْنُ نَدْحُضُ هَذَا الزَّعْمَ وَنَفْنَدُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الأول:

إذا كان النص القرآني لم يثبت ما زعمه هؤلاء، فكيف يلجؤون إلى مصادر يعتبرونها كتب سماوية يأخذون عنها، وخير ما يقال في تلك المصادر:

آ . إنّها كتب محرّفة

ب . إنّ تلك الكتب لم تكتب عن الأنبياء ولم تقرأ عليهم

ج . التوراة التي أنزلت على موسى صلّى الله عليه وسلّم هي غير التوراة التي يتداولها اليهود الآن لذلك قال تعالى: {قُلْ فَأْتُوا بِالتَّورَةِ فَآتُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} 521.

د . إنّ بعض النصوص التي تنسب إلى الوحي والتنزيل فيها ما يستحيي المرء من قراءتها

الثاني:

وهو أنّ النص القرآني دقيق في كلّ شيء من حيث:

الأسلوب

التعبير

المعنى

الصورة

القصة

ولكن الذين يقحمون أنفسهم في مثل هذه القضايا كثر ويجتهدون بما يخالف رواية النص وحقّيقه معناه، وخاصة أن هذه القضايا ليست

521 - آل عمران 93.

من الإلهيات أو الغيبيات أو قضايا العقيدة، بمعنى أن هذه الأمور واضحة من خلال ظاهرة النص فقوله تعالى: (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير).

وأول ما يدحض هذا الادعاء أن هناك أشياء كثيرة في الدنيا خارج ملك سليمان، وإن ذكر بعض ما سخر له في آيات أخرى وكانت من جنوده أمّا تسخيراً من الله تعالى وأمّا ما أورثه الله عن أبيه.

فالملك الذي ورثه سليمان عن أبيه يتمثل في الآتي:

العلم:

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} 522.

الزبور:

قال تعالى: {وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زُبُورًا} 523.

الخلافة:

قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} 524.

تأويب الجبال في التسبيح:

522 - النمل 15.

523 - الإسراء 55.

524 - ص 26.

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ
وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ} 525.

تأويب الطير في التسبيح:

قال تعالى: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ} 526.

إلانة الحديد:

قال تعالى: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ} 527.

صناعة الدروع:

قال تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ
بَأْسِكُمْ} 528.

وأما ملك سليمان الموهوب له من الله تعالى غير الذي ورثه عن
أبيه، وغير ما ذكرته آية حشر الجنود، فإن هناك ملكا موهوبا آخر ذكر
في آيات أخرى منها:

التفهم:

قال تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} 529.

منطق الطير:

قال تعالى: {وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} 530.

525 - سبأ 10.

526 - سبأ 10.

527 - سبأ 10.

528 - الأنبياء 80.

529 - الأنبياء 79.

قول النمل:

قال تعالى: {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ} 531.

تسخير الرّيح:

قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} 532.

إسالة عين القطر:

قال تعالى: {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ} 533.

ومع كثرة هذه الجنود التي سخرها الله تعالى لسليمان مما كان لأبيه وآل إليه في الميراث ومما وهبه الله تعالى بسبب دعائه نقول: إنه ملك عظيم لا ينبغي لأحد من بعد سليمان صلى الله عليه وسلم، وهناك أشياء ملكها سليمان تلميحا لا تصریحا، فالبهار من ملك سليمان إشارة في قوله تعالى: {وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ} 534 وهذه الآية إشارة إلى ملك البحار، ولكن مع هذا فإنّ هناك أشياء كثيرة ممكن أن تكون من الجنود ومما يمكن أن يمتلك ولكنّه لم يدخل في حوزة ملك سليمان، فهو وإن كان ملك الرّيح، فإنه لم يملك السحاب والمطر الذي

530 - النمل 16.

531 - النمل 18، 19.

532 - الأنبياء 81.

533 - سبأ 12.

534 - ص 37.

تحمّله الرّيح ولم يكن من حوزة ملكه ويكفي هذا السبب للدلالة على عدم ملكه الدنيا.

وأما الدليل الواضح من سياق الآية بأنّه لم يمتلك جميع الدنيا فهو (من التبعية) في قوله تعالى: (وحشر لسليمان جنوده من الجنّ والإنس والطير) ومن فهم من ذلك أنه ملك الدنيا فهو لا يعرف شيئاً عن أساليب البيان العربيّة، لأنّ (من) هنا للتبعية وليس المعني أن كلّ الجنّ والأنس والطير دون استثناء أمّهم كانوا تحت ملكه علماً أنه لم يذكر الوحش. ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} 535.

وهذا مطابق لما جاء في حقّ سليمان صلّى الله عليه وسلّم بما جُنِّد له من هؤلاء وهؤلاء، فكذلك ذو القرنين آتاه الله من كلّ شيء سبباً وذلك أنّ:

السبب هو المبرر للقيام بالعمل

الشيء لا يمتلك جميعه إلا بامتلاك جميع أسبابه

امتلاك سبب منه يعني امتلاك جزء بسببٍ بذلك السبب

أسباب الأشياء كلّها لا يقوى إنسان على امتلاكها

من لا يمتلك الأسباب لا يستطيع أن يمتلك الأشياء

ولذا فقد حشر له منها ولم تحشر جميعها

وعليه: فإن (من) في هذا الموضع لا تفيد إلا التبعض وإن كانت معانيها كثيرة ليس منها معنى واحد يفهم منه الجمع ومن هذه المعاني مثلاً:

1 . ابتداء الغاية المكانية كقوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى} 536.

2 . ابتداء الغاية الزمانية كقوله تعالى: {لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} 537.

3 . الفصل كقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} 538. وقوله تعالى: {حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ} 539.

4 . بيان الجنس كقوله تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} 540. ومثل ذلك قوله تعالى: {وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ} 541.

5 . البدل كقوله تعالى: {أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ} 542.

6 . التبعض كقوله تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ} 543.

536 - الإسراء 1.

537 - التوبة 108.

538 - البقرة 220.

539 - آل عمران 179.

540 - الحج 30.

541 - الكهف 31.

542 - التوبة 38.

وعلى ما تقدم من توضيح لمعني (من) فإنه لا يمكن أن يكون المعنى كما فهم البعض أن سليمان صلى الله عليه وسلم ملك جميع الدنيا بجنوده للأسباب التي ذكرناها، ولقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾{544}.

فهذا دليل على أنه لم يمتلك إلا القليل.

ومع هذا فإن كلمة (جنوده) في الآية تدلّ على معانٍ، فالجنود جمع الجمع، فهي جمع الجنّد، لأن جيوش سليمان صلى الله عليه وسلم لم تكن من صنف واحد حتى تكون جنداً وإنما هي:

جند من الجنّ

جند من الإنس

جند من الطير

فبالضرورة أن يكونوا جنوداً أمّا لاختلاف أنواعهم وأمّا لاختلاف أعراقهم في النوع الواحد وأمّا لاختلاف الانتماء في النوع كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾{545}.

فالجنود التي جاءت تقاتل المسلمين من قبائل مختلفة وعليه:

لكلّ قبيلة جند

اختلاف داخل النوع في الانتماء

543 - البقرة 253.

544 - النور 42.

545 - الأحزاب 9.

مجموعهم كون الجنود

لذلك قال: جاءتكم جنود

وبالتالي فإن الجنود التي جاءت وجب أن تردّ بما يقابلها من الجنود
فكانت جنود الله تعالى تتمثل في:

الاختلاف في النوع:

الريّح التي أرسلها الله تعالى هي من جنوده لأن أنواعها كثيرة منها:
الريّح العاصف:

قال تعالى: {جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ} 546.

الريّح القاصف:

قال تعالى: {أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم} 547.

الريّح الصرصر:

قال تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} 548.

الريّح العذاب:

قال تعالى: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ} 549.

546 - يونس 22.

547 - الإسراء 69.

548 - الحاقة 6.

فهذا صنف من الجنود في النوع الواحد مختلف في الصفات، وأمّا النوع الآخر فهم الملائكة الذين أيّد الله بهم رسوله والمؤمنين إضافة إلى ذلك فقد قال الله تعالى: { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ } 550، وعليه فقد جاءت لفظة (جنوده) للدلالة على:

كثرة العدد

اختلاف النوع

وتعددت جنود سليمان صلّى الله عليه وسلّم من حيث الكثرة والنوع على وصفهم على تلك الحال، وجاء في لسان العرب: "وجند مُجَنَّدٌ مجموع وكلّ صنف على صفة من الخلق جند على حدة والجمع" 551.

فجنود سليمان من أنواع مختلفة اجتمعت له، ولأنّ كلّ مجتمع هو جند بحدّ ذاته، وجمع الجنّد جنود، فحشر لسليمان جنوده من هذه الأنواع المختلفة، وقد بينت الآية من خلال استخدام اللفظة الدالة على المعنى المقصود عظمة هذه الجيوش من الكثرة الهائلة والاعتناء بها دون أيّ تفريط لأنهم يوزعون.

ولما قال (جنوده) يفهم من الضمير المتصل (الهاء) التي أتبعته الجنود إلى سليمان صلّى الله عليه وسلّم:

الضمير فصل جنوده عن غيرهم من الجنود

أنّ هناك جنودا لغيره

549 - الأحقاف 24.

550 - المدثر 31.

551 - لسان العرب، ج 3، ص 132.

جنود غيره خارج سيطرته

إذن، لم يملك كل شيء

قال تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا} 552.

ثالثا - يوزعون:

أجمعت المعاجم اللغوية على أن معنى الوزع هو الكف والرد والضبط ففي لسان العرب، "الوزع كف النفس عن هواها وزعه وبه يزع ويزع وزعا كفه فاتزع هو أي كف وكذلك وزعته، والوازع في الحرب الموكّل بالصفوف يزع من تقدم منهم بغير أمره ويقال وزعت الجيش إذا حبست أولهم على آخرهم" 553.

فقوله: يوزعون إشارة إلى أنهم مع كثرة عددهم واختلاف أنواعهم فقد أعطي صلى الله عليه وسلم القدرة على وزع جميع هذه الأنواع المختلفة في الخلق والطبائع مما يترتب على ذلك من اختلاف في أنواع الوازعات لهذه الأنواع وعليه:

لم يكونوا مهملين

مسيطر عليهم بالوزع

مؤلف بينهم على اختلاف أنواعهم

552 - الفتح 4.

553 - لسان العرب، ج 8، ص 39.

وكذلك فإن الوزع يفهم منه تصرف الوازع في ملكه وجنوده وفق نظام أشد من السياسة لما يحمل من هيمنة على الموزوعين؛ فهو أوسع معنى من السياسة لأنه يتضمن:

معنى السياسة فهم مسوسون له

مقهورون بوزعهم

محافظ عليهم بالضبط والربط

الحبس لا بمعنى السجن وإنما بمعنى الانصياع وبهذا:

ضبط أولهم وآخرهم

جنيهم وإنسيهم وطيرهم

وهنا يكون الوزع على سبيل الطاعة أكثر منه كرها وقد يقترن بالعقوبة، لأن الملك والسلطان لا بدّ له من وزعة، فعندما يبلغ الجنّد من الكثرة في العدد والاختلاف في النوع لا بدّ من وسيلة أخرى غير قوانين النظام في الضبط والربط المعهودة في الملك المعروف الذي يستطيع أي ملك أن يسوسه وينظمه، ولكن عندما يخرج أمر الملك والجنود عن المألوف من العدد والأنواع وبلوغ هذا العدد من الكثرة الهائلة لا بدّ من وسيلة تناسب هذا الواقع الذي خرج على المألوف وجسدته الآية في قوله تعالى: {وَحَشِيرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} 554.

فقد ظهرت كلّ معطيات القوّة التي لا يمكن أن تتوفر لأي جيش آخر غير جيش سليمان صلّى الله عليه وسلّم من عدة جوانب:

آ . تنوع الأنواع:

الجنّ

الإنس

الطير

ب . تنوع النوع الواحد

فالطير منه:

الهدهد

النسر

الحمام

والجنّ منه:

الغواص

البناء

الصناع

ج . القوّة الظاهرة في هذه الجنود

د . الإعداد والترتيب بالتفقد

هـ . السيطرة على الجنود بالوزع

فقد كان هذا الجيش من الجنود لا يصلحه إلا الوزع لأن فيه

من الجنّ

من الإنس

من الطير

فلقد كان يكفي الجنّ عن الإنس في إعداد جيش عظيم، أو لعله قد كان يكفي الإنس والجنّ في الجيش فما لازم الطير أن يكونوا في الجنّد، ويجري عليهم نظام الوزع الحازم الصارم عند التخلف عن الحضور في صفوف الجنّد دون عذر مقنع، ويتجلى الوزع عندما تفقد سليمان صلّى الله عليه وسلّم الطير فقال تعالى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّيَ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ} 555.

ولأنّ الهدهد هو واحد من جنود سليمان، والجندي يعرف واجباته وما له وما عليه، ويعلم أيضا أنه يخضع لنظام لا إرادة له فيه إلا الانصياع إليه وهو نظام الوزع فتصرف وفق هذا النظام، وقد علم الهدهد أن سليمان صلّى الله عليه وسلّم تفقده ولم يجده.

والتفقد هذا هو طلب ما غاب عنه من ملكه، فعندما نظر في الطير تفقدا وجد أن الهدهد غائب، وفي هذا الأمر أدلة على معنى الوزع منها:

سعة علم سليمان بملكه

صغر حجم الهدهد لم يخفّ عليه

الحرص على أحوال الرعية ضمن الملك

دليل على إحاطة سليمان بملكه العظيم

وزع رعيته بما يحفظ به ملكه

فهم يوزعون (أي الجنّد من الجنّ والإنس والطير) بكفّ بعضهم البعض ويسرون بانتظام في حشرهم إليه، بحيث يوجد على كلّ صنف من يزرعه ويكفه ويرده على نظام الجميع في التحرك والسير وفق نوعه وطبيعة ذلك النوع.

وهذا يبين أن تلك الكثرة المختلفة الأصناف في ذلك الجيش:

على نظام فائق منضبط

عند الوقوف والاجتماع

عند السير والتنقلات

وهذه ميزة ضرورية وأساسية لجنود سليمان، فهو يعطي دروسا في تدبير الملك وشؤون الحكم، لأنّ الكثرة دون تنظيم، ودون من يقوم عليها بالطريقة التي تناسبها في تنظيمها، تكون كثرة لا طائل من ورائها، لأنّ انفراط عقد نظامها يكون السبب المباشر في هزيمة الجيش عند المواجهة أو إنحياكه وضياعه عند التنقل والتحرك وعليه فقد كان الوزع هو الضابط والضامن لهذا الجيش العظيم من مختلف الجنود.

ونرى من حرص سليمان صلّى الله عليه وسلّم على شكر النعمة أنّه قال: (ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك) فلا يصلح لسليمان بما أوتي من ملك أن يشكر بغير كلمة (أوزعني)

فهو لم يقل:

أجعلني

ألهمني

وإنما قال أوزعني لأنّ الوزع يعطي معنى كف النفس عن الهوى وكف الآخرين عن التفرق وهو يمتلك من الجيوش والجنود والأمم والخلائق ما يحتاج معه إلى هذا الوزع وقد جاء في اللسان أن "الوزع كف النفس عن هواها وزعه وبه يزرع ويزع وزعا كفه فاترع وكذلك وزعته والوازع في الحرب الموكّل بالصفوف يزرع من تقدم منهم بغير أمره ويقال وزعت الجيش إذا حبست أولهم على آخرهم"556.

وبهذا المعنى جاء في الحديث أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "ما زُوِيَ الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أذحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما أُرِيَ يوم بدر قيل وما رأى يوم بدر يا رسول الله قال: أمّا أنه قد رأى جبريل يزرع الملائكة"557.

فجبريل عليه السلام عندما يزرع الملائكة فهو يصفهم للقتال ويمنعهم أن يخرج بعضهم عن بعض في الصف ويعبئوهم تعبئة قتالية في إدارة وانتظام فالوازع الذي يزرع:

يرتب الصفوف

يسددها

يديرها وينظمها

يكف بعضها عن بعض

يمنعها من التداخل

يجبسها عن المضي إلا بأمر

556 - لسان العرب، ج 8، ص 390.

557 - الموطأ، ج 1، ص 422.

ولهذه الأسباب كان سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وازعا وطلب
المزيد من الوزع ليستطيع أن يحافظ على هذا الجَمِّ الغفير من الجنود
المتنوعة الذين وصفهم الله تعالى بقوله: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ
الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} 558.

فالمحافظة عليهم وضبطهم وفق نظام وأمر ينصاعون فيه إلى
سليمان لا يتم إلا بالوزع فهو يريد أن يزع هذا الملك ويكفه عن التفرق
ويمنعه من الانتشار والتفكك من يده بشكره لله تعالى في أن يزيده وزعا
لحسن السيطرة على هذه الجنود لذلك قال:

اجعلي أزع شكر نعمتك

بالكف

بالرّبط

بالتقييد

بالصلاح

بالحقّ

بالعدل

وبذلك، لا ينفلت هذا الملك عنه طالما أن الوزع لا ينفك منه لأنه
سأل عليه الصلاة والسلام أن يجعله الله وازعا لعدم تشتت هذه الملك
الذي يحتوي هذه النعم.

ومن الملاحظ أنّ كلمة (يوزعون) وردت في القرآن الكريم ثلاث
مرات تقدمها الفعل (حشر):

في قوله تعالى: {وَحَشِيرَ لِسْلِيمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} 559.

وفي قوله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ} 560.

وفي قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشِرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} 561.

فالحشر فيه من التدافع والازدحام من كثرة العدد ما يحتاج معه إلى وازع يزع المتدافعين وينظمهم ويجبرهم على الحشر بوسيلة الوزع، ذلك أن الحشر هو الجمع مع السوق كقوله تعالى: {وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَاأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} 562. فالحاشرون هم الوزعة الذين سيأتون بالسحرة، والذين أشاروا على فرعون بهذا الرأي استخدموا الحشر بدلالة الوزع وذلك لأسباب منها:

. جمع أكبر عدد من السحرة

. ربّما من السحرة من لا يريد أن يأتي لذلك وجب حشره

. الحشر يكون عن طريق الوزع

. الحشر لم يكن عن سابق موعد

وعلى هذا يكون الذين بعثهم فرعون من أجل حشر السحرة هم الوازعون لهم لأنهم مكلفون باختيار كلّ سحّار عليم وأن يحضروهم:

559 - النمل 17.

560 - النمل 83.

561 - فصلت 19.

562 - الشعراء 36، 37.

لا عن اختيار المحشورين

لا عن موعد مسبق

تعطيل الإرادة

فالنتيجة بناء على ما تقدم تقول:

الحاشر هو الله تعالى

الوازع هو سليمان صلى الله عليه وسلم

فاقتران الحشر مع الوزع له دلالات بعضها متمم للبعض الآخر حتى يتضح المطلوب من الحشر الذي يحتاج إلى وازع إلا ما دل عليه دليل أو جاءت معه قرينة موضحة لمعناه ردا على من قال إن الحشر لا يكون إلا في المكروه لما يرافقه من الوازعين الذين يزعون المحشورين، ونحن نرى خلاف ذلك بدليل القرينة الموضحة للمعنى في قوله تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِذًا} 563.

ففي هذه الآية وجدت ثلاث قرائن نفت وجود الوازع لفظا ومعنى

عن المحشورين وهي:

المتقون

إلى الرحمن

سوق المجرمين

فالمتقون وإن حشروا إلا إنهم لم يحشروا إلا لخير من أجل الثواب
ونيل الجائزة، فهم إذن يتمنون ذلك بتحقيق الوعد الإلهي، وهنا انتفى
الإكراه لوجود الرغبة.

هم يحشرون إلى الرحمن، والحشر يكون للكثرة وهذا دليل على:

كثرة المؤمنين

استمرار الحياة يجعل الخيرين أكثر

ومن خلال صفات الله تعالى التي يتصف بها الإنسان سنجد في
المحشورين إلى الرحمن منهم الكرماء ومنهم الرحماء لأن دلالة الرحمن هي
الرحمة بكل معاني الجلالة الإلهية، وهنا وإن حشروا فإنهم لا يحتاجون إلى
وازع لأنهم هم الذين يدفعون أنفسهم ويسوق بعضهم بعضا وصولا إلى
الغاية، ذلك أن الحشر بالإرادة هو أقوى وأجدى من الحشر بالقوة لأنه
داخل الإنسان.

أما سوق المجرمين فقد كان الحدّ الفيصل في نفي الوزع عن المتقين
لأن سوق المجرمين إلى جهنم وردا سيكون بالإكراه، ولذا فلا يقال في
المتقين حشرٌ بوزع، وإنما يقال هذا فيما يصح فيه السوق والانقياد
كراهية، أضف إلى ذلك أنّ الحشر الموزوع فيه من الكف والمنع والنهي
وعدم الاختيار ما يجعل المحشور موزوعا عمّا يريد.

جنود سليمان

أولا: الجنّ

الجنّ خلق من خلق الله تعالى مثلهم مثل الإنس، ولكنها مخلوقات
خفية لها القدرة على أن تتخذ أشكالا متعددة وأن تقوم بأعمال لا
يستطيع الإنس عملها أو فعلها مثل:

الصعود إلى السماء ولمسها في دائرة الممكن:

قال تعالى: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا
وَشُهْبًا} 564.

القعود من السماء واستراق السمع:

قال تعالى: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ
يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا} 565.

الغوص في البحار:

قال تعالى: {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ
ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} 566. ومع أن الشياطين يكونون من الجنّ
والإنس، إلا أنّ الواضح من الآية هم شياطين الجنّ لأنّ الإنس ليس لهم
القدرة على الغوص واستخراج الأشياء مثل الشياطين مع أنهم يغوصون
ولا يستطيعون أن يفعلوا فعل الشياطين وإن غاصوا، والشياطين في الجنّ
أعم وأكثر من الإنس لقوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ
كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ} 567.

وكثير من الثقافات البشرية تعرف الجنّ وإن كان بعضها ينفي
وجوده، وبعضها الآخر يبالغ فيما يمكن أن يقوم به الجنّ، فقد قال
تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} 568.

564 - الجن 8.

565 - الجن 9.

566 - الأنبياء 82.

567 - الأعراف 27.

568 - الذاريات 56.

إنّ الإسلام هو الدين الذي أكد على وجود هذه الخلائق وفصل فيها كثيرا، بل إنه قسمها قسمين، قسم مؤمن وآخر كافر وسيأتي تفصيل ذلك. والجنّ يرون الناس إلا أن الناس لا يرونهم إلا من أوتي سلطانا كسليمان صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى: { يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } 569.

ومن عجائب القدرة الإلهية أن الذي يكفر من الجنّ يعذب بالنار مع العلم أنه خلق منها وذلك لقوله تعالى: { قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ } 570.

وقد ذكر القرآن الكريم أن الله خلق الجنان من نار قال تعالى: { وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ } 571.

والجنّ منهم المؤمنون وثواب المؤمن الجنة:

قال تعالى حكاية عن الجنّ: { وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْسًا وَلَا رَهَقًا } 572.

لقد عرف العرب عن الجنّ أشياء كثيرة قبل الإسلام ونزول القرآن، منه ما هو حقيقة وكثير منه يدخل في باب الخرافة والأساطير وقد قصّ عرب الجاهلية قصصا كثيرة عن الجنّ والعمارة والشياطين، وزعموا أنها تتحول في أي صورة شاءت، ومن غير شك دخل كثير من قصصهم

569 - الأعراف 27.

570 - الأعراف 38.

571 - الحجر 27.

572 - الجن 13.

عنها في كتب الأساطير والعجائب، وورد في كتب العرب عن الجنّ شيء كثير، وحكاياتهم فيه مشهورة. وكان العرب في الجاهلية يعتقدون بأن الجنّ هم ملهمو الشعراء والكهان، وحُكي عنهم الكثير في آدابهم، وأن (وادي عبقر) في الجزيرة العربيّة تكثر فيه الجنّ الذين يلهمون الشعراء، "وفكرة شيطان الشعر الذي يخلّق بالشاعر بعيدا عن عالم الواقع إلى عالم الجنّ والشياطين في وادي عبقر، ذلك الوادي الذي تؤوب إليه كلّ الأساطير والخرافات" 573.

فقد نسب العرب الجنّ الملهمين إلى وأدي عبقر كما نسبوا الأسود الضراغم إلى أرض بيشة:

ما جنُّ عبقر جنُّ كلّما عزفوا ما أسد بيشة أسد كلّما
حردوا 574

وأما صوت الجنّ فإنه يسمى (العزيف) قال ابن منظور، "وعزفت الجنّ تعزف عزفا وعزيفا صوتت ولعبت" 575.

قال عطاء بن أسيد السعدي:

بَيّن الله منه إذا ما هدّا مثلُ عزيف الجنّ هدّتْ هدّا 576

أول ما ذكر من جنود سليمان صلّى الله عليه وسلّم في الآية الكريمة هم الجنّ، وقبل أن تناول تجنيدهم في جنود سليمان، نقف على معنى اللفظة من خلال ما جاء في بعض الكتب من التفاسير والمعاجم حتى يتسنى لنا من خلال المعنى الوقوف على خاصية الجنّ من حيث

573 - الرحلات الخيالية، ج 1، ص 17.

574 - جريدة القصر، ج 1، ص 405.

575 - لسان العرب، ج 9، ص 244.

576 - الحيوان، ج 2، ص 37.

الخلق والتكوين والماهية التي هم عليها لاختلافهم عن بقية الخلق من المحسوسات المرئية والمشاهدة، فقد جاء في وصفهم أن الاسم مشتق من الصفة التي هم عليها حيث ذكر ذلك معظم المعاجم اللغوية والكتب التي تناولت المصطلحات القرآنية فقالت هذه الكتب: "وسميت الجنّ جنا لاختفائهم عن الناس، والمجنة المقبرة لأنها تستر من فيها، والترس الجن لأنه يُستتر به، فالجنة هنا: ما استتر عن هذا"577.

وفي لسان العرب: "جنن: جن الشيء يجنه جنا ستره وكلّ شيء ستر عنك فقد جنّ عنك وجنّه الليل يجنّه جنا وجنونا وجنّ عليه يجنّ بالضم جنونا وأجنّه ستره قال ابن بري شاهد جنه قول الهذلي:

وماءٍ وردتُ على جفّنه... وقد جنّه السدّف الأدهم

وفي الحديث جنّ عليه الليل أي ستره وبه سمي الجنّ لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار ومنه سمي الجنّين لاستتارهم في بطن أمه وجنّ الليل وجنونه وجنانه شدة ظلمته، وقيل اختلاط ظلامه لأنّ ذلك كلّ سائر قال الهذلي:

حتّى يجيء وجنّ الليل يوغله... والشوك في وضح الرجلين مركز"578

وإن كان عالم الجنّ عند البعض يدخل في الميتافيزيقا وما وراء الطبيعة فقد أعطى الإسلام منهجا كاملا لهذه الميتافيزيقا، فكشف عن حقائق عالم الجنّ والملائكة ورسالات الأنبياء والوحي، وخلق السموات والأرض والرياح والبحار والكواكب والأقمار، وأوضح علاقة الإنسان بها، ودعا الإنسان إلى أن يعبد خالق الجنّ والملائكة والكواكب فهو خالق الكون بأجمعه، وأن لا يسجد للشمس ولا للقمر ولا يتبع

577 - التفسير والمفسرون، ج 1، ص 290.

578 - لسان العرب، ج 13، ص 92.

شياطين الجنّ أو الإنس كما كشف الله تبارك وتعالى سنن الخلق وتصريف الرياح، وإنشاء السحب وسوقها إلى حيث يأمرها بأن تمطر فيصيب بهذا الغيث من يشاء ويصرفه عمن يشاء.

فإذا كانت الرياح تلاحظ ولا تشاهد وهي من مخلوقات الله تعالى التي سخرها لسليمان صلّى الله عليه وسلّم وجاء بها الدليل النقلى، فإن ذلك ينسحب على الجنّ أيضا بما جاء به الدليل نفسه من تسخير الجنّ لسليمان صلّى الله عليه وسلّم، ومن الدليل النقلى يأتي البرهان بالقياس:

الرّيح موجودة من خلال أثرها

الرّيح سخرت لسليمان

هي طوع أمره حيث أصاب

الدليل النقلى ذكر الرّيح والجنّ أنهما مسخران لسليمان

الذي يقر لسليمان بتسخير الرّيح وجب أن يقر بتسخير الجنّ

الذي يقول أن الرّيح واقعية والجنّ من الميتافيزيقيا يكون قد أخطأ

الرّيح تلاحظ ولا تشاهد

الذي يشاهد هو أثرها

وهنا تتفق الرّيح والجنّ في دلالة وجودهما، إلا أن الرّيح تترك أثرا والجنّ ليس كذلك، ولما كان الإيمان بوجود ما يترك أثرا، وجب الإيمان بوجود من لا يترك أثرا حتى لا ينطبق على من لا يعتقد ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ

ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ
الْعَذَابِ {579}.

وأول سمة من سماتهم التي ذكرها الله تعالى أنهم عقلاء ممييزون حيث
قال تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا
قُرْآنًا عَجَبًا} {580}.

ظهور أثر الجنّ على الإنس:

قال تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَتُومُونَ إِلَّا كَمَا يُتُومُ الَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} {581}.

ظهور أثر الإنس على الجنّ:

قال تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ
فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} {582}.

منهم الصالحون، وبما نعلم عنهم أنهم صالحون لم يعودوا غيبا:

قال تعالى: {وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ} {583}.

ومنهم دون ذلك:

قال تعالى: {وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} {584}.

ومنهم المسلمون:

579 - البقرة 85.

580 - الجن 1.

581 - البقرة 275.

582 - الجن 6.

583 - الجن 11.

584 - الجن 11.

قال تعالى: {وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمُونَ} 585.

ومنهم القاسطون:

قال تعالى: {وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ} 586.

ومنهم المردة الخارجون على الطاعة:

قال تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ} 587.

والجنّ عالم من عوالم الخلق الذي خلقه الله تعالى، ونحن نعلم أن هناك مفردة اسمها غيبا، ولكننا نجهل حيثيات الغيب، فالغيب لا يعلمه إلا الله تعالى ونحن أعلمنا بوجود الغيب من عالمه، وعالم الغيب أظهر بعض غيبه لبعض خلقه، لذلك فالجنّ:

منهم المسلمون

منهم الكافرون

فهم كالإنس من وجوه كثيرة لأنهم:

. يتكلمون: قال تعالى: {قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ

أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ} 588

585 - الجن 14.

586 - الجن 11.

587 - الصفات 6-8.

588 - النمل 39.

. يسمعون: قال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا} 589.

. يتزوجون ويتكاثرون: قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ} 590.

يشاركون الناس: قال تعالى: {وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} 591.

يتبعون: قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} 592.

يهتدون: قال تعالى: {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْصًا وَلَا رَهَقًا} 593.

يضلون: قال تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ} 594

كما أن الإنس فيهم مطيع وعاصٍ، وفيهم كافر ومؤمن، كذلك الجنّ، والجنّ المسلم فيه خير، ويدل على الخير، وينبئ بالخير، فقد أخبر الله تعالى عن حالهم عندما صرف بعضهم إلى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ

589 - الأحقاف 29.

590 - البقرة 50.

591 - الإسراء 64.

592 - الحج 3.

593 - الجن 40.

594 - إبراهيم 22.

فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَبُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ {595}.

فهل هذا الإصغاء إلى القرآن الكريم والإنصات له ثم الإيمان به قياسا على ما علموه من كتاب موسى صلى الله عليه وسلم

والجنّ الفاسق أو الكافر مثل الفاسق أو الكافر من الإنس سواء بسواء، وكافرهم يدخل النار كما قال تعالى: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} 596.

وكما أنّ الكافر من الجنّ يحاسب يدخل النار، كذلك مؤمن الجنّ يدخل الجنة بدليل قوله تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} 597. وهو دليل نقلي على أن الجنّ يدخلون الجنة

إنّ أوّل ما ذكر من جنود سليمان في هذه الآية هم الجنّ وليس ذلك من باب التقديم والتأخير، لأنّ تقديم الألفاظ بعضها على بعض له أسباب عديدة يقتضيها المقام وسياق القول والمعنى المقصود، وإن كان التقديم عادة إنما يكون مراعاة للعناية والاهتمام. فما كانت العناية به أكبر والاهتمام به أعظم وجب تقديمه في سياق الكلام والعناية

595 - الأحقاف 29-32.

596 - الأعراف 38.

597 - الرحمن 56.

بالتقديم والتأخير باللفظة لا تكون من حيث أنها لفظة معينة بل قد تكون العناية بحسب مقتضى الحال.

ولذا؛ فإنّ مقتضى الحال يوجب أن تُقدّم كلمة في موضع وتؤخّر في موضع آخر. والقرآن الكريم يجري على هذا النسق في التقديم والتأخير، ولذا فإننا نجد الألفاظ المترافقة مثل: (الشمس والقمر، والأرض والسماء، والجنّ والإنس) نراه يقدم لفظة مرة ويؤخرها مرة أخرى على حسب المقام، فهذا التقديم والتأخير لا يمكن أن يقاس على ما يأتي:

تقديم الأكبر على الأصغر

تقديم الأسبق في الخلق

تقديم الأقوى على الأضعف

تقديم النافع على الضار

تقديم النامي على الجامد

تقديم المنير على المظلم

فتارة يقدم الشمس على القمر كما في قوله تعالى: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} 598.

وتارة يقدم القمر على الشمس كما في قوله تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} 599.

598 - نوح 16.

599 - يس 40.

ومرة يقدم السماوات على الأرض كما قال تعالى: {بَدِيعِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 600.

وأخرى يقدم الأرض على السماوات كما قال تعالى: {تَنْزِيلًا مِّنْ
حَلَقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا} 601.

وتارة يقدم الإنس على الجنّ كما قال تعالى: {قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} 602.

وأخرى يقدم الجنّ على الإنس كما قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا
لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} 603.

ف نجد مرة يقدم السماء على الأرض ومرة يقدم الأرض على
السماء ومرة يقدم الإنس على الجنّ ومرة يقدم الجنّ على الإنس ومرة
يقدم الضر على النفع ومرة يقدم النفع على الضر كلّ ذلك بحسب ما
يقترضه القول والمعنى المقصود في سياق التعبير.

وعندما ذكر جنود سليمان في قوله تعالى: {وَحَشِيرَ لِسَلِيمَانَ
جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} 604.

600 – البقرة 117.

601 – طه 4.

602 – الإسراء 88.

603 – الرحمن 33.

604 – النمل 17.

ففي هذه الآية قدم الجنّ على الإنس والطير، وتقديم لفظة على أخرى من المترافقات أو المتلازمات أو المتضادات التي تقترن واحدة منها بالأخرى، فإن مقتضياتها كثيرة منها:

. تقديم بالسبق الزماني كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ} 605.

. تقديم بالعلة والسبب قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} 606.

. تقديم بالرتبة قال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ} 607.

. تقديم بالشرف قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} 608.

. تقديم بالفضيلة قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} 609.

. تقديم ترتيب كما في قوله تعالى: {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ} 610.

605 - آل عمران 33.

606 - البقرة 222.

607 - آل عمران 18.

608 - الزمر 9.

609 - الفتح 29.

610 - المائدة 6.

. تقديم الأقدم في الخلق قال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } 611.

. تقديم إغراء قال تعالى: { أَمْ يَطْمِئِنُّونَ إِنِ شَاءَ رَبُّكَ إِنِ شَاءَ رَبُّكَ إِنِ شَاءَ رَبُّكَ إِنِ شَاءَ رَبُّكَ } 612.

. تقديم اهتمام قال تعالى: { وَخَشِيَ الرَّجُلُ الْكَافِرُ أَنْ يُرْجَعَ إِلَى رَبِّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ } 613.

لقد كان تقديم الجنّ على من سواهم من جنود سليمان صلّى الله عليه وسلّم في هذه الآية لأسباب كثيرة نذكر منها:

آ . تقديم خلق

ب . تقديم اهتمام

ج . تقديم كثرة

وأما أوصاف الجنّ فقد ورد بعضها في القرآن الكريم والأحاديث النبوية وتنقسم إلى:

آ . أوصاف خلقية

ب . أوصاف خلقية

فأما الصفات الخلقية للجنّ حسب ما وردت من النقل عن الكتاب والسنة منها:

611 - الذاريات 56.

612 - الرحمن 56.

613 - النمل 17.

1 . أتهم مخلوقون من النَّار، قال تعالى: {وَحَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ} 614.

فالله تعالى خلق الجنَّ من النَّار، والنَّار ليست سلبية.

المادة لا تعني السالب، أمَّا المخلوقات فهي التي تعمل السالب، ولذا نجد أن الأرض باطنها نار، فالنَّار ليس كوكبا، وإنما هي عنصر من عناصر الخلق، لأن الشمس مثلا هي مادة مشتعلة تصدر النَّار التي هي طاقة.

فالنَّار صفة موجبة بدليل أن الجنَّ منهم الصالحون، والملائكة سجدت لآدم طاعة لأمر الله، أمَّا إبليس عليه اللعنة كان من الجنَّ ولم يسجد لآدم، وأمَّا بقية الجنَّ فكانوا من الساجدين.

وكما أنَّ الإنسان الذي خلق من تراب ويحن إلى الأرض، كذلك النَّار بالنسبة إلى الجنَّ لأنها نار مودة ودفء وحنين بالنسبة لهم.

وقال تعالى: {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ} 615، وهذه الآية تدل على:

أنَّ الجنَّ خلقت قبل الإنس

مادة خلقهم من النَّار

2 . أتهم يتشكّلون ويُمكن رؤيتهم، فمنهم من يتشكّل في صور الإنس ومنهم من يتشكّل في صورة البهائم ومنهم من يتشكّل في صورة الحيات حيث أنَّ موسى صَلَّى الله عليه وسلّم عندما ألقى عصاه وتحولت إلى حية شبهها الله تعالى بالجان حيث قال تعالى: {وَأَلْقِ

614 - الرحمن 15.

615 - الحجر 27.

عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ {616، وفي هذه الآية ثلاثة أدلة:

الأول: أن الجنّ يمكن أن يتشكل بهيئات مختلفة

الثاني: أن الجنّ يؤدي دور في الحياة

الثالث: أن الجنّ لا يستقر على حالة ثابتة

كما دلّت الأحاديث النبوية على تشكّلهم، فإذا تشكّلوا أمكن رؤيتهم، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ عَفْرِيْنَا مِنَ الْجِنِّ جَعَلَ يَفْتِكُ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ وَإِنَّ اللَّهَ أَمَكَّنِي مِنْهُ فَذَعْتَهُ، فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْتِطُهُ إِلَى جَنْبِ سَارِيَةِ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَصْبَحُوا تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ، أَوْ كَلِّكُمْ . ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سَلِيمَانَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلِكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي؛ فَفَرَدَهُ اللَّهُ خَاسِمًا"617.

3 . أَنَّهُمْ يَتَنَاقِحُونَ وَيَتَنَاسَلُونَ وَلَهُمْ ذُرِّيَّةٌ، قَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}618. والواضح من السياق أنّ المقصود من كلام إبليس أنه تكبر على آدم وترفع عليه لما ادعى أن أصله أعلى وأشرف من أصل آدم، فوجب أن يكون هو أشرف من آدم، وهذا تكبر على أمر الخالق عزّ وجلّ، لذلك جاء النهي عن الاقتداء بإبليس وذريته في عدم اتخاذهم أولياء، ومن يفعل ذلك فقد اقتدى بإبليس في تكبره على آدم،

616 - النمل 10.

617 - صحيح مسلم، ج 2، ص 72.

618 - الكهف 50.

وعندما أعلمنا الله تعالى أنه عدو لنا امتنع الاقتداء به فيما صدر منه من قول وفعل.

وقال تعالى عن نساء أهل الجنة: { فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنَّنَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ } 619. وقد جاء ذكر الجان مع الإنس دليل على أنهم يمتلكون طبيعة اللذة والشهوة وهم يتناسلون ولهم أولاد وذريات.

4. أنهم يأكلون ويشربون، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله" 620.

وأما الدليل الاستنتاجي من النصوص القرآنية على أنهم يأكلون ويشربون فقد قال تعالى في محكم التنزيل: { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ } 621. فواضح من سياق الآية أن الشياطين هم من الجنّ قطعاً لأنهم يتنزلون وهذه الصفة لا يتصف بها شياطين الإنس، وأما كيف يأكلون فقد قال تعالى: { إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامٌ لِالْأَثِيمِ } 622. فهم يأكلون من هذه الشجرة

فكيف يأكل الجنّ من شجرة الزقوم؟

الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم

الآثم لا يتنزل عليه إلا آثما

الشياطين إذن آثمون

619 - الرحمن 56.

620 - صحيح مسلم، ج 6، ص 107.

621 - المؤمنون 221، 222.

622 - الدخان 43، 44.

شجرة الزقوم طعام الأثيم

الشياطين آثمون

طعامهم من تلك الشجرة

إذن الشياطين يأكلون

الشياطين قسم من الجنّ

وعليه فالجنّ يأكلون

وأما الصفات الخلقية للجن فهي نوعان:

العصاة من الجنّ:

1. الرجيم:

قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ

الرَّجِيمِ} 623.

وقد جاءت النصوص النقلية واصفة إبليس عليه اللعنة وهو أبو

الجنّ بأنه شيطان ورجيم حيث قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ

الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ} 624.

2. المارد:

قال تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ

شَيْطَانٍ مَّارِدٍ} 625 فالمارد هنا هو العاصي الذي يخرج عن الطاعة،

623 - النحل 98.

624 - الأعراف 27.

625 - الصافات 6-7.

لأن المعنى: "مرد يمد مردوا فهو مارد ومريد إذا عتا، والمريد من شياطين الإنس والجنّ، وقد تمرد علينا أي عتا، وقال ابن الأعرابي: المراد التطاول بالكبر والمعاصي، ومنه: (مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ) وأصل المرد الملاسة، ومنه صرح ممد، وغلّام أمرد، والمرداء الرملة التي لا تنبت شيئاً، كأنّ من لم يقبل قول غيره ولم يلتفت إليه، بقي كما كان على صفته الأصلية من غير حدوث تغيير فيه البتّة، وذلك هو الملاسة"626. ويُطلق هذا الوصف على جنس الشياطين، لأنهم متمردون على طاعة الله وامتنال أمره.

3 . الوسواس الخناس:

قال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}627.

التقاة من الجنّ:

1 . المسلمون:

قال تعالى: {وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}628.

2 . الصالحون:

قال تعالى: {وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ}629.

3- العفريت:

626 - تفسير الرازي، ج 8، ص 131.

627 - الناس 1-6.

628 - الجن 14.

629 - الجن 11.

قال تعالى: {قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ} 630.

والعفريت هو المارد القوي البالغ من كل شيء وهو الخبيث الماكر وهي صفة من أوصاف الجنّ تستعار للإنسان الذي يتصف بمثل هذه الصفات، وأما في الأصل فإنه: "مارد خبيث من الجنّ وهو بيان له، إذ يقال للرجل الخبيث المنكر المعفر لأقرانه عفريت، وفي المفردات العفريت من الجنّ هو الفاره الخبيث ويستعار ذلك للإنسان استعارة الشيطان له" 631.

وجاء في لسان العرب: "وعفاريتة وعفريت بين العفارة خبيث منكر داؤه، والعفاريتة مثل العفريت وهو واحد وأنشد لجرير:

قرنتُ الظالمين بمرمريس... يذل لها العفاريتة المريدُ

وشيطان عفريتة وعفريت وهم العفاريتة والعفاريت وفي التنزيل قال عفريت من الجنّ أنا آتيك به والعفريت من الرجال النافذ في الأمر المبالغ فيه مع خبث ودهاء وقد تعفرت، وامرأة عفريته ورجل عفريين كعفريت، ومن قال عفريت فجمعه عفاريت، والعفر والعفريّة والعفريت والعفاريتة القوي المتشيطان الذي يعفر قرنه" 632.

والذي نريد توضيحه بعد ما تقدم هو أن الجنّ عالم من عوالم خلق الله تعالى وعلى المسلم أن يؤمن بوجود هذا الخلق، وأنهم مخلوقات وإن اختلفت ماهيتهم، فهم خلائق كلفها الله تعالى بعبادته كما كلفنا بذلك

630 - النمل 39.

631 - تفسير حقّي، ج 10، ص 52.

632 - لسان العرب، ج 4، ص 583.

حيث قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} 633 ولأن كانت حواسنا ومداركنا لا تشعر بهم، فذلك لأن الله عز وجل جعل وجودهم غير خاضع للطاقة البصرية التي بثها في البشرية، ومعلوم أن أعيننا إنما تبصر أنواعا معينة من الموجودات بقدر معين وبشروط معينة، إلى أن يشاء الله تعالى أن يطلع أحدا من خلقه على هذا الخلق كسليمان صلى الله عليه وسلم.

ولما كان وجود هذه الخلائق مثبتا في الأخبار النقلية ومسندا إلى الأخبار اليقينية المتواترة التي وردت إلينا من الكتاب والسنة وكان أمرها معلوما من الدين، فإنّ إنكار الجنّ أو الشك في وجودهم يكون منافيا لما جاء به النصّ القرآني، لأنه يترتب على إنكارهم تكذيب الخبر الصادق المتواتر الوارد إلينا عن الله عز وجلّ وعن رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولا ينبغي أن يقع الإنسان العاقل في أشد مظاهر الغفلة والجهل من حيث الزعم بأنّه لا يؤمن إلا بما يتفق مع العلم فيتبجح بأنه لا يعتقد بوجود الجنّ من أجل أنه لم ير الجنّ ولم يحس بهم، ثمّ يزعم أنّ كلّ ما يقال عنهم إنما هو من باب الإثارة في الخرافات والأساطير

إنّ الذي ينحو هذا المنحى هذا المذهب في إنكار الجنّ، فمن البداهة بمكان أن يستدعي ذلك إنكار كثير من الموجودات اليقينية لسبب واحد هو عدم إمكان رؤيتها، والقاعدة تقول: عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود.

أي عدم رؤيتنا لشيء لا يستلزم أن يكون بحد ذاته مفقودا أو غير موجود، لأنّ الإنسان بالنسبة لهذا الكون أعطي:

قليلا من العلم

قليلا من القدرة

قليلا من الطاقة

وهذه القدرات القليلة لا تؤهله لأنّ يحيط بمجامع الأشياء، لأنّ الله سبحانه وتعالى هو المحيط، وعليه فالإنسان عاجز عن إدراكات وجودية خفيت عليه لقصور في ذات الإنسان وليس لعدم وجودها.

وتسخير الجنّ لسليمان صلّى الله عليه وسلّم وحشرهم في جنوده كونها واقعة في عالم التسخير بالنسبة لسليمان، وإنّ ذلك يدخل ضمن مظاهر القوّة التي أيّده بها الله تعالى لما تتصف الجنّ من صفات مغايرة للمخلوقات الحسية وتمتّع بقدرات كبيرة، فعندما أراد سليمان صلّى الله عليه وسلّم إحضار عرش ملكة سبأ طلب من الملائكة الذين في حضرته أن يقوم أحدهم بذلك حيث قال تعالى: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} 634.

فهذه الآية تطرح تساؤلات عديدة:

ما الذي يرومه سليمان صلّى الله عليه وسلّم من استحضار عرشها؟

هل أنّ استحضار عرش الملكة من أجل إظهار القوّة؟!

أم أنّه من أجل إظهار المعجزة؟!

أم أنّ الأمر لحاجة في نفس سليمان لم يصرح بها؟!

لقد جزم أنّهم سوف يأتونه مسلمين

واستحضر عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها سيكون مفاجأة لها ولقومها على مرأى منهم لحظة حضورهم، وهو ليس كذلك بالنسبة لسليمان وجنوده، فإذا ما اتخذت قرارا بدخول الإسلام على يد سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون وجود العرش دليل آخر على رجاحة عقلها عندما قالوا لها: (والأمر إليك) فلا تسقط مكانتها في أعينهم لأنها أشارت عليهم وأخذوا برأيها عندما قالت: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} 635. نرجح أنّ استحضار العرش كان وسيلة:

لعرض مظاهر القوّة

إظهار المعجزة الخارقة

تأييد النبوة

وبذلك يجمع سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأدلة القاطعة التي لا تدحضها الحجّة العقلية، ولا تصمد لها القوّة المادية ممّا يؤثر في نفس الملكة وقومها، الأمر الذي يقودهم إلى الإيمان بالله تعالى والإذعان لدعوة الإسلام وهي الغاية التي يسعى إليها سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والأمر الآخر الذي نلاحظه من الآية هو طلب سليمان من جنوده بقوله: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} 636. فالخطاب الموجه إلى الملأ جاء بصيغة التساؤل الاستفهامي فهل هو:

635 - النمل 34.

636 - النمل 38.

طلب استعانة

أم طلب اختبار

أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني خاضعين منقادين، فالملاً المنادى ما حشر له صلى الله عليه وسلم من الجنّ والإنس والطير، ولا نعتقد أن طلبه كان على سبيل الاستعانة كما ذهب البعض، ولا يظن أحد أن سليمان صلى الله عليه وسلم لم يكن قادراً على الإتيان بعرشها لما أوتي من سلطان وملك، ولأن قوّة الجنود تدل على قوّة القائد، لأن الذي جاء به قبل ارتداد الطرف هو جندي من جنود سليمان، لذلك فهو يحمل وجوهاً أخرى وخاصة أن هذا الملاً مسخر له من الله تعالى وجميعهم طوع أمره، ولكن الذي نراه أنه أراد:

آ . تحقيق المفاجأة لملكة سبأ

ب . اختبار قدرات الجنود

ج . الاستهانة بالملك المادي

وأما الذين قالوا بأنه أراد الاستحواذ على العرش لعظمته وجودته وإعجابه به قبل أن يأتوا مسلمين فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويحمي أموالهم فهذا الكلام فيه نظر لأسباب كثيرة منها:

أن سليمان وإن كان ملكاً فهو نبي

ما آتاه الله خير مما آتاهم

وسيلة الأنبياء هي الرسالة

هدف الأنبياء هداية الناس

غاية الأنبياء الدار الآخرة

فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أُوْحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُمْ سَيَأْتُونَ مُسْلِمِينَ،
وَاسْتَدْعَاءَ عَرْشِ الْمَلِكَةِ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبِيلِ الْإِسْتِحْوَاذِ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ،
وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَرِيهَا بَعْضُ مَا خَصَّهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ الدَّالَّةِ
عَلَى عَظَمِ الْقُدْرَةِ وَصَدَقَهُ فِي النَّبُوءَةِ فَاسْتَدْعَى إِيْتَانِ عَرْشِهَا مِنْ هَذَا
الْقَبِيلِ.

لقد أورد الماوردي خمسة أسباب للإتيان بعرش ملكة سبأ حيث
قال:

"فإن قيل: فلم أمر أن يؤتى بعرشها قبل أن يأتوا إليه مسلمين؟

قيل عنه في الجواب خمسة أوجه:

أحدها: أنه أراد أن يختبر صدق الهدهد.

الثاني: أنه أعجب بصفته حين وصفه الهدهد وخشي أن تسلم
فيحرم عليه ما لها فأراد أخذه قبل أن يحرم عليه بإسلامها.

الثالث: أنه أحب أن يعاليتها به وكانت الملوك يعالون بالملك
والقدرة.

الرابع: أنه أراد أن يختبر بذلك عقلها وفطنتها، وهل تعرفه أو
تنكره.

الخامس: أنه أراد أن يجعل ذلك دليلاً على صدق نبوته، لأنها
خلفته في دارها وأوثقته في حرزها ثم جاءت إلى سليمان فوجدته قد
تقدمها"637.

637 - تفسير الماوردي، ج 3، ص 247.

ولم يكن أي من هذه الأسباب هو رأي للماوردي، وإنما نقل كل رأي عن عالم من العلماء وهم حسب تسلسل هذه الآراء جاءت عن ابن عباس وعن قتادة وعن ابن زيد وعن ابن جبير وعن هب، ولم يرجح أي من هذه الأسباب، غير أنّ الرازي يسوق سببا لم يرد عند غيره وهو: "أنّ العرش سرير المملكة، فأراد أن يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها إليه" 638.

وإضافة إلى ما ذكره العلماء فنحن نعتقد أن إحضار العرش هو دليل على اتساع دائرة الدعوة وبلوغ الرسالة التي يحملها سليمان صلّى الله عليه وسلّم، ووصول الرسالة إلى ذلك المكان دليل على أحقيّة سليمان في ملكه.

والذي نعتمده ونرجحه في سبب الإتيان بالعرش دليلان أحدهما نقلي بما جاء به النص القرآني، والآخر عقلي.

الدليل النقلي:

فهو جواب سليمان صلّى الله عليه وسلّم عندما أخبره المهدد قائلا: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشُ عَظِيمٍ} 639.

فقال سليمان صلّى الله عليه وسلّم: {قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} 640.

638 - تفسير الرازي، ج 12، ص 32.

639 - النمل 23.

640 - النمل 27.

فقد كان اتخاذ القرار بإحضار عرشها لحظة ورود النبأ، وهو دليل على أن سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم أراد أن يستوثق من نبأ الهدهد، وفي هذا الدليل استنتاجات منها:

أن سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم واثق من إحضار عرش الملكة

لم يعول على أحد في إحضاره

يحضره بالطريقة التي يرتئها

وهذا ينفي قول الذي قالوا إنّه استعان بالجنّ من أجل إحضار عرش ملكة سبأ.

الدليل العقلي:

وهو هدف النبوة ممّا يدركه العقل في الموضوع الذي هو محل الاستدلال على قضية معينة، حيث أن سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم لم يكن في حاجة عرش ملكة سبأ ولا لأعظم منه، ولكن هذا العرش كان وسيلة للإقناع، فأصبح بعد إحضاره حجة عليها وعلى قومها، لأنّ الحجج العقلية لا تختلف مضامينها من حيث الإقناع مهما اختلفت العقائد واللغات، وبما أن ملكة سبأ وقومها كانوا يسجدون للشمس فهم أصحاب عقيدة، بمعنى أن الدليل النقلي الذي يمتلكه سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم وهو الرسالة والنبوة ربّما لا تقنع هؤلاء، فاختر دليلا آخر لا يختلف عليه العقلاء وهو دليل عقلي قائم على معرفة سابقة، فكيف حصل هذا الأمر؟

قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ
وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} 641.

أهكذا عرشك مسألة عقلية

أجابت: كأنه هو

داخلها الشك

العلامات المميزة تستدعي أن يكون هو نفسه

الدلائل العقلية تقول إنه هو

هذه الدلائل استدعاءات عقلية سابقة

الاستدعاءات قائمة على تجارب

هذه التجارب يخترنها العقل

إذن تستطيع التمييز بالعلم السابق من خلال التجربة

العلم السابق أصبح دليلا على علم لاحق

سليمان قال: وأتينا العلم

ثم أردف: وكنا مسلمين

فهو لم يقل إنه عالم أو عليم وإنما أوتي العلم، فهذا يستدعي

السامع أن يتساءل:

من أوتي العلم؟!!

هناك من هو أعلم منه

641 - النمل 42.

وما معنى أنه من المسلمين؟!

ما هو الإسلام؟

فهذه التساؤلات مدعاة للتأمل والتفكير، ومن ثم تصديق من يقرُّ بهذا التواضع على رغم ما ظهر منه من قوّة وسلطان حيث برز دورهما في تأدية التبليغ.

ولذلك فالتفكير السليم الناتج عن العقل هو سبيل الإنسان إلى إدراك حقائق الأشياء التي توصله إلى الطريق الصحيح عن طريق ربط المقدمات بالنتائج وصولاً إلى الحكم في اتخاذ القرار.

إنّ سليمان صلّى الله عليه وسلّم عندما عمد إلى الدليل العقلي من أجل الإقناع، كان يجاور الإنسان العاقل الذي يمتلك الضمير والقيم والمشاعر:

العقل يحرك الضمير

الضمير بدوره يستجيب للعقل

يتولد صراع بين الذات والموضوع

يسفر الصراع عن الامتثال للأخلاق

الأخلاق تدعو إلى الفطرة السليمة

الفطرة السليمة تختار الحقّ

فهذا الاختيار ناتج عن الامتثال لواجب الفطرة بعيداً عن الشهوات التي تحركها الرغبة، لأنّ الفطرة توجب الانقياد للحقّ طمعا في الثواب لا خوفاً من العقاب، ذلك أن الثواب هو جزاء عن أفعال الخير، والذي يقدم على الخير لا يخشى العقاب لأنّ خوف العقاب يتلاشى

من نفسه، وإن كان ثمة خوف فإنما هو بمعنى التحسب من التقصير في نيل المبتغى، وليس بمعنى الجبن أو عدم الجرأة في الإقدام على ما يريد.

وعلى ما تقدم فإن الأدلة العقلية في هذا الموقف كان لها القدر المعلى والنصيب الأوفى في إسلام ملكة سبأ وقومها بحيث لم يرد نصا نقلًا في إسلامهم مع سليمان إلا ما دلّ عليه العقل، لأنه عندما قيل لها ادخلي الصرح فحسبته لجة وكشفت عن ساقها أيقنت أن هذا لا يمكن أن يكون من صنع بشر بطاقات بشرية، لاسيما أنه ملكة صاحبة بناء وحضارة وعمران، لأن سليمان صلى الله عليه وسلم عندما قال لها إنه صرح ممرّد من قوارير قالت أسلمت مع سليمان بالدليل العقلي وليس بالآيات والتنزيل، قال تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ {642}.

لقد وقفنا فيما تقدم على الأسباب التي أراد سليمان صلى الله عليه وسلم أن يبينها لملكة سبأ وقومها من إحضار عرشها بقوله تعالى على لسان سليمان: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ {643}.

والملا من جنوده يستمعون إليه وهم طوع أمره فأجاب أحدهم: ﴿قَالَ عَفَرِيْتُ مِنْ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ {644}.

642 - النمل 44.

643 - النمل 38.

644 - النمل 39.

وقد بينا معنا العفريت سواء من الجنّ أم من الإنس، غير أن هذا العفريت الذي يعرف إمكانات نفسه ولا يعرف إمكانات سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كأنه يتباهى بما أُوتِيَ من قوّة وقدره على الإتيان بالعرش فأوضح عدة أمور منها:

السرعة الفائقة من وجهة نظره.

القوّة على اقتلاع العرش والإتيان به.

الأمانة التي لديه بحيث لا يأخذ من ذلك العرش شيئاً.

ولكن سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأخذ برأي هذا العفريت وهذا واضح من سياق الآيات حيث لم يكن هناك فاصل بين قول العفريت وقول الذي عنده علم من الكتاب، فما إن أتم العفريت كلامه حتى انبرى الذي عنده علم من الكتاب متطوعاً بالإتيان بالعرش قبل ارتداد الطرف ونلاحظ ذلك من اتصال الحديث بقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ {645}.

فالذي عنده علم من الكتاب وقف على عدم قناعة سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قول العفريت في التباطؤ بالإتيان بالعرش لما يأتي:

سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أن هناك من هو أقدر من هذا العفريت.

المدة الزمنية التي حددها العفريت طويلة جداً لما يمتلك سليمان من قدرات.

645 - النمل 39، 40.

مدّة القيام من المقام زمن لا يليق بالنبوة في هذا الموقف.

المقام هو زمن الجلوس التي تستغرقه القضية التي يتناولها في المجلس.

ومجلس نبي الله سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدته طويلة، وبصرف النظر عمّا قاله المفسرون أنّه كان جالسا للقضاء إلا أنّ ذلك لم يأت به نصٌّ، وإنما كانت مجالسه في أمور وقضايا كثيرة تستغرق وقتا طويلا منه:

يجلس لجنوده عندما يتفقدهم من الجنّ والإنس والطيور

يجلس للقضاء بين الخصوم

يجلس للدعوة والإرشاد

ولعلم سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما آتاه الله وجد أن هذه السرعة بطيئة، والوقت الذي حدده العفريت طويل جدا لأن الله تعالى أوقفه على علم أعظم ممّا ذكره العفريت.

لقد خلق الله هذا الكون وبث فيه من المخلوقات أنواعا كثيرة لا تعد ولا تحصى حتى أنّنا لو أردنا إحصاء المعلومات التي حصلها البشر حتى يومنا هذا عن تلك المخلوقات، لكان من العسير علينا وعلى غيرنا أنّ نلّم بفهرسة لهذه المعلومات، وعلى الرغم التطور وما وقف عليه الإنسان من علوم فإن ذلك لا يعد شيئا مذكورا بالنسبة للحقائق العلمية التي يزخر الكون بها وما سنه الله فيه أسس وقواعد تقوم عليها جميع أنواع المعرفة وهناك فرق لا يمكن مقارنته بين هذين الأمرين وهما:

الاعتماد على القوّة الذاتية

الاستعانة بالعلم

وصدق الله العظيم الذي يبين طرفا من هذه الحقيقة المعجزة في
الفرق بين قوانين سنن الحياة والكون والخليقة بقوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ
مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} 646.

وعليه: يمكن أن ندرك الآتي:

التنوع في السنن التي تحكم مخلوقات الله وما أوتيت من طاقات
متفاوتة

عدم اكتشاف كثير من السنن الكونية لأن ما أوتيناه قليل
ويمكن أن نبسط هذه المسألة على الوجه التالي:

إنّ الإنسان مستخلف في هذه الأرض لأداء مهام أظهر الله
بعضها وأعلمنا بها مثل: الخلافة:

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ} 647.
الإصلاح:

قال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا
مُصْلِحُونَ} 648.
الإعمار:

قال تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ
أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ} 649.

646 - الإسراء 85.

647 - فاطر 35.

648 - هود 117.

649 - هود 61.

العبادة:

قال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } 650.

والعبادة هنا لا تعني الشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وصوم وحج وغيرها، ممّا يسمى بالعبادات في أبواب الفقه الإسلامي فقط، بل تعني الانصياع والانقياد التام للمنهج الرباني الذي شرعه الله عزّ وجلّ لما خلق، ولكي يستطيع الإنسان القيام بهذه الأمانة فقد زوده الله عزّ وجلّ بالتهيؤ والاستعداد والإرادة من أجل القيام بالأفعال التي أمر بها الخالق عزّ وجلّ، فهي لازمة لكشف سنن الكون وقوانينه على قدر الاستطاعة بما يؤتي من علم يعينه على أداء هذه الأمانة، ويفتح أمامه الطريق لفهم هذا الكون وفك رموزه والتعامل معه من خلال العلم.

وهنا يراود المتتبع تساؤلات عديدة منها:

ألم يكن سليمان وهو النبي وصاحب تلك الجنود قادرا على الإتيان بالعرش!

ألا يمكن أن يحدّد أحد الجنود ويقول له احضر عرش الملكة!

لقد قال للهدهد اذهب بكتابي هذا وألقه إليهم.

لماذا في هذا الموقف وقع التخيير؟

إنّ الله تعالى له في خلقه شؤون، وأراد من خلال ذلك أن يطلعنا على بعض هذه الشؤون من خلال الطلب الذي طلبه سليمان صلّى الله عليه وسلّم والذي تنافس في تنفيذه جنود سليمان على اختلاف أنواعها بحيث لا يمكن أن ننظر إلى قضية إحضار العرش بين المقام من

المجلس وبين ارتداد الطرف منفصلاً أو مقطوعاً عن مجيء الهدهد بالنبأ
وذهابه بالكتاب والإتيان بالعرش من قبل جندي آخر.

فهذه الأمور مجتمعة، كلّها تدخل في باب العلم من السنن
والقوانين المقدرّة لهذا الوجود، التي ربّما نتوصل إلى معرفة أسرار بعضها،
بينما يخفى علينا أسرار الكثير منها وإنّ الواقع ليشهد بأننا نرى كثيراً
من مخلوقات الله عزّ وجلّ، ونرى كثيراً من الظواهر فلا ندرك الحكمة
من خلقها، ولا ندرك السنن التي تحكمها والقوانين التي تسير عليها،
وكثيراً ما نسأل أنفسنا:

لماذا خلق الله هذه الخلائق؟! فإن لم نهند إلى جواب فهذا لا يعني
أن تلك الخلائق قد خلقت عبثاً قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ
عَبَثًا وَأَنتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} 651.

ولكن كلّ شيء عند الله بمقدار قال تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ
خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} 652.

ولكلّ أمر أرادته حكمة، سواء أدركناها أم لم ندركها، وسواء علمنا
السنة التي يخضع لها هذا الأمر أم لم نعلمها!

لقد عرض عفريت من الجنّ أن يأتيه بعرش الملكة قبل انقضاء
مجلس سليمان صلّى الله عليه وسلّم، ولكنّ الذي عنده علم من
الكتاب يعرض أن يأتي به في غمضة عين قبل أن يرتد إليه طرفه، ولا
يذكر اسمه، ولا الكتاب الذي عنده علم منه. إنّما نفهم أنه أحد جنود
سليمان وهب سرا من الله عن طريق العلم الذي يستمد به من القوّة

651 - المؤمنون 115.

652 - القمر 49.

المطلقة، وهو ممّا حشر لسليمان من الجنّ والإنس والطير، وهذا أقصى ما يقال في دائرة الممكن التي لا تخرج إلى عالم الأسطورة أو الخرافة!

فالذي عنده علم من الكتاب كان مهيبًا لتلقي علم الكتاب، فتلقى ما تلقاه وعمل به بذلك العلم حيث تمّ له أن يتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التي تتمّ بها تلك الخارقة التي تمت على يده، لأنّ الذي عنده مِ نَ علم الكتاب كان مهيبًا ومتجاوزًا مرحلة التهيؤ إلى الاستعداد للإقدام على الفعل، واستخدام ما وهبه الله من قوى وأسرار.

فالأمر أيسر من المعجزة حين ننظر إليه بمنظار الواقع، فكم في هذا الكون من أسرار لا نعلمها، وكم فيه من قوى لا نستخدمها، وكم في النفس البشرية من أسرار كذلك وقوى لا نتهدي إليها.

فحيثما أراد الله هدى من يريد إلى أحد هذه الأسرار أو إلى واحدة من هذه القوى فجاءت الخارقة التي لا تقع في مألوف الحياة، وجرت بإذن الله وتدييره وتسخيره، حيث لا يملك من لم يرد أن يجريها على يديه أن يجريها.

ولذا فإن سليمان صلّى الله عليه وسلّم لما وجد العفريت أنه ترك الوقت مفتوحًا طوال مدّة المجلس، والذي عنده علم من الكتاب قرأ عدم القناعة في وجه سليمان صلّى الله عليه وسلّم قال: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} 653.

ونحن هنا يجب أن ننظر إلى الأمر المعجز ليس من الجانب الإعجازي فقط، لأن هذا الأمر جرى على يدي من عنده علم من الكتاب وهو جندي من جنود سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

فالقرآن الكريم لم يقف بهذه الأخبار عند الحدود المعجزة الخارقة للعادة، وإنما بين أسبابها بحيث يمكن لمن يمتلك علماً من الكتاب أن تجري على يديه الخوارق والمعجزات بما يأذن الله تعالى له بسبب امتلاك العلم، كما أذن، لجندي سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

وعلى هذا فإنَّ طريق إحضار العرش دعوة للعلم والحثِّ عليه في تحريض العقل على البحث عن أسباب يمكن للإنسان أن يمتلك من القدرات والطاقات ما يؤهله أن يكون هو نفسه آية من آيات الله تعالى.

وعندما نتأمل في هذه القضية نجد أن هناك آفاقاً أبعد من المعجزة، ومديات أرحب من واقعة خارقة للعادة، ذلك أنَّ هذه القضية ربّطت ربّطاً مباشراً بقضية العلم.

الذي عنده علم الكتاب:

لقد ذهب البعض إلى أنَّ الذي عنده علم من الكتاب وأتى بعرش الملكة هو سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونحن في المفهوم العام لمعنى الآية نقول:

مصدر العلم هو الكتاب

سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم نبي

النبي عند علم من الكتاب

جميع الأنبياء عندهم علم من الكتاب

علم الكتاب متفاوت لدى الأنبياء

البشر من غير الأنبياء عندهم علم من الكتاب

وعليه: فسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده علم من الكتاب وهو علم النبوة، ولكن من الملأ الذين خاطبهم سليمان فيهم مَنْ عنده علم من الكتاب، لأن الله تعالى أجرى على أيدي بعض خلقه ما لم يجرِ على أيدي الأنبياء تصديقا لقوله تعالى: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} 654. وقصة موسى والعبد الصالح خير دليل على ذلك.

ولذا؛ فنحن لا نوافق الأمام الرازي فيما رجحه من رأي غيره أن سليمان نفسه هو الذي أتى بعرش الملكة، ويبدو أنه بنى رأيه على أن سليمان عنده علم من الكتاب . وهو كذلك . ولكننا نرى أنه ليس هو الذي أتى بالعرش.

أمّا الرازي فيقول: "بل هو سليمان نفسه والمخاطب هو العفريت الذي كلمه، وأراد سليمان عليه السلام إظهار معجزة فتحدهم أولاً، ثم بين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت، وهذا القول أقرب لوجهه:

أحدها: أنّ لفظة (الذي) موضوعة في اللغة للإشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة والشخص المعروف بأنه عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام فوجب انصرافه إليه، لكننا نقول: إنّ سليمان عليه السلام، كان أعرف بالكتاب منه لأنه هو النبي، فكان صرف هذا اللفظ إلى سليمان عليه السلام أولى.

الثاني: أنّ إحصار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية، فلو حصلت لأصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان عليه السلام، وأنه غير جائز.

الثالث: أنّ سليمان عليه السلام، لو افتقر في ذلك إلى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق.

الرابع: أنّ سليمان قال: (هذا من فضل ربي ليُبَلِّغنيَ أءشكُرُ أمَّ أَكْفُرُ) وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان"655.

أما الردّ على الوجه الأوّل الذي ساقه الرازي بأنّ (الذي) اسم إشارة فيبدو أنّها هفوة من الأمام لأنّ (الذي) اسم موصول وليس اسم إشارة يشير به إلى نفسه.

ولذا؛ فنحن نقول: (الذي) اسم موصول يدل على المفرد المذكور العاقل وغير العاقل

آ . دلالة على المفرد الحقيقي قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}656.

ب . دلالة على مفرد بالحكم قال تعالى: {وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}657.

ج . دلالة على المذكور قال تعالى: {وَلِيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِيَ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا}658.

655 - تفسير الرازي، ج 12، ص 32.

656 - الحشر 22.

657 - البقرة 228.

د . دلالتہ علی العاقل قال تعالیٰ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ} 659.

هـ . دلالتہ علی غیر العاقل قال تعالیٰ: {وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} 660.

ويخرج سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم من القيام بإحضار العرش ليس لعدم القدرة والاستطاعة وإنما لما يأتي:

1 . سليمان هو في موقف الأمر الناهي

2 . هو الذي يدير الحوار ويسمع الإجابات

3 . مسلّم له بالنبوة وعلم الكتاب

4 . لفظة (الذي) شملت كلّ المحشورين من العقلاء وغيرهم، بناء على ما تقدم.

5 . الذي عنده علم من الكتاب هو استثناء من الجميع وليس من العقلاء فقط.

6 . لو كان المقصود سليمان لجاءت (مَنْ) التي تدل على العقلاء؛ فيكون سياق الآية: قال مَنْ عنده علم من الكتاب، فيخرج بذلك جنود سليمان. أو كان قد جاءت الآية في القرآن الكريم لإزالة اللبس: فقال سليمان أنا آتيك به، وهو ليس كذلك.

ومن هنا تبين أنّ الذي أتى بالعرش (عنده علم من الكتاب) كما أنّ سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم (عنده علم من الكتاب) الذي هو

658 - البقرة 282.

659 - البقرة 258.

660 - آل عمران 50.

الوحي ومن هنا تمّ الخلط وعدم التمييز بين العلمين اللذين هما من الكتاب لكلّ من سليمان والذي أحضر العرش.

والكلام الفصل في أنّ الذي أتى بالعرش ليس سليمان صلّى الله عليه وسلّم في الدليل النقلي المنصوص بقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} 661.

فبعد هذا الدليل يكون من الصّعب أن نوافق من قال أنّ سليمان هو الذي أحضر العرش حيث تبين ذلك ممّا يأتي:

سليمان عليه الصلاة والسلام يسأل ملاءه أيهم يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن تأتي هي وقومها مسلمين.

يرد عليه عفريت من الجنّ بأنّه قادر على أن يأتيه به قبل أن يقوم من مقامه.

تطوع الذي عنده علم من الكتاب قائلاً إنه يستطيع أن يأتيه به قبل أن يرتد إليه طرفه. قبل ارتداد الطرف وجده أمّامه.

شكر الله على هذا الفضل.

فالأمر واضح تماماً أنّ الذي عنده علم من الكتاب شخص آخر غير سليمان صلّى الله عليه وسلّم، وإلا فإذا كان هو سليمان، وكان كلامه موجهاً إلى العفريت على سبيل التحدي كأنّه يقول له: إذا كنت تستطيع أن تحضر العرش لي قبل أن أقوم من مقامي، فأنا قادر على إحضاره في مدة أقل من ذلك فرآه مستقراً عنده، يكون العفريت هو

الذي قال: هذا من فضل ربّي، وهذا مخالف لسياق الآيات ومخالف للعقل.

والسؤال حينئذ هو: ما دام سليمان - وهو قادر- يريد إحضاره بهذه السرعة الفائقة التي لا نظير لها، ففيم كان سؤاله ملته عنمن يستطيع أن يأتيه به قبل أن تأتي الملكة ورجالها مسلمين؟

ولم قال للعفريت: أنا آتيك به

ولما لم يقل: أنا آتى به، دون كاف الخطاب

فما دام العفريت لم يطلب من أحد أن يأتيه بالعرش، بل سليمان هو الذي طلب ذلك، ومن ثم فإنّ العرش سيأتي لسليمان وليس للعفريت.

لماذا قال القرآن بعد أن عرض الذي عنده علم من الكتاب أن يحضره أسرع من العفريت: "فلما رآه مستقرا عنده قال: هذا من فضل ربّي؟ وهنا يكون المعنى أن الذي وجده مستقرا عنده وحمد الله على فضله هو العفريت لا سليمان!

فإنّ حمل الأمر على هذا الوجه سوف يقلب الأمور رأسا على عقب، ويكون العفريت هو الذي رآه مستقرا عنده وهو الحامد الشاكر، ويكون سليمان مسخرا للعفريت وهذا مناقض لصريح حشر الجنود من الجنّ والإنس والطير لسليمان، لذلك نجد السرد القرآني من خلال الحوار أن سليمان صلّى الله عليه وسلّم هو محور الأحداث ومحركها، ولذا فإن المتفضل عليه من الله تعالى إنما هو سليمان لا العفريت، وعلى ذلك فهو نفسه الحامد الشاكر.

أمّا الرد على قول الأمام الرازي: أنّ إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية، فلو حصلت لأصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان عليه السلام، وأنّه غير جائز.

بصرف النظر عن الاسم أو النوع فالذي قام بالفعل هو الذي عنده علم من الكتاب، وقد أثبتنا أن الذي أحضر العرش ليس سليمان، وأمّا أن الذي يحضره ستكون له درجة عالية فإننا نقول:

أعلى الدرجات وأرفعها على مستوى الخلق هي درجة النبوة

سليمان صلّى الله عليه وسلّم نبي من أنبياء الله

خطابه موجّه إلى المملأ من الحضور

هذا المملأ هم جنود محشورون له

جنوده مقرّون له بذلك طائعون أو مكرهون

علو الدرجة تكون بين جنود سليمان في التنافس.

لا مقارنة بين سليمان وجنوده.

وأمّا قول الرازي: أنّ سليمان عليه السلام، لو افتقر في ذلك إلى (آصف) لاقتضى ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق.

فهذا الكلام لا يقوم دليلاً على أن سليمان هو الذي أتى بالعرش كي لا يظهر قصور حال من سليمان صلّى الله عليه وسلّم، لأنه نبي ملك، ومعلوم أن الملوك والسلاطين:

لا يقومون بخدمة أنفسهم.

لا يقضون حاجاتهم بأنفسهم.

إن فعلوا ذلك يظهر قصور حالهم.

أمور الملك تحتاج الجنود الذين يؤدون الخدمات.

إذا كان الأمر كذلك ما كان طلب من الهدهد الذهاب بكتابه.

وعليه: فمن المهابة وتمام الملك أن يكلف الملك رعاياه وجنوده بأداء واجبات تعود بالنفع العام على المجتمع وكل ما فيه مصلحة للمملكة، لأنه من السذاجة أن يقوم الملك بنفسه في عمل يعلم أن من جنوده من يستطيع ذلك.

وأما قوله: أن سليمان قال: (هذا من فضل ربي ليبلوني أءشكر أم أكفر) وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان.

فهذا لا يستقيم مع سياق الآيات، لأنه لو كان الإتيان بالعرش من قبل سليمان وجاءت الآية (فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أءشكر أم أكفر) لأصبح المعنى أن سليمان أتى بالعرش للعفريت، والعفريت هو الذي قال هذا من فضل ربي وهذا لا يستقيم لعقل ولا منطق.

الكتاب وطبيعته:

تعددت آراء المفسرين وتنوعت حول المقصود ومعنى (الكتاب).

هذا الكتاب المعروف لفظا المعرف والمبهم معنى ذهب فيه آراء أصحاب العقول مذاهب شتى، فمنهم من قال أنه اللوح المحفوظ، والذي عنده علم منه هو جبريل عليه السلام، ومنهم من قال أنه كتاب سليمان، أو أنه كتاب بعض الأنبياء، ونحن سوف نأتي على تقريب

معنى الكتاب في محاولة للوصول إلى المقصود منه . بعون الله تعالى . من الأدلة النقلية التي جاء في الكتاب فنقول:

إن الله سبحانه وتعالى هو الواحد

الدين عند الله واحد

الكتاب من الله واحد

وقد أكدت النصوص النقلية على وحدانية الله تعالى، وهذا التأكيد على الوحدانية يعني أن الدين هو الذي ارتضاه الواحد، والكتاب من عند الواحد، وقد ذكر الواحد في القرآن الكريم خمس مرات في خمس سور متبوعا بالقهار ولم يرد منفردا:

قال تعالى: { يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } 662.

وقال تعالى: { قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } 663.

وقال تعالى: { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } 664.

وقال تعالى: { قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } 665.

وقال تعالى: { سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } 666.

662 - يوسف 39.

663 - الرعد 16.

664 - إبراهيم 48.

665 - ص 65.

666 - الزمر 4.

وقال تعالى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} {667}.

فالواحد القهار ارتضى لخلقه ديناً واحداً على اختلاف الأزمنة
والأمكنة والأجناس والألوان واللغات وغير هذا الدين لا يقبل من أحد

قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ} {668}.

وقال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} {669}.

وقال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} {670}.

وقال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا
مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {671}.

وقال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} {672}.

وقال تعالى على لسان إبراهيم: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ
دُرِّبْنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ} {673}.

667 - غافر - 16.

668 - آل عمران - 19.

669 - آل عمران - 85.

670 - المائدة - 3.

671 - آل عمران - 67.

672 - النساء - 125.

673 - البقرة - 127.

فالدّين من الواحد كان واحداً، ولذا وجب أن يكون الكتاب واحداً أيضاً، وليس المقصود أن الكتاب هو نفسه من التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وإتّما الذي هو نفسه في جميع هذه الصحف واحد لا يختلف من حيث:

الأمر بالتوحيد

دعوة الحقّ

إحلال الحلال

تحريم الحرام

العلم

فإذا تأملنا قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} 674.

نجد أن:

الرّسول هو محمّد صلّى الله عليه وسلّم

جاءهم بكتاب

مصدق لما معهم.

الكتاب هو نفسه من حيث المضمون والدعوة (الكتاب كتاب الله).

الذين أوتوا الكتاب كتاب الله.

الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو كتاب الله

الذين نبذوه فريق منهم

فريق آخر اعترف بالكتاب لأنه عرفه فلم ينكره

الذين أوتوا الكتاب هو كتاب الله

من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله نبذوه وراء ظهورهم

وعليه ليس هناك خلاف في الكتاب لأنه مصدق لما تقدمه من
الكتاب الذي أنزل من قبل حيث قال تعالى: { نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ
وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ } 675.

فإن قيل في الفرقان أنه الزبور الذي أنزل على داوود أو أنه القرآن
الكريم الذي جاء ليفرق بين الحلال والحرام، فإننا لا نرى خلافا في
الفرقان، ونرى أنه يفرق بين الحق والباطل فيأخذ صفة الكتاب الذي
يحمل العلم، لأن الله سبحانه وتعالى وصفه فرقانا معرفا كما ذكر
الكتاب لدى الرسالات الثلاث:

فالله سبحانه وتعالى أتى موسى وهارون الفرقان قال تعالى:
{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ } 676.

ونزل على محمد صلى الله عليه وسلم الفرقان قال تعالى: { تَبَارَكَ
الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا } 677.

675 - آل عمران 3، 4.

676 - الأنبياء 48.

677 - الفرقان 1.

وتظهر وحدة الكتاب بالتواصل الزمني من موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالى: {وَمَنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ أَمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ} 678.

قبل كتاب محمد كتاب موسى

كتاب محمد مصدق لكتاب موسى

التصديق مطابقة الثاني للأول

الأول والثاني من مصدر واحد

الواحد هو مصدر الكتاب

الذي عنده علم من الكتاب حصر بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام

الواحد أنزل الزبور على داوود

سليمان ورث داوود

الزبور من ميراث سليمان

من أسماء القرآن الذكر

الذكر هو الكتاب

قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} 679.

678 - الأحقاف 12.

679 - الحجر 9.

وارتبط الزبور بالذكر في قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ
بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} 680.

ومّا تقدم نعلم أن الكتاب واحد مهما تعددت المسميات لذلك
يمكن أن نقول أنها أوصاف لهذا الكتاب الذي أنزل على جميع الأنبياء
بالدليل النقلي في أكثر من موضع من القرآن الكريم في خطابين أحدهما
عام والآخر خاص

أمّا الخطاب العام فقد شمل جميع المؤمنين بقوله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا
بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} 681.

وأمّا الخطاب الخاص لمحمد صلى الله عليه وسلم يتضمن دعوة
عامة للمؤمنين أيضا في قوله تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا
أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ} 682.

ففي هاتين الآتين دليل على أن الكتاب المنزل هو واحد يشمل
صحف إبراهيم وموسى

والألواح والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان والقرآن والعلم يؤخذ من
الكتاب لا يتغير مهما تعددت صفات الكتاب لأنه من الله تعالى،
حيث أن العلم الذي يأخذ منه الذي يكون عنده علم من الكتاب

680 – الأنبياء 105.

681 – البقرة 136.

682 – آل عمران 84.

يصل إلى النتيجة نفسها التي وصل إليها من أحضر عرش ملكة سبأ،
ودليلنا في ذلك قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ} 683.

حيث نستنتج من هذه الآية ما يأتي:

ذكر أهل الكتاب

إقامة التوراة

إقامة الإنجيل

إقامة ما أنزل إليهم غير التوراة والإنجيل

كل ما تقدم ينتمي على الكتاب

والإقامة تكون بالسير على النهج الذي جاء بالكتاب منها:

التوحيد

العبادات

الحلال والحرام

الإصلاح وعدم الإفساد

عدم سفك الدماء بغير حق

فمن ارتقى باتباع نهج الكتاب وفق ما أمر به منزل الكتاب إلى
درجات الصلاح لأكل من فوقه ومن تحت رجله كما كانت مريم
عليها الصلوة والسلام حيث قال تعالى: {وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ

عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِخْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ {684.

وما نظن ذلك الرزق إلا بسبب ما كانت تقيم مريم من التوراة التي كان عندها علم منها.

العلم ونوعيته:

العنصر الثالث الذي قام عليه الفعل في إحضار العرش هو العلم، وهنا لا بد من وقفة تأملية طويلة مع العلم الذي هو من الكتاب في قوله تعالى: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} {685 فإن هذه الآية لم تبين لنا شخصية ذلك الذي (عنده علم من الكتاب) أبشر هو أم جني أم طير؟!!

وهي لفظة جديدة بالتأمل، وأن نقف عندها طويلا، ونجعلها مع الإشارة السابقة إلى (الكتاب المعرف لفظا والمبهم معنى) دليلا قويا على وظيفة العلم في عملية الحشر والتسخير، وكأن الآية الكريمة تقول بأن العلم ما هو إلا (كتاب) ماثوثة آياته ومعجزاته في أرجاء هذا الكون الفسيح، وما على الذين يريدون الإفادة ممّا في هذا الكتاب إلا أن يحسنوا تدبّره.

إنّ قراءة الكتاب مِنْ قَبْلِ مَنْ لَيْسَ لَدَيْهِ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ لِيَصْبَحَ لَدَيْهِ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ لَا تَتَطَلَّبُ مَعْرِفَةَ الْقِرَاءَةِ وَالكِتَابَةِ فَحَسَبَ، وَقَدْ لَا تَتَطَلَّبُهُ، وَلَكِنْ إِضَافَةٌ إِلَى ذَلِكَ فَإِنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى عُنَاوَرٍ أُخْرَى أَهْمُ مِنْ قِرَاءَةِ الْحُرُوفِ وَالْكَلِمَاتِ مِنْهَا:

إيمان مطلق:

684 - آل عمران 37.

685 - النمل 40.

قال تعالى: {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ} 686.

قلوب وجلة:

قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} 687.

بصيرة نافذة:

قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} 688.

تفكر:

قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} 689.

تدبر:

قال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} 690.

فهذه بعض الأسس التي يجب أن يمتلكها من يريد أن يكون عنده علم من الكتاب لن يحسن القراءة أحد أبدا ما لم يسر في الأرض بقلب

686 - المجادلة 22.

687 - الأنفال 2.

688 - الأعراف 203.

689 - النحل 43، 44.

690 - النساء 82.

مبصر، ونفس تواقفة للمعرفة، على هدي التوجيه الإلهي الحكيم الذي أمر به تعالى في قوله: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا} 691. والتفكر يكون في السنن التي تحكم هذه المخلوقات والقواعد والأسس والقوانين التي تنظم العلاقة بين:

علاقة العاقل بالعاقل

علاقة العاقل بغير العاقل

علاقة غير العقلاء فيما بينهم

علاقة المتصرف بالمتصرف به

حيث تتجسد هذه العلاقات في قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} 692. وهو خطاب للعقلاء بأن هناك علاقات وثيقة بين الإنسان ومحيطه في آفاق هذا الكون، فمن يستطيع أن يدرك هذه القوانين التي تقوم عليها تلك العلاقات وفق الأسس الربانية يحصل على شيء من علم الكتاب من أجل تسخير إمكانات هذا الوجود الكوني خدمة للإنسان فيما استخلف فيه.

إن الوقوف على حقائق الآفاق وحقائق النفس يجعلنا نستنتج الروابط التي تحكم هذه العلاقة ومن ثم يتم استجلاؤها ثم العمل على تسخيرها كما أمر بها الله تعالى سبحانه! وبهذا المنهج يمكن أن يهتدي الإنسان إلى السنن والقوانين التي تسير الحياة على نهجها، وهذا هو الطريق الصحيح للوصول إلى العلم الحقيقي من خلال الكتاب الذي

691 - آل عمران 191.

692 - فصلت 53.

سوف يجعل المستحيل حقيقة والغيب واقعا كما حصل لمن عنده علم من الكتاب.

وقولنا الغيب لا بمعنى الغيبات الخمس التي استأثر بها الله تعالى في قوله: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 693.

ومع ذلك فعلم الأنبياء وما جاؤوا به عن الله تعالى إنما هو أصل العلم ولا يمكن أن يُدرك بالعقل دفعة واحدة، وإنما يكتسب بعضه بالنقل عن النبوة كونه وحيا أوحاه الله إليهم بواسطة جبريل عليه السلام

أو كلام يكلم به رسوله بغير واسطة كما كلم موسى صلى الله عليه وسلم

أو يوحى الله بإذنه ما يشاء لمن يشاء

فعلم النبوة يختلف عن علم البشر كون الأنبياء صفوة الخلق فلا شك أن علمهم صفوة العلم، وإن كان الإنسان يمتلك علما في إدارة شؤونه الخاصة في الحياة ناتجا عن تجربته وتجارب أجيال سابقة عليه، فهو يتفاعل مع الحياة ومشكلاتها والكون وأسراره، ولكنه بحاجة إلى من يرشده إلى طريق الحق ويصّره سبل الهداية ونور اليقين وصولا إلى الفطرة السليمة التي فطر الله تعالى عليها خلقه، فسلیمان صلی الله عليه وسلم كان العلم جزءا من ملكه ليبين للناس ما عجزوا عن فهمه، والذي عنده علم من الكتاب هو أحد جنود سليمان وهو مسخر له بعلمه

693 - لقمان 34.

وكليته ولكن الغاية ليست الشخص نفسه، وإنما الغاية التي تريد أن تؤكد عليها قضية إحضار العرش أن العلم هو الأساس في القضايا دقيقها وجليلها وكلما كانت القضية عظيمة احتاجت إلى علم يوازيها في العظمة من أجل إنجازها، وهذا العلم الذي يجب أن يوازي القضايا ويكافئها لابد أن له مصدر يستقى منه، وهذا المصدر هو الكتاب الذي بينا مصدره ومعناه ليكون معيناً:

إذ أنّ العقل البشري لا يقوى وحده على إدراك سنن الكون كاملة لا يقدر بوعيه المحدود على فهم خبايا هذا الكون من الوجود إذا فهم الحياة فإنه يحتاج من يفهمه معنى ما بعد الحياة.

ولهذا؛ فقد وهب الله لسليمان خيراً كثيراً وفضلاً عظيماً هو علم النبوة الذي انبثقت عنه مناهج الهداية التي حملها الوحي في زمنه، ومن هذا المنهج أخذ علمه الذي عنده علم من الكتاب. وعليه فقد أمد الله سبحانه وتعالى الإنسان بمنهاج قويم ومسلك أمين يدلّه على سبيل الهدى وطرق الرشاد وصولاً إلى الفوز المبين بما رزقه من علم النبوة المتوارث حيث قال تعالى: ﴿وَوَرِّثْ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ 694.

فالإيمان والاستقامة على الطريق السوي الذي سنه الله تعالى لعباده يفتح أمام العقل باب علم من الكتاب لأنه:

يصفي النفس من ميولها وشهواتها

لا يكبت دوافعها التي خلقها الله فيها

تؤدّي ما عليها من واجبات وتأخذ ما لها من حقوق

تمارس دور الخلافة التي أرادها الله تعالى

والذي يستطيع أن يمتلك علما من الكتاب لا يعني أنه اطلع على الغيب لأنه استطاع أن يفعل ما لم يفعله غيره، وإنما الأمر ليس كذلك، ولكن الذي يأخذ بالأسباب يصل إلى النتائج، فالغيب هو خلاف الشهادة، وكلّ ما غاب عن إدراكنا فهو غيب بالنسبة لنا، وهو أنواع منها:

أ. غيب نسبي:

ويشمل الغيبات في عالم الشهادة التي تتعلق بالماضي أو بالحاضر أو المستقبل، وهي مغيبة عنا أمّا بسبب وجود مانع يحول دون علمنا بها قال تعالى: { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } 695. أو لأنّ الوسائل التي بين أيدينا لا تسعفنا في الكشف عنها قال تعالى: { إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ } 696 وهذا النوع من الغيب يمكن أن نتوصل لمعرفة بصورة يقينية قاطعة خاضعة للمشاهدة بالوسائل التي تؤدّي إلى امتلاك الأسباب واستخدامها في التوصل إلى ما كان غيبا نسبيا.

ب. غيب جزئي:

يعلمه الخلق العاقل فعلى سبيل المثال: قد يعلم الإنسان شيء لا يعلمه غيره من البشر مثل كم يملك ومتى نام ومتى استيقظ وماذا ينوي أن يعمل غدا، وهذا شهادة عند صاحب هذه الأشياء وغيب عند

695 - الإسراء 85.

696 - الرحمن 33.

آخرين، ومع ذلك قد لا يبلغ اليوم الغد الذي ينوي أن يعمل فيه الشيء الذي قد أضمره في نفسه، بأسباب علم الغيب المطلق.

والجزء هو المختزل في الكلّ، والمحتوى على المتجزئ والمختزل له، فكلمة رجل، تختزل كلّ الرجال فيها، وهي جزء من كلمة إنسان. وكلمة عصفور، تتكون من كلّ العصافير المتجزئة من كلمة طير، وبمختلف أنواع العصافير وأشكالها وألوانها، وأماكن تواجدها، ولذلك فهناك من ينتقل في تحليله من الكلّ إلى الجزء، وهناك من ينتقل من الجزء إلى الكلّ. فهذه طرق وأساليب لا ينبغي قولبتها، بل يفضل أن تكون المرونة في استعمالاتها، ولهذا لا جزء إلا من كلّ. فجسم الإنسان كوحدة واحدة كليّ، وأطرافه جزء منه، والفؤاد كذلك، والقلب جزء من الفؤاد، والبطين جزء من القلب. والإنسان كفرد، جزء من الجماعة، والجماعة جزء من المجتمع، والمجتمع جزء من الأمة، والأمة جزء من البشرية على مستوى المعمورة، وهكذا تتجزأ الأشياء زيادة أو نقصان من الكلّ أو إليه.

ج . غيب متجزئ:

الغيب المتجزئ، هو الغيب الذي لا يعلمه إلا الخبراء، وهم الذين يعلمون بالكيفية التي يمكن أن تكون عليها الأشياء أو المخلوقات، فالله هو الخبير المطلق جاء قوله تعالى بصيغة التساؤل: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر} 697.

في هذه الآية الكريمة لم يأت التساؤل عن الإبل، بل جاء التساؤل عن الكيفية التي بها خلقت، أو التي عليها خلقت، ولذا فالإبل وجودها

697 - الغاشية، 17 . 21.

إثبات للمشاهد، أما الكيفية التي خلقت عليها فلا يتمكن من إدراكها إلا الخبراء في تتبع المعلومة وتفصيلها، أي أنهم الذين لا تقتصر معارفهم على المشاهد فقط، بل هم الذين يمتدون في تفكيرهم وبصائرهم إلى معرفة المجرد الذي لا يُدرك إلا عقلا وبقينا (الكيفية التي خلقت عليها أو بها الإبل والكيفية التي رفعت السماء بها ونصبت الجبال وسطحت الأرض). هذه المعرفة هي التي تُسمى معرفة الخبير، التي لا تُدرك من غيره، والمستخلفون في الأرض هم الذين يدركون بها يقينا لا ظنّ فيه.

والمتجزئ هو المختزل في الجزء، والمتكون من المحتوى الذي يتضمنه، ويميزه عن غيره، فكلمة حسين كاسم هي متجزئ من الأسماء، وتشتمل على كلّ الذين أسمهم حسين، ولكن أيّ حسين أعني؟ هذا الأمر يستوجب تمييزه عن غيره وإلا لن تكتمل المعرفة أو المتعرف عليه دون غيره ممن يندرجون تحت هذا الاسم، ممّا يجعل اسم الأب مميزا في بعض الأحيان، واسم الأم أو اللقب والديانة والجنسية والمهنة، والمرحلة العمرية، وعلاقته بالحالة المدروسة. وكذلك كلمة فلاح وصياد وطالب وأستاذ، هذه صفات تتوحد في المهنة أو الحرفة، وتتجزأ من حيث العمر، والدور الذي تقوم به، وكذلك اللغة التي تتكلمها والديانة التي فيها تعتقد والأمة التي تنتمي إليها.

وعليه ينبغي ألا يغفل التحليل العلمي عن تتبع التداخل والترابط بين الجزء والمتجزئ والكلّ، مع مراعاة ما يتداخل بينها من متغيرات. ولهذا يحدث الاختلاف مع بعض من المعتزلة، الذين انقسموا على طائفتين: الأولى التي حاولت بالبحث الجدلي إثبات الجزء الذي لا يتجزأ، وكان على رأسها أبو الهذيل. والثانية تقول بأن الجزء يتجزأ إلى مالا نهاية، وعلى رأسها أتباع إبراهيم بن سيار النظام.

وبناء على ذلك أتساءل: كيف تقبل الطائفتان أن لكلّ بداية
نهاية، ولا تقبل بنهاية المتجزئ منه؟ وكيف تقبل بأن الكلّ ينقسم إلى
أجزاء، ولا تقبل بان الجزء يتجزأ إلى أجزاء متناهية. فإذا قطع متسابق
مسافة كيلو متر على مضمار كرة القدم، فتكون هذه المسافة كليّة، وبما
أنها كليّة، ألا يكون لها أجزاء تقبل القسمة إليها وهي الأمتار؟ وفي
ذات الوقت ألا يكون لهذه الأجزاء جزئيات تقبل القسمة إليها وهي
السنتمرات؟ وهكذا ينقسم الكلّ إلى الجزء وإلى المتجزئ الذي يُمكن
مشاهدته أو ملاحظته وإدراكه والتعرف عليه سواء بالعين المجردة، أو
بوسائل تقنية.

وعليه من تقتصر معرفته أو إيمانه على الجزء أو المتجزئ المشاهد
فقط حتى يصدر أحكامه بأنه الحقّ في ذاته فهو قاصر عن الخبرة، ولهذا
لن يوصف بالخبير، فالذي يوصف بالخبير هو من يستمد خبرته ممّا
أعلمه الخبير المطلق به.

. غيب مطلق أو كليّ:

ويشمل كلّ الغيبات التي نعلمها أنّها غيبا مطلقا ممّا استأثر الله
تعالى بعلمها وأطلعنا على أنّها غيبا في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ
السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ
غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 698.

والغيب الآخر المتعلق بما بعد الموت في الحياة الآخرة التي نعلمها
وصفا من الكتاب، وهذا النوع من الغيب علمناه علما يقينيا عن طريق
الوحي المسلمّ به مثل الجنة والنار والعرش والكرسي ففي قوله تعالى:

{وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ
لِلْمُتَّقِينَ} 699.

وقوله تعالى: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِن
مَّزِيدٍ} 700.

فالجنة والنار وأمثال ذلك مما ورد في الكتاب هي غيبات يقينية لم
تخضع للمشاهدة جاء بها الخبر الصادق الذي هو جزء من علم
الكتاب، أمّا الذي يكون غيبا ثم يخضع للمشاهدة أو الحضور فهو
غيب نسبي ترتبط مشاهدته بالوقوف على أسبابه.

ولذلك؛ فالغيب المطلق أو الكلّي هو المشتمل على كلّ جزء
ومتجزئ في دائرة النسبية والممكن المتوقّع وغير المتوقّع. فالإنسان
كمفهوم كلّي يحتزل كلّ البشر من حيث المضمون والجوهر، وهكذا
كلمة الطير تحتزل كلّ الطيور، ومثلها كلمة النبات تحتزل كلّ النباتات
بجميع أنواعها وأشكالها، ومثلها أيضا الحيوان. فأبي إنسان أعني؟
الرجال أم النساء أم الشيوخ أم الأطفال، أم ماذا أعني؟ وأي طير أعني،
هل أعني بذلك الحمام، أم الصقور، أم الغربان أم ماذا؟ وأي نبات
أعني؟ وأي حيوان أعني؟

وعليه: فالكلّ احتوائي يحمل في مكوناته الجزء والمتجزئ منه.
ولهذا فهو شمولي يُطلق على كلّ من يشتركون في النوع والصنف، أو
الصفات والخصائص والمهن والحرف. وقد يكون الشكل كلّّي عندما
يستقل عن غيره، وقد يكون جزءا عندما يُقارن أو يرتبط بغيره ممن
ترتبط به علاقات في الكم أو الكيف. فالشكل الرباعي الذي مساحته

699 - آل عمران 133.

700 - ق 30.

على سبيل المثال تساوى افتراضا (400) متر مربع، يكون طول ضلعه (20) مترا. ولذلك فالمرّبع ككلّ يتجزأ إلى أربعة أجزاء، وكلّ جزء يتجزأ إلى (20) مترا، ولهذا ينقسم الكلّ إلى أجزاء، والأجزاء تنقسم إلى متجزئات، وهكذا إلى النهاية. فعندما تُقطع مسافة (500) متر عدوا، قد يُنظر إلى هذه المسافة بمنظور كليّ، ولكن إذا ما قارنا هذه المسافة بمسافة (1000) متر تصبح تلك المسافة جزءا وليست بكلّ، وهكذا إذا ما قارنا مسافة الألف متر بمسافة (2000) مترا، يصبح الألف السابق جزء من كلّ، وهكذا دائما الكلّ يتجزأ إلى النهاية.

ومع أنّ كلّ جزء قابل لأن يتجزأ، إلا أن المعرفة التامة قد لا تتم إلا بمشاهدة وملاحظة الكلّ وهذه لم تكن بيد مخلوق بل إنها بيد الخبير البصير.

والغيب الكلّي لا يعلمه إلا الله مثل الحياة والموت والعدم، وكذلك الأرض التي يمكن أن يكون الموت عليها والزمان، وهذا الغيب لا يطلّع عليه أحد ممن خلق.

قال تعالى: {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} 701.

هنا جاء الاسم الخبير ليتمم الاسم اللطيف في باب إدراك الرؤية للطافته التي لا تدرك ولكنه بخبرته يجعل كلاً يرى ولكن على قدره لا على قدر المرئي وكما قرر أهل السنة بإثبات الرؤية مع التفويض أي بترك الكيفية للخبير.

ثم يأتي الاسم الخبير مع الأرض والسماء لتذكير الإنسان بحكمة الله وتجليه بخبرته في عالم الملك وهو العالم المرئي للإنسان بإخفاء ما يريد من نعم ونقم في باطن الأرض وكذلك ما ينزل من السماء بأمره سبحانه وتعالى وما يصعد إليها وفيها من أعمال وملائكة، وهو ما يعرف بعالم الملكوت فيقول تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ} 702.

وهنا أيضا الاسم الخبير يتمم الاسم الحكيم الذي يثبت ملك السماء والأرض لله الذي يعلم أسرار الأرض وأسرار السماء.

ولنعرف علم الغيب علينا أن نميزه عن علم المستقبل، فعلم الغيب المطلق لا يعلمه إلا الله الحكيم الخبير، أما علم المستقبل فالبشر على علم به. ولتوضيح ذلك فإن علم المستقبل هو: الوقت المنتظر الذي يحتوي على الآمال وهو غير قابل للتذكّر مع أنه قابل للتفكّر، والتفكّر لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة، بل هو المتطلع إلى ما هو متوقّع، نتيجة استنتاجه واستقرائه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجارب وتتراكم فيه الخبرة، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن، ولذلك تتداخل المعلومات كما يتداخل الزمان مع الحركة، ممّا يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزمان والحركة، فلا زمان بلا حركة، ولا حركة بلا زمان ولا حياة بدونهما.

فالعلم يعني الإيمان اليقيني بالسنن الربانية التي تحكم الكون كلياً (في دائرة الغيب المطلق لله تعالى) أو سنة تحكم ظاهرة من الظواهر الكونية

جزئياً مما يعرفه الإنسان (في دائرة المعرفة النسبية) وأن السنن ذاتها تقوم على أساس أولي من ارتباط العلة بالمعلول أو ارتباط النتيجة بالسبب ارتباطاً لازماً، وهذا يعني أن اجتماع أسباب معينة يؤدي إلى نتيجة معينة في ظاهرة من الظواهر بما فطرها الله عليها، وانطلاقاً من هذه الحقيقة يمكن أن يكتسب الإنسان قدرة معينة من خلال العلم على التنبؤ بأمور معينة عنه، فعندما تتوافر لديه مجموعة من الأدلة والقرائن والمقومات أو الأسباب مجتمعة، فإنه يمكن أن يعرف بهذه الغيبات النسبية التي ترتبط نتائجها بأسبابها، كأن يتنبأ مثلاً بهطول المطر عندما تتراكم الغيوم في السماء، وتتهيأ الظروف الجوية المواتية.

وللوقوف على معرفة الغيبات لا بمعنى الاطلاع عليها وإنما معرفة وجودها يقينياً يكون عن طريق العلم الذي هو الأداة والسلطان والوسيلة للوقوف على حقائق الأشياء ومعرفة الغيبات من أنها غيبية مطلقة أم أنها غيبية نسبية أم جزئية أم متجزأة عن طريق العلم، وهنا يجب أن نفرق بين أنواع العلم الكثيرة، ولكن الأمر الذي نحن بصدده يتصدى له نوعان من العلم هما:

العلم الوقفي:

آ . علم الوهب:

قال تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا} 703.

ب . علم الوحي:

قال تعالى: { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا } 704.

ج . علم الوراثة:

قال تعالى: { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ } 705.

العلم المكتسب عن طريق:

آ . الأخبار السمعية:

قال تعالى: { وَآتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَمَنْ يُتَّقِبَلْ مِنَ الْآخِرِ } 706.

ب . الأدلة الفكرية العقلية:

قال تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخُلُقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى } 707.

ج . المعاينة الحسية:

قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ } 708.

704 - النساء 163.

705 - النمل 16.

706 - المائدة 27.

707 - الأحقاف 33.

708 - الأنعام 95.

والجمع بين شيء من علم الوقف وتعلم العلم المكتسب يتحصل علم من الكتاب.

ما أعطي لسليمان:

{وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيِّنًا يَدِيهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَرِغِ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَاثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ} 709.

لم تكن الجن جنود مجنّدة لسليمان صلى الله عليه وسلم بالمعنى الذي فهمه معظم الناس من أنهم عساكر مقاتلون، وإنما هم مجندون لخدمة سليمان فيما يطلبه من عمل كون سليمان صلى الله عليه وسلم نبي ملك، والمملكة دولة تحتاج إلى كل مقومات المدنية والحضارة والعمران، ولذلك حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطيور، وهذا الحشر أعطى لسليمان دلائل دنيوية وأخروية:

آ . الدلائل الدنيوية:

وهو الملك العظيم الذي لا ينبغي لأحد من بعده

ب . الدلائل الأخروية:

ما سُخر له من الرّيح وإسالة عين القطر وحشر الجنّود المختلفة الأنواع دليل على النبوة.

فالدنيا لا تنفصل عن الدين بحال من الأحوال، ذلك أن الدنيا هي حقل الغرس من أجل الحصاد في الآخرة فقد قال تعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلًا مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ} 710.

والعمل يكون في الدنيا والجزء في الآخرة، ولذا لم يقتصر عمل آل داوود على الفرائض، لأن العبادات هي جزء من العمل الذي أمر به الله تعالى، وعليه فبناء الدولة هو جزء من العمل أيضا.

وهنا تظهر خلافة سليمان صلى الله عليه وسلم أوضح ما تكون من إعمار الأرض وإصلاح من فيها في دولة ذات تمكين عظيم، بل لعلها أعظم دولة وجدت على ظهر الأرض من حيث ما مكن الله لها وملكها النبي الصالح الشكور.

ومع ما وهب لسليمان من علم وما سخر له من الجن فقد عمل من أجل بناء دولة هدفها الأرض وغايتها السماء، ولم تكن تلك الدولة في غنى عن منتجات الصناعة ومزاولتها، بل إن النصوص القرآنية تصور لنا ثورة صناعية دائبة مستمرة حية في تلك الدولة، حتى مات ملكها وهو واقف يشرف على تلك الأعمال الدائبة التي يقوم بها الجن قال تعالى: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَاثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجُبَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلًا مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبِ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} 711.

710 - سبأ 13.

711 - سبأ 13، 14.

والذي يدل على العمل في الصناعة التي كانت تقوم بها الجنّ،
الأنواع المتتالية التي ذكرت وهي:

المحاريب

التمائيل

الجفان كالجواب

القدور الراسيات

والمحاريب هي القصور والأبنية الرفيعة وليس هو محراب المسجد
أصلاً، وإنما انتقل اللفظ إلى محراب المسجد لأن المحاريب هي أشرف
الأبنية وأرفعها، ولما كان أشرف مكان في المسجد هو الموضع الذي
يجلس فيه الأمام ومنه:

يؤم المصلين فيه

يعظهم

يرشد هم

يدعوهم ويدعو لهم

والناس يؤمنون من خلف الأمام، ولذا اكتسب هذا الشرف من
الأفعال فأطلق (المحراب) على صدر المسجد ودليلنا في هذا قوله تعالى:
{وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفِ إِذْ تُسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ
مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ} 712.

712 - ص 21، 22.

فهم تسوّروه لأنّهم وجدوا الأبواب مغلقة فاضطروا إلى أن يعتلوا السور وهو دليلنا على أنه بناء عظيم له أبواب وأسوار، فهذه هي المحاريب من القصور التي كان الجنّ بينونها لسليمان، ولما كانت هذه المحاريب من العظمة في البناء والهندسة المعمارية وما فيها من أعمدة وأقواس وهي قصور مملكة، كان لابدّ من تزيينها بالتماثيل وما يترتب على ذلك من النقوش والزخارف، ثم ذكرت الآية ما تحتاج هذه المحاريب وهي أبنية للسكن بحيث تستوعب مجالس سليمان قياسا لما حشر له من الجنود، وما يُقدم لهم من طعام وشراب، فوجب أن يكون هناك آنية للطعام تكافيء الأعداد التي تجتمع على الطعام، فكانت الجفان التي يأخذ بها من القدور الراسيات دلالة على عظمتها، وهنا تظهر سمة الملك والمملكة أكثر من مظاهر النبوة، لأنّ الآية تعطي الإشارات الدالة على المملكة من المحاريب والقصور والأبنية وما فيها من زينة وزخارف كان يصنعها الجنّ، وما تحتاج هذه المملكة من آنية للطعام بالحجم الذي يدل على كثرة الأعداد المحشورة، لذلك كانت الآنية بعظم ذلك الحشر، وعليه فإننا نستنتج ما يلي:

1 . الآنية وعظمتها تدل على عظم العدد المحشور.

2 . العدد المحشور يدل على سعة الملك.

3 . عظمة الحشر يدل على عظمة الملك.

4 . عظمة الملك يدل على عظمة الملك (سليمان).

وللرازي رأي لطيف في هذا حيث قال: " ذكر في حقّ داود اشتغاله بألة الحرب، وفي حقّ سليمان بحالة السلم وهي المساكن والمآكل وذلك لأنّ سليمان كان ولد داود، وداود قتل جالوت والملوك الجابرة، واستوى داود على الملك، فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه

قد سوى على ابنه الملك وجمع له المال فهو يفرقه على جنوده، ولأن سليمان لم يقدر أحد عليه في ظنه فتركوا الحرب معه وإن حاربه أحد كان زمان الحرب يسيرا لإدراكه إياه بالريح فكان في زمانه العظمة بالإطعام والإنعام"713.

وهذا يعني أن سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استكمل الدعوة بعد أبيه بأسلوب آخر من إعمار الأرض وإصلاحها مما يوضح تلك الصور للثورة الصناعية في دولة سليمان ومملكته، ومجيء التعبير عن عمل الجنّ في منتجات الصناعة بالفعل المضارع (يعملون له ما يشاء من محارِبٍ وتمائيل) فالتعبير بالمضارع في (يعملون) يفيد الدوام والاستمرار والتجدد والدعوة إلى العمل من أجل الإصلاح، وليس القصد منه الإخبار وإن كان يتضمنه إلا أنه ليس المقصود.

فلو كان الأمر مقتصرًا على الإخبار لكان قال:

عملوا له محارِب

عملوا له تَمَائِيل

عملوا له جفان

عملوا له قدورا راسيات

وهذا مضطرد في القرآن الكريم عندما يكون الفعل ماضيا وتكون الغاية منه الدوام والاستمرار ينزل المضارع منزلة الفعل الماضي كقوله تعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ }714.

713 - تفسير الرازي، ج 12، ص 406.

714 - آل عمران 110.

فعندما قصد الخلق والبرء والتصوير قال: أخرجت للناس فجاء
الفعل ماضيا.

وعندما قصد الغاية من الخلق لدوام استمرار الأوامر والنواهي قال:

تأمرون بالمعروف

تنهون عن المنكر

تؤمنون بالله

وكذلك مما جرى على هذا السياق قوله تعالى في الآية قبل آية
ذكر أعمال الجنّ وهي قوله تعالى: {وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجَنِّ مَنْ
يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ} 715.

فلو اقتصر الأمر على الخبر لكان هناك اتساق بين الأفعال في
أزمنتها ولم تكن هناك مغايرة وانتقال من الفعل الماضي إلى الفعل
المضارع، فيكون السياق:

أسلنا له عين القطر

من الجنّ من عمل

ولما كان هناك غرض آخر غير الخبر وجب الانتقال من الماضي
إلى المضارع لتوضيح الغاية، ولذا نجد الآن من يعمل في صناعات من
النحاس المذاب الذي هو عين القطر فبقي هذا الأمر من بعده مستمرا.

إنّ إعطاء الله لنبيه سليمان صلّى الله عليه وسلّم النحاس بهذه
الكمية والكيفية في إسالة عين القطر يدل على أنّ هناك استعمالات
كثيرة له، وهو المعدن العريق في منتجات الصناعة القيمة ومن أهم

المعادن الذي قامت عليه الصناعات الحديثة ولا تزال، ولذلك جاء التعبير بعمل الجنّ بين يديه في الصناعة لسليمان عقب ذكره تعالى لإسالة عين القطر، ولو لم يكن هناك إعمال لهذا المعدن من استخدام وصناعات لما كان هناك فائدة وطائل من إعطائه كلّ هذه الكمية بهذه الطريقة، وهي ممّا أعطاه الله سبحانه لسليمان وهو دليل آخر على عظيم نعمائه وعطاياه وممّا وُهب وسُخر لسليمان وامتن الله تعالى بها عليه.

كلّ هذا يشهد بأن الاهتمام بالصناعة هو شأن الدولة الممكّن لها المؤمنة المجاهدة لإعلاء كلمة الله وتحقيق الاستخلاف وإعمار الأرض والإصلاح فيها وإقامة الحقّ والعدل وعدم سفك الدماء بغير حقّ، فإن ذلك مظهر من مظاهر تمكينها ومن نعم الله التي يتوجب شكرها وردّها إلى الله تعالى لذلك قال سليمان صلّى الله عليه وسلّم: { رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } 716.

إنّ الأمر يجب ألا يقف بنا عند حدود المعجزة التي أجزاها الله تعالى لنبيه سليمان صلّى الله عليه وسلّم، وإنما هي دعوة للعمل، لأنّ العمل هو من متمّمات الخلافة في الأرض إن لم يكن عمودها وذروة سنامها، وذلك أن العمل إصلاح:

من خلال الدّعوة إلى الحقّ والعمل بما يقتضيه، وبهذا يكون الجنّ قد نال قسطاً من الإصلاح على يد سليمان صلّى الله عليه وسلّم، وهذا يعني أن الإصلاح على يقتصر على نوع دون نوع ولا على جنس دون آخر.

إعمار:

وعندما أصلح سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قسم من الجنّ المسخر له، وبهذا يكون قد أعدّهم للمرحلة التالية وهي الإعمار، إذ لا يمكن لأحد من جنود سليمان أن يساهم في الإعمار ما لم يهيأ لذلك، فإن لم يكن مصلحا فلا يمكن أن يعمر الأرض، لأنّ أولى متطلبات الإعمار هو الإصلاح للذات ثمّ إصلاح الآخر، وعندما يتعدى إصلاح الذات إلى إصلاح الآخرين، يكون قد دخل مرحلة الإعمار.

إنّ جنود سليمان من الجنّ قد وصلوا مرحلة الإعمار بعد إصلاحهم، فانخرطوا في مجالات البناء والصناعة والعمل في كلّ ما يعود بالنفع على المخلوقين، لذلك نجد الاستعراض لمنتجات الصناعة في القرآن الكريم من أجل إظهار قيمتها ومعناها ودورها في تمكين الله بها لدعوة الحقّ وجعلها من مظاهرها الحال في التمكين ولو كان ذلك بتسخير الجنّ في عمل الخير مثلما سخرهم سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغوص والعمل والصناعة.

ولأهمية ذلك في الحياة الدنيا نجد أن الله تعالى أمر الأصفياء من خلقه بأن يعملوا ويصنعوا ما فيه النفع والخير الذي يعود على الخلق ضمن دعوة الحقّ من السفينة التي صنعها نوح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا} 717.

والدروع التي أمر داوود بعملها وأن يكون دقيقا في صناعتها وتقدير سردها، قال تعالى: {أَنْ اَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} 718.

717 - هود 37.

718 - سبأ 11.

فكانت هذه الصناعات على يد أنبياء بتعليم من الله حتى في دقائق صنعها وكيفيات تصميمها، والمتأمل في كتاب الله يجد أن تلك الصناعات كانت وسائل نجاة للأمم وامتناع لآخرين من أعدائهم ووقاية من بأسهم، ويكفي للعلم بمدى حضّ القرآن على الصناعة وتشجيعه عليها أن سورة كاملة فيه جاءت باسم المعدن الأساسي للصناعات وهو الحديد قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} 719.

وبين الله سبحانه وتعالى فيها أنه لم ينزله إلا لشيء واحد وهو ليعلم من ينصر به دينه ويوظفه في صناعات ينصر بها الحق ويعمر بها الأرض ويصلح بها الخلق.

الشياطين:

الشياطين كلمة عامة تشمل كلّ متمرّد من شياطين الإنس والجنّ قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} 720.

ولكن المراد بالشياطين التي سخرها الله لسليمان عليه السلام وأخبرنا الله عنها في قوله تعالى: {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} 721. بأنّ منهم من يغوص لسليمان، ومنهم من يبني له ومنهم من يعملون له أعمالاً أخرى ومنهم من هو مقرن في الأصفاد، إنما هم شياطين من الجنّ بدليل قوله تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ

719 - الحديد 25.

720 - الأنعام 112.

721 - الأنبياء 82.

الْقَطْرِ وَمَنْ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا
نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَمَتَائِلٍ وَجِفَانٍ
كَالْجُؤَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ
الشَّكُورُ فَلَمَّا فَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ مَا لَبِثُوا
فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ {722}.

ولو كان المراد بهم في هذه الآيات الشياطين من الناس ما كان ذلك آية لسليمان عليه الصلاة والسلام ولم يكن هناك وجه للإعجاز لأن كثيرا من الناس يستطيع أن يسخر لنفسه شياطين من الإنس.

لقد جعل الله تعالى تسخيره للشياطين لسليمان عليه السلام آية خارقة للعادة مثل آية إسالة عين القطر وتسخير الريح والطير وتعليمه لغة الطير ونحو ذلك من خوارق العادات والأمور المعجزة التي خص الله بها سليمان استجابة لدعائه قال تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مِثْلًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ بَجَرِّي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ {723}.

فالشياطين هم كل عاتٍ متمرّدٍ من الجنّ والإنس على السواء، والشيطان لم يحدد، والجنّ منهم المؤمن ومنهم الكافر والصالح والطالح كما ورد في آيات سورة الجنّ.

وأما من يقول أنّ الله تعالى لم يسخر الشياطين لسليمان عليه الصلاة والسلام وهم المتمردون العتاة ولم يسخر المؤمنين؟

فنقول:

722 - سبأ 12-14.

723 - ص 35-37.

إنَّ الله تعالى سخر له من الجنّ، والجنّ لفظ عام يقابل الإنس فيهم المؤمن وغير المؤمن، ولكن الله تعالى أراد أن يظهر معجزة أخرى بأن هؤلاء الذين يوصفون بالتمرد والعصيان، فإن عبدا من عباد الله وهو سليمان صلّى الله عليه وسلّم استولى عليهم بتسليط من الله تعالى ليعلموا أنهم لا يعجزون، فإن كان المخلوق قدر عليهم فإن الخالق عليهم أقدر.

فهذا امتنان الله تعالى على نبيه الكريم سليمان صلّى الله عليه وسلّم بتسخير الشياطين العصاة الفاسقين في بناء القصور والصناعة، فالمؤمن إذا وسع الله عليه وصار لديه عمال من الكفرة يخدمونه ويعملون له في مصنع أو مزرعة، فهي منة من الله تعالى تستوجب الشكر.

ثم إنَّ هذه الآية الكريمة ذكرت تسخير الشياطين، بينما جاء في آيات أخرى أنّ الله تعالى سخر له الجنّ كذلك، فإذا قلنا أنّ الجنّ لفظ عام يشمل المؤمن والكافر والشياطين لفظ يدل على أوصاف ذميمة من قول وفعل وعمل وسلوك يتصف بها بعض الجنّ وبعض الإنس على السواء، فيستفاد من ذلك أن الله سبحانه سخر له الجنّ مؤمنهم وكافرهم، وفي هذا دليل شرعي على جواز استخدام الكافر في العمل والخدمة للمؤمن.

فهذا التسخير من الله وحده لسليمان صلّى الله عليه وسلّم، وليس كما ادعى اليهود أنّ هذا التسخير ما تمّ له إلا بعلم السحر.

تفنيد الادعاءات:

لقد ذهب اليهود في افتراءاتهم على الله تعالى وعلى نبيه سليمان صلّى الله عليه وسلّم بقولهم أنه تعلّم السحر وسخر الشياطين لهذا

العمل وجعلهم طوع أمره يصنعون له ما أراد ويفعلون ما يشاء، وبهذا حصل له ما كان من الملك. وهذا الكلام مردود من وجوه كثيرة، منها:

كيف ينبغي السحر لنبي اصطفاه الله من خيرة خلقه

النبوة أعلى مراتب العلم وأشرفه

ما تفعله النبوة لا يستطيعه السحر

النبوة عين الحقيقة

السحر تزيف حقيقة

من يهبه الله من خزائنه لا يحتاج لأحد من الخلق

الشياطين طوع أمر سليمان

لو أنّ السحر أفاد الشياطين ما لبثوا في العذاب المهين

ولكن الذين تعلموه ومارسوه، كانوا قد أخذوه عن الشياطين التي سخرها الله لسليمان عليه السلام بعد موت سليمان، ومن الملكين بيابل هارون وماروت. وكثير من هؤلاء يعتقدون أن سليمان إنما نال ملكه وسلطانه بالسحر لا بالنبوة، وقد أجهدوا أنفسهم في تعلم السحر، فلم يظفروا منه بخير، ولن يظفروا، فالله تعالى يقول في كتابه العزيز: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} 724.

وقد أنزل الله براءة سليمان من السحر وأسند تلاواته إلى الشياطين الذين سخرهم الله له بسلطان النبوة. وندد بالسحر والسحرة في قوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ

بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ
فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ
بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ
عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ {725}.

ذلك أنّ الذين اتبعوا ما كانت تتلو الشياطين على ملك سليمان
قالوا إن سليمان صلى الله عليه وسلم ما ملك ذلك الملك إلا بعد أن
تعلم السحر وعمل به فاستطاع أن يملك هذا الملك العظيم، فإن كان
كذلك فأين ملك السحرة اليوم؟!

ونحن سنتناول ذلك إن شاء الله بشيء من التفصيل دفاعاً عن
نبي الله سليمان صلى الله عليه وسلم ودفاعاً عن الحق الذي أمر به الله
تعالى.

فنحن نرى في هذه الآية أن الشياطين الذين قهرهم سليمان صلى
الله عليه وسلم أرادوا الانتقام لأنفسهم بعد موته صلى الله عليه وسلم:
{ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ
مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي
الْعَذَابِ الْمُهِينِ {726}.

فبدؤوا يتلون السحر على الناس ليوهموهم بما يأتي:

الملك لم يتم لسليمان بالمشيئة عن طريق النبوة

كان ملك سليمان عن طريق السحر

725 - البقرة 102.

726 - سبأ 14.

السحر يؤدّي إلى ملك كملك سليمان

وبهذا تكون الشياطين قد نالت أقصى ما تستطيع فعله، فهي لا تستطيع أن تغير حقيقة، وإنما تزيّفها، وبالتالي فإن رسالة سليمان صلّى الله عليه وسلّم هي حقيقة إلهية في التوحيد والإصلاح والإعمار، ومن هنا انصب جهد الشياطين على العمل الذي يقدرّون عليه:

إضلال النَّاس عن طريق السحر ضمن دائرة الممكن

تغيير رسالة سليمان خارج دائرة الممكن

أقصر الطرق وأسهلها من أجل أمر يفضي إلى النتيجة التي تبتغيها الشياطين هي تلك التلاوة من أنواع السحر على ملك سليمان بثلاثة أمور:

الأول: أن يقولوا هكذا كان سليمان يقول ويفعل من السحر

الثاني: هذا ما سمعناه من سليمان ورأينا أفعاله من أجل الحصول على الملك

الثالث: هذا ما كان يأمرنا به سليمان ولذلك ملك ما ملك

وعلى الرغم ممّا قيل فيمن اتبع ما تتلوه الشياطين على ذلك الملك، فإن السحر الذي يعلمونه للآخرين إنما يقنع ضعاف الإيمان:

ممن أقرّ بنبوّة سليمان

من أدخل السحر بالنبوّة

من لم يعترف بنبوته صلّى الله عليه وسلّم.

وأما الذين اتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان على كثرة
ما قيل فيه من أنهم:

آ . الذين كانوا في زمن سليمان

ب . الذين اتبعوا ذلك بعد موت سليمان

ج . اليهود الذين دعاهم محمد صلى الله عليه وسلم فأبوا

ونحن نقول:

إنّ الذين اتبعوا ما تتلو الشياطين كانوا في زمن سليمان صلى الله
عليه وسلم فهذا ممتنع لما يأتي:

1 . أنّ الشياطين الذين ينسب إليهم تعليم الناس السحر كانوا
مسخرين لسليمان.

2 . لا يستطيعون أن يفعلوا إلا ما يأمرهم به صلى الله عليه وسلم.

3 . الأنبياء لا يأمرون إلا بما أمر الله تعالى.

4 . إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان.

5 . السحر من الإثم والبهتان.

ولما تقدم فإننا نرى أن الذين كانوا في زمن سليمان صلى الله عليه
وسلم لم يتبعوا ما كانت تتلوه الشياطين على ملكه، ليس لتمسكهم
بالعقيدة، وإنما لانتفائه بعدم وجوده بعد، وليس إيماننا منهم فقد آذوا
موسى من قبل فبرأه الله. قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا
كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا } 727.

إذا بقي منهم فريقان:

الأول: الذين جاؤوا بعد موت سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثاني: الذين دعاهم مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهنا يدخل الفريقان في عموم اللفظ لأنهم جميعا جاؤوا بعد سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي نراه أنهم جميعا اتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، غير أن الفارق بينهما أن الأمر فيه سابق ولاحق، فالذين جاؤوا بعد زمن سليمان هم الذين تلقفوا ما تلتته الشياطين على ذلك الملك بعد موت سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن ذلك في حياته وضمن مملكته لم يكن في دائرة الممكن لما ذكرنا من أسباب.

فبعد موته تلت الشياطين أنواعا من السحر على ذلك الملك ليوهمو الذين اتبعوهم أن هذه الطلاسم هي أساس ملك سليمان وتلاوتها من أجل المحافظة على الملك وزيادته، فاتبعوهم وعملوا بما أمرتهم به الشياطين وورثوا ذلك لأسلافهم الذين ساروا على منهجهم، ولما جاءهم مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عارضوه بالتوراة فلما اتفقت التوراة والقرآن نبدوا التوراة وأخذوا بالكتب التي دون بها ما كانت تتلو الشياطين على ملك سليمان حتى لا توافق القرآن، وهذا مصداق لقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ} 728.

ثم أخبر عنهم بأنهم اتبعوا كتب السحر، وبقيت هذه الخصيصة الذميمة سنة فيهم إلى يومنا هذا من أجل الاستحواذ على الملك بجميع

الوسائل وشتى السبل ومن ضمنها ما تلتته الشياطين على ملك سليمان من السحر والطلاسم، حتى أنهم الآن يبحثون فيما يعتقدون على هيكل سليمان والكتب التي نسبوها إليه، فهم يجدون البحث تحت المسجد الأقصى في الحفر والتنقيب لسببين:

الأول: إلحاق أكبر ضرر بثالث الحرمين طمعا في انهيار المسجد الأقصى.

الثاني: البحث عن الهيكل المزعوم الذي يقولون أنه مدفون تحت المسجد الأقصى.

لأن من جملة الأشياء التي يلهثون وراءها غير الهيكل المزعوم، ما ورثه سليمان عن داود عليهما الصلاة والسلام، وذلك الإرث فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون وهي علامة الملك التي ظهرت في عهد داود ليقتنعوا بتمليك طالوت عليهم، وعلى الرغم من أنهم هم الذين أرادوا ملكا يتملك عليهم فعندما جاءهم تمردوا على نبيهم حتى أظهر لهم الآية، فإنّ عثروا على تلك الآية اليوم فسيملكون بها العالم كما يزعمون، غير أن تلك الآية هي آية نبوة لا يمكن أن تكون للشياطين وشذاذ الآفاق، ولقد جاءهم بها نبي من أنبياء الله حتى يصدقوه فقد قال تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ} 729.

المقرنين بالأصفاد:

قال تعالى: {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} 730.

كذلك سخر الله تعالى الشياطين لسليمان صلى الله عليه وسلم لتبني له ما يشاء، وتغوص له في البحر والأرض في طلب ما يشاء، وأعطاه السلطة عليهم لعقاب المخالفين والمفسدين ممن سخرهم له، وتكبيلمهم بالأصفاد يكون بطرق منها:

مقرونة أيديهم إلى أرجلهم.

أو مقرونين اثنين اثنين.

أو أكثر في القيود عند الاقتضاء.

وهذا معناه إذا قرنت الشيء بالشيء أو وصلته به وشددته إليه.

فقد سخر الله تعالى له شياطين آخرين لا بينون ولا يغوصون، وكأنه عليه الصلاة والسلام قسم الشياطين إلى أقسام:

قسم استعملهم في أعمال البناء

قسم مختص بالغوص

قسم مقرنون بالأصفاد (الآخرون)

فلما كان البناء والغوص طلقاء فهذا يعني أنهم مطيعون لأنهم ليسوا من (الآخرين) المقرنين بالأصفاد، فمعنى ذلك أن المقرنين بالأصفاد هم من العصاة المردة، لذلك قرن بعضهم مع بعض في السلاسل وأوثقهم بالحديد لكفهم عن الشر والفساد.

هذا المعنى الظاهر من تسخير الشياطين لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع القدرة عليهم وتقرين بعضهم بالأصفاد.

فإن قيل إن هذه الآية تدل على أن الشياطين لها قوّة عظيمة قدروا بها على ما يأتي:

بناء الأبنية العظيمة التي لا يقدر عليها البشر

الغوص في الأرض والبحار

استخراج كلّ ما يحتاجونه للبناء والزينة

وعليه: كيف يمكن تقييدهم بالأغلال والأصفاد؟

والذي يراوده هذا السؤال هو محقّ لاختلاف ماهيات الخلق بين الجنّ والإنس، إذ أنّه كيف يجري القيد والتصفيد على مخلوقات لطيفة؟

وهذا السؤال يبنى عليه تساؤلات.

أليست هذه المخلوقات متجسدة؟!

أيمكن أن نقيد الرّيح ونصفدّها؟!

أيمكن أن يقيّد أو يصفد المخلوق من النّار؟!

إذا كان هذا ممكناً فبأيّ نوع من القيود كان سليمان يقرن الشياطين ويصفدّها؟

من أجل الوقوف على إجابات مقنعة لهذه التساؤلات نقول: إن هذه الشياطين أمّا أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة.

فإن كانت أجسادهم كثيفة وجب أن يراهم من كانت حواسّه سليمة صحيحة.

فلو جاز ألا يراهم صاحب الحواس السليمة مع كثافة أجسادهم
لجاز أن يشاركنا في الوجود مخلوقات عظيمة وأصوات هائلة لا نراها ولا
نسمعها.

ذلك أنّ وجودهم بهذه الطريقة في الكثافة، يجب أن يشغل حيزاً،
ونحن لم نقف على حيزٍ مشغول بشيء لا نعلمه.

وإن كانت أجسادهم لطيفة، واللطافة تنافي الكثافة فمثل هذا
يتمتع أن يكون موصوفاً بالقوة الشديدة بحيث يقدر بها على ما لا يقدر
عليه الإنسان، لأن الجسم اللطيف بطبيعة تكوينه وصفاته خلقه يكون
ضعيف القوام تتمزق أجزاؤه بأدنى المدافعة فلا يطيق تحمل الأشياء
الثقيلة ومزاولة الأعمال الشاقة، ولذا لا يمكن تقييده بالأصفاة
والأغلال.

ولكن نحن نذهب إلى ما قال الله تعالى: {وَحَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ
مِّنْ نَّارٍ} 731.

ومن هذا الدليل نعلم أنّ:

أجسادهم لطيفة وشفافة.

لطافتها لا تنافي صلابتها

تتحمل الأشياء الثقيلة

تزاوّل الأعمال الشاقة

تمتّع من التفرّق والتجزئة

فلكونها لطيفة لا ترى!

ولكونها صلبة يمكن تقييدها

فلو سلمنا أن اللطافة تنافي الكثافة، إلا أننا لا نسلم أن اللطيف الذي لا كثافة له يمتنع أن يتحمل الأشياء الثقيلة ويقدر على الأعمال الشاقة، وخير دليل على ذلك ما سخره الله تعالى من الريح لسليمان قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} 732.

فهذا الجسم اللطيف الشفاف كان يحمل سليمان وجنوده وما يحتاجونه من مؤونة وعدة وعتاد ومتاع غدوها شهر ورواحها شهر.

وكذلك فإن هذا الجسم اللطيف من الريح يكون مهلكا وتفعل ما لا تقدر عليه الأجسام الكثيفة قال تعالى: {وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} 733.

وكذلك فإن الرياح التي هي جسم لطيف شفاف يقدم من المنافع ما لا يقدر عليه الإنسان، أو من الكوارث ما يقف الإنسان أمامها حائرا.

وكذلك الملائكة فإنها أجسام لطيفة شفافة لم يكلف الله خلقا أعظم مما كلف به الملائكة لأنه ليس أحد من خلقه يقدر على القيام بما اختاره الله لهم سواهم:

فمنهم الذين يحملون عرش الرحمن قال تعالى: {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} 734.

732 - الأنبياء 81.

733 - الحاقة 6.

734 - الحاقة 17.

ومنهم خزنة جهنم قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ
وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا
يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } 735.

ونرى أن هذا الكلام يحمل على وجهين:

الأول حقيقي:

فهذا الوجه لا يمتنع من أن الأجسام اللطيفة الشفافة تقوى على
ما لا تقوى عليه الأجسام الصلبة المتلاصقة لما بيناه من الأدلة. وبذلك
يمكن تصفيدهم.

الثاني مجازي:

وقد يراد من ذلك أيضا أن تمثيل كفهم عن الشرور بالتقرين في
الأصفاد، لا يمكن تقييده بالأصفاد والأغلال حقيقة مسلم بها، ويمكن
أن يحمل الكلام على حقيقته لأنهم لما كانوا مسخرين مذللين لطاعته
عليه الصلاة السلام بتسخير الله إياهم له، كان قادرا على كفهم عن
الإضرار بالخلق، فشبه كفهم عن ذلك بالتقرين في الأصفاد فأطلق على
الكف المذكور لفظ التقرين استعارة أصلية ثم اشتق من التقرين (المعنى
المجازي) وأصبح اللفظ مقرنين بقدرته عليهم بما سُخِّروا له فأصبحوا
ممنوعين عن الشر والأذى.

ولذا فإن احتمالات طبيعة الشياطين:

1. أجسام كثيفة: يمكن تصفيدها تصفيدا حقيقيا.

2. أجسام لطيفة: تصفيدها يكون مجازيا بقدره سليمان عليهم.

3 . أجسام لا كثيفة ولا لطيفة، وإنما هم خلق ممّا يعلمه الله
وسخرهم لسليمان.

وهؤلاء الشياطين هم من الجنّ لما قدمنا من دليل، فهم أجسام
مؤلفة وأشخاص ممثلة ضمن دائرة الممكن، ولا دليل يقضي بأنّ تلك
الأجسام لطيفة أو كثيفة لأنهم خلقوا من النار التي تشاهد، لذلك يجوز
أن تكون لطيفة وأن تكون كثيفة، وإنما نحن لا نراهم لا بسبب لطافتهم
ولا بسبب كثافتهم، فالله تعالى لم يخلق فينا حواس تدرك هذه
المخلوقات، ولكن رؤيتهم تكون بسلطان كالذي آتاه الله تعالى
لسليمان صلّى الله عليه وسلّم، غير أنّنا نرى ما يماثلهم في الخلق من
اللطافة والشفافية مثل:

الفجر الأوّل

الفجر الصادق

الصبح

الغسق

الشفق

فالذي نراه من هذه الأشياء، أمّا هي نفسها حقيقة، أو
انعكاسات وجودها، والجنّ ليس كذلك، فنحن لا نراهم وإنما نرى
انعكاسات وجودهم.

فالذي لا نراه لا يعني أنه غير موجود، وهنا تكون القضية نسبية
من حيث ما كان غير معروف أو مدرك بالنسبة لك، قد يكون مدرك
من قبل غير وهو دليل وجوده وإن انتفى بالنسبة لك.

وأما بالنسبة لرؤيتهم من عدمها، فإن ذلك يرجع إلى أمور منها:

اختلاف في الانعكاسات

اختلاف مادة الخلق

اختلاف في الخواص

اختلاف في الحواس

اختلاف في الإدراكات

ومما لا شك فيه أنهم يتمتعون بحواس وإدراكات يختلف عما يمتلكه
الإنس من مثيلاتها فقد قال تعالى: { يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ
كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ
يَرَآكُم هُوَ وَفِيئِلُهُ مِمَّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ } 736.

وهذا لا يعنى أنهم أقدر من الإنس لأن الشيطان نفسه عليه اللعنة
يعترف بذلك حيث قال تعالى: { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ
وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ
إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ } 737.

وعلى كثرة ما أوتوا من قدرات فإن الله تعالى لم يسلبهم بقوتهم
على الإنسان فبقي الصراع صراعا عقليا واستجابة لوسوسة، وبقدر ما
يستجيب الإنسان لهوى النفس يسيطر سلطان الشيطان عليه بذلك
القدر.

⁷³⁶ الأعراف 27.

⁷³⁷ - إبراهيم 22.

ومع كلّ ما ذكرنا فيجوز أن يكون هناك نوع من الجنّ لا نعلمه
نحن بني الإنسان، الله يعلمه

الإنس:

لقد نافش جميع من تناول هذه الآيات ممّا سخر لسليمان صلّى
الله عليه وسلّم كلّاً من:

الجنّ

الطير

الريّح

الهدهد

قول النملة

الملك

غير أنّ أحدا لم يتناول الإنس في هذا الموضوع حسب علمنا على
الرغم من صريح الآية في قوله تعالى: {وَحَشِيرَ لِسْلِيمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} 738.

ولقد حشر لسليمان من الإنس مثلما حشر له من الأنواع
الأخرى، فلماذا أغفل الإنس من قبل جميع من وقف على هذه الآية
تفسيرا وتحليلا.

الأمر الذي يطرح كثيرا من التساؤلات منها:

هل الإنسان نفسه هو الذي يبحث فاستبعد ذاته أم نسيها؟

لماذا يجعل البعض الإنسان خارج جنود سليمان؟

هل تناول الإنس في غير هذا الموضوع يغني عن خصوصية الحشر؟

لقد حشر لسليمان من الإنس.

ألم يسخر الله تعالى ما في الأرض جميعا للإنسان؟

الطير والجنّ من ضمن الأشياء الموجودة في الأرض

تسخير الجنّ والطير معجزة لسليمان

الجنّ والطير مسخر للإنسان

من الإنس ما هو مسخر لسليمان

وعليه:

ما سُخِّر له من الجنّ والطير معجزة صغرى لسليمان

ما سُخِّر له من الإنس معجزة كبرى

خصائص الإنسان:

فالإنسان بما يمتلك من خصائص وطبيعة ومواهب وقدرات،
وسُخِّر من الإنس لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما شاء اللهُ أَنْ يُسَخَّر،
وعليه فإننا نقول: يتكشف الجانب المعجز للإنسان في طبيعة هذا
الكائن المتفرد عن الجنّ والطير والريّح بأشياء كثيرة منها ما تفتقر إليها
بقية المخلوقات، ومنها ما تفتقدها بالمطلق ومنها أن الإنسان:

أقوى هذه الكائنات.

ينتابه ضعف يدخل منه الشيطان.

لا يلتزم دائما ولا يستقيم دائما.

يدرك خطأه، ويعرف زلته.

يندم ويطلب العون والمغفرة من ربه.

ينسى ويخطئ.

يثوب ويتوب.

لا يلح كالشيطان في المعصية.

لا يكون طلبه من ربه هو العون على المعصية.

فهذه الخصائص التي تصل الإنسان بالله تعالى تفتح له الأبواب

إلى:

الاعتراف

الندم

الاستغفار

الشعور بالضعف

ومن هنا تبرز أهمية هذه الخصائص لمزاولة الخلافة التي اختصه الله

بها.

والإنسان بخصائصه المتفردة إنما كانت له دائما تجربة واعية يختزنها

في كيانه فردا وجماعة، يجعلها نقطة ارتكاز ينطلق منها إلى التجربة

التالية، وكان له أثر وذكريات على المستوى الفردي والجماعي مما

يشكل آمالا وتطلعات ترسم له خط السير في رحلته على هذه الأرض

التي تكون مجمل تاريخه.

لأن الإنسان هو سيد هذا الكون بما امتلك من خصائص أعطته
قدرات يصنع بها التغيير الأمر الذي امتاز به عن بقية الحيوان وعليه:

من الذي يصنع التغيير في حياة الإنسان؟

وما الذي يصنعه؟

وكيف صار للإنسان تاريخ؟

فإن قالوا: إنها المادة وقوانين المادة

وما بنا من حاجة أن نقول: فما بال المادة وقوانينها لم تصنع هذا
التغيير في حياة الهدهد أو النملة مع المساواة في التسخير والحشر
لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

والذي نقوله: إنَّ خصائص الإنسان التي تفرد بها هي التي تصنع
تاريخه، وتصنع التغييرات في هذا التاريخ، فلولا رغبة الإنسان في المعرفة
ورغبته في استخدام ثمار هذه المعرفة، المادي منها وغير المادي، ولولا
قدرته على تخيل صورة معينة لأشياء لم توجد بعد في عالم الواقع، وبذل
الجهد في محاولة إيجادها في الواقع، لولا هذه الخصائص التي تفرد بها
الإنسان، لما كان للإنسان تاريخ، ولبقي مثل الهدهد والنملة كما تركهما
سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذا؛ فإنَّ الحيوان ليس له تاريخ، ولن يكون له.

فالهدهد الذي ذهب بكتاب سليمان إلى ملكة سبأ هو الهدهد
الذي يعيش اليوم، والنملة التي نراها اليوم من جنس تلك النملة التي
تبسم سليمان ضاحكا من قولها، لم يتغير شيئا من واقع حياتهم ولا
يملكون أن يغيروا لأنهم:

ليس لهم ماض يرجعون إلى تجاربه

ليس لهم مستقبل يسعون إلى تحقيقه

ليس لهم ذكريات

ليس لهم آمال

ليس لهم تطلعات

فلذلك لا يستطيع الهدهد أن يتجاوز شخصه إلى الهداهد الأخرى، ولا النملة إلى جماعتها أو يتجاوزون لحظتهم الآتية إلى الغد القريب أو البعيد.

فإن كان حصل ذلك، فبسبب الحشر لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بينما كان الإنسان كذلك قبل الحشر وإثناؤه وسيبقى بعده، ولذا؛ فالحشر من الإنس لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معجز يفوق بإعجازه ما حشر له من بقية الأنواع.

ولذا فإنّ الإنسان بحدّ ذاته معجزة لما يختلف فيه عن بقية المخلوقات التي سخرت لسليمان، إذ أنه لا يتوقف عن الإبداع . لا بمعنى الخلق . وإنما إبداع مشبعات حاجاته التي أفرزتها تجربته وتجربة أسلافه، بمعنى أنها نابعة من صميم نفسه ومن تجاربه الواعية، ومن ذكرياته وأماله وتطلعاته وأمنيته وعليه:

فهو لا ينشئها عبثا.

ولا هي تأتي بطريق المصادفة.

ولا يمكن أن تنشأ في حياته من تلقاء نفسها.

وإنّما يكون إبداعها عن تجرّبة ماضية تلبي أمّالا مستقبلية تشبع حاجات معينة.

فلم يكن عبثا أيضا أن يحشر لسلمان صلّى الله عليه وسلّم من الإنس بالقدر الذي أراده الله تعالى، لأن الإنسان من أعظم آيات الله في الإعجاز الخلقى إن لم يكن أعظمها على الإطلاق، فهو أكثر شيء جدلا وذلك لأنه هو نفسه آية معجزة حيث قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} 739.

ولسنا بصدد آيات الآفاق، أمّا الآيات في الأنفس فإنها من العجائب! فالخلية الواحدة الملقحة التي يتكون منها الجنين تشتمل على كلّ خصائص الجنس البشرى وهي لا تكاد ترى!

فينمو منها إنسان كامل فيه كلّ خصائص الإنسان!

ثم إنها تنقسم وتتخصص في أثناء نمو الجنين، فيصبح:

جزء منها رأسا.

جزء آخر يدا.

جزء ثالث قدما وهكذا.

ثم إنّها تحتوي كذلك على جزئيات تحمل الخصائص الوراثية التي يرثها الجنين من الأب والأم أو الأجداد. فقد يحمل الجنين صفة من الأب كلون الشعر مثلا، وصفة من الأم كلون العينين، وصفة من أحد الجدود كالتطول أو القصر أو شكل الأنف أو شكل الأذن. فإن كانت

تلك الصفات بيولوجية تخضع لقانون المادة . ونحن لا نسلم به . فلأي
قانون تخضع وراثة الصفات النفسية مثل:

الكرم

البخل

الشجاعة

الجبين

الذكاء

الغباء

وهذه الصفات العقلية أيضا:

ما هي؟

كيف توجد؟

أين توجد؟

كيف يفكر العقل؟

كيف يتذكر الإنسان ما يتذكره؟

إنّ الأبحاث العلمية حتى هذه اللحظة قد عجزت أن تقول لنا:

كيف يفكر العقل؟

وكيف يتذكر؟!

أين تكون الأفكار؟

أين تحتزن المعلومات؟

كيف يستدعيها الإنسان حين يريد استدعاءها؟

كيف تخطر على باله أحيانا دون استدعاء؟!

ومهما قيل عن الملكات الخمس وموضعها من العقل ومكان العقل الذي هو الدماغ وما ذهب إليه النفسانيون من علماء وأطباء وسلسلوها على النحو الآتي من أتمها:

الذاكرة

الحافظة

التذكر

الإرادة

الاستنتاج

ومنهم من أنكر العقل أصلا وأرجع تلك الأفكار والمعلومات إلى ما تدركه الحواس فتحصل هذه الإدراكات عن طريق الحواس لا طريق العقل، لأن العقل ليس له وجود واقعي كما قالوا!

ونحن نقول لماذا قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} 740.

ولم يذكر الله تعالى العقل بالمعنى الذي ذهب إليه العلماء
والفلاسفة والأطباء، وإن كان ثمة ذِكرٌ فيكون العقل للقلب الذي يعقل
بمعنى الإدراك والاستيعاب والتمييز، وليس للدماغ فيه نصيب.

ومن المعجز في هذا الصدد قوله تعالى: { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ
عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } 741 فمن المتعارف عليه أن الإنسان يتفكر
ويتدبر بعقله، ولكن الله أصدق القائلين، فمتى يتسنى للإنسان أن يعلم
طريقة التدبر في القلب، ليضرب عن التدبر بالعقل.

إن الإنسان يعجز بالمتناقضات لطبيعة الخلق الذي فطره الله عليه،
فهو في أي لحظة لديه القدرة أن يواجهك بموقف يختلف عن سابقه
لاحقه، فهل هذا ناتج عن كون الإنسان:

يرضى

يغضب

يقبل

يرفض

يأمر

يؤمر

يؤمن

يكفر

يضحك

يجزن

ولك ما تشاء أن تعدد من هذه المواقف الناتجة عن خصائص الإنسان لا عن التعقيدات، وإنما يمتاز بها عن بقية ما سُخر لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتي يمكن أن نسميها نفسية وروحية وبيولوجية أيضاً، المهم أنه ينشأ عن هذه الخصائص خواص معينة منها:

قدرته على التفكير الخاص.

قدرته على التفكير العام.

التوحيد النسبي لعملياته العقلية على عكس السلوك عند الحيوان

إذا وجه المعجزة فيما حشر لسليمان من الإنس أعظم بكثير من معجزة بقية المحشورين، حيث نلمس ذلك من أسلوب الخطاب الإلهي ومعناه في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ } 742. فهذا الخطاب فيه دلالات كثيرة على طبيعة الإنسان وخصائصه وقدراته ومع ذلك يتوجب الشفقة عليه فمنها:

الرأفة بحاله

قوّته واشتداده

غروره بقوّته

ضعفه أمام الخالق

صفح الخالق عن زلاته

صفة الكريم أرجعت لله فضل ما اغتر به الإنسان ممّا يمتلك

ولذا فالله تعالى يمتن عليه بقوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ
فَعَدَلَكَ} 743.

بعد ندائه بلطف وموادعة تحمل من الشفقة والرّحمة أضعاف ما
تحمل من التهديد (يا أيها الإنسان) فهذا النداء الإلهي تنبيه على الغرور
وتذكير بمدى عظمة التسوية والاعتدال التي لا يرقى إليها إلا الإنسان بما
يدرك عن طريق ما تمّ التعارف على تسميته (العقل).

فهذا الإدراك العقلي الخاص بالإنسان الذي:

لا ندري كنهه.

لا نعلم ماهيته

لا نعلم مكان وجوده

لا نعلم طريقة عمله

ومع ذلك فهو أدواتنا لإدراك ما ندرك.

فهل هو لا يدرك ذاته؟!؟

ولا يدرك كيف يدرك؟!؟

أم أنّه يدرك ولا ندرك كيف يدرك؟

هذه المدركات نفرض أنّها كلّها تصل إلى المخ عن طريق الجهاز
العصبي الدقيق. ولكن أين يختزنها! فلو كان هذا المخ شريطاً مسجلاً
لاحتاج الإنسان في خلال الستين عاماً التي هي متوسط عمره إلى
آلاف مؤلفة من الأمتار ليسجل عليها هذا الحشد من الصور

والكلمات والمعاني والمشاعر والتأثرات، لكي يذكرها بعد ذلك، كما
يذكرها فعلا بعد عشرات السنين!

ثم كيف يؤلف بين الكلمات المفردة والمعاني المفردة، والحوادث
المفردة، والصور المفردة، ليجعل منها معلومات كثيرة وثقافة مجتمعة، ثم
ليرتقي:

من المعلومات إلى العلم.

ومن المدركات إلى الإدراك.

ومن التجارب إلى المعارف.

فهذه واحدة من خصائص الإنسان المميزة. وهي مع هذا ليست
أكبر خصائصه، وليست أعلى مميزاته.

طبيعة الإنسان:

إنّ الإنسان بطبعه مفطور حقيقة على المتناقضات لما جُبل عليه
من الخلق، فالخير سجية من سجايه وخاصية من تكوينه، فمن طبيعة
الإنسان كما قال تعالى: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} 744 وحبّ الخير
بنوعيه:

يجبه لنفسه

يجبه للآخرين

مع أنّه تعالى أعلم الإنسان حقيقة ما يخفيه عن الآخرين بقوله
تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} 745، وهذا الوصف فيه من
السلبيات التي يحملها معنى اللفظ الشيء الكثير منها:

الجاحد

العاصي

الكفور

البخيل

اللوام

إلا أنّ الله سبحانه وتعالى ذكره بأنّه أودع فيه خاصية حب الخير
واحدة إذا أحسن استخدامها فيما أمر به خالقها ستتلاشى كلّ تلك
الصفات السالبة أمام الخير.

وكذلك حبه للمال كما وصف الله تعالى بقوله: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ
حُبًّا جَمًّا} 746.

وهذا من طبيعة الإنسان، لكن الإيمان له مؤثراته، فقد يكون
الإنسان بإيمانه لا يهتم بالمال وإن جاءه شكر الله عليه، وأدى ما يجب،
وإن ذهب لا يهتم به، لكن طبيعة الإنسان من حيث هو كما وصفه
الله عزّ وجلّ.

745 - العاديات 6.

746 - الفجر 20.

ثم إنه ظلوم جهول قال تعالى: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ
كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } 747.

وهذا من طبيعته أيضا من حيث هو ظالم متجرب على المعاصي،
مقصر في حقوق ربه كفار لنعم الله لا يشكرها ولا يعترف بها قال
تعالى: { فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا
أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ } 748 فهذا الجحود من طبيعة النفس البشرية إلا من
هداه الله فشكر نعمه وعرف حق ربه وقام بواجبها.

ومن طبائعه العجيبة التي لا يستقر على واحدة منها أنه متغير
الأحوال في المواقف، وعندما نسوق هذه الصفات التي يحملها الإنسان
نريد أن نبين أن الجنّ والطير لا يحمل هذه الطباع ولا يتصف بهذا
القدر من المتغيرات، ولذا تكون قيادتهم وانصياعهم أسهل وأسلم من
الإنس إذا استثنينا جانب النبوة والتسخير في الحشر، ولكنهم في هذا
سواء، إلا أننا في ذكر الطباع البشرية والصفات الإنسانية نقف على
الوجه الإعجازي في الحشر من الإنس لسليمان صلى الله عليه وسلم،
فالإنسان مثلا:

يؤوس

كفور

فرح

فخور

747 - الأحزاب 72.

748 - الزمر 49.

يتغير بتغير المواقف التي تواجهه في الواقع فيتأثر نفسيا ويستنزف سلبا وإيجابا اتجاه الرحمة والنعمة والضراء حيث قال تعالى: {وَلَيْنَ أَذْقَنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ وَلَيْنَ أَذْقَنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} 749.

فقد أخبر تعالى أن من طبيعة الإنسان الجهل والظلم، بأن الله إذا أذقه منه رحمة كالصحة والرزق والمال والبنين ونحو ذلك ثم نزعها منه، فإنه يستسلم لليأس وينقاد للقنوط فلا يرجو ثواب الله بالصبر على الشدائد، ولا يخطر بباله أن الله سيردّ عليه مثلها أو خيرا منها.

وأنت إذا أذقه رحمة من بعد ضراء مسته أنه يفرح ويطنر ويطن أن ذلك سيدوم له ويقول: (ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور) فهو يفرح بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، وفخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس والتكبر على الخلق وازدرائهم، وأي عيب أشد من هذا!

فهذه طبيعة الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم ييأسوا، وعند السراء فلم ييطروا وعملوا الصالحات التي هي من واجبات الشكر وبسببها تدوم النعم.

فإذا ما وقفنا على ما زُين للإنس من حب الشهوات، وجدنا المعجزة في التعامل معهم من أجل الإقناع للإقلاع عما زين لهم من حب هذه الشهوات وهي:

النساء

البنون

الذهب

الفضة

الخيل المسومة

الأنعام

الحرث

والتي وردت في قوله تعالى: {رُزِينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ
النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ
وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
الْمَبَآءِ} 750.

وعليه نتساءل:

أليس كلّ ما ذكر هو خير؟!

ألا يطمح كلّ إنسان أن ينال ذلك الخير!

هذا الخير ألا يحمل مضارا؟!

أين يكمن وجه الضرر في هذه النعم؟

كيف تتحول هذه النعم إلى نقم؟

كيف تقنع من تريده أن يقلع عن هذا؟

أليست هذه النعم من الشهوات؟

750 - آل عمران 14.

أين تكمن النعم الحقيقية؟

كيف تُوجه الإنسان إليها؟

كيف تقنعه باستبدال النعم الزائلة وهي واقعية، بنعم باقية موعودة؟

كلّ ما تقدم ذكره يمكن أن نجيب عليه بالعنوان الآتي:

المواهب:

وهذا ما استطاع فعله سليمان صلّى الله عليه وسلّم بمن حُشر له من الإنس لأنّ الحاشر هو الله تعالى، والإنسان خُلق في أحسن تقويم قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} 751.

فمنهم من استغل هذا التقويم فيما لا يريد الله ولا يرضاه لأنّه نسي أو تناسى قوله تعالى: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} 752.

ثمّ إنّ هذا الإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم ليخضع كلّ ما خلقه الله وما سخره له خدمة للإصلاح والإعمار التي تقوم بها الخلافة، نجد في طبيعته مواطن قصور لا تسعفه أحيانا كثيرة في تحقيق مبتغاه لأنّ من طبيعته أيضا:

الضعف:

قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} 753.

العجل:

751 - التين 4.

752 - التين 5.

753 - النساء 28.

قال تعالى: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ} 754.

الهلوع:

قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} 755.

الجزع:

قال تعالى: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا} 756.

المنع:

قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} 757.

ثمَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي مِنْ طَبَعِهِ كُلِّ هَذِهِ الْمُنْتَاقِضَاتِ، وَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَحْمِلَ صِرَاعًا دَاخِلِيًّا نَاتِجًا عَنْهَا يَتِمُّثَلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَبَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

فهي من الفطرة التي لا تتبدل ولا تتغير، وهذا ما تفتقر إليه بقية الجنود الذين حشروا لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

والصراع بين الحق والباطل وبين الخير والشر أول ما يبدأ داخليا في النفس الإنسانية ثم يظهر للعيان في الخارج يتمثل بأشكال شتى، ولذا، لا يكون صراع وقت دون وقت، ولا مكان دون مكان، وإنما هو شأن بشريٍّ عام ما دام الإنسان موجودا، وما دام الإنسان يحمل دوافع

754 - الأنبياء 37.

755 - المعارج 19.

756 - المعارج 112.

757 - المعارج 21.

الإيمان والرحمة والخير والتقوى والصلاح، ويحمل نوازع الكفر والقسوة والشر والفجور والانحراف.

وتلك طبيعة الإنسان لم يخلقه الله حين خلقه وفي نفسه كل ما تقدم من متقابلات ومتناقضات تؤدي إلى التجاذب أو إلى التنافر إلا ليكون الصراع بين فئتين من الجنود داخل نفسه وهما:

جنود الخير

جنود الشر

وكل قوى تدفع بجنودها من أجل تحقيق النصر بما تمتلك من مغريات تسعى بما امتلكته هذه النفس إلى تحقيق هدف تصل منه إلى غايتها المنشودة بما فطرت عليه من طبيعة الخلق حيث قال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} 758.

وهنا يظهر الوجه المعجز في حشر الجنود من الإنس أنه أعلى درجة من الجنّ والطير.

قدرات الإنسان:

لقد خلق الله تعالى الإنسان وأحسن خلقه وجعله في أحسن تقويم، فهذا التقويم الذي أحسنه الله تعالى أعطى الإنسان من القدرات ما لم ينلها خلق آخر مما خلق فقد قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} 759.

758 - الشمس 7 - 10.

759 التين 4.

وأولى موجبات التقويم التي تمنح القدرات للإنسان أن الله تعالى أسند فعل الخلق إلى نفسه ولم يبينه للمجهول، وذلك أن الإنسان نفسه موطن معجزة في بيان خلقه وتكوينه وعظيم قدرته وحسن فعله وبديع صنعه فأسند ذلك إلى نفسه.

فقد صيّرهُ على أحسن ما يكون من حيث:

الصورة

الشكل

الإدراك

وفي كلّ ما هو أحسن من الأمور:

المادية

المعنوية

الروحية

حيث أنّ كلّ واحدة من هذه المفردات تمثل في الإنسان اتجاهها في معناها المخصوص وهو مراد من ذلك التقويم الأحسن الذي يحفظ قدرات الإنسان على العطاء والحرص المتوازن، بحيث لا يتعدّى حدوده إلى إعاقه عطائه وقدراته، ويتمثل حسن هذا التقويم في مطابقته:

للإنسان كفرد:

داخل النوع بأنه هذا هو التقويم الأحسن من حيث صورته.

للإنسان كنوع:

بأنّه أحسن تقويم من حيث التكوين الكلّي مقارنة ببقية الأنواع.

أمّا القدرات فإنّها تتمثل في ثلاثة جوانب مادية ومعنوية وروحية

الجانب المادي:

نحن لا نقصد بالجانب المادي تطبيق قوانين المادة الصماء على الإنسان الحر المختار المكلف المسؤول، الذي ذهبت إليه نظريات فلسفية واجتماعية كثيرة، لأن ذلك بعيد من الصواب وفيه كثير من المجازفة بحقّ من هو في أحسن تقويم.

نعم إنّ الإنسان يخضع لكثير من الرغبات والأهواء والمؤثرات والانفعالات والحالات النفسية المعقدة التي يمر بها، إلا أنّه هو أداة الكشف والتحليل والاستنباط ومحلّه.

لذلك نقول: أنّ الله تعالى جعل السنن الأساسية التي تحكم الحياة والأحياء يقينية، لأنّها ليس من وضع الإنسان، وما طلب الله تعالى من الإنسان أن يسير في الأرض، إلا من أجل الاستنباط والوقوف على الفهم والإدراك، لأحقّية تلك السنن وصواب يقينها.

أمّا الجانب المادي في الإنسان نفسه كونه جسماً نامياً فإنه يحتاج إلى ما ينمي ذلك الجسم، فيحكم هذا الجانب روافد أخرى من المعنويات المكونة للشعور التي تتمثل فيها الشهوات والرغائب، وتقيدها الروحانيات بالأوامر والنواهي في الحلال والحرام.

الجانب المعنوي:

إنّ الجانب المعنوي الذي يمتلكه الإنسان لا ينفصل عن الجوانب الأخرى المادية والمعنوية، فهي ليس منفصلة عنه بمعنى الحواجز القائمة فيما بينها، ولا متصلة به اتصالاً مباشراً، وإنما هي عبارة عن رافد مؤشرة في مجموع الأحاسيس والمشاعر التي تخالطها الإدراكات من

خلال الأفكار الأمر الذي يؤدي إلى التأثير في الجانب المعنوي سلبا وإيجابا، فإن كنا نقبل القول بأن المادة تعبر عن الجانب الدنيوي في الإنسان كما يقولون، فإننا لا نقبل بأي شكل أن تكون الروح هي المعبر الجانب المعنوي العقلي فيما ذهب إليه البعض فقالوا: "الإنسان مادة وروح"760.

ذلك أنّ الجانب المادي وسيلة وليس غاية في ذاته لذا، كان التركيز في تحصيل السعادة على الجانب المعنوي كأثر مترتب على السلوك القويم لمن كان في أحسن تقويم.

أما الجانب المعنوي كما نراه نحن فهو:

آ . مجموعة الفضائل التي تكرم بها الله تعالى على الإنسان الذي يتمثلها كل حسب طاقته لا يكلف الله نفسا إلا وسعها القيم فقد

ب . مجموعة القيم التي يحملها الإنسان

وهذا بحد ذاته معجزة في الإنسان الذي يتمثل صفات الله تعالى ويعمل بها قدر استطاعته، ويدعو بالقيم إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

فالجانب المعنوي يحمل الفضائل والأخلاق والقيم، ذلك مجموع هذه الفضائل وإن كانت قيما معنوية فإنها من جانب آخر سلوك واقع في عالم الحقيقة، ولا يستطيع أن يحمل هذه القيم، أي من جنود سليمان بالقدر الذي يستطيعه الإنسان، لأنه يضمحل عند قسم من تلك الجنود (الجنّ) ويتلاشى عند قسم آخر (الطير).

760 - أزومات الشباب، ج 1، ص 22.

فهذه القدرات المعنوية التي يتمتع بها الإنسان تصب في خدمة القدرات المادية من أجل إظهارها للعيان، لأن الحضارة الإنسانية التي تتجسد بشكلها المادي في المدنية من الرقي وال عمران والبناء هي نتاج جانبين:

الأول:

فكري عقلي

الثاني:

معنوي قيّم

وهذا ما لا يستطيعه أحد ممّن حشر لسليمان، أمّا من قال لقد صنع الجنّ مثل ذلك.

فنقول: إنّ الجنّ لم يصنع ما صنع إلا بأمر الإنسان وتحت إشرافه عندما حشر لسليمان صلّى الله عليه وسلّم جنوده من الجنّ والإنس والطير، فلما مات سليمان توقفت الجنّ عن العمل والابداع واستمر ذلك في الإنس.

إذا فالجانب المعنوي الذي يكوّن مجموع القيم التي يحملها الإنسان والتي هي أساس استمرار الحياة في الإعمار والإصلاح يفتقر إليها بقية جنود سليمان.

لذلك، بقي العطاء الإنساني لأنّه يحمل هذه المعطيات المتمثلة في الجانب المعنوي الذي يمثل القيم والأهداف والعادات والتقاليد، إضافة إلى الحصيلة الفكرية من أدب وعلم وفن وفلسفة ودين وغير ذلك، أمّا الجانب المادي فهو يمثل الأدوات ونتائج الجانب المعنوي.

الجانب الرّوحي:

إنّ الجانب الرّوحي يرتبط بالإيمان والطمأنينة والعقيدة السليمة وصولاً إلى اليقينيّات التي يسلم بها الإنسان، فإن كان مثل هذه الروحانيّات يمتلكها الجنّ الذين هم من جنود سليمان فإن الطير يفتردها، وهذا من وجوه المفاضلة في نوعية الجنود التي حشرت لسليمان.

فالجانب الرّوحي للذات الإنسانية السليمة لا يمكنها أن تعيش منفصلة عنه لأنّه يشكلّ مجموعة الامتثال للأوامر والاجتناب للنواهي، وقد أثبت الطب النفسي الحديث أن الإنسان الذي يعيش حياة مؤمنة تقية طاهرة ينعم بنفس مطمئنة هادئة، لا تصيبه حالات الاكتئاب النفسي أو بعض الأمراض المتفشية كمرض الصرع أو انفصام الشخصية، فالاعتقاد بالله وإشباع الرّوح بالإيمان القوي يملآن قلب المؤمن ويجنبانه كلّ العاهات النفسية التي تحبط كيانه النفسي مصداقاً لقوله تعالى: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} 761.

بينما النفس الأتّارة بالسوء تكون مريضة يعترها الخوف الدائم والارتباك الذي يجعل حامله لا يستقر على قرار، على عكس الجانب الرّوحي المرتبط بالإيمان الذي يقوي القدرة على التحكم بالغرائر، ويمنع الدوافع التي تكسر حدود السلوك للإنسان، فهي موانع لدوافع المنزقات الأخلاقية والسلوكية، وهذا ما ينفرد به الإنسان عن بقية المحشورين لسليمان صلّى الله عليه وسلّم.

فالجانب الرّوحي هو الذي يسمو بالنفس الإنسانية ويرتقي بها إلى مراتب عليا من السلوك الإنساني القائم على احترام آدمية الإنسان

وإنسانيته وحرّيته وكافة حقوقه فمع مراعاة الجانب الروحي للنفس الإنسانية، تحقيق أمانة الاستخلاف في عمارة الأرض وإصلاح من فيها، وتحقق بذلك الغاية العليا من خلق الله للإنسان.

القدرات العلمية:

إنّ العلم هو فيض إلهي، وهو هبة من الخالق جل شأنه لعباده، وهو نور يستضاء به لمعرفة أسرار الكون، وفهم نواميس الحياة، وإدراك حكمة الله في الخلق، الذي {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} {762}.

فالله سبحانه وتعالى اختص الإنسان بالعلم بقدر، وأمّا الحكمة فقد أذن بها لمن يشاء، وعن طريق العلم يتفتح العقل:

شيئاً فشيئاً

أنّا بعد آن

مع تناسب تام بين ما يمتلك الإنسان من خصائص وطبائع وقدرات ومواهب وبين معطيات عصره وحاجات زمنه جرعة بعد جرعة:

ليزداد الذين آمنوا إيماناً

ليتهدي الضال

ويسترشد الحائر

ويقف الموقن على البرهان

من خلال آيات الله البينات التي أدركها العقل من سنن الله في خلقه التي وعها ومعجزاته التي أيقن بها عن طريق عقله وليس ذلك إلا للإنسان.

الابداع من القدرات:

ستبقى الظاهرة الابداعية تمثل لغزا في المواهب الإنسانية. فهي القدرة الأكثر تعقيدا بين قدرات الإنسان العقلية والمعرفية، وإذا ما ارتقت الموهبة لدى بعض أفراد النوع الإنساني فإنها تصبح جزءا من معجزة يتميز بها هذا البعض عن الآخرين في قدرات البشر.

فالقدرة على التكيف أو القدرة على حل المشكلات هي سمة عامة في النوع الإنساني. إلا أنّ الابداع في تجاوزه للمفهوم فإنه يشق دروبا جديدة ولا يحل المشكلات حلا تقليديا أو معروفا بل يخلق عوامل مبتكرة مخالفة للمألوف. وغالبا ما تكون الاستجابة في حالة الابداع مفتوحة على شتى الاحتمالات، وليس ذلك فحسب فالعقل الخلاق لا يقتصر دوره على خلق المبتكر والجديد وإنما يمتلك القدرة على تقبل الجديد المبتكر.

فليس الابداع صفة المبدع للجديد فحسب، وإنما صفة للمتلقي القادر بحدسه ونفاذ بصيرته أن يكتشف الجديد ويتقبله، فأين بقية المشورين لسليمان صلى الله عليه وسلم مما يستطيعه الإنس.

العقل والإيمان:

إننا كلما تأملنا في الحقيقة الإنسانية سيتبين لنا أن الإنسان صار إنسانا وخليفة بالعقل الموهوب له من الله تعالى. والعقل هو الجوهر النفيس الذي تميز به الإنسان عن باقي المخلوقات. لأن جميع الكائنات الحية إذا نظرنا إليها من حيث تشابها مع الإنسان فإنها لا تختلف في

تركيبها وحواسها وقدراتها وتوالدها وعنايتها بأبنائها عن الإنسان. بل إنّ بعض الكائنات الحية لها قدرات في حواسها تفوق قدرات الإنسان. إلا أنّها جميعاً لا تملك أي قدرات عقلية أو معرفية لتطوير حياتها، كما أنّها لا تسير إلى هدف أو غاية في حياتها. فهي تأكل وتتوالد وتتعلّم بشكلٍ غريزي ولا تضيف أي جديد يذكر إلى معارفها ممّا يدل على أنّها لا تختلف في حقيقتها عن النبات إلا في قدرتها على الحركة للبحث بما يلي غرائزها، ضمن برنامج محدد يتوارثه اللاحقون منها عن السابقون.

ولا مجال للمقارنة بين عقل الإنسان وما تملكه أرقى المخلوقات من العقل. ولهذا كان الإنسان هو الأرفع بين المخلوقات، وكان على الصورة الإلهية من حيث الجوهر، لا من حيث الصورة المادية. فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن"763.

وقال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}764.

وإنّ جمال صورة الإنسان واعتدال قواه ليس له مثيل. ولكن جمال الصور الإنسانية لا يرفعها أو يحفظها إلا العقل. ولهذا كان العقل هو الأمر الناهي في مملكة الإنسان، وبه حمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان على الرغم ممّا يحمل من ظلم وجهل قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}765.

763 - الإبانة الكبرى، ج 2، ص 206.

764 - التين 4.

765 - الأحزاب 72.

الحس والعقل:

إنّ علاقة الحس والعقل التي ينفرد بها الإنسان عن بقية ما حشر لسليمان، تمنحه النظر المتمعن والفكر المتبصر في توظيف قدراته الخاصة فيما يعود عليه بالنفع، وعن طريق العقل يكون الإنسان قد ربّط بين الجوانب الثلاثة:

المادي

المعنوي

الروحي

ومن خلال ذلك يستطيع الإنسان أن يسخر أي جانب خدمة للجانب الآخر بحيث لم يعد هناك فاصل بينها من حيث سيطرة القدرات العقلية على الاتجاهات الثلاثة، وبذلك يستطيع أيضا يقيم علاقات بين مجالات أخرى مثل الحسي العقلي والعقلي الانفعالي يتولد عنه نشاط لا تمتلكه بقية جنود سليمان، ومن منطلق العلاقة الوطيدة بين المجالين:

المجال الحسي والعقلي للمعرفة

المجال العقلي والمجال الانفعالي الوجداني

بحيث يستطيع الإنسان توجيه نشاطه وفق الوجهة التي يريد، ويفعل قدراته الحسية والحركية والذهنية ممّا يمكنه من إقامة علاقات صحية وسليمة مع الآخرين بغية تطوير جوانبه النفسية المختلفة بصورة متكاملة ومنسجمة مع متطلبات الواقع الإيجابية وهذا ما لا يستطيعه جنود سليمان الآخرين.

وبنظرة فاحصة في عملية المقارنة بين الإنسان والطيور مثلاً، فإن امتلاك من أعضاء الحس ما يملكه الإنسان، فإنه لا يتمتع بنفس القدر الذي يتمتع به من الحساسية والقدرة على إدراك الواقع، فالمخلوقات الأخرى ليست قادرة على الإحساس بالأشياء وانتظامها وانسجامها مثلما يحس الإنسان.

مواهب الإنسان:

إنّ أعظم المواهب التي وهبها الله للإنسان هي العقل، ولذا فإن العقل:

هبة

موهوب

واهب

فهو هبة من الله تعالى ميز الإنسان عن بقية المخلوقات، والعقل بطبيعته موهوب بسبب قدرته على التفكير والاستنتاج والتحليل وربط النتائج والاختيار، وهو واهب للإنسان ما يحلله وينتجه ويختاره.

ولا شك أنّ الإنسان يتساءل:

كيف لي أن أعرف الموهبة التي يمكن أن أجيد فيها ضالتي؟

وهذا لا يتحقق في كثير من الأحيان إلا بأحد أمرين:

الأول:

الانتباه والتجربة.

الثاني:

التوجيه والإرشاد.

ففي بعض الأحيان تجذب مواهب الإنسان بارزة وأنها متجهة إلى شيء معين، وهذا لا إشكال فيه، لكن في أحيان أخرى تكون هذه المواهب خفية تحتاج إلى صقل وإلى تجربة واستشارة، ومع التجربة والانتباه والاستشارة يصل الإنسان إلى تفجير الطاقات الكامنة داخل كيانه الكلّي الذي يكمن فيه:

الجانب المادي

الجانب المعنوي

الجانب الروحي

العقل

النفس

الإحساس

الشعور

الانفعال

وعندما نعود إلى قوله تعالى: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} 766 وغير ذلك مما ورد في قصة سليمان في السور والآيات لا نجد بين سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين من حشر له من الإنس:

حورا

766 - النمل 17.

أو حديثاً

أو جدلاً

والسبب في ذلك أن من يكون في أحسن تقويم وحشر منه لنبي من أنبياء الله تعالى، فما ينبغي له إلا الطاعة لأنه يعرف ما له وما عليه، لذلك فقد وجّه المحشورون من الإنس مواهبهم فيما أراد الله تعالى من هذا الحشر على يد سليمان صلّى الله عليه وسلّم.

وبكلمة وجيزة أن لدى الإنسان القدرة على السيطرة والتوجيه لجميع الملكات التي أودعها به الله سبحانه وتعالى، فالإنس متساوون في الموهبة الكلية التي يمثلها العقل، ومتفاوتون في المواهب الجزئية التي ينتجها العقل،

ويجب علينا أن ندرك أن الله عزّ وجلّ حين منح هذه المواهب وهذه الملكات للإنسان، أراد منه أن يستثمرها في طاعته وفيما يرضيه، وعندما انتفى أثر المحشورين من الإنس من بين جنود سليمان، فإن ذلك أعطى دليل الطاعة التامة لأنّ العقل المميز للإنس اختار ما يوافق التكليف، وسخر مواهبه خدمة لهذا التكليف الذي ينمّ عن استخلاف الإنسان في الأرض من أجل الإصلاح والإعمار. فلم يهدر تلك المواهب ولم يضيعها سدى، وإنما استخدمها فيما يرضى الله تعالى وما أمر به سليمان لذلك لم نلاحظ وجود المحشورين من الإنس إلا ما ذكر من اسمهم في سياق القول.

بينما تظهر صورة الإنس الذين لم يحشروا لسليمان في الحديث والحوار والجدل والمناقشة كأوضح ما تكون عندما جاءت رسل الملكة بهدية لسليمان صلّى الله عليه وسلّم.

ومع ذلك نعود فنقول إن الإنس درجات متفاوتة في المواهب:

منهم من جمع من مواهب كثيرة في أنواع الخير

ومنهم دون ذلك

ومنهم عكس ذلك

ومنهم الموهوب في مجال معين، ومنهم الموهوب في مجال آخر:

فمنهم العالم

ومنهم المبدع

ومنهم العابد،

ومنهم المجاهد

ومنهم العامل

ومنهم الصانع

فهذه المواهب كانت من ضمن من حشر لسليمان من جنود
الإنس وهي درجات متفاوتة في الموهبة وبالتالي متفاوتة في الفضل قال
تعالى: {وَرَفَعَ بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا
آتَاكُمْ} 767.

فهذا الفضل سواء كان فضلا موهوبا، أو فضلا مكتسبا، هو
ابتلاء واختبار {لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} 768. من هو الذي ينجح في
هذا الابتلاء، فيقوم بما أوجب الله عليه بتوجيه المواهب الفطرية توجيهها
صحيحا للقضية التي كلف بإنجازها، والاستفادة مما اكتسبه في طاعة
الله تعالى ومرضاته، ومن هو الذي يخفق في هذا الامتحان، فيوجه

767 - الأنعام 165.

768 - الأنعام 165.

مواهبه توجيهها غير صحيح، أو يوجه ما اكتسبه في معصية الله أو في الإثم، أو في أشياء لا فائدة منها، ومن هنا يتضح لنا لماذا افتقدنا من حشر من الإنس كما لم نفتقد الجنّ والطير.

الطير:

أمّا النوع الآخر من جنود سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان تسخير طائفة من الطير لتكون تحت إمرته وطوع أمره، كجنوده من الجنّ والإنس سواء بسواء. والطائفة التي سخرها له من الطير وهبها إدراكا خاصا على ما نعتقد أعلى من إدراك نظائرها في أمة الطير.

يبدو ذلك في قصة الهدهد الذي أدرك من أحوال ملكة سبأ وقومها ما يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم. وكان ذلك على طريق الخارقة والإعجاز.

إنّ حقيقة سنة الله في الخلق جرت على أن يكون للطير إدراك خاص يتفاوت فيما بينه ولكنه لا يصل إلى مستوى إدراك الإنسان، وإن خَلَقَ الطير على هذا النحو حلقة في سلسلة التناسق الكوني العام. وهي خاضعة لمفردة الناموس العام الذي يحكم هذا الكون بموجوداته التي يقتضي وجودها النحو الذي وجدت عليه.

وهذا حقيقة ماثلة أمامنا في أن الهدهد الذي يولد اليوم، هو نسخة من الهدهد الذي وجد منذ آلاف السنين أو منذ أن وجدت الهداهد. وإن هناك عوامل وراثية خاصة تجعل منه نسخة تكاد تكون طبق الأصل من الهدهد الأوّل. ومهما بلغ التحوير فيه أو التهجين فهو لا يخرج عن نوعه ليرتقي إلى نوع آخر، وهذا سياق عام من سنة الله في خلقه ومن الناموس العام المنسق لهذا الكون.

لقد أثبتت التجارب العلمية التي أجريت على بعض الأنواع من الحيوان كالنعجة(دولي) أن سنة الله تعالى ثابتة في خلقه وقد دلت ذلك على ما يأتي:

أنّ كلّ نوع من أنواع الخلق مستقل بذاته

لا يمكن تطوير نوع إلى نوع آخر

لا يمكن تطوير نوع داخل نوعه ليرتقي عليه

ولكن هذه الحقائق الثابتة لا تمنع أن تقع المعجزة الخارقة للحقائِق الثابتة عندما يريدُها خالق الحقائق والسنن والنواميس، وقد تكون المعجزة الخارقة ذاتها جزءاً من الناموس العام الذي:

لا نعلمه

لا نعرف أطرافه

لا ندرك الغاية منه. فهذا الجزء الذي ربّما يكون من الناموس العام في الخلق المقدر يظهر في مواعده الذي لا يعلمه إلا الله ليخرق المألوف المعهود عند البشر، ويكمل ناموس الله في الخلق والتناسق العام. وهكذا وجد هدهد سليمان صلّى الله عليه وسلّم وربّما كانت كلّ الطائفة من الطير التي سخرت له وكانت من جنوده في ذلك الزمان على نحو ذلك الهدهد على ما نعتقد.

إنّ الله سخر لسليمان طائفة من الطير، فلم يكن جميع الطير مسخرين له، وإنما كانت طائفة من كلّ أمة على السواء حين تفقد الطير علم بغيابه قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ

أَمْ كَانَ مِنَ الْعَائِينَ {769}. غير أنّ ذلك الهدهد لا نقول أنه موهوب
ويدرك إدراكا خاصا ليس من نوع إدراك الهداهد ولا الطير بصفة عامة،
وإنّما أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لنا إضافة إلى ما سخر لسليمان
صلّى الله عليه وسلّم أن ما من شيء في هذا الوجود خلق عبثا، بل له
مهمة مكلف بإنجازها علمنا ذلك أم جهلناه قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ
فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ
مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} {770}. فإن كان كلام الهدهد في إنباء
سليمان بما علم هو معجزة لسليمان صلّى الله عليه وسلّم، فإنه من
جانب آخر إظهار للقدرة الإلهية بما يُجري من عظام الأمور على يد
أضعف المخلوقات، وأمّا من جانب الهبة فإنّها للطائفة الخاصة التي
سخرت لسليمان، لا لجميع الهداهد وجميع الطيور، فإن نوع الإدراك
الذي ظهر من ذلك الهدهد الخاص في مستوى يعادل مستوى العقلاء
الأذكياء الأتقياء من النَّاس بما أجاب به قال تعالى: {فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ
فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ مَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ} {771}

إلا أنّ تفقد الطير من قبل سليمان صلّى الله عليه وسلّم وافتقاده
الهدهد يعطي دلالة ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات
شخصيته في:

اليقظة

الدقة

الحزم

769 - النمل 18.

770 - الأنعام 38.

771 - النمل 22.

فهو لم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير الذي يجمع آخره على أوله كي لا يتفرق أو ينتكث.

ومّا يجب الوقوف عنده أن الحديث مع الطير من قبل سليمان لم يكن جديد عهد به، بل إن ذلك له أصل سابق على الهدهد ليشمل نوع الطير بأسره قال تعالى: {وَسَحَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ} 772. فقد حشر لداوود الطير ترجع مع ترانيمه تسبيحا لله تعالى، وكانت هذه هبة فوق الملك والسلطان مع النبوة والاصطفاء، وورث سليمان داوود وقال: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} 773.

الطير معجزة:

لقد خص الله تعالى الطير بحشره لسليمان دون الوحوش والسباع لأن ذلك أدعى للوقوف على المعجزة واستخلاص العبرة قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ} 774.

فهي بحد ذاتها معجزة خارقة تقع في كلّ لحظة لا نلتفت لها لوقوعها المتكرر، علما أنها لا تكلم أحدا ولا تأتي بأنباء، وإنما تتمثل بها قدرة العظيم في إحكام خلقه ولك أن تتأمل هذا الطير وهو يصف جناحيه ويفردهما ثم يقبضهما ويضمهما وهو في الحالين:

حالة الصف الغالبة

772 - الأنبياء 79.

773 - النمل 16.

774 - الملك 19.

حالة القبض العارضة

يظل في الهواء يسبح فيه بيسر وسهولة؛ ويأتي بحركات يخيل إلى الناظر أحيانا أنّها حركات استعراضية لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع، والرّحمن يمسكهن بنواميس الوجود المتناسقة ذلك التناسق العجيب الملحوظ فيه كلّ صغيرة وكبيرة.

ففي هذه الصورة نقف على عظمة الخالق في الخلق وعلى تدبير شؤون هذا الخلق، فيد الرّحمن تمسك بكلّ طائر وبكلّ جناح، والطائر صاف جناحيه أوحين قابضهما هو معلق في الفضاء الفسيح.

ودلالة إمساك الطير في الجو، هي أبعد من الدلالة على الطير نفسه، ولكن الله تعالى:

يضربّ المثل ويريد به المثل نفسه

يضربّ المثل ويريد به غيره

يضربّ المثل ويريد به العبرة

فإمساك الطير في السماء كإمساك الدواب على الأرض السابحة بما عليها في الفضاء، وإمساك سائر الأجرام التي لا يمسكها في مكانها إلا الله الذي خلق هذا الكون بما فيه.

وقد ظهرت معجزة الطير بعد سليمان صلّى الله عليه وسلّم، ففي العام الذي ولد فيه محمّد صلّى الله عليه وسلّم كانت كلمة الفصل للطير في عام الفيل قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ {775}.

فقد أراد الله أن يهلك أبرهة وجيشه الذي جاء لهدم الكعبة، فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين، فتركتهم كالعصف المتناثر في الهواء.

ومع اختلاف الروايات في تحديد نوع هذه الجماعات من الطير وأشكالها وأحجامها، لاسيما الذين يميلون إلى تضيق نطاق المعجزة من أن ذلك الطير كان ذبابا أو بعوضاً نقل إليهم الوباء فماتوا من ذلك الوباء، يكون هذا أدعى للإعجاز لصغير حجم الطير الذي يهلك جيشا بأسره.

العلاقة بين الإنس والجن:

هي علاقات مؤمنين مع المؤمنين وكافرين مع الكافرين، فالمؤمنون منهم المسلمون الصديقون والصالحون والأنبياء والرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، والكافرين منهم الأبالسة والشياطين، ومع ذلك أقول في المفهوم مفارقات وتتداخل بين الأبالسة والشياطين، فالأبالسة هم من النوع الجنّي، والشياطين هم من النوعين الإنس والجن، ولذلك كان إبليس من الجنّ ولم يكن من البشر، قال تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} {776}. ولهذا فإبليس حاله كحال العفريت الذي هو الآخر نوع من جنس الجنّ مع الفارق في خصوصية كل منهما، فإبليس عليه اللعنة شيطاني لا يقوم إلا بالمفاسد، أمّا العفريت بذكائه وسرعة تصرفه وحنكته بإمكانه القيام بالمهام الموجبات مصداقا

775 - الفيل 1 - 5.

776 - الكهف 50.

لقوله تعالى: {قَالَ عَفَرْتُ مِنْ الْجِنَّ أَنَا أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ} 777، يفهم من هذه الآية الكريمة أن العفريت كان متهيئا ومتأهبا ومستعدا لأن يقوم بتنفيذ ما طلبه سليمان صلى الله عليه وسلم، وما طلبه سليمان هو خير لأجل تحقيق خيرا، وصفتي القوي الأمين تعبر عن إيجابية هذا العفريت.

وعليه أقول: الشيطان هو الفاعل للسلوك الشيطاني الذي هو صفة قولية أو فعلية لمن يقولها أو يسلكها، ولذا فلا يقتصر الشيطان على جنس من نوع بل هو صفة لفعل يلتصق بمن يفعل فعله من أي نوع من الأنواع الخلقية سواء كان إنس أم جان أم طير أم غير ذلك مما خلق تعالى من الأنواع.

إذا الشيطان هو الخارج عن الهداية التي هي أحسن، وهو المنحرف عن الفضائل التي أمر الله تعالى بها، وهو المفسد للقيم التي بها تتهدب الأخلاق، والمفترق بين المرء وزوجه وبين الآباء والأبناء وذوي القربى، والمغرر بمن يتبعه حتى يخرج من الملة.

فهذه الأفعال هي الشيطنة نفسها، ولذا فكل من يقوم بهذه الأفعال ويتصف بهذه الصفات فهو شيطان.

ولذا؛ فالشيطان هو من لا يتبع قواعد المنطق الذي به يُحقّ الحقّ ويُتبع وبه يُزهق الباطل ويُدمغ، وهو من لا يروق له بال والعباد على طمأنينةٍ ووحدةٍ وألفةٍ ومودةٍ.

الشيطان جبّالُهُ تدور في أذهان الحاقدين والمنافقين والكفرة والمشركين والسحرة والحاسدين والمفسدين، هؤلاء هم البيئة العقلية المناسبة لمشاركته في الأموال والأولاد مصداقا لقوله تعالى: {وَاسْتَفْزِرْ

مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِحَيْلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي
الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا {778}. هذه
المشاركات هي مشاركات المفسد والمظالم وإيقاد نار الفتنة بين بعض
الأنواع وداخلها، أي بين الذين من طبائعهم الاستجابة له في دائرة
الممكن المتوقع وغير المتوقع.

ولهذا فالتمرد صفة من الصفات الشيطانية ولكن ليس كلّ تمرّد،
فهناك من التمرد ما يحقّ الحقّ ويزهق الباطل، وهناك ما يخالف ذلك
بطبعه (الشيطاني)، والعمل الشيطاني هناك من انطبع به اسم وصفة
كما هو حال إبليس عليه اللعنة الذي أخرج أبونا من الجنة، {يَا بَنِي
آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا
لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَائِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ إِنَّا
جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ {779}.

ومع أنّ الشيطان موسّوس في أذهان وعقول الذين لم تطمأن
قلوبهم بالإيمان إلا أنّ ليس كلّ ما يدور في الأذهان والعقول هو من
عمل الشيطان، فالفرق كبير بين هذا الموسوس به وبين ذاك الذي به
يتم التدبُّر والتفكُّر والتأمُّل من أجل التبيُّن والهداية للتي هي أحسن،
وحتى ارتكاب الأخطاء ليس دائما من عمل الشيطان هناك أخطاء هي
من طبيعة العقل البشري الذي لم يكن مؤسسا على الكمال، حيث لا
كمال إلا لله تعالى.

الشياطين إيجابية تتلاعب بضعاف العقول وضعاف الإيمان ثم
تسخر منهم قائلة كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاتِ

778 - الإسراء 64.

779 - الأعراف 27.

الْفِعْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي
أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ {780، وقال تعالى: { كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ
إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
الْعَالَمِينَ } 781. يُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ أَنَّ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ
شَيَاطِينِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالصَّالِحِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ نَوْعَيْهِمَا
هِيَ عِلَاقَةُ عِدَاءٍ وَدَسَائِسٍ وَمَكَائِدٍ فَلَا رَاحَ إِلَّا مِنْ اتِّخَذَهُمْ عِدْوًا، قَالَ
تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا
يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا } 782.

من البشر من يسترق السمع أي ينصت على من يتحدث مع
غيره في أمرٍ لا يخصه وعندما يسترق السمع يكون على حالة من
التظاهر بما لا يبطنه كأن يجعل وجهه أو بدنه أو نظره وكأنه خارج إطار
مشاهدة المتحدثين وملاحظتهم في الأمر الذي يخصهم أو لهم به
علاقة، وهو في حقيقة الأمر لم يفعل ذلك إلا لتحسيسهم بالطمأنينة
من جانبه وهو بين الحين والآخر يسترق السمع والبصر ليسرق منهم ما
ليس له علاقة به ثم يسوقه للفتنة وإيقاد نارها بين العباد، هؤلاء هم
الشياطين من البشر أعوذ بالله منهم. ولهذا فاستراق السمع غير شرعي،
فأمره أعظم من أمر السرقة التي يُعاقب عليها شرعا.

السارق هو المعتدي والآخذ بغير حق، أي أنه الآخذ بظلم جهارا
أو تسترا، أما مسترق السمع الذي يُظهر عند استراقه للسمع بأنه غير
منتبه وهو في حقيقة الأمر منتبه بعناية لما يقال من حديث أو كلام
حتى ولو كان مهموسا به همسا لأجل أن يشتري به مواقف أو

780 – الأنفال 48.

781 – الحشر 16.

782 – فاطر 5، 6.

يستخدمه ضغوط على الغير ومساومة لهم بما لا يليق بمكارم الأخلاق والفضائل النبيلة، فهؤلاء الشياطين من الناس هم من يُفسدوا في الأرض ويُسفكوا فيها الدماء بغير حق ويفرقوا بين المرء وزوجه مصداقا لقوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبَسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} 783. بطبيعة الحال الشياطين تتلوا، والتلاوة هي أقوال ملحنّة في غير محلها، وتتلوا الشياطين تعني أنها تقول لحن القول ولا تقول حقيقته وصدقه، ولذلك ما قاله سليمان صلّى الله عليه وسلّم هو الحقّ وما قالته الشياطين على ملكه وما تقوله من بعد ذلك دائما هو الباطل.

تلاوة الشياطين كانت على ملك سليمان صلّى الله عليه وسلّم بعد موته، أمّا في حياته فكانت تخافه وتطيعه وهي مسخرة لخدمته فيما يشاء كيفما يشاء متى ما شاء، ولهذا كانت العلاقة مع سليمان علاقة خوف وطاعة ولما تبين لها أنه قد مات تمتّت أنها لم تلبث في العذاب المهين، ولهذا الشياطين من بعده تأمرت بكفرها الذي به تتلوا على ملك سليمان ما لم يقله سليمان أبدا، قال تعالى: {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ

تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ
الْمُهِينِ {784}.

ومع أنّ علاقة ترتبط بين شياطين الجنّ والإنس إلا أنّ الشياطين
من النوعين لا سلطان لهم على المؤمنين المسلمين وجوهم لله ربّ
العالمين، قال تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ
اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} {785}. وقد يتساءل البعض: من هم الغاؤون؟

الغاؤون، هم الذين يحبون ما تزينه الشياطين لهم فيتبعونها وهم
الخاسرون. ولذلك فالشياطين لم يكونوا أولياء للذين يؤمنون ولا
يشركون، ولهذا أرسلهم الله عزّ وجلّ على الكافرين لتؤزّهم أزاّ مصداقا
لقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَأْزُفُهُمْ أَزًّا فَلَا
تَعْبَجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا} {786}، ولذلك فهم أولياء للذين لا
يؤمنون، {إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} {787}. وأولياء
لهم تدل على إثبات علاقة بينهم أي علاقة بين الذين يكفرون من الجنّ
والإنس، ولا علاقة لهم مع الذين يؤمنون وهم مسلمون، ولذلك فمن
قوي إيمانه استعاذ بالله وأسمائه الحسنی من شياطين الجنّ والأنس
أجمعين، وفتح آفاق العلاقات مع الصالحين منهم.

وعليه: فمن يتبع خطوات الشيطان يوصف بصفاته، أي يوصف
بالسلوك الشيطاني الذي يقدم عليه ويرتكبه، ولذا فالله عزّ وجلّ نهى
عن اتباع خطوات الشيطان التي تظل ولا تهدي للتي هي أحسن، قال
تعالى: {وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ

784 - سبأ 14.

785 - الحجر 42.

786 - مريم 83، 84.

787 - الأعراف 27.

بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ {788، وقال
تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ
خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ }789.

ومن خطوات الشيطان التي نهى الله عز وجل عنها هي:

1 . الأمر بالسوء، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ
حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ }790.

2 . الأمر بالفحشاء، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا
خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ }791.

3 . الأمر بالمنكر: { الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ
يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ
فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابٌ
مُقِيمٌ }792.

4 . القول الزور، أي قول ما لم يقله: قال تعالى: { شَيْاطِينِ الْإِنْسِ
وَالجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا }793.

788 – البقرة 168، 169.

789 – النور 21.

790 – البقرة 168، 169.

791 – النور 21.

792 – التوبة 67، 68.

793 – الأنعام 112.

5 . الإغواء: { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ } 794.

6 . الخمر: قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } 795.

7 . الميسر: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا } 796.

8 . الأنصاب: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } 797.

9 . الأزلام: قال تعالى: { وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ } 798.

10 . إيقاع العداوة: { إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ } 799.

11 . إيقاع البغضاء: { يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ } 800.

794 - ص 82، 83.

795 - المائة 90، 91.

796 - البقرة 219.

797 - المائة 90.

798 - المائة 90.

799 - المائة 91.

800 - المائة 91.

12 . الصد عن ذكر الله الذي به تطمأن القلوب: { وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ } 801.

13 . الصد عن الصلاة التي هي على المؤمنين كتابا موقوتا: { وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } 802.

14 . أن لا يكون رجيمًا: { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } 803.

15 . الزلل . أي يعمل على تضييد العباد عن الصواب ليقعهم في الزلات . قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَمَى الْجُمُعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } 804، وقال تعالى: { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ } 805.

16 . الوعد بالفقر: { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ } 806.

17 . تخويف أوليائه: { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } 807.

18 . الإساءة للقرين: { وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا } 808.

801 – المائة 91.

802 – المائة 91.

803 – النحل 98.

804 – آل عمران 155.

805 – البقرة 36.

806 – البقرة 268.

807 – آل عمران 157.

19. التضليل: {وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَالًّا بَعِيدًا} 809.
- 20 . الكيد: {فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} 810.
- 21 . التمنية: {يَعِدُّهُمْ وَمُجِيبِهِمْ} 811.
- 22 . التغير: {وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا} 812.
- 23 . الوسوسة. {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ} 813، قال تعالى: (من الناس من الجنة والناس) أي أن الموسوس هو الشيطان من النوعين (الجن والإنس).
- 24 . العصيان: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} 814.
- 25 . إيقاد نار الفتنة: قال تعالى: {لِيَجْعَلَ مَا يُُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ} 815.
- 26 . الخذلان: {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} 816.

808 - النساء 38.

809 - النساء 60.

810 - النساء 76.

811 - النساء 120.

812 - النساء 120، 121.

813 - الناس 1 . 6.

814 - مريم 44.

815 - الحج 53.

27. تزيين الباطل: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ} 817

28. الصد عن السبيل الحق: {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ

فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} 818.

29. العداوة: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا

تَعْرَتِكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْزَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ

فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} 819.

30. الدعوة إلى السعير: {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ

السَّعِيرِ} 820

يفهم من هذه الآية الكريمة أن الشيطان عدو للإنسان المؤمن

فيجب أن يتخذه عدوا، أي أن اتخاذه الشيطان عدوا هو أمر يستوجب

الطاعة والاتباع فمن لا يتبعه كفر ومن تبعه اهتدى، ولذا فاتخاذ

الشيطان عدوا يُعدُّ عبادةً من قبل المؤمنين.

31. استراق السمع: {وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنْ

اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} 821

وعليه فالعلاقة بين الإنس والجن هي علاقة نوع مع نوع وهي

علاقة مؤسسة على التعاون في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع وفقا

للآتي:

816 – الفرقان 29.

817 – النمل 43.

818 – النمل 24.

819 – فاطر 5، 6.

820 – فاطر 6.

821 – الحجر، 17، 18.

الممكن المتوقع: التعاون على البر والتقوى، وهو التعاون بين الصديقين منهم والصالحين والمؤمنين الكرام الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين، ولذا؛ فالصالحون من الجنّ قالوا مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ} 822، وكذلك من الأنس صالحين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر مصداقا لقوله تعالى: {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} 823.

الممكن غير المتوقع: التعاون على الكفر والعدوان وهو العمل الشيطاني الذي نهى الله تعالى عنه، ولذلك يمكن أن يكون التعاون الشيطاني على ثلاثٍ أوجه:

الأول: التعاون بين شياطين الإنس على ما يضر، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُكُمْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} 824، وقال تعالى: {وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُوا يَا مُوسَى أَمَا أَنْ تُلقِي وَأَمَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} 825، إنه التعاون السلبي فالسحرة من البشر هم متعاونون على قلب الحقائق وإخفائها وإنكارها، ولكن الله يريد أن يحقّ الحقّ ويتم نوره ولو كره المجرمون، ولذلك أوصانا عزّ وجلّ على التعاون الموجب الذي

822 - الجن 11.

823 - آل عمران 114.

824 - الحجرات 6.

825 - الأعراف 113 . 116.

فيه تقواه، مصداقا لقوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} 826.

الثاني: التعاون بين شياطين الجنّ على ما يضر، فكما هو الحال بين شياطين الإنس كذلك الحال بين شياطين الجنّ، قال تعالى: {وَأَنَا مِنَّا الصّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} 827. أي من بين بني الجنّ من هم صالحون ومنهم من هم شياطين يفسدون في الأرض ولا يصلحون فيها.

الثالث: التعاون بين شياطين الإنس والجنّ على ما يضر وهو الأكثر انتشارا في الأرض بين العباد الذين حادوا عن جادة الصواب، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} 828، وقال تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا وَأَهِمُّ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا وَأَنَا مِنَّا الصّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَحَافُ بِخَسَا وَلَا رَهَقًا} 829.

826 - المائدة 2.

827 - الجن 11.

828 - الأنعام 112.

829 - الجن 6 . 13.

الرجال في الآية الكريمة السابقة هم من الإنس والجنّ، أي أن التجسّد في الشكل والصورة للجن يدخل دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع، ومع أنّ كلمة رجال تحمل في معناها الظاهر ما يدل على الموجب في المصطلح المستخدم والمتعارف عليه بين بني الإنسان، ممّا جعل المفهوم الدلالي لكلمة (الرجل) في معظم الاستخدامات المتعارف عليها هو من أحسن اتخاذ المواقف ويحسن التصرف فيها، إلا أن الآية السابقة جاءت فيها كلمة (رجال) تحمل في مضمونها المعنى السلبي، والرجال المشار إليهم في الآيات السابقة هم الظانون، (وَأَنَّهُمْ ظُنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا)، ولذا فمعظم ما يؤسس على الظن في دائرة المتوقع هو مؤسس على الإثم، وأية مشاركة بين الثقلين في غير مرضاة الله هي من أعمال الشياطين عليهم اللعنة، قال تعالى: { قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِرُوا مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } 830.

وقال تعالى: { شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } 831.

من الآية السابقة تتضح علاقات التعاون بين شياطين الإنس والجنّ بإيحاءاتهم لبعضهم البعض زخرف القول غرورا، وهي على أربعة أوجه:

1 - إيحاء شياطين الإنس لشياطين الجنّ.

830 - الإسراء 63 . 65.

831 - الأنعام 112.

2 . إحصاء شياطين الجنّ لشياطين الإنس، قال تعالى: {يُعَلِّمُونَ
النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا
يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا
يُفْرَقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي
الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} 832.

3 . إحصاء شياطين الإنس لشياطين الجنّ.

4 . إحصاء شياطين الجنّ لشياطين الجنّ.

وعليه: فإن العلاقة بين الأنس والجنّ تكون في الدنيا والآخرة،
وموجبة وسالبة.

علاقة إيجابية:

لقد ورد في آيات كثيرة من القرآن الكريم تلازم الجنّ والإنس وهذا
التلازم مبني على:

أثمّ جميعاً مأمورون بالتكليف حيث قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُفَصِّحُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} 833.

ومن ظاهر النص القرآني في الآية الكريمة نجد أنّ الخطاب جمع
النوعين بالتساوي في:

أسلوب الخطاب في الاستفهام الإنكاري

832 - البقرة 102.

833 - الأنعام 130.

مستوى الخطاب في التكافؤ

توجيه الخطاب للنوعين

قصد الخطاب في القصص والإنذار

غرض الخطاب في الدعوة

هدف الخطاب إقامة الحجّة

غاية الخطاب الإقرار والشهادة

وهذا يقتضي أن تكون الرّسل:

أمّا من النوعين (الجنّ والإنس)

وأمّا من نوع واحد (الإنس)

فرسل الجنّ والإنس كانت بعضاً ممّا ذكر من النوعين من هذا المجموع، فإذا كانت (من) التبعية التي استثنت بعض النوعين من الرّسل تعود على الإنس، فهذا يعني أن الرّسل من الإنس كانت إلى الثقلين وأدلته من الكتاب كثيرة، ولكن يترتب على هذا الأمر أمر آخر وهو رسل الرّسل

فقد قال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} 834.

فالدليل هنا يلزم منه أن يكون آمن قسم من الجنّ فبلغوا قومهم ودعواهم إلى ما استمعوا من الهدى، فكان القسم الذي آمن ودعا قومه

إنما هم بمثابة رسل من المرسلين من الله تعالى ولا يلزم من هذه الآية إثبات رسول من الجنّ للجن.

وأما قوله تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} 835.

فإنّه واضح من النص أن الرسول من الأنس، جاءه نفر من الجنّ فاستمعوا القرآن وعندما وجدوه يهدي إلى الرشد آمنوا به، فذهبوا إلى قومهم مخبرين بما سمعوا من وصف لهذا القرآن؛ فبدأوا يثنون على الله تعالى بالمدح والتمجيد، ويصنفون قومهم إلى مسلم وكافر وصالح ودون ذلك، وجزاء كلّ منهما، وأنه لما سمعوا الهدى آمنوا به، وليس في سورة الجنّ دعوة من الذين آمنوا إلى الذين لم يؤمنوا بالتبشير والإنذار وإنما آمنوا ونقلوا الخبر عن أسباب ذلك الإيمان.

العلاقة السلبية:

إنّ العلاقة السلبية بين الإنس والجنّ التي ثبتت في النصوص النقلية من القرآن الكريم كثيرة، منها:

1 . العداة للأنبياء:

قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ} 836.

835 - الجن 1، 2.

836 - الأنعام 112.

لما اشترك بعض الإنس وبعض من الجنّ في الصفات السلبية كانت العلاقة قائمة بينهما على المعصية والمخالفة للحقّ وأوامر الحقّ ونواهيهِ، ولأنه سبحانه وتعالى خلق الخير والشر وجعل الإنس والجنّ مختارين، فقد اختار فريق من الجنّ وفريق من الإنس الشر على الخير، فالله تعالى لم يجعلهم أعداءً للأنبياء بمعنى الجبر، ولكنهم باختيارهم هذا أصبحوا ضمن من جعلوا أعداءً للأنبياء.

وعلى هذا فالعلاقة القائمة بين الفريقين نشأت ممّا يأتي:

آ. أنّهم جميعاً شياطين للاتحاد في الأفعال والصفات وتوافقها.

ب. أنّهم يناصرون العداة للأنبياء.

ج. يوسوس بعضهم لبعض بكلام مزخرف مُموّه لا حقيقة له.

د. يغرّ بعضهم بعضاً بما يزينون لأنفسهم من الباطل.

2. التعاون بين الإنس والجنّ:

قال تعالى: {قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} 837.

لما كان الإنس والجنّ من خلق الله تعالى وجعلهم عقلاء مكلفين، فقد توافقوا في صفات وعرائن وعواطف كثيرة وإن اختلفوا في مادة الخلق منها:

العقل

التكليف

الكلام

الهدى

الضلال

الخير

الشر

الطعام

الشراب

التكاثر

ولذا، تنشأ علاقات كثيرة مبنية على هذه الأمور، لأن لدى
الإنس والجنّ قدرات تصدر عن تلك الصفات والعواطف والغرائز على
فعل أشياء كثيرة، ومن هنا جاء التحدي بأن يأتوا بمثل هذا القرآن إن
استطلعوا ليس من باب النديّة لله تعالى، ولكن من أجل إظهار ضعفهم
وعدم قدرتهم على الرغم ممّا أوتوا من قدرات، ولو لم يكن علاقة بين
الإنس والجنّ لانتفى وجه الإعجاز فيما ضرب الله مثلاً لأنّه:

آ . يمكن أن يلتقي الإنس بالجنّ

ب . يتكلمون ويتحاورون

ج . يزخرفون القول

د . هذا الزخرف من الكلام

هـ القرآن كلام الله تعالى

والدليل هنا أنه تنشأ علاقة بين الإنس والجنّ وكلا الفريقين يستطيع الكلام مع نوعه ومع النوع الآخر ولكن لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

3. الكذب من بعض الإنس والجنّ:

قال تعالى: {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَن نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} 838.

إنّ الجنّ الذين سمعوا قرآنا عجبا عند تلاوته وقفوا على حقائق منها:

آ. أنّ الجنّ تكذب

ب. أنّ الإنس تكذب

ج. أنّهم يعلمون كلام الإنس ويفهمونه

د. علاقة اشتراك في الكذب بين الإنس والجنّ

هـ. علاقة التمييز بين الحقّ والباطل

وهذا يدل على أن الذين آمنوا من الجنّ كانوا مخدوعين بما كانوا يسمعون من كذب الإنس والجنّ على الله تعالى، لأنهم ظنوا أن لا يقال الكذب على الله، فلما سمعوا القرآن علموا أن بعض الإنس وبعض الجنّ يكذبون، وهذا إقرار بأنهم واقعون في الضلال مثلهم مثل الإنس وأنهم إنما تخلصوا ممّا كانوا فيه بالاستدلال والاحتجاج الذي جاءهم من القرآن وهكذا حال الإنس.

العلاقة البعضية:

إنّ علاقة الإنسان بالجنّ مبينة في القرآن الكريم، فهي ليست متروكة لاجتهاد من يجتهد فيما يراه أنه ينفع أو يضر، حيث نقف على ذلك واضحا جليا في حشر قسم منهم لسليمان صلّى الله عليه وسلّم، وكذلك محمّد صلّى الله عليه وسلّم مبعوث إلى الثقلين الجنّ والإنس عامة، وهذه البعثة معناها أنهم يؤمرون ويُنهون، وأنّ التكلّيف الذي على الإنسان تكليف على الجنّ، وأنّ الجنّ ليسوا خارجين على الشريعة وعليه:

ما يكون خير في حقّ الإنسان هو خير في حقّ الجنّ.

ما كان وسيلة أو سببا إلى الشرك في حقّ الإنسان يكون وسيلة وسببا إلى الشرك في حقّ الجنّ.

ما كان كفرا في حقّ الإنسان يكون كفرا في حقّ الجنّ

لهذا؛ فالساحر الذي يستخدم الجنّ كان كافرا لأنه استعان بهم في أمور أشرك فيها وأولئك دعوه إلى الشرك فصاروا هم كفارا وصار الساحر أيضا كافرا، حيث قال تعالى: { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ } 839.

إذن؛ فالجنّ مخاطبون بمثل ما خوطب به الإنسان ومكلّفون مثلهم،

ولذا؛ فالجنّ:

منهم مسلمون

منهم مشركون

منهم قاسطون

منهم راشدون

وعلى ضوء معيارية القرآن الكريم فضمن دائرة الممكن يكون منهم يهودا ونصارى فلا يستبعد أن يدينون بهذه الأديان كما يدين الإنسان.

فإذا عرفنا ذلك نقول: إن للإنس مع الجنّ أحوال:

1 . علاقة شرعية: وهي أكمل هذه الأحوال وأعلى مراتبها وهي واجبة على من استطاع أن يكلم الجنّ بدعوة التوحيد لأنه إذا علم الإنسان بالجنّ، وكان الإنسي من المؤمنين، فعليه أن يدعوه ويأمره وينهاه وكذلك الجنّي:

الدعوة إلى الله الواحد

يأمره بطاعة الله

ينهاه عن معصية الله

فإن استطاع أحد بما أوتي من سلطان أن يكلم الجنّ مثل سليمان صلى الله عليه وسلّم فإنه إذا نطق فإنهم يعلمونه التوحيد وينهونه عن الشرك ويأمرونه بالإحسان وينهونه عن التعدي والظلم الذي منه دخول الجنّي في هذا الإنسي، فيأمرونه بما أمر به الله تعالى، وينهونه عما نهى الله عنه.

وعلى وجه العموم فالذين يكلمون الجنّ بسُلطان يفعلون ذلك:

لا يطلبون منهم

لا يسألونهم

يأمرونهم بالمعروف

ينهونهم عن المنكر

يتلون عليهم القرآن

يقيمون عليهم الحجّة

وهذا تعليم لهم بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة كما يفعل الإنسان المؤمن مع الإنسان، سواء بسواء لأنهم مكلفون.

2 . علاقة مباحة: وهي التي لا يؤثم تاركها ولا يؤجر فاعلها لأنّ الإنسي قد يحتاج إلى جني في أمر مباح، وهذا لا حرج أن يستخدم الإنسيّ الجنيّ إذا احتاج إليه في أمر مباح، مثل العفريت الذي تطوع بأن يأتي بعرش ملكة سبأ قال تعالى: { قَالَ عَفْرَيْتُ مِنْ الْجِنَّ أَنَا أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ } 840.

وقال تعالى: { يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِجَانٍ كَالْجُؤَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ } 841.

فمن كان يستخدم الجنّ في أمور مباحة فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة، فالإنسان يعرض له إنسان فيطلب منه شيئاً أو يسأله عن شيء يعرض له، فهنا تكون العلاقة بين الجنّ والإنس مشروعة في القيام بأعمال مباحة

3 . علاقة محرمة: أمّا بالإخبار النسبي بالغيب أو بالإتيان بالأمر المحرمة من النساء أو مال مسروق يأتي به الجنيّ ونحو ذلك، فهذه كلّها حرام من أكثر من جانب بحسب حال الاستخدام، فإن كان استخدمه في أمور الشرك فقد أشرك، وإن استخدمه في محرم فقد وقع في الحرام،

840 - النمل 39.

841 - سبأ 13.

ويدخل في ذلك كلّ علاقة قائمة على الاستعانة بالجنّ على المعاصي، وعندما تنشأ عن هذه العلاقة أمور محرمة فإن ذلك يفضي إلى المعصية التي يترتب عليها العقاب حيث وصف الله تعالى الإنس والجنّ في هذه الحالة بقوله: {وَيَوْمَ يُحْشِرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} 842.

وعليه: فإنّ الباب يبقى مفتوحا لاستمرار هذه العلاقة بين الإنس والجنّ في جانبين:

الأول:

علاقة الصالحين من النوعين فيما بينهم بطاعة الخالق عزّ وجلّ حيث نقف على هذه العلاقة من خلال قوله تعالى: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} 843. كادوا من شدة التزاحم عليه والتكتل حوله أن يكون لبدا لما تلبّد بعضهم فوق بعض من شدة التزاحم، فهؤلاء الجنّ الذين استمعوا إلى قراءة القرآن من الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وهو قائم يصلي، كانت علاقة الصّلاح والهدى التي يحملها قسم من الجنّ هي التي دفعتهم إلى هذا التزاحم للوقوف على الخبر اليقين عندما كان بعضهم يسترق السمع من خلال الصعود إلى السماء والإنصات إلى حديث الملائكة، عندما كانوا يقعدون منها مقاعد للسمع، فالذي يحمل مقومات الخير والهدى والصّلاح عندما يجد ضالته يركن إليها، ومن هنا تنشأ العلاقة بين الصالحين من الجنّ والإنس.

842 - الأنعام 128.

843 - الجن 19.

وهنا وضوح لا لبس فيه من أن الضمير في (كادوا) يعود على مؤمني الجنّ، لأنّ هذا هو الموافق لإعجابهم بالقرآن الذي سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلّم (إنا سمعنا قرآنا عجبا) فهذا هو الظاهر من سياق الآيات لأنّ الحديث بمجمله كان يتناول الجنّ.

الثاني:

علاقة العصاة من النوعين أيضا في معصية ما أمر به الله تعالى إنّ مسألة العصيان التي يتصف بها شياطين الإنس والجنّ التي تؤلف العلاقة بينهم هي من اختيار أنفسهم، لأن الله سبحانه وتعالى لا يريد لعباده إلا الخير، والعبد من الإنس أو الجنّ هو الذي يختار المنهج الشرعي أو يخالفه، فهؤلاء الشياطين خرجوا عن مراد الله الشرعي الذي أراد لهم في اتباع منهجه، ولذا فإنهم لم يخرجوا عن مراد الله الفعلي لأن الله سبحانه وتعالى أراد لهم أن يكونوا مختارين:

أن يؤمنوا

أو لا يؤمنوا

أن يطيعوا

أو يعصوا

فأعطاهم الاختيار في أن يفعلوا أو لا يفعلوا.

وعليه فهم:

خرجوا عن شرعه

لم يخرجوا عن إرادته

الاختيار جعلهم طائعين أو عاصين

هذا الاختيار نابع عن إرادة الله سبحانه وتعالى، ولولا تلك الإرادة ما كان هؤلاء مختارين في أن يطيعوا أو يعصوا، وعليه فلا شيء في هذا الكون يخرج عن إرادة الله سبحانه وتعالى.

غير أنّ نبي الله سليمان صلّى الله عليه وسلّم جعل العلاقة تتعدى الإنسان والجنّ فيما بينهم إلى التآلف بين الأنواع من الجنّ والإنس والطير في قضية واحدة بما حشرهم الله له، وعلى هذا فإن مجلس سليمان صلّى الله عليه وسلّم جمع الأنواع المختلفة والمتغايرة من العقلاء وغيرهم في خدمة قضية مع اشتراك الوسائل للجميع فمن الوسائل مثلا:

تسخير الرّيح:

فقد انتفع بها الأنواع الثلاثة من أنّها كانت تحملهم رخاء حيث أصاب سليمان.

إسالة عين القطر:

فقد عمل الجنّ بهذا القطر المسال أدوات يستخدمها الإنسان.

الاستخلاف خاص بالإنسان

الأنواع الأخرى ساهمت في ترسيخ الاستخلاف

الإعمار شارك فيه جميع الأنواع

الاستخلاف خاص بنوع واحد

ومن هنا نتبين العلاقة بين الأنواع والتي يتصدر الإنسان فيها أعلى مرتبة، لأن الجنّ والطير والرّيح ساهموا في رقد عوامل ترسيخ الخلافة وليس لهم فيها نصيب.

العلاقة البعضية بين الجنّ والإنس في الآخرة:

إنّ العلاقات الإيجابية والسالبة التي قامت بين الجنّ والإنس في الدنيا يترتب عليها علاقات في الآخرة، وإنّ العلاقات في الآخرة هي نتيجة طبيعية للعلاقات الدنيوية.

علاقة موجبة في الآخرة:

لما وعد الله تعالى المؤمنين من الثقلين بالثواب، وأوعد العصاة منهم بالعذاب، فإنه سينال الجنّ ما يناله الإنس في الآخرة.

قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئُنَّ مِنْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ 844.

فوجه العلاقة التي نتبينها أنّها علاقة مكانية في السكن والإقامة، لأنّ الجنّ في الجنّة لهم قاصرات الطرف من الجنّ نوعهم، لأنّه لم يطمث الإنسيات أحد من الإنس، ولا الجنّيات أحد من الجنّ قبل أزواجهن.

وعلى هذا فإنه لا يمتنع أن يكون في الجنّة:

آ . حور عين للإنس يشاكلنهم وهنّ إنسيات.

ب . حور عين للجن يشاكلنهم وهنّ جنيات.

ج . أن تكون الحور كلّهن نوعا واحدا ويعطي الجنّي منهن ما

يعطى للإنسي

وعليه:

ما يعطاه الإنسي منهنّ لم يطمثها إنسي قبله.

ما يعطاه الجنّي لم يطمثها جنّي قبله.

ما يعطاه الجنّي والإنسي لم يطمثها جني أو إنسي

فإن كانت الحور مقصورة على النوع، فمعنى ذلك أنه لم يمس
الإنسيات أحد من الإنس ولا الجنّيات أحد من الجنّ قبل أزواجهن.

والذي نرجحه أنّ الإنسي والجنّي يعطى ما يشاء لقوله تعالى:
{لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ} 845.

وذلك لتغيّر القوانين الفيزيائية والكيميائية، وما تشتبهه نفس كلّ
من النوعين، والآية دليل على أن الجنّ يدخلون الجنة كالإنس فهم
باقون فيها منعمون يشاركونهم في المكان ولذا فإن العلاقة بينهما علاقة
مكانية.

علاقة سالبة في الآخرة:

وهذه العلاقة بين الجنّ والإنس علاقة مكانية أيضا حيث يتمّ
تحديد المصير لكلا النوعين، والعلاقة السالبة هي المصير السيئ من
العذاب بعد الحساب والذي آل إليه بعض من النوعين والذي تكون
العلاقة فيه علاقة مكانية أيضا.

قال تعالى: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجَنِّ
وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا
جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَتَّهِمُوا عَدَابًا ضِعْفًا مِنَ
النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ} 846.

فكما كانت علاقة بعض الجنّ وبعض الإنس في الدنيا يحكمها:

القول

845 - الأنبياء 102.

846 - الأعراف 38.

الفعل

العمل

السلوك

المكان

وبما أن علاقة الآخرة هي نتيجة للعلاقات الدنيوية فقد ترتب على ذلك جزاء لتلك العلاقات في الآخر التي يجمعها:

الحساب

سواد الوجوه

العقاب

العذاب

التخاصم

المكان

لقد كان لهؤلاء من الجنّ والإنس علاقة وطيدة من اتحاد الهدف والغرض والتصرف من الأقوال والأفعال والسلوك الغاية منها إضلال الناس، ممّا ترتب عليها نتائج علاقات في الآخرة جمعها المكان وهو النار التي أدخلوا فيها.

والخطاب موجه إلى آخرين ادخلوا النار ضمن أمم من كفار الإنس والجنّ قد مضت من قبلهم، كلّما دخلت أمة النار لعنت الأمة التي كفرت مثلها والتي اتخذتها قدوة، حتى إذا تابَعوا فيها مجتمعين قال التابعون يذمُّون المتبوعين:

ربّنا هؤلاء أضلونا بتقليدنا لهم.

بحكم تقدمهم علينا وسلطانهم فينا كنا تابعين.

صرفونا عن طريق الحقّ.

حيث أن العلاقة بدأت تأخذ شكلاً آخر:

خصام

جدل

لوم

أسف

حسرة

وأوضح ما تكون علاقة المكان عند دخولهم النار فعاقبهم الله عقاباً مضاعفاً يحملون فيه جزاء عصيائهم وعصيان من تبعهم، لكلّ منهم عذاب مضاعف لا ينجو منه أحد من الفريقين، يضاعف عقاب التابعين لكفرهم وضلالهم، ولاقتدائهم بغيرهم دون تدبر وتفكر، ويضاعف عقاب المتبوعين لكفرهم وضلالهم وتكفيرهم غيرهم وإضلالهم فالإنس والجنّ في هذا الموقف سواء بعلاقة العذاب.

الشیطان:

قبل الكلام عن الشيطان والشياطين لابدّ أن نبين الفرق بين وصف الشيطان وبين الشيطان نفسه، فالشيطان كوصف عام معناه كلّ من يبعد الناس عن طاعة الله وعن منطلق الحقّ، وكلّ من يغري بالمعصية، ويحاول أن يدفع إلى الشر، من الجنّ أو الإنس على السواء، فكلّ من يتصف بهذه الصفات هو شيطان.

ولذا؛ فيمكن القول:

الشیطان لا يقتصر على نوع

الشیطان مجموعة أفعال وصفات سيئة

الشیطان تتداخل فيه الأنواع

وأنّ مجموع الصفات التي يتصف بها شياطين الإنس والجنّ كثيرة،

وأبرزها أربعة أحوال:

قول:

فعل:

عمل:

سلوك:

ويجب أن نعلم أن هناك شياطين من الجنّ وشياطين من الإنس يجمعهم وصف واحد، باختلاف النوع واتحاد الهدف، كما يجمعهم الاتحاد في المتعة التي تقتصر على نشر المعصية والإفساد في الأرض، فشياطين الجنّ هم العصاة من الجنّ الذين يصدّون عن الحقّ ويدعون إلى الكفر، وشياطين الإنس يقومون بالمهمة نفسها.

إذن؛ فاللفظ هنا وصف لمهمة معينة، وليس إشارة إلى شخص باسمه، فكلّ من دعا إلى الكفر والفسوق والعصيان هو شيطان سواءً أكان من الإنس أم من الجنّ.

إلا أنّ الشيطان كاسم على مسمى أطلق على الجنّ قبل انتقال صفاته للإنس فقد قال تعالى: { يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَائِكُمْ

هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ {847}. والدليل نأخذه من هذه الآية أن الشيطان لفظ أطلق على إبليس نفسه عليه اللعنة وهو من الجنّ وعليه:

الشيطان أول ما أطلق على إبليس

إبليس من الجنّ

أصل الشيطان في الجنّ (في السماء)

عند إطلاق اللفظ لم يكن من الإنس غير آدم وزوجه عليهما السلام

الجنّ سمي شيطانا في السماء

في السماء لم يكن لآدم ذرية

ذرية آدم وجدت في الأرض

انتقل اللفظ إلى الإنس في ذرية آدم

من اتصف من الإنس ببعض صفات إبليس كان شيطانا

الشيطان من الأصل الجنّ

ليس كلّ جنّ شيطانا

الإنس شيطان بالوصف

فالخطاب موجه لبني آدم، بأن لا يستجيبوا للشيطان في إضلاله كي لا يخرجوا من النعم التي ينعمها الله عليهم ودوامها يكون بالشكر

والطاعة، فقد استجاب أبواهم آدم وزوجه فأخرجهما الشيطان من النعيم ومن دار الكرامة ونزع عنهما لباسهما وأظهر لهما عوراتهما.

فإبليس هو أول شيطان من الجنّ وهو خلق من خلق الله، وقد خُلق مختاراً

أعطي حقّ الاختيار

يستطيع بما له من اختيار أن يتمرد على الطاعة

لا يستطيع أن يتمرد على أمر الله

لهذا، كان خروج إبليس عن طاعة الله ليس تمرداً على أمر الله، وعدم طاعته لله كانت بمشيئة الله سبحانه وتعالى، التي شاءت أن يخلقه مختاراً فكان قادراً على الطاعة وقادراً على المعصية فاختر المعصية فكان شيطاناً.

وعندما هبطوا منها جميعاً انتقلت بعض تلك الصفات الشيطانية من إبليس إلى بعض ذرية آدم، فكان منهم شياطين الإنس الذين اتصفوا بالصفات الأصيلة التي عرف بها إبليس فكانت فيه أصلاً وفي الإنس اتصافاً.

فإذا كانت هذه صفات الشياطين فكيف نفهم قول الله تعالى:
{وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ
حَافِظِينَ} 848.

لقد سخر الله تعالى لسليمان من الشياطين من يغوصون ومنهم من يعمل عملاً غير ذلك كبناء الحصون والقصور والقلاع، وكان الله

مراقبا لأعمالهم بقدرته، فلا ينالون أحدا بسوء، ولا يتمردون على أمر سليمان.

ومن جانب آخر يحتمل أن يكون من يغوص منهم هو نفسه الذي يعمل سائر الأعمال فمرة يغوص ومرة يعمل ومرة يبني وهذا لا ينافي ما سخرهم الله به لسليمان.

ويحتمل أنهم مقسمون إلى فرق متخصصة ذلك أنّ التخصص يمنح المهارة والابداع وعلى هذا يكون منهم:

فرقة الغواصين

فرقة العمال

فرقة البنائين وهذه تنقسم إلى:

أ . المتخصصون بالمحارب

ب . المتخصصون بالتمثيل

ج . المتخصصون بالجفان والقدور

وهذه الأعمال من وجوه الأعمال الظاهرة التي قام بها الشياطين بتسخيرهم من الله تعالى لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت لهم نوعا من العذاب لأنّ تخلّ في باب الإصلاح المخالف لطبيعتهم، ولذا، قال تعالى: {فَلَمَّا حَرَّرَ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} 849.

وقد ثبت أنّهم عقلاء ويأكلون ويشربون وهم مكلفون، وبهذا يكونون قد شاركوا الإنس وطابقوهم في ثلاث خصال، فلا يمتنع أن يكون منهم فرقا متخصصة من أجل المهارات وإتقان الصنعة.

وأما مسألة الحفظ ففيها احتمالات:

آ . أنّ الله تعالى وكلّ بهم جمعا من الملائكة كانوا عليهم حفظة مثل حفظة الإنس.

ب . أنّ سليمان نفسه بتسخير من الله وكلّ بهم جماعة من مؤمني الجنّ.

ج . أنّ الله تعالى ألقى في قلوبهم حبّا له أو خوفا منه بإطاعته وعدم مخالفة أمره.

د . بسليمان صلى الله عليه وسلّم يفعل بهم ما يشاء.

فهذه الأدوات هي حفظ لهم من عدم المغادرة والمفارقة في إطاعة الأمر وتنفيذ ما كلفوا به، وأما حفظهم عن الآخرين فيتمثل فيما يأتي:

آ . يحفظهم الله على سليمان كي يذهبوا ويتركوه.

ب . يحفظهم من أن يؤذوا أحدا طالما أنهم مسخرون له.

ج . يحفظهم من عدم إفساد ما يقومون به من عمل، لأنّ دأب الشياطين هو الإفساد.

وعليه: فإنّهم لا يقدرّون على الامتناع من سليمان صلى الله عليه وسلّم وعصيانه، فالله تعالى حفظهم لسليمان:

بقوته

بعزته

بسلطانه

وهنا يظهر لنا وجه المعجزة التي أعطاها الله تعالى لسليمان صَلَّى الله عليه وسلّم، حيث أنه جمع له من أطف الأجسام لتقوم بأعظم الأعمال وهما الهواء والنّار، وقد جعلهما الله معجزة لسليمان عليه الصلاة والسلام، أمّا الهواء فقوله تعالى: {فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ} وأمّا النّار فلأن الشياطين مخلوقون منها وقد سخرهم الله تعالى فكان يأمرهم بالغوص في المياه، والنّار تنطفئ بالماء ومع ذلك فلا يضرهم ذلك شيئاً.

الرّيح:

لقد جعل الله تعالى الرّيح أحد جنود سليمان صَلَّى الله عليه وسلّم استجابة لدعائه فكانت من ضمن الملك الذي وهبه الله له عندما طلب من الله تعالى أن يهب له ملكاً: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}. فكانت الرّيح من جملة الوهب الذي آتاه الله تعالى لسليمان وكانت الرّيح أعظم ما سخر الله له من أسباب الملك وهي تنويج لما أوتي من ملك وجنود فكانت الرّيح عماد هذا الملك، لأنها الركيزة الأساسية التي جاءت بعد الدعاء مباشرة مقرونة بالفاء بقوله تعالى: {فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِ رُحَاءٍ حَيْثُ أَصَابَ} 850.

إنّ كلّ ما ذكر من جنود سليمان لا يرقى إلى أهمية الرّيح وعظمتها من حيث:

الهبة

الأهمية

القوة

المنفعة

الفائدة

لذلك كان جواب الطلب (هب لي) مقرونا بالفاء الواقعة في
إجابة الطلب التي تفيد سرعة تحقيق الاستجابة في المعنى، واقتران الفاء
بتسخير الرِّيح بمنح الرِّيح الصدارة في القصد وإن عطف عليها أسماء
أخرى بالواو التي تفيد مطلق الجمع بين متغايرين.

إلا أنّ الواوات العاطفة التي تلت ذلك يفهم منها غير هذا المعنى
حيث يتضح معنى المعية المصاحبة للريح من خلال العطف بالواو.

ولتوضيح ذلك ننظر إلى الآيات التي تلتها في قوله تعالى:
{ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ
وَعَوَّاصٍ وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ } 851.

فيكون المعنى:

فسخرنا له الشياطين مع الرِّيح

فسخرنا له آخرين مقرنين بالأصفاد مع الرِّيح

وعليه فكلّ ما كان مع الرِّيح هو تبع لها من حيث الأهمية والقوة
والأثر.

أضف إلى ذلك أن الفاء تفيد الترتيب واشتراك ما بعدها في حكمها:

ترتيب في المعنى:

وهو أن يكون المتصل بها لاحقًا بلا مهلة أو فاصلة (هب لي، فسخرنا).

ترتيب في الذكر:

فسخرنا الرِّيحَ والشياطينَ وآخرين مقرنين بالأصفاذ

اشتراك في الحكم:

وهو دخول الرِّيحِ والشياطينِ وآخرين مقرنين بالأصفاذ في حكم التسخير

وقوع الفعل على المفعول (الاسم) الذي يلي الفاء يكون له الصدارة في القصد، وما جاء بعده فهو مترتب عليه وتابع له مصاحبةً بدليل الواو التي أفادت المعية.

وأما الرِّيحُ التي سُخِرَتْ لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتي ورد ذكرها في ثلاث سور وهي:

1. قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} 852.

لقد دارت حول الرِّيحِ المسخرة لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ روايات وتصورات وأقاويل، معظمها مستمد من الإسرائيليات التي قامت على التخيلات والأوهام، ونحن بعون الله لا نضل في هذا التيه

ولا نشقى، لأننا نقف عند حدود النص القرآني الذي لا يُظهر أيَّ أثر مستيقن مما يدعون.

والنص القرآني يقرر تسخير الرِّيح وهي عاصفة لسليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم تجري بأمره إلى الأرض التي باركها اللهُ تعالى.

وأما أنَّ الرِّيح كونها عاصفة فيجب أن يكون الوصف كما جاء به النص القرآني، لأنها لو لم تكن عاصفة تحولت إلى هواء وفقدت الحركة ولازمت السكون وفي هذه الحال تنتفي الحاجة إليها والفائدة منها، وعليه فالهواء ريح بالحركة وكلما زادت هذه الحركة تبدلت صفته نذكرها في تناسب طردي مع الحركة وهي:

ريح إذا تحرك وتماوج

فإن زادت حركته أصبح عاصفا

فإن اشتدت كان زعرعا

وإن زاد على ذلك كانت قاصفا

2 . قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ 853.

ففي هذه الآية تتضح مهمة مخصوصة تؤدِّيها الرِّيح لسليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندما ربّطت بالزمن في الغدوّ والرواح كلّ واحدة منها يقابلها شهر من الزمن، ومن نصّ الآية نستطيع أن نعلم سرعة الرِّيح التقريبية التي كانت تحمل سليمان في انتقاله وحله وترحاله مع جنوده والمسافة التي يقطعها في الغدوة الواحدة أو الروحة الواحدة، وللوقوف

على سرعة ذلك النوع من الرّيح والمسافة التي تقطعها في الغدو أو في الرواح يجب الوقوف على معنى الغدوّ ومعنى الرواح ومدة كلّ منهما من الزمن وما هو الشهر المقصود.

لقد ذكر بعض المفسرين مدة الغدوّ ومدة الرواح فقالوا:

الغدوّ: من طلوع الشمس إلى زوالها، والزوال وقت انتصاف النهار.

الرواح: من وقت الزوال وانتصاف الشمس في كبد السماء إلى دخول الليل.

غير أنّ ما جاء في المعاجم اللغوية عن الغدو والرواح هو زمن أقصر بكثير ممّا تقدم فقد جاء في اللسان أنّ "الغدوة بالضم البكرة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس وغدوة من يوم بعينه" 854.

وأما الشهر فإنه مخاطب به العرب الذين كانوا يقطعون به المسافة في رحلة الصيف من مكة إلى بيت المقدس شهراً، ومن بيت المقدس إلى مكة شهراً. قال تعالى: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ} 855.

فإذا تمّ تحديد المسافة بين بيت مكة وبيت المقدس، وعدد الساعات في الشهر الواحد نعلم السرعة التي كانت تسير بها قريش هذه المسافة.

فإذا افترضنا أنّ المسافة بين مكة وبيت المقدس هي 1000 كم.

854 - لسان العرب، ج 15، ص 116.

855 - قريش 1، 2.

وعدد الساعات في ثلاثين يوما هو 720 ساعة، كانت سرعتهم في مسيرهم في اليوم الواحد حوالي 134 كم.

ولذا؛ فإنّ مسيرهم في الساعة الواحدة يكون حوالي 5600 مترا.

فإذا كانت الغدوة من صلاة الصبح إلى طلوع الشمس تساوي ساعة من الزمن، فإنّ سليمان صلّى الله عليه وسلّم كان يقطع هذه المسافة بساعة ممّا كانت قافلة قريش تسير به شهرا لتصل إلى بيت المقدس والله أعلم.

وعلى هذا التقدير تكون سرعة الرّيح التي كانت تقل سليمان 1000 كم

وبهذا نعلم أنّ جريها في أول النهار يعدل سيرهم شهرا، وجريها في آخر النهار يعدل سيرهم شهرا.

3 . قال تعالى: { فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ } 856.

إنّ لم تشتدّ الرّيح كانت ريحا رخاء بهبوبها تجري بها الجوّاري المنشآت وتتحرك بها المياه والأشجار وبموج البحر وتزجي السحاب، وهذه الرّيح لينة طيبة لا تزعزع ولا تعصف ولا تقصف، وهذا لا ينافي كونها لينة الهبوب قوله تعالى: (ولسليمان الرّيح عاصفة) لأنها وإن كانت عاصفة، إلا أنّها لما جرت بأمره عليه الصلاة والسلام كانت لينة رخاء (حيث أصاب).

وإن كانت في أصل خلقها شديدة لكنها صارت لسليمان لينة سهلة، أو أنّها تشتد عند الحمل وتلين عند السير فوصفت باعتبار

حالين أو أنّها شديدة في نفسها فإذا أراد سليمان صلّى الله عليه وسلّم لينها لانت على ما يشير إليه قوله تعالى: (بأمره) فهي تلين وتعصف باقتضاء الحال.

ولما صارت رخاء أصبحت مطيعة لا تخالف إرادته لأنها مسخرة له ومأمورة منقادة بما شاء، فالمراد بليتها انقيادها له وهو لا ينافي عصفها ثم لانت له بالطاعة لأمره.

وتسخير الرّيح لعبد من عباد الله بإذن الله، لا يخرج في طبيعته عن تسخير الرّيح لإرادة الله، وهي مسخرة لإرادته تعالى، تجري بأمره وفق نواميسه التي سيرها بها فإذا يسر الله لعبد من عباده في فترة من الفترات أن يعبر عن إرادة الله سبحانه وأن يوافق أمره أمر الله فيها وأن تجري الرّيح رخاء حيث أراد فذلك بالأمر (كن) الذي لا يخرج عن المشيئة.

وهذا يقرب لنا معنى الرّيح لأمر سليمان صلّى الله عليه وسلّم في تسخيرها لأمره المطابق لأمر الله في توجيه هذه الرّيح

ولما كانت الرّيح جميعها في السور الثلاث بصيغة اسم الجنس الذي يدل على:

أصل الرّيح

جمع الأنواع من الرياح

مطلق الكثرة

ولهذا أشكل الأمر على كثير من الذين تناولوا هذه الآيات في فهم

معنى الرّيح فقالوا

إنما هي ريحان:

آ . ریح رخاء

ب . ریح عاصف

غير أنّ الأمر ليس كذلك، وإنما ذكر الله تعالى الرّيح التي سخرها
لسليمان صلّى الله عليه وسلّم باسم الجنّس كما نقول:

ماء

مياه

نار

نيران

فالماء اسم للجنس وهو أكثر من المياه لذلك قال تعالى: { وَهُوَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى
الْمَاءِ } 857.

ومثله قوله تعالى: { أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ
النِّسَاءِ } 858. فهو اسم لجنس الطفل وليس دلالة على المفرد.

وكذلك قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ
مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ } 859. فالطفل اسم
الجنّس والأطفال جمع المفرد.

فمن هنا كانت الرّيح على هذا المقياس لسليمان صلّى الله عليه
وسلّم ولذا:

857 - هود 7.

858 - النور 31.

859 - غافر 67.

فالريّح أصل

الرياح فرع

وعليه: فإنّ الله تعالى سخر لسليمان الرّيح مطلقا في المواضع الثلاثة، ووصفها في كلّ موضع بوصف مختلف فكانت:

أ . الرّيح العاصف

ب . الرّيح الغادية والرائحة

ج . الرّيح الرخاء

وبما أنّ الله تعالى سخر له الرّيح مطلقا وذكر ثلاث صفات منها، ولذا فإنه ما يمكن من الرّيح في صفاتها المتنوعة مسخرة له وإن لم تذكر بصريح النصوص إلا أن الصفات الثلاث التي ذكرت يندرج تحتها جميع أنواع الرّيح التي يمكن أن نجملها فيما يأتي:

رياح رحمة

رياح مثل

رياح عذاب

أولا: ربح الرّحمة:

إنّ الرّيح التي سخرها الله تعالى لسليمان صلّى الله عليه وسلّم تدخل ضمن ربح الرّحمة لما فيها من خير، إذ أنّ الله سبحانه لم يسخرها له إلا من أجل إصلاح الأرض وإعمارها

ولذا؛ فإنّ الرّيح التي سخرت له كانت رحمة على اختلاف مسمياتها الثلاثة وهي:

آ . الرِّيحِ العاصِفِ قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} 860.

ب . الرِّيحِ المخصوصة قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ} 861.

ج . الرِّيحِ الرخاء قال تعالى: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} 862.

وأما بقية أنواع الرياح التي تنتمي إلى باب الرِّيحِ وتدخل في الرِّيحِ الرخاء فهي كثيرة منها الرياح المرسلة:

1 . الرياح المباشرات:

. قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} 863.

. قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} 864.

. قال تعالى: {وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَتِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} 865.

860 - الأنبياء 81.

861 - سبأ 12.

862 - ص 36.

863 - الأعراف 57.

864 - الفرقان 48.

865 - النمل 63.

. قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ} 866.

2 . الرياح المثيرات:

. قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ}.

. قال تعالى: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاہُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} 867.

وعليه فإن الرياح تكون سببا لنوعين من السحاب:

الأول: السحاب المبسوط وكأنه مخزون لما يريد الله تعالى.

الثاني: السحاب المساق وهو المخصوص لبلد ميت يحيي به الله أرض ذلك البلد.

3 . الرياح اللواقح:

. قال تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ} 868.

4 . الرِّيح الطيبة:

. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} 869.

866 - الروم 46.

867 - فاطر 9.

868 - الحجر 22.

869 - يونس 22.

. قال تعالى: {وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ} 870. ولذا؛ فإنّ الجليس الصالح ريحه طيبة، قال صلى الله عليه وسلم: "إنّما مثل جليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير حامل المسك أمّا أن يحذيك وأمّا أن تبتاع منه وأمّا أن تجد منه ريحا طيبة، ولهذا؛ فنافخ الكير أمّا أن يحرق ثيابك وأمّا أن تجد منه ريحا خبيثة" 871

ثانيا، ربح الأمثال: قال تعالى: {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ} 872.

. قال تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا} 873.

. قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَاهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا} 874.

ثالثا: ربح العذاب

آ . الرِّيحِ الْقَاصِفِ:

870 - يوسف 94.

871 - شعب الإيمان، ج 7، ص 54.

872 - آل عمران 117.

873 - الكهف 45.

874 - إبراهيم 18.

قال تعالى: {أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} 875.

ب . الرِّيح العاصف:

قال تعالى: {جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} 876.

ج . الرِّيح الصر

قال تعالى: {رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ} 877.

د . الرِّيح الصرصر

قال تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} 878. والرِّيح الصرصر أشد من ريح الصر لأن كلَّ زيادة في المبني يؤدِّي إلى زيادة في المعنى، ولذا فإن برودة الرِّيح الصرصر ضعف برودة الرِّيح الصر.

هـ . الرِّيح العذاب

قال تعالى: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} 879.

و . الرِّيح العقيم

875 - الإسراء 69.

876 - يونس 22.

877 - آل عمران 117.

878 - الحاقة 6.

879 - الأحقاف 24، 25.

قال تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} 880.

ز - الرِّيحُ الهاوية

قال تعالى: {فَكَأَنَّمَا حَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ

الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} 881.

وقد عمدنا إلى هذا التقسيم للريح من سياق الآيات ودلالاتها المقصودة وإن كان هناك تقسيم آخر اعتمده بعض المفسرين الذين أخذوا ذلك عن كتب الأنواء فجعلوا:

رياح الرِّحمة أربعة وهي:

المبشرات

الذاريات

الناشرات

المرسلات

ورياح العذاب أربعة هي:

. العقيم والصرصر في البر.

. العاصف والقاصف في البحر.

لقد ورد في القرآن الكريم الرِّيح على ثلاثة أنواع وهي:

اسم للجنس مثل قوله تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي

بِأَمْرِهِ} 882

880 - الذاريات 41.

881 - الحج 31.

اسم للمفرد كقوله تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} 883.

جمع للمفرد كقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ} 884، وجمع المفرد يدل على كثرة الأنواع الذي يدخل في باب الرِّحمة المتعددة الجوانب في أغراض شتى رحمة من الخالق مثل:

المبشرات

المثيرات

اللواقح

وكلّ ما كان من باب الرِّحمة جاء بصيغة جمع المفرد إلا في موضعين وهما:

قوله تعالى: {وَجَرَيْنَ بِهِمُ برِّيحٍ طَبَّيَّةٍ} 885.

وقوله تعالى: {إِنِّي لِأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ} 886.

وما دون ذلك فهو مطرد في ذكر الرياح في القرآن جمعا ومفردا، فحيث كانت في سياق الرِّحمة أتت مجموعة وحيث وقعت في سياق العذاب أتت مفردة وسر ذلك أن رياح الرِّحمة مختلفة الصفات في هبوبها منها:

رياح الصبا

882 الأنبياء 81.

883 - الذاريات 41.

884 - الحجر 22.

885 - يونس 22.

886 - يوسف 94.

رياح الجنّوب

رياح الشمال

رياح العشيّات

ولذا؛ فهي مختلفة المنافع لاختلاف هبوبها، فإذا هاجت منها ريح نشأ لها ما يقابلها ممّا يكسر سورتها ويخفف حدتها فينشأ من بينهما ريح لطيفة فتكون رياح ينتفع بها الإنسان والحيوان والنبات، فكلّ ريح منها ينشأ في مقابلها ما يعدلها ويرد سورتها فكانت في الرّحمة رياحا، ولذا؛ فأينما وردت في باب الرّحمة جاءت مجموعة:

كقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ} 887.

وقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ} 888.

وقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ} 889.

وأما في العذاب فإنّها تأتي من وجه واحد لا يقوم لها شيء ولا يعارضها غيرها حتى تنتهي إلى حيث أمرت لا يرد سورتها شيء ولا يكسر لها حدّة حتى تفعل ما أمرت به وتصيب ما أرسلت إليه، ولهذا وصف سبحانه الرّيح التي أرسلها على عاد بأنّها عقيم

فحيث ذكرت في سياق العذاب أتت مفردة:

كقوله تعالى {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ} 890.

887 - الروم 30.

888 - الحجر 22.

889 - الروم 46.

وقوله تعالى: { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا } 891.

وقوله تعالى: { وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } 892.

وقوله تعالى: { مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَاهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ } 893.

وقوله تعالى: { وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ } 894،
وهذا مطرد في جميع القرآن إلا في موضعين:

الأول: قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ } 895.

فذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الإفراد لأن تمام الرحمة هنا إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها لأن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة في اتجاه واحد، فإذا اختلفت عليها الريح وكانت رياحا أصبح ذلك مدعاة لتحطم السفن وسببا للهلاك، إذ أن المطلوب هنا ريح واحدة لا رياح، وأكد هذا المعنى بوصفها طيبة لدفع التوهم أن تكون رياحا عاصفة بل هي مما يفرح به ربّانة السفن لطيبها ولينها.

الثاني: قوله تعالى: { وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ } 896.

890 - فصلت 16.

891 - الأحزاب 9.

892 - الحاقة 6.

893 - إبراهيم 18.

894 - الذاريات 41.

895 - يونس 22.

ومع أنّ الرِّيح في هذه الآية دليل رحمة فقد وردت بالاسم المفرد،
حيث وقفنا على أنواع رياح الرِّحمة التي جاءت جميعها بالجمع (رياح)
فهي مخالفة لما هو مطرد.

فلما قال ربح ولم يقل رياح خرج عما هو مطرد في ذكر رياح
الرِّحمة، لماذا؟

لقد ذُكرت الرِّيح في هذه الآية لثلاثة أسباب:

الأول: أنّها اشتركت مع لفظ الرِّيح المفرد التي تأتي للعذاب وذلك
في اتجاه واحد لتبلغ الغاية وهي وصولها إلى يعقوب صلّى الله عليه وسلّم
من مصر إلى الشام.

الثاني: أنّها ربح مخصوصة مسخرة ليعقوب كي تبلغه رسالة.

الثالث: لو كانت رياحا لوجد ربح يوسف يعقوب وغيره ولما كان
وجه إعجازٍ للنبوة.

والآية الأخرى التي ذُكرت فيها الرِّيح في باب الرِّحمة وخرجت عن
الاطراد لمناسبة الحال قوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ
عَلَى ظَهْرِهِ} 897.

فقال تعالى الرِّيح ولم يقل الرياح؟

فالرِّيح هي التي تأتي من جهة واحدة معلومة لها خصوصية واحدة
كقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ غَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا غَارِضٌ
مُّطْرِنًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} 898. أما الرياح

896 - يوسف 94.

897 - الشورى 33.

898 - الأحقاف 24.

فهي التي تأتي من اتجاهات متعددة قال تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ} 899. ولهذا كانت الرِّيح هي ما يناسب جريان السفن في اتجاه واحد وليس الرياح التي تسير في اتجاهات مختلفة. وهنا لابد من الإشارة إلى أمر وهو:

أنَّ الرِّيح تأتي بالعذاب

والرياح تأتي بالرحمة

ولكن اقتصار العذاب على الرِّيح لا يعني اقتصار الرِّيح على العذاب.

كما أنَّ اقتصار الإحراق على النَّار لا يعني اقتصار النَّار على الإحراق.

إذا؛ فالرِّيح تؤدِّي منافع كثيرة فهي:

مبشرات

لواقح

مثيرات

زاجيات

كما أن النَّار منها:

النور

الدفء

الطاقة

وما إلى ذلك.

وعليه: فالريّح تأتي بالعذاب وتأتي بالرحمة أيضا.

الريّح جند من جنود الله سخرها لسليمان صلى الله عليه وسلّم، فتكون انتقاما من المنتقم يهلك بها من أراد من الأقاليم والمجتمعات التي طغت عن أمر ربّها وكذبت رسله، قال الله تعالى: { فَأَمَّا تَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَحْلٍ حَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ {900.

ورحمة من الرّحيم يحيي بها من يشاء برحمته قال تعالى: { وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاحِحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ {901.

لقد سخر الله لسليمان هذه الرّيح وهي أنواع كثيرة لمهمات مختلفة ونحن ذاكرون آيات الرّيح التي وردت في القرآن الكريم مفردا وجمعا للوقوف على معانيها ودلالاتها والمهام التي تقوم بها بإذن ربّها.

جاء ذكر الرّيح في تسعة وعشرين (29) موضعا من القرآن الكريم وهي على النحو الآتي:

آ . الرياح عشر مرات.

ب . الرّيح ثمان مرات

ج . ريح أربع مرات

900 - الحاقة 5- 8.

901 - الحجر 22.

د - بريح مرتان

هـ - ريحا أربع مرات

و - ريحكم مرة واحدة

كما جاءت الإشارة إلى الرياح بعدد من صفاتها مثل:

الذاريات: وهي الرياح التي تذرو التراب وغيره لقوتها

قال تعالى: {وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا} 902.

العاصفات: وهي الرياح الشديدة المدمرة لمن ترسل عليهم

قال تعالى: {فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا} 903.

المرسلات: وهي الرياح المرسلة لمهام مختلفة

قال تعالى: {وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا} 904.

الناشرات: تنشر الرياح السحب في الفضاء

قال تعالى: {وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا} 905.

ومعظم الآيات القرآنية التي ذكر فيها إرسال (الرياح) بالإفراد (أي

بلفظ الواحد) جاءت في مقام العذاب ومعظم المواضع التي ذكرت فيها

(الرياح) بلفظ الجمع جاءت في مقامات الرحمة والثواب.

آيات ذكر الرياح بالإفراد:

902 - الذاريات 1.

903 - المرسلات 2.

904 - المرسلات 1.

905 - المرسلات 3.

قوله تعالى: {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ} 906.

وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَينَ بِهِمْ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} 907.

وقال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَاهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ} 908.

وقال تعالى: {أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيَرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} 909.

وقال تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} 910.

قال تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} 911..

906 - آل عمران 117.

907 - يونس 22.

908 - إبراهيم 18.

909 - الإسراء 69.

910 - الحج 31.

911 - الشورى 33.

وقال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرِنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} 912.

وقال تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} 913.

وقال تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} 914.

وأما ورودها اسم للجنس فكان خاص بسليمان صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ عُذُوبًا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ} 915.

وقال تعالى: {فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِجَاءً حَيْثُ أَصَابَ} 916.

وقال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} 917.

وأما الآيات التي جاءت بلفظ (ريحا)؛ فهي:

قوله تعالى: {وَلَمَّا أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ} 918.

912 - الأحقاف 24.

913 - الذاريات 41.

914 - الحاقة 6.

915 - سبأ 12.

916 - ص 30.

917 - الأنبياء 81.

918 - الروم 51.

وقال تعالى: {إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} 919.

وقال تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ} 920.

وقال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ} 921.

ومن آيات ذكر (الرياح) بالجمع:

قوله تعالى: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} 922.

وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} 923.

وقال تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} 924.

وقال تعالى: {فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا} 925.

وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} 926.

919 - الأحزاب 9.

920 - فصلت 16.

921 - القمر 19.

922 - البقرة 164.

923 - الأعراف 57.

924 - الحجر 22.

925 - الكهف 45.

وقال تعالى: {وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُنْزِلَ مَعَهُ اللَّهُ
تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} 927

وقال تعالى: {وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ} 928.

وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا} 929.

وقال تعالى: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى
بَلَدٍ مَيِّتٍ} 930.

وقال تعالى: {وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} 931.

تصريف الرياح:

قال تعالى: {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي
خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ
الرِّيحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} 932.

وقوله عز وجل: (وتصريف الرياح) أي جنوبا وشمالا برية وبحرية،
ليلية ونهارية، منها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو
عقيم لا ينتج.

فتصريف الرياح يكون في تقليبها وأوصافها:

926 - الفرقان 48.

927 - النمل 63.

928 - الروم 46.

929 - الروم 48.

930 - فاطر 9.

931 - الجاثية 5.

932 - الجاثية 3-5.

جنوبا

شمالا

باردة

حارة

شديدة

لينة

عاصفة

قاصفة

رخاء

فهذا التقلب والتصريف إنما هو آيات لقوم يعقلون، لأن تصريف الرياح وهي تمضي شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، منحرفة ومستقيمة، ودافئة وباردة وفق النظام الدقيق المنسَّق المقصود في تصميم هذا الكون العجيب، وحساب كلِّ شيء فيه حكمة دقيقة لا تترك شيئا للمصادفة. ولتصريف الرياح علاقة معروفة كبيرة في الحياة منها:

دورة الأرض

ظاهرتي الليل والنهار

الرزق الذي ينزل من السماء

وكّلها مسخرة لتحقيق مشيئة الله في خلقه في هذا الكون وتصريفه كما أَراده سبحانه وتعالى.

أضف إلى ذلك أن الرياح تحمل أدلة كونية بما هي مكلفة به من مهام في إتمام حركة هذه الأرض وما هو تابع لها من جزئيات الحوادث المتجددة في كلّ وقت من اختلاف الليل والنهار، وحمل السحاب الثقال ونزول المطر الذي به حياة الأرض وأحيائها، كلّ ذلك ناتج عن تقلب الرياح وآثارها في البر والبحر.

يصف القرآن الكريم حركة الرياح دوماً بالتصريف والإرسال، وذلك لأنها حركة منتظمة السلوك، ومحكمة التوزيع بدقة فائقة حول الكرة الأرضية على الرغم من بعض الظواهر الطبيعية الناتجة عن هيجان الريح مثل:

الزوابع

العواصف

الأعاصير

ومن بليغ الحكمة الإلهية في الريح التي هي جند من جنود الله وسخرها لسليمان صلى الله عليه وسلم، أنّ العوامل المؤثرة فيها والتي يجعلها أنواعاً هي أضعف منها مثل:

الحرارة

البرودة

ارتفاع الضغط الجوي

انخفاض الضغط الجوي

المدّ

الجزر

ومع تعدد وتشابك القوي المحركة لها، فذلك كله لا يخرجها عن كونها جندا من جنود الله يرسلها بالرحمة والعذاب كيفما يشاء.

وأعظم مهمة للريح ما تقوم به من تأمين أهم عناصر الحياة بما تحمله من المعصرات فتسكبه ماء ثجاجا قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا} 933.

وهي كذلك تأتي بالأعاصير المتنوعة منها:

قال تعالى: {فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ} 934.

والأعاصير التي تثيرها الرياح متنوعة منها:

إعصار حارق

إعصار يثير الغبار

إعصار يثير الرعد والبرق

فهذه القوّة الهائلة التي تحدثها الرّيح كانت طوع أمر سليمان صلّى الله عليه وسلّم لأنّ:

الأعاصير تتشكل من الرّيح

الرّيح مسخرة لسليمان

الأعاصير أحد جنود سليمان

وأما الأعاصير الطبيعية من الناحية العلمية فهي عواصف هوائية تدور دورات حلزونية عنيفة شديدة، تنشأ عادة فوق البحار الاستوائية،

933 - النبأ 14.

934 - البقرة 266.

خاصة في فصلي الصيف والخريف ولذا تعرف باسم الأعاصير الاستوائية أو المدارية أو الأعاصير الحزونية لأنّ الهواء البارد (ذو الضغط المرتفع) يدور فيها حول مركز ساكن من الهواء الدافئ (ذو ضغط منخفض).

وجاء تقسيم الرّيح في القرآن الكريم على النحو الآتي:

1 . الرّيح الساكن

2 . الرّيح الطيبة

3 . الرّيح العاصف

4 . الرّيح القاصف

وهذا إعجاز قرآني في السبق بأكثر من عشرة قرون للمعرفة العلمية المكتسبة في هذا المجال.

لم يسخر الله تعالى من أسباب القوّة وأسباب الحياة لسليمان صلّى الله عليه وسلّم ما سخر له من الرّيح.

وقد أقسم الله تعالى بها في أكثر من موضع لبيان قدرته وعظيم سطوته وإظهار عظّمته، وكذلك لمكان العبرة والآية، والدلالة الباهرة على:

ربّوبيته

واحديته

عظيم قدرته

ففي الرياح من العبر هبوبها وسكونها ولينها وشدتها واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها وتصريفها وتنوع منافعها وشدّة الحاجة إليها، وعلى سبيل المثال فللمطر خمسة أنواع من رياح:

رياح تنشر سحابه:

قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} {935}.

رياح تؤلف بينه:

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ} {936}

رياح تلقحه:

قال تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} {937}.

رياح تسوقه حيث يريد الله:

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيَلْدِ مَيِّتٍ} {938}

رياح تذرّوه أمامه وتفرقه:

935 - الروم 48.

936 - النور 43.

937 - الحجر 22.

938 - الأعراف 57.

قال تعالى: {وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا} 939

وللنبات رياح:

قال تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ} 940

وللسفن رياح:

قال تعالى: {رَبِّكُمْ الَّذِي نُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِنَبْتَعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} 941.

وللرحمة رياح:

قال تعالى: {وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَتَلَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} 942.

وللعذاب رياح:

قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} 943.

إلى غير ذلك من أنواع الرياح الذي قدرها خالق مصرف لها مدبر أمرها يصرفها كيف يشاء ويجعلها رخاء تارة ورحمة تارة وعذابا تارة أخرى، فتارة يحيي بها الزرع والثمار وتارة يدمرها بها، وتارة ينجي بها السفن وتارة يهلكها بها، وتارة يجعلها عقيما وتارة لاقحة، وتارة جنوبا وتارة دبوراً وتارة صبا وتارة شمالا وتارة حارة وتارة باردة، وهي مع غاية

939 - الذاريات 1.

940 - الحجر 22.

941 - الإسراء 66.

942 - النمل 63.

943 - الأحقاف 24.

قوتها ألطف شيء، سريعة التأثير والتأثير لطيفة المسارب بين السماء والأرض:

إذا منعت عن الأحياء هلكوا

وإذا اشتدت عليهم هلكوا

يجبسها الله سبحانه إذا شاء

ويرسلها إذا شاء

تحمل الأصوات إلى الآذان

وتحمل الرائحة إلى الأنوف

وتحمل السحاب إلى الأرض الجزر

وهي من روح الله تأتي بالرحمة

ومن عقوبته تأتي بالعذاب

وهي من أقوى خلق الله

فهي من أعظم آيات الله تعالى الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته.

المسح بالسوق والأعناق:

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} 944

لقد ذهب المفسرون في قضية عرض الجياد على سليمان صلى الله عليه وسلم مذاهب شتى، ومن أجل فهم معنى الابتلاء بالصفانات الجياد لابد أن نقف على المعاني الظاهرة من الآية وما يمكن من احتمال معنى منطقي مركب يدل عليه السياق، فقد عرضت عليه الخيل بالعشي وهو وقت ما بعد زوال الشمس عن كبد السماء.

وقد وصف الله تعالى هذه الخيل بصفتين دقيقتين في حالة السكون وحالة الحركة لأفضل أنواع الخيل المعروفة عند العرب بأصالتها كونها صافنات جياد، وكلّ صفة من هاتين الصفتين لها حال:

الأولى السكون: الصفون من أفضل ما تمدح به الخيل وهو ساكنة متوقفة عن الحركة تماما فإذا اهتزت أو تمايلت لا تكون من الصافنات، والصفون مقتصر على نوع معين من الخيل، لأن هذه الصفة تمنحها ميزة عن غيرها من الخيل التي لا تصفن، ولأجل توضيح معنى الصفون نقول: أن أيدي الفرس ورجليها يقال لها قوائم

فحال الفرس الصافنة يكون على النحو الآتي:

. تنظر إلى الأمام

. ممدودة العنق

. مرفوعة الرأس

. منتصبية الأذان

. تقف على يد واحدة ورجلين اثنين

. تطوي يدها من ركبتها قليلا

. طرف سنبكها يلامس الأرض

. كأنها تقف على ثلاثة قوائم

والصفون ثلاث مراتب:

. صفون باليد اليمنى وهو أفضلها

. صفون باليد اليسرى

. صفون بإحدى الرجلين وهو أدنى صفون

إذا طوت اليد اليمنى فهي أجود من التي تطوي اليد اليسرى. قال

الشاعر:

أَلْفَ الصَّفُونَ فَمَا يَزَالُ كَأَنَّهُ... مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا

وعندما تنظر إليها كأنها تفكر في شيء ولذلك أصبحت صافنة تشبيها بالإنسان لأنه إذا وقف ليفكر في قضية، توقف عن الحركة ومدّ عنقه ورفع رأسه ونظر أمامه فصفن.

الثانية الحركة: عندما وصفها بالجياد وهو وصف لحالة الحركة في الخيل، ذلك أن الجياد أفضل أنواع الخيل وهو الجود الذي يمثل زيادة في صفته عمّا يمثله في حلقه، لأن الخيل منها:

فرس

كريم

جواد

. الفرس: أسم للجنس ليس له مفرد من وصفه يطلق على الذكر والأنثى مثل الخيل، وهذه الصفة عامة في جنس الخيل، لأنه يدرك

فريسته أو طريدته لشدة سرعته تشبيهاً بالأسد في افتراسه لطريدته بعد إدراكها.

. الكرم: من الخيل هو الذي يقع منه الحافر على الحافر، أي في حالة الجري يقع حافر رجله في موطئ حافر يده، بمعنى أنه يملأ موضع يديه بوضع رجليه في ذلك الموضع فلا يدعه فارغاً أبداً وكأنه يكرم ذلك المكان لأنه كلما فرغ من يديه ملأه برجليه وهو كناية عن السرعة.

الجواد: فإن سبق حافر رجله موطئ حافر يده فقد زاد في الكرم وأصبح جواداً لهذه الزيادة عن الكرم ولذلك كانت الجياد أسرع الخيل جرياً.

وأما سبب عرضها فقد ذكروا أقوالاً كثيرة منها:

"أنه عرضها لأنه أراد جهاد عدو له.

. أنه ورثها من أبيه داود عليه السلام فعرضت عليه

. أنه غزا جيشاً فظفر به وغنمها فدعا بها فعرضت عليه" 945.

غير أن عرض الصافنات الجياد على سليمان صلى الله عليه وسلم نراه أمر في غاية الأهمية من سياسة الملك وعماده الذي يقوم على القوة.

وإن كان سليمان نبي من أنبياء الله تعالى إلا أنه نبي ملك، ورسالة النبوة تختلف عن سياسة الملك الذي يفرض استعراض القوة وأسبابها حيث نلمس هذا الموقف مع ملكة سبأ فقد قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ

945 - زاد المسير، ج 7، ص 128.

تَفْرَحُونَ اِرْجِعْ اِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا
اَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ قَالَ يَا اَيُّهَا الْمَلَأُ اَيْكُمْ يَاتِبِنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ اَنْ يَاتُونِي
مُسْلِمِينَ {946.

وعليه فهناك أسباب كثيرة تدعو لاستعراض الصافنات الجياد، فإن
كان تفقد الطير وافتقد المهدد، فمن باب أولى أن يتفقد الخيل
لأسباب منها:

. أنّ الحادثة كانت قبل تسخير الرّيح.

. الوهب كان بسبب الإنابة

. قبل الوهب لم يكن لسليمان من أسباب القوّة المادية أعظم من

الخيّل

. الخيل هي القوّة الضارّة لجيش سليمان

. عرضها عليه من رعاية الملك

اهتمامه بها من الأولويات

ومّا ذكر أنّ هذه الخيل كانت ربّاطا في سبيل الله من أجل نشر
الإسلام فكان تفقدها وعرضها عليه أولى من بقية ما يدخل في ملكه،
فكيف يأخذ السيف وهو نبي من أنبياء الله تعالى وينهال على الخيل:

. بقطع رؤوسها

. ضربت أعناقها

. عقرها من سوقها

فهل هذا تفسير قوله تعالى: (فَطْفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) كما فسره كثيرون.

إنّ هذا العمل لا يصدر عن جاهل، فكيف يصدر عن نبي؟

إنّ اختلاف التفسير حسب فهم الآية من عصر إلى عصر قديما وحديثا خاضع إلى تفاوت إدراك المعاني للآيات من فهم إلى فهم ومن عصر إلى عصر فقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطْفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ {947؛ فقد فسرت هذه الآية الكريمة قديما بأن سيدنا سليمان صلّى الله عليه وسلّم لما عرضت عليه الخيل في وقت صلاة العصر شغلته وأهتته عن الصلاة فتملكه الغضب وأخذ يقطع سوق هذه الخيول وأعناقها بالسيف.

وهذا التفسير يناهني تماما ما جاء في وصفه من أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان نعم العبد الأواب، فكيف يصدر عن نبي أثنى عليه الله تعالى هذا الثناء أن يكون قاسيا إلى حد قتل الخيول البريئة التي هي عدة المؤمنين في قتال أعداء الدين والذود عن حياض الدين ودعوة التوحيد بغير ذنب جنته.

وكيف يقطع سليمان سوقها وأعناقها ويصدر عنه فعل كهذا وهو يحمل رسالة التوحيد والنبوة التي سبقه فيها إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام بأن لا يأخذ أحد بجريرة غيره حيث قال تعالى: {أَمْ لَمْ

يُنْبَأُ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى {948.

غير أنّ الأقرب إلى العقل والمنطق وإلى الواقع المفهوم أنّ سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرضت عليه الخيل التي أبرزنا صفاتها.

تلك الخيل التي تسكن حين وقوفها وتسرع حين سيرها، فقال سليمان إني أشربت حب الخيل لأنها:

. عدة الخير .

. المنعة والقوة .

. رباطها في سبيل الله .

. الجمال في الخيل .

هذه الأشياء التي من أجلها أحب سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيل الرِّبَاط والجهاد في سبيل الله، وأن حبها نشأ عن ذكره لربّه لما تقوم به هذه الخيل في نشر دعوة التوحيد، وما زال مشغولا بعرضها حتى توارت في الحجاب وغابت عن ناظره، ثم إنه أمر بردها عليه ليتعرف أحوالها، فأخذ يمسح سوقها وأعناقها بيديه:

. ترفقا بها .

. حبا لها .

. استئناسا .

. إكراما لها .

ونحن نجد الآن مدى الاهتمام بالخيل بعد أن تقدم العلم كثيرا في مجال الطب البيطري وتخصص محدد في الخيول مثل:

. تربية الخيل .

. تدريب الخيل .

. طبابة الخيل .

لا يعمدون إلى شيء في التعبير عن محبة الخيل واستئناسها بإدخال الطمأنينة والهدوء عليها إلا ما فعله سليمان صلى الله عليه وسلم بأن يربت على رؤوسها ويمسح أعناقها وسوقها بيديه لأنه الأسلوب الأمثل في معاملتها.

وأما القول: (إِنِّي أَحَبُّتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) فقد ذكروا في ذلك احتمالين:

أحدهما: أنه أحب حب الخير الذي ينال بهذا الخيل فشغل به عن ذكر ربه وهو الصلاة التي كان يفعلها في ذلك الوقت.

الثاني:

إنه أحب حب الخير وهو يريد به الخيل نفسها فسامها خيرا لما ينال بها من الخير بالجهاد في سبيل الله وقتال أعدائه.

فقول الله عز وجل عن سليمان عليه السلام: {إِنِّي أَحَبُّتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُذُومًا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} 949.

لقد تأوَّله البعض ما قد نَزَّه الله عنه من له أدنى عقل، فكيف بنبي معصوم أنه قتل الخيل إذا اشتغل بها عن الصلاة.

إنَّ هذا الرأي فيه من سخف القول والطعن في النبوة من مصادر معلومة دأبت في عدائها لله وأنبيائه ورسله، لأن هذا العمل لا يليق بإنسان فكيف يليق بالنبوة، ولا نشك أنها مأخوذة عن الإسرائيليات لأن فيها:

. معاينة خيل لا ذنب لها .

. التمثيل بخلق الله .

. إتلاف مال ينتفع به .

. الخروج عن الطبيعة السليمة للإنسان العاقل .

وأما نسبة تضييع الصلاة إلى نبي ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها، هذا أمر لا يستجيزه إنسان كافر.

فكيف يفعل نبي

وكيف لنبي أن يضيِّع صلاته

والمعنى ظاهر بيّن وهو أنّه عليه السلام أخبر أنّه أحب حب الخير من أجل ذكر ربّه حتى توارت الشمس بالحجاب أو حتى توارت تلك الصافنات الجياد بحجابها ثم أمر بردها فطفق مسحاً بسوقها وأعناقها بيده برا بها وإكراماً لها هذا هو ظاهر الآية الذي لا يحتمل غيره وليس فيها إشارة أصلاً إلى ما ذكروه من قتل الخيل وتعطيل الصلاة.

الفتنة:

ليست الفتنة كما يفهمها البعض من أنّها ترك الطاعة واتباع المعصية، أو الإعراض عن الخير والسعي وراء الشر، وإنما هي مغريات في الحياة الدنيا تعرض في حياة الإنسان اختباراً من الخالق للمخلوق قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ} 950.

إنّ الإنسان عندما يولد، تولد معه فرصتان متساويتان ككفتي الميزان اللتين لا رجحان لإحدهما على الأخرى إلا بحكمته أو جهله:

. فرصة الخير

. فرصة الشر

. فرصة الدخول إلى الجنة

. فرصة الدخول في النار

ثم يدخل الإنسان بعد ذلك في سلسلة لا تنتهي من الامتحانات، وهذه الامتحانات تتعمق وتصبح أكثر صعوبة وأكبر حجماً كلّما كبر، وفي بعض الأحيان تغدو امتحانات عسيرة شديدة.

وكّلما ازدادت هذه الاختبارات شدة وصعوبة، ازداد نقاء جوهر الإنسان. والدليل على ذلك أنّ أصل كلمة (فتنة) مقتبس من وضع الذهب في النار، لأن هذا المعدن يختلط بسائر المعادن. فلكي يصفى وتذهب عنه تلك الشوائب، فانه يحتاج إلى (الفتنة) أي إلى أن يعرض للنار ليذوب فيها وتزول الزوائد منه.

ثم إن القرآن الكريم استخدم هذا المصطلح في هذا المعنى بدقة متناهية يوضح المعنى الدلالي للفظ الفتنة في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} 951.

فما هو معنى الفتنة للمؤمنين؟

إنّ الفتنة على ما نرى أن في داخل المؤمن خليطا من رواسب الذنوب والخطايا، فالكثير من الناس كانوا يعانون في مقتبل أعمارهم من انحرافات تعدّ من الصغائر التي يجب أن يتعد عنها الإنسان ويهجرها مثل:

الكذب

الغيبة،

النظر إلى المحرم

الاستماع إلى المحرم

وما إلى ذلك من ذنوب.

فهذه الذنوب تظل في أعناق أصحابها، لأنها مسجلة في اللوح المحفوظ، وقد أحصاها الله تعالى فهو على كلّ شيء شهيد، وكما أنّه كلّ شيء يشهد على الإنسان:

الأرض التي ارتكب الذنب عليها

الجوارح التي مارست هذا الذنب.

أضف إلى ذلك، أن الذنوب التي يرتكبها الإنسان، تترك آثارا على قلبه، فهي ترين عليه، وتحيط به. قال تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} 952.

الفتنة تطهر الإنسان:

وهنا يكمن دور الفتنة الموجب لأنها تتكفل بإزالة رواسب الذنوب، والانحرافات، من نفس الإنسان وقلبه. وقد تتجسد الفتنة في مظاهر كثيرة منها:

الصبر

الجهاد

الغرابة

الفقر

الغنى

الجمال

فالألم الذي يعاني منه الإنسان في هذه الحالات، ويبقى في صراع نفسي بين الخير والشر في مواقف الفتنة ويتشبث بالفضائل والقيم العليا ولا يسقط في الدنيا ويبقى محافظا على اتزانه الإنساني الذي يفرضه الدين والأخلاق والفضائل والقيم، مما يؤدي إلى تطهير القلب، كما تطهر النار الذهب من الرواسب العالقة به. ولذلك؛ فإنّ الإنسان المؤمن حقًا يتعامل مع الفتنة، ويتقبلها بصدر رحب وفق النواميس الإلهية لكي يتخلص من رواسب الذنوب.

وهذا لا يعنى: أنّ الإنسان مهما كان على قدر من الإيمان أن يتمنى الفتنة حتى لا يسقط فيها قال تعالى: { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْتِنِّي وَلَا تَقْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ } 953. بل يجب أن يتعوذ بالله تعالى من جهد البلاء وشدته، ومن التعرض إلى الفتن العظيمة التي لا طاقة للإنسان بها والتي تؤدّي إلى تهيئه وتراجعه، وبالتالي سقوطه في الفتنة.

ومن هذا المنطلق نقول أن سليمان صلّى الله عليه وسلّم افتتن في صراع بينه وبين أعدائه فقد قال تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ } 954.

ولذا؛ فالعقيدة الصحيحة والدين الحقّ قائم على أساس الإيمان بالفتنة والاختبار الإلهي، وبالتالي فإنّ سليمان صلّى الله عليه وسلّم يعلم يقينا مشيئة الإرادة الإلهية في هذه الفتنة الموجبة، ولا نعتقد أنّه تدمر منها كما ذهب جميع من تناول فتنة سليمان صلّى الله عليه وسلّم وقاسوا ذلك على أنفسهم أو على من رأوهم سقطوا في الفتنة مثل الذين يقولون:

لماذا كلّ هذه المآسي والمصائب التي تنزل بنا؟

لماذا لا نعيش مرتاحين كما يعيش الآخرون؟

لماذا لا نخرج من صراع إلّا لندخل في صراع آخر؟

953 – التوبة 49.

954 – الأنعام 112.

إنّ طبيعة الحياة الدنيا تقتضي أن يدخل الإنسان سلسلة من الامتحانات، ولا يستطيع أحد أن يهرب ممّا قدره الله تبارك وتعالى.

الفتنة جزء من الحياة:

وإذا ما أراد الإنسان أن يتخلص من الفتن، فعليه أن يخرج من هذه الدنيا. وإذا خرج منها، فإنّ كلّ شيء سينتهي. فما دامت الحياة قائمة، فإن الفتنة قائمة هي الأخرى إلى اللحظة الأخيرة من هذه الحياة.

وعليه فالفتنة قائمة في كلّ وقت وحين، وهي ليست خاصة بالأنبياء، وإنما فتنة الأنبياء أكبر من الفتن التي تصيب بقية الخلق لأن:

النبى قدوة

معلم

أمّام

فالفتنة صراع قائم على التحدي في القدرة على التحمل والثبات، وبهذا تكون امتحان يستطيع المؤمن العاقل أن يتجاوزها بنجاح من خلال الزاد الذي أمر الله تعالى عباده أن يتزودوا به قال تعالى: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} {955، لكي يتقوى به في تلك اللحظات المصيرية عندما تعرض له الفتنة.

وعلى هذا فإنّ الصراع مع الأعداء أيا كان هذا العدو إمّا هو صراع مبدئي لأنه فتنة، وهذا الصراع في مصلحة المؤمن، لأنّه يزيكه

ويطهره من الذنوب ورواسبها ومن حب الدنيا وشهواتها. فمن الطبيعي أن يكون في الحياة:

صراعات والمشاكل

قائمة على الفتنة

فهذه الفتن إنما هي بمثابة اختبار في الدنيا للعبور إلى الآخرة بنجاح.

وهذا الصراع الثقافي والحضاري والديني الدائر بيننا وبين أعدائنا هو من باب الفتنة الذي ينبغي:

. أن نديره بمهارة وذكاء

. أن نستغله في تربية الروح الدينية

. تنمية التقوى

. إيجاد زخم معنوي في النفوس

. بعث الحالة الحضارية في أنفسنا من جديد

فإن استطعنا فعل هذه الأشياء وتمثلناها خير تمثل نكون قد أخذنا بالفتنة من الجانب الإيجابي الذي أوصلنا إلى النجاح في الامتحان.

الجسد: وأما قوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ} 956. والذي نراه في قوله تعالى: (فتنا سليمان) أي: آتيناه من الملك ما اخترنا به طاعته كما قال تعالى مصدقا لموسى عليه

السلام في قوله تعالى: {إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ} 957.

وقال تعالى: {أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} 958. فهذه الفتنة هي الاختبار حتى يظهر المهتدي من الضال فهذه فتنة الله تعالى لسليمان صلى الله عليه وسلم إنما هي اختباره حتى ظهر فضله.

وأما الجسد الملقى على كرسيه فقد أصاب الله تعالى به ما أراد أن يؤمن به كما هو ونقول صدق الله عز وجل كل من عند الله ربنا، ولو جاء نص صريح في القرآن أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفسير هذا الجسد ما هو؟ لقلنا به فإذا لم يأت بتفسيره ما هو نص ولا خبر صحيح فلا يحل لأحد القول بالظن الذي هو أكذب الحديث في ذلك فيكون كاذبا على الله عز وجل، كما أخذ عن الإسرائيليات: "قيل: فُتِنَ سليمان بعد ما مُلِّكَ عشرين سنة، ومَلِكٌ بعد الفتنة عشرين سنة. وكانت من فتنته: أنه وُلِدَ له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفك من السخرة، فسبيلنا أن نقتله أو نجبله، فعلم. فكان يغذوه في السحاب، فما راعه إلا أن أُلْقِيَ على كرسيه ميتا، فتنبه على خطئه في أن لم يتوكل فيه على ربه، فاستغفر ربه وتاب إليه" 959.

إلا أننا لا نشك البتة في بطلان هذا وأمثاله أيضا في قول من

قال:

957 - الأعراف 155.

958 - العنكبوت 2، 3.

959 - التفسير والمفسرون، ج 1، ص 468.

1 . أنّه كان جنيا تصور بصورته أُلقي على كرسية

2 . أنّ سليمان نفسه أُلقي جسدا على كرسية

3 . ابن سليمان الذي رفعه إلى السحاب أُلقي جسدا

وقبل أنّ نفند هذه الادعاءات والافتراءات على سليمان صلّى الله عليه وسلّم والرد عليها لا بدّ من العلم أنّ هناك:

الجسد:

لا يقال الجسد لغير الإنسان من خلق الأرض ونحوه وأيضا فإن الجسد ماله لون وقوله عزّ وجلّ: (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام)

الجسم:

والجسم يقال لما لا يبين له لون كالماء والهواء

البدن:

يطلق على ما فيه روح

الجرم:

الكتلة من المادة التي لا حياة فيها

فأمّا قولهم إنّّه كان جنيا من الشياطين هو الذي أُلقي على كرسية سليمان صلّى الله عليه وسلّم فهذا منتفٍ من جانبين:

الأول: أنّ هذا لا يليق بمكانة النبوة في إلقاء الشيطان على كرسية سليمان فيأمر وينهى ويحكم ويدّعي بما شاء من الشر وإعراض عن الخير وهو متعارض مع الإرادة الإلهية وحكمتها.

الثاني: أنّ الشيطان لا ينطبق عليه وصف الجسد لأنّه جسم.

وأما أنّ سليمان نفسه هو الذي ألقى على الكرسي جسدا فهو ممتنع لمعارضته صريح النص القرآني، لأن الجسد ما ليس فيه روح.

وأما قولهم أن ابن سليمان الذي خشي عليه من الشياطين أن تقتله فوضعه في السحاب ليربّيه ريثما يكبر ويشتد فعليه ردود كثيرة تبطله منها:

آ. أنّ سليمان هو أعلم الناس بقضاء الله وقدره.

ب. أنّ ابنه لا يخرج عن طبيعة البشر في حاجته للطعام والشراب.

ج. إنّ ضمن حياته في الصغر فكيف يضمن حياته في الكبر.

ولذا، نقطع القول على أنه كذب على الله تعالى وعلى نبيه، لأنّ الله تعالى لا يهتك ستر نبيه بتسلط الشياطين عليه، ولا نبي الله سليمان صلى الله عليه وسلّم وهو يعلم أنّه لا يستطيع أن يغير فطرة الله في خلقه.

وعليه: لا يستطيع مثبتّ أن يقول شيئا عن تفصيل هذه الحادثة المشار إليها في القرآن، وكلّ ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبي الله سليمان عليه السلام في شأن يتعلق بتصرفاته في الملك والسلطان كما يتلى الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم، ويبعد خطاهم عن الزلل، وأن سليمان أناب إلى ربّه ورجع وطلب المغفرة واتّجه إلى الله بالدعاء والرجاء.

{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي
إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} 960.

وأقرب تأويل لهذا الطلب من سليمان عليه السلام أنه لم يرد به
أثرة. إنما أراد الاختصاص الذي يتجلى:

. في صورة معجزة

. أراد به النوع

. أراد به ملكا ذا خصوصية تميزه من كل ملك آخر يأتي بعده

. ذو طبيعة معينة ليست مكررة

. غير معهودة في الملك الذي يعرفه الناس.

وقد استجاب له ربه، فأعطاه فوق الملك المعهود، ملكا خاصا لا
يتكرر عندما أناب.

الابتلاء:

فهذه ابتلاءات من الله تعالى لنبيه سليمان صلى الله عليه وسلم،
والابتلاء سنة الله في أنبيائه خاصة وفي خلقه عامة، ولذا فجميع الخلق
في قاعة امتحان كبيرة يمتحنون بها في هذه الحياة بأشكال متنوعة لأن
كل ما في الحياة هو امتحان وابتلاء:

المال فيها امتحان

الزوجة والأولاد امتحان

الغنى والفقر امتحان

الصحة والمرض امتحان

وعليه فالخلق مبتلى وممتحن في كل ما يملك وفي كل ما يعتره في هذه الحياة حتى يلقي ربه، قال تعالى: {كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُم بِالْبَشْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} 961.

وفي الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" 962.

الابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطاً وثيقاً، حيث جرت سنة الله تعالى في خلقه ألا يُمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وبعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهي سنة جارية على الخلق وأكثر الناس إيماناً أكثرهم ابتلاءً، فقد شاء الله تعالى أن يبتلي المؤمنين ويختبرهم، ليمحص إيمانهم ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك، فقد قال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ} 963. ذلك أن للابتلاء فوائد جمّة وحكم كثيرة منها:

1 . تصفية النفوس:

جعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الخلق، ومعرفة المحق منهم والمبطل، وإظهاره للناس فالله عليهم بذات الصدور، لذلك كان الابتلاء مدعاة لمعرفة جوهر الخلق فيما بينهم، ولأنّ الإنسان لا يعرف حقيقة الإنسان فقد لا يُكشف في الرخاء، لذلك كانت الشدة والابتلاء من

961 - الأنبياء 35.

962 - مسند أحمد، ج 58، 488.

963 - آل عمران 179.

أجل إظهار حقيقة جوهر نفسه للآخرين قال تعالى: {أَحْسِبَ النَّاسَ
أَنْ يُزَكُّوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} 964.

2. التريية والتعليم:

إن ابتلاء سليمان صلى الله عليه وسلم شأنه شأن سائر الأنبياء،
فهم قدوة الأمة التي أرسل إليها وبعث فيها، في تحمل الأعباء والنهوض
بالشدائد، لأنه الطريق الذي لا سبيل غيره لبناء الإنسان الذي يتحمل
المسؤولية وينهض بتكاليفها، طريق التريية لهذه الأمة أو تلك من أجل
إخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال، وهو طريق المزاولة العملية
للتكاليف، والمعرفة الواقعية لحقيقة الإنسان وحقيقة الحياة، ولذا يكون
سليمان صلى الله عليه وسلم قدوة يتبع ويعمل بعمله فيكون التابعون
صالحين لحمل التكاليف بالصبر عليها، وساعتئذ يؤتمنون على العقيدة.

3. الكشف عن خبايا النفوس:

ليس معنى الكشف عن خبايا النفوس أنّ الله يريد أن يعلم ما
تخفي تلك النفوس، فالله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم
حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما
هو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر، فيحاسب الناس إذن
على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم،
وهذه حكمة الله يكمن فيها:

رحمة الله في خلقه

العدل بين عباده

التصفية والتنقية

الرجوع والإنابة

فلا يأخذ الله أحداً بذنب إلا بما استعلن من أمره وبما حقق فعله، وهذا من رحمة الله بعباده وعدله بهم.

4 . الإعداد لتحمل الأمانة:

ما كان لله حاجة . سبحانه، أن يعذب الأنبياء أو المؤمنين بالابتلاء، أو يؤذيههم بالفتنة، ولكن العبرة في هذا الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأشفقن منها وانبرى لها الإنسان، فكان الإنسان في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وبالابتعاد عن الشهوات، وبالصبر على الآلام، وبالثقة المطلقة في نصر الله وثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء، لأن النفس تصهرها الشدائد، فتتفني عنها الخبث وتستثير مكامن قواها الخيرة فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً وأقواها طبيعة، وأشدّها اتصالاً بالله، وثقة فيما عنده من الحُسنين النصر أو الأجر، ولذا كان نتيجة صبر سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الفتنة والابتلاء أن آتاه اللهُ ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

5 . معرفة حقيقة النفس:

وذلك لكي يعرف أصحاب الابتلاء حقيقة أنفسهم، وهم يمارسون الحياة بشقيها ممّا يكون لهم خير في الدنيا وما يدّخرونه للآخرة ممارسة عملية واقعية، ويعرفون حقيقة النفس البشرية وخبايها، وحقيقة الأفراد والجماعات والمجتمعات، وهم يعيشون صراع مبادئ الحقّ ضد

شهوات النفس، وفي أنفس النَّاس أيضا، فيعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس، فيأخذون بسبيل الهدى ويتعدون عن مزالق الضلال.

6 . الثبات على الموقف:

بقدر ما يلاقي المبتلى من المصائب والمصاعب، بقدر ما يظهر ثبات موقفه، وذلك أن القضية التي ابتلى فيها أو من أجلها سوف تعز عليه

يعلو قدرها بتناسب طردي يوازي ما أصابه في سبيلها من بلاء.

وبقدر ما يضحى في سبيلها من عزيزٍ وغالٍ، بقدر ما تكون من المكانة لديه ولدى الآخرين فلا يفرط فيها ولا يتنازل عنها.

7 . الصبر:

الابتلاء هو المختبر الذي يسبر غور صبر المؤمن، فصبر سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الابتلاء كان دعوة صامته لهذا الدين وهي التي تدخل النَّاس في دين الله، ولو وهن أو استكان:

لما نجح في الامتحان

لما استجاب له الله في الوهب

لما سخر الله له ما سخر

ولذا؛ فقد كان صبر سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الباب الذي ولج منه إلى الفرج الذي فتحه الله عليه بصرف النظر عما جاء في حال سليمان أيام المحنة ممَّا قالت به الإسرائيليات ما لم ينزل به الله سلطانا، لذلك ضربنا عن ذكرها صفحا لأنها لا تليق بإنسان معتوه، فكيف نذكرها بحق نبي من أنبياء الله تعالى.

8 . استدعاء عناصر القوّة:

الصمود أمام الابتلاء والوقوف في وجه المصائب وتقديم التضحيات وتضحياتهم، تتوق النفوس القوية إلى اعتناق هذا الموقف بحيث يكثر الأتباع والمؤيدين لهذه العقيدة، ومن خلال الصلابة الإيمانية للمبتلى، تكبر عند الشخصيات الأخرى قيمة ما يؤمن به، فيسارعون إلى العون والمآزره ثم تبني الموقف.

9 . رفع المنزلة والدرجة عند الله:

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه خطيئة"

فقد يكون للعبد درجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمله فيبتليه الله تعالى حتى يرفعه إليها، ولذا فيكون الابتلاء من أجل

رفع الدرجة

تكفير السيئات

استدعاء الرّحمة

تكثير الأتباع

كما أن للابتلاء فوائد غير هذه منها:

معرفة عزّ الربوبية وقهرها

معرفة ذل العبودية وكسرها

الإخلاص

الإناابة إلى الله والإقبال عليه

التضرع والدعاء

ولذلك نرى المؤمن المبتلى أشد فرحا ببلواه من أصحاب النعمة
لأنه يعلم المترتبات على مصائبه من نتائج ولذا فهو:

يفرح بها لأجل فوائدها

الشكر عليها لمضاعفة الأجر

اتساع باب الرحمة من خلال البلاء

معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها بعد كشف البلاء

فهذا بعض ما أعده الله تعالى للمبتلى الصابر على بلواه فوائده في
الدنيا وثواب في الآخرة على اختلاف مراتبها، وكذلك الحلم من الله
عمن صدرت عنه المعصية إن كانت البلوى بسببها ويتمثل في العفو
عن صاحبها، ويكون الأجر أعظم إن كان الابتلاء بغير سبب لأن
المبتلى أخذ بالصبر والاحتساب.

. الابتلاء من ضرورات الإيمان:

لابد أن يمتحن الله أهل الإيمان وبتليهم حتى يميز الصادق من
الكاذب، ولذلك اقتضت حكمة الله تعالى البالغة أن جعل الابتلاء
سببا مفضيا إلى تمييز:

الخبيث من الطيب

الشقي من السعيد

الصالح من الطالح

وبذلك يتخلص الصادق من الوهن البشري الذي لا تسلم منه
نفس بشرية، فتسمو همته فوق الألم ويعلو صبره على الشدائد فيدرك أنه
نال المعالي.

يبتلى المرء على قدر إيمانه

كلّما اشتد إيمانه عظم ابتلاؤه

يتخلص من شرور نفسه وسيئات أعماله

ويطهر طيب نفسه بهذا الامتحان، كالذهب لا يخلص ولا يصفو
من الشوائب إلا بالنيران، فما يبرح البلاء بالمؤمن حتى يتركه يمشي على
الأرض ما عليه من خطيئة ولذلك فيجب على المؤمن أن ينظر إلى
الابتلاء أنه نعمة ورحمة من الله على عباده، يتعهدهم بالابتلاء المرة بعد
أخرى:

لينقيهم

يطهرهم

يذهب عنهم رجز الشيطان

يربّط على قلوبهم

يثبت به الأقدام

ولذا، يجب أن ينظر إلى الابتلاء أنه دليل رضى ومحبة من الله
لعباده، فإن الله إذا أحب عبدا ابتلاه، وكلّما صلب إيمان المرء وقوي
يقينه اشتد بلاؤه، فمن رضى فله من الله الرضى ومن سخط فقد
خسر. لذلك كان الابتلاء سنة من سنن الله في خلقه حيث قال تعالى:

{وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ} 965.

الابتلاء من أسباب التمكين:

لما كان الابتلاء ضرورة إيمانية، فإنّ المؤمن يحصل له الألم ابتداءً،
فإنّ دخل مرحلة الاحتساب تجاوز الألم إلى الصبر الذي يفضي بالنتيجة
أن تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة فلا يمكن المؤمن حتى يبتلى.

وقد ابتلى الله المؤمنين، فلما صبروا مكّنتهم في الأرض واستخلفهم
قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
يُوقِنُونَ} 966.

فلا يظن عاقل أن أحدا يخلص من الألم أو هو في منأى عنه، وإنما
يتفاوت أهل البلوى في ألمهم بعقولهم، لذلك فأعقل أهل ألم البلوى من
اشترى ألماً يسيراً، بألم دائم مستمر فألم البلوى ينقطع:

باحتمسها عند الله

بالصبر عليها

بالرجاء في ثوابها

ثم يعقب ذلك نعمة في الدنيا والآخرة، وكما أن الابتلاء سنة
جارية، كذلك التمكين والاستخلاف لا يكون إلا بالابتلاء قال تعالى:
{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ

965 - العنكبوت 3.

966 - السجدة 24.

وَلْيُبَدِّلْنَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ
بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {967.

وأما ألم البلوى المستمر الذي لا ينقطع في الدنيا والآخرة فيكون
لغير المؤمنين لأنهم يقنطون من رحمة الله بسبب:

تضجرهم من بلواهم

عدم الصبر

عدم الاحتساب

عدم الاسترجاع

قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا
مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} {968.

وعليه فإن الاسترجاع من أعظم أسباب استدرار رحمة الله في
حالات حلول البلوى ونزول المصيبة فقد قال تعالى: {الَّذِينَ إِذَا
أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ
رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ {969.

عدم استعجال التمكين واستدعاء البلاء:

إن سليمان صلى الله عليه وسلم لم يمكن الله له إلا بعد الفتنة
والابتلاء، فإذا كان هذا شأن تمكين الأنبياء الذين اصطفاهم الله فمن
باب أولى أن يصبر غير الأنبياء عليها، ولذا يجب على المؤمن يتأني في
الأمور وينظر في عواقبها، لأن العاقل من نظر على العواقب ، ولم

967 - النور - 55.

968 - الزمر - 39.

969 - البقرة - 156 - 157.

تستفزه البدايات، ولذلك فهو لا يستعجل التمكين وإن جاشت نفسه وتاقت إليه عواطفه، لأنه يعلم أنه لا بدّ من ابتلاء ابتداءً ، وهو لا يتمنى الابتلاء ولا يستدعيه، لأنّ في طياته فتنة مجهولة العواقب لا يدري الإنسان أيصبر أم يضجر ثم ينكص على عقبيه بعد الضجر لذلك وجب أخذ العبرة من الابتلاء ممّا يأتي

أ - ابتلاء مؤمني الأمم الماضية يشير إلى أنه ضرورة إيمانية وأنه سنة جارية في المؤمنين على مر العصور.

ب - انتشار دعوة النبي وانتصاره يدل على أن الابتلاء مقدمة التمكين، وأنّ المؤمن لا يمكن له حتى يتلى.

ج - عدم استعجال التمكين قبل نضوج الحالة باختبار البلاء.

ولذلك، وعد الله سبحانه وتعالى الذين يصبرون على بلواهم بأنّ لهم البشرى ذلك أن الابتلاء هو من الله تعالى بالنص القرآني حيث يقول جلّ شأنه: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} 970.

إنابة سليمان:

ليست الإنابة هي الرجعة أو العودة عن عمل فحسب، وإنما يجب على المنيب أن يحمل مستلزمات الإنابة التي جاءت بها النصوص النقلية من القرآن الكريم، بحيث لا تتحقق الإنابة التي يقبلها الله تعالى إلا بتوفر شروطها التي كان سليمان صلّى الله عليه وسلّم أولى الناس بها عندما أناب إلى الله منها:

آ . التبصر:

قال تعالى: {تَبَصَّرَةٌ وَدِكْرَى لِكَلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} 971.

ب . التذکر:

قال تعالى: {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ} 972.

ج . العقل الذي يقوم عليه التذکر:

قال تعالى: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} 973.

د . الهدى:

قال تعالى: {قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ

أَنَابَ} 974.

هـ . خشية الرحمن:

قال تعالى: {مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ

مُنِيبٍ} 975.

ح . الحلم:

قال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ} 976.

ط . الاعتبار:

971 - ق 8.

972 - غافر. 13.

973 - الرعد 19.

974 - الرعد 27.

975 - ق 33.

976 - هود 75.

قال تعالى: {إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ مِنْهُمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا
مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} 977.

والإنابة مبدؤها التوكل القائم على التقوى قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ
اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} 978. والتقوى الإنابة، لأن التقوى الاحتراز عما
لا ينبغي من الأمور، وهو الرجوع إلى الله تعالى بما يرضي الله، وليس
المقصود بالرجوع هو أن نبي الله سليمان صلى الله عليه وسلم ابتعد عن
ربه ثم رجع إليه، ولكن الإنابة هي العودة في كل شيء إلى الله تعالى
بالتوكل عليه حيث يترتب على التوكل:

الاستغفار بالقول

الاستجابة من الجوارح

الإنابة بالقلب

التوبة إلى الله

ويجب أن يكون معلوماً أنّ الإنابة ليست بالضرورة عن ذنب
اقترفه المنيب، حتى يستغفر بلسانه وتستجيب جوارحه وينيب قلبه إلى
الله، ولكن الإنابة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي زيادة في الأجر
وعلو في الدرجة، فالله تعالى خاطب محمد صلى الله عليه وسلم بقوله
تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ
وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَحِيمًا} 979.

977 - سبأ 9.

978 - الطلاق 2.

979 - النساء 105، 106.

وعليه:

فلاستغفار إنبابة

الحمد إنبابة

الشكر إنبابة

التوكل إنبابة

ففي كلّ هذه الأقوال والأفعال هي إنبابة لأنها تعبر عن العودة إلى الله تعالى والرجوع إليه في جميع الأمور، وبهذا المفهوم كانت إنبابة سليمان صلّى الله عليه وسلّم.

الحكمة وفصل الخطاب:

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ {980}.

لقد آل ميراث داوود إلى سليمان عليهما الصلّاة والسّلام، بكلّ ما فيه من نبوة وملك وعلم، ثم أنّ الله تعالى اختص داوود صلّى الله عليه وسلّم بأشياء كثيرة منها:

أنّه ذو أيدي، والأيدي تحمل معانٍ كثيرة منها

القوّة في الدين

اشتداد قوته

الصناعات التي كانت بيديه

وكذلك:

تسبيح الجبال معه

حشر الطير

اشتداد الملك

الحكمة

فصل الخطاب

قال تعالى: {اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ} 981.

إضافة إلى ما وهب الله تعالى لسليمان من ملك، فقد ورث أيضا ما كان يملك أبوه داوود وما كان يتمتع به، ومن ميراثه الحكمة وفصل الخطاب.

وأما معنى الحكمة كما جاء في اللسان: "والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم" 982.

وقد زاد على ذلك ما جاء في تاج العروس قوله: "والحكمة بالكسر العدل في القضاء كالحكم، والحكمة (العلم) بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها، ولهذا انقسمت إلى علمية وعملية، ويقال هي هيئة القوة العقلية العلمية وهذه هي الحكمة الإلهية وقوله تعالى ولقد آتينا لقمان الحكمة فالمراد به حجّة العقل على وفق أحكام الشريعة وقيل الحكمة إصابة الحقّ بالعلم والعمل، فالحكمة من الله معرفة

981 - ص 17 - 20.

982 - لسان العرب، ج 12، ص 140.

الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفته وفعل الخيرات"983.

فلماذا الحكمة وما أهميتها؟

بداية نقول: إنّ الحكمة هي حسن التدبر في مواجهة المواقف والظروف بالقول والعمل.

وللوقوف على أهمية الحكمة التي آتاه الله لداوود وورثها سليمان عليهما الصلّاة والسّلام، نتوقف عند بعض النصوص القرآنية التي أوردت اللفظة (الحكمة) ومن يتصف بها أو يحملها (الحكيم)، وكذلك ما نراه نحن من أهمية من خلال التأمل بما يأتي:

1. أنّ الحكيم اسم من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}984.
2. أنّ الله أمر بالحكمة في الدعاء إلى سيّله، فقال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}985.
3. أنّ الله أثنى على صاحب الحكمة، فقال تعالى: {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا}986.
4. أنّ الله تعالى امتن على من آتاه الحكمة، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ}987.

983 - تاج العروس، ج 1، ص 673.

984 - البقرة 32.

985 - النحل 125.

986 - البقرة 269.

987 - لقما 12.

5- أن الله تعالى نسب الحكمة إلى نفسه، وجعل إيتاءها من عنده، فقال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ} 988.

وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} 989.

وقال تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} 990.

وقال تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} 991، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

6. أن الحكمة ضالة المؤمن، أين ما وجدها يلتقطها.

7. أن الحكمة هي مدار النجاح في الإقناع والقبول.

فالحكمة من الله تعالى هي معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام.

ومن الإنسان معرفة الحكيم المطلق والعمل النسبي بحكمته في فعل الخيرات.

وللحكمة في آيات الذكر الحكيم معانٍ كثيرة، ومن يؤتى الحكمة فقد حمل هذه المعاني والأخلاق التي تدعو الحكمة إليها، ومن يحمل الحكمة فقد اتصف بهذه الصفات وحمل تلك المعاني، لذلك كانت

988 - البقرة 269.

989 - لقمان 12.

990 - يوسف 22.

991 - البقرة 251.

الحكمة من صفة داوود التي أورها لسليمان عليهما الصلاة والسلام
ومن تلك الصفات والمعاني:

أولاً:

تكون بمعنى النبوة والرسالة وذلك في قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ} 992.

وقوله تعالى: {وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ} 993.

وقوله تعالى: {وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ} 994.

ثانياً:

إصابة الخير في إصابة القول قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ
وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} 995.

ثالثاً:

فهم دقائق الرسالة والنبوة قال تعالى: {وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ
صَبِيحًا} 996.

رابعاً:

الوعظ والتذكير كما ورد في حق إبراهيم في قوله تعالى: {فَقَدْ
آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} 997.

992 - آل عمران 48.

993 - ص 20.

994 - البقرة 251.

995 - البقرة 269.

996 - مريم 12.

وقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
وَالنَّبُوءَ} 998.

خامسا:

الأوامر والنواهي الموصلة إلى سبيل الله، قال تعالى: {ادْعُ إِلَى
سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} 999.

سادسا:

الحجة والعقل قولاً بما يوافق العقل والشرع قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا
لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} 1000.

ومّا تقدم يتضح لنا أن الحكمة لا تختص بالنبوة، وهذا يعني أنّ:

النبوة خاصة

الحكمة أعم من النبوة

الحكمة تشمل الأنبياء وغيرهم

لقمان أوتي الحكمة

لقمان ليس نبيا

داوود نبي أوتي الحكمة

الأنبياء حكمتهم من السماء

997 - النساء 54.

998 - الأنعام 89.

999 - النحل 125.

1000 - لقمان 12.

حكمة الأنبياء تحمل حلولاً ومعالجات

سليمان ورث الحكمة عن داوود

الحكمة شملت الأنبياء وغيرهم

وعلى ما تقدم:

الحكمة من الله مطلقة

حكمة الأنبياء نسبية إلى الحكيم المطلق

حكمة البشر نسبية إلى الأنبياء

حكم البشر متباينة

حكم الأنبياء متماثلة

ولذلك، يمكن أن يكون كثير من البشر حكماء يحملون الحكمة لأنهم بالنتيجة يفضون إلى الخير ما لم يقيد حكمتهم قيد شرعي، فإذا قيدت بقيد شرعي خرجت عن الحكمة التي آتاها الله تعالى لداوود وورثها سليمان عليهما الصلوة والسلام،

ولذا؛ فالحكمة:

أعم من النبوة

النبوة خاصة

النبوة تتضمن الحكمة

الرسالة أخص من النبوة

وعليه:

فالنبي والرّسول حكيّمان، وتشمل الحكمة بعض الأفراد إذا أدركوا
خصائص الحكمة التي منها:

حسن التدبر

العلوم النافعة

المعارف الصائبة

العقول السديدة

الألباب الرزينة

النتائج والحلول الناجعة

إصابة الحقّ في الأقوال والأعمال والأفعال

ثم إنّ جميع هذه الأمور لا تعطي الحكمة لمن يحمل هذه
الخصائص ما لم يحمل صفات تكون مؤهلة لأن يكون حكيماً منها:

وضع الأشياء في مواضعها

تنزيل الأمور منازلها

الإقدام عندما يكون الإقدام عزمًا

الإحجام عندما يكون الإحجام حزمًا

لذلك ممّا تتضمنه الحكمة أن يتقن الحكيم العلم والعمل بما يصب
في الخيرات، ومعرفة الحقّ والعدل وفعل الصواب.

وممّا تضيفه الحكمة على الحكيم أن يميز بين ما يقع في النفس من
الإلهام الإلهي وبين وسواس الشيطان، وبهذا يقف على معرفة حقائق
الأشياء على ما هي عليه بما تبلغه الطاقة البشرية، بحيث لا تلتبس

الحقائق المتشابهة بعضها مع بعض، ولا يقع في الغلط الذي يخلط بين
العلل والأسباب، الأمر الذي يؤدي إلى عدم الوقوف على الحقائق.

فالحكمة تمنح الحكيم:

القصد والاعتدال

إدراك العلل والأسباب

تحديد الأهداف والغايات

ويتم ذلك بالبصيرة المستنيرة التي تهدي للصواب في:

الأقوال:

قال تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ} {1001}.

الأفعال:

قال تعالى: {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا
يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} {1002}.

الأعمال:

قال تعالى: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} {1003}.

1001 - البقرة 156، 157.

1002 - آل عمران 114، 115.

وأما من قال إنّ الحكمة هي النبوة فقد جانب الصواب وابتعد عن الجادة، لأنّ الحكمة عامة على ما بيناه والنبوة خاصة، لأنّه ثبت بالأدلة النقلية أنّ لقمان كان حكيماً ولم يكن نبياً قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}1004. وبذلك خرجت الحكمة من خصوصية النبوة إلى عموم الاستحقاق بالشروط التي منها:

العلم والإتقان

المعرفة

التوفيق في الحقّ

البصيرة النافذة

العمل الصائب

منع الظلم

وضع الشيء في موضعه

الإصابة في القول

الفهم من الله

ما يشهد العقل بصحته

نور يفرق به بين الإلهام والوسواس

1003 - الأنعام 135.

1004 - لقمان 12، 13.

سرعة الجواب بالصواب.

وكلّها تدور حول الخير لأنّها تمنع صاحبها من الوقوع فيما يذم فيه، أو ما قد يندم عليه، وتمنعه من اختيار المفضول دون الفاضل، أو المهم قبل الأهم.

وخلاصة القول وخيره أنّ الحكمة هي فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي.

أقسام الحكمة:

حكمة علمية:

وهي معرفة بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها:

خلقا

أمرا

قدرا

شرعا

حكمة عملية:

وضع الشيء في موضعه.

حكمة معرفية يترتب عليها:

خبرة

تجرّبة

ممارسة

نضج

وللحكمة درجات منها:

1 . إعطاء كلّ شيء حقه دون زيادة ولا نقصان، ودون تعجيل ولا تأخير وكلّ شيء في وقته المناسب له.

2 . معرفة العدل والحكم والبر وصولاً إلى الأهداف المنشودة والغايات المحمودة التي أمر بها الله تعالى.

3 . أن يبلغ الحكيم في استدلاله بصيرته لأن الحكمة لا تكون عن بصر، وهي أعلى درجات العلم، لأن البصيرة تكون نسبة العلوم والمعرفة فيها إلى القلب كنسبة المشاهد إلى البصر وهذه هي خصيصة الحكماء.

وتتضح لنا حكمة سليمان صلّى الله عليه وسلّم في كلّ مواقفه

من:

الجنّ

الإنس

الطير

الدعوة

الرعية

النملة

الآخر

ونأخذ نبأ الهدهد وما تضمنته تلك القصة القرآنية التي أظهرت حكمة سليمان صلّى الله عليه وسلّم وكيف تعامل مع ذلك النبأ الذي

جاء به الهدهد من سبأ وما يحمل من معطيات ومع الهدهد نفسه قال
 تعالى: { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ
 لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ
 بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ
 امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا
 يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
 السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
 الْعَرْشِ الْعَظِيمِ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ أَذْهَبَ بِكِتَابِي
 هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ
 إِنِّي أَتِيْتُ إِلَى كِتَابِ كَرِيمٍ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا
 تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ
 قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ
 إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
 وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ
 بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي
 اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ
 لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ
 أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجَنِّ أَنَا
 آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي
 عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ
 مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ
 فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا
 نَنْظُرُ أَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا
 عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا

كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي
الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبْتَهُ كُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ
مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ {1005}.

فقد تجلت حكمة سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعامله مع
هذه القضية بحيثياتها في منتهى الوضوح، حيث نقف على أبرز مواطن
الحكمة في هذه القصة مما يأتي:

الأمانة والحرص:

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ)

العدل:

(لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأُدْبِحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

التثبت:

(أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ)

الصبر:

(مَا لِي لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)

بُعدُ الرؤية وسعة الأفق:

(فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ)

معرفة المصالح من المفاسد:

(أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ)

القوة بدون عنف، واللين بدون ضعف:

(بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ)

أداء المسؤولية على وجهها:

(قَالَ أُمَّدُونَنٍ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ)

الشورى:

(قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا)

نسبة الفضل لأهله:

(أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَحِثُّكَ مِنْ سَبِّ بَنِي يَاقِينَ)

التنبه والفتنة:

(قَالَ نَكَّبُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا

يَهْتَدُونَ)

الحزم في اتخاذ القرار في الوقت المناسب:

(فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ

صَاغِرُونَ)

فلا تتحقق الحكمة إلا بالتزام الخصائص والسمات التي وقفنا على

بعض مظاهرها

وسماتها في معالجة القضايا الكبرى والصغرى على حدٍ سواء،

ولذلك نجد الحكيم أو من يتصف بالحكمة ويعلم يتمسك موجباتها التي

ذكرنا قسما منها، ويتعد عن نقائصها التي يعلمها فلا يقع بها ومن

هذه النقائص:

1 . الهوى وعدم التجرد:

قال تعالى: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} {1006}.

وقال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبَعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} {1007}.

وقال تعالى: {وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} {1008}.

2 . الجهل:

والجهل ضد العلم، وما وجد الجهل في شيء إلا شانه، وما نزع من شيء إلا زانه، والتأمل في هذه الآيات يبين تأثير الجهل، وأنه والحكمة لا يجتمعان، وأن سبب عدم التوفيق للحق والحكمة هو الجهل:

قال تعالى: {أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} {1009}.

وقال تعالى: {إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ} {1010}.

1006 - ص 26.

1007 - القصص 50.

1008 - المؤمنون 71.

1009 - المائدة 50.

1010 - هود 46.

ومن خلال هذه الآيات وأمثالها يتضح لنا تأثير الجهل على
الحكمة

3 . الأخذ بالظن وعدم الجمع بين الأدلة:

فالأخذ بالظن ليس من الحكمة في شيء ذلك أن الحكمة هي
الإصابة في القول والعمل، هذا من جهة، أما اجتماع الأدلة فأمر
ضروري للوصول إلى الحكمة، لأن اعتماد الدليل يؤدي إلى اتخاذ بعض
المواقف بعيدا عن الحكمة، ومن يعمد إلى ذلك يحسب أنه يحسن
صنعا، غير أنه فطن لشيء وغابت عنه أشياء.

قال تعالى: { وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا
يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } 1011.

4 . الاستدلال بأدلة في غير مواضعها:

مما يؤدي إلى ترك أو إغفال كثير من الأمور الواجبة اعتمادا على
أدلة يريد من يعمد إليها أمّا أن يتنصل من المسؤولية وأمّا أن يغير
الحقائق كمن يتعد عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويستشهد
بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ
إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } 1012.

5 . عدم فهم الدليل:

وذلك بأن يكون الدليل صحيحا والاستشهاد به في موضعه،
ولكنه لا يفهم الدليل على وجهه الصحيح وذلك فرع عن الجهل، وهنا
يخالف الحكمة في تصرفه وأسلوب تطبيقه

1011 - النجم 28.

1012 - المائدة 105.

قال تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ} 1013.

فيأتي الزوج، ولا يفهم معنى هذه الآية، ويقول: إن الواو لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً فيبدأ بالضرب قبل الوعظ والهجر، ويأتي آخر ويضرب زوجته ضرباً شديداً مؤلماً، وكلّ هذا خلاف الحكمة وناشئ من قصور فهم الدليل.

6. قلة التجربة:

ولذا، نجد أن بعض التصرفات من قبل الناس بصرف النظر عن العمر لأن العمر ليس شرطاً في تعاضم التجربة لأنّ من صغار العمر تكون تجربته غنية وكبيرة، ونجد بعض الطاعنين في السن لا يملك أدنى تجربة، وهذا يخالف الحكمة من باب قلة التجربة ومحدوديتها وضعفها.

7. التفرد وعدم الشورى:

إنّ التفرد وعدم المشاورة ليس من الحكمة في شيء، لأنّه:

كلّما تعددت الآراء تلاقحت الأفكار واتضحت الرؤية

وضوح الرؤية يحدد الهدف

تحديد الهدف يوصل إلى الغاية

الوصول إلى الغاية يعني رأس الحكمة

8. عدم تحديد الهدف:

إنّ عدم تحيد الأهداف ورسمها بدقة يؤدي بالنتيجة إلى أمرين:

آ . أمّا عدم اتخاذ قرار

ب . اتخاذ قرار خاطئ

وكلاهما بعيد غاية البعد عن الحكمة

9 . النظرة السطحية:

إن النظرة السطحية للأمور، والوقوف عند ظواهر الأحداث، دون النظر في أسبابها ومآلاتها وآثارها، يؤدي إلى عدم تطابق ما يُتخذ من قرار مع ما يستوجبه الحدث، وبالتالي يجانب الحكمة، لأن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه.

10 . آنية التفكير وموسمية العمل والارتجال:

فعدم تحديد الأهداف ورسمها بدقة يؤدي إلى آنية التفكير وموسمية العمل، وهذا هو الارتجال بعينه، وهذا الأمر لا ينشأ عادة إلا من النظرة السطحية التي لا تتعمق في بواطن الأمور والقضايا التي تستوجبها الحكمة لتكون النتيجة طبيعية في اتخاذ القرار والموافق للحدث، إذ أنّ معالجة ظاهرة من الظواهر أو قضية من القضايا لا يكون الاهتمام بنتيجتها واتخاذ قرار بشأنها دون الوقوف على أسبابها.

11 . تقديم الجزئيات على الكلّيات:

وهذا ناشئ عن:

قصور العلم

قصور النظر

عدم المعرفة

ضعف التجربة

حيث من الحكمة أن يعلم الحكيم الكلية التي نشأت عنها الجزئية من أجل اتخاذ القرار السليم والرأي الصائب في معالجتها.

12 . العجلة وعدم ضبط النفس:

إنّ العجلة من الشيطان، وإذا ابتلي إنسان بهذه الخصلة الذميمة، ستقوده إلى المهالك لما يفقد من اتزان في التعامل مع الأمور، ومن آثار العجلة ومظاهرها عدم ضبط النفس في المواقف التي تحتاج إلى تأنٍ وتؤدة وروية، وأكثر أسباب الندم ناتجة عن العجلة والانفعال غير المنضبط، وهنا تكون النتيجة غير محمودة.

13 . الخلط في المفاهيم:

الحكيم لا بدّ أن ينطلق من مفاهيم صحيحة، وقواعد ثابتة، تستند إلى العقل السليم والبصيرة النافذة، فإذا اختلطت المفاهيم لدى المرء وتشابحت الأمور، لن تصل به إلى مبتغاه، وسيتخبط في سيره ولا يستطيع أن يعطي رأيا صائبا.

ونتيجة للخلط في هذا المفاهيم فإن الحكمة جانبت كثيرا من الناس لعدم التمييز بين الوسائل والغايات والخلط بين الثوابت والمتغيرات

14 . عدم التمييز بين المصالح وبين المفاسد:

وهذا يؤدّي إلى تقديم المصلحة الخاصة على دفع المفسدة العامة، لأنّه من باب أولى دفع مفسدة عامة بالتضحية بمصلحة خاصة، وهذا يعني تقديم المصلحة الدنيا وترك العليا.

وليس الحكيم هو الذي يعرف الخير والشر فقط، وإنما الحكيم من يتجنب الشر ويأخذ بالخير.

15 . الغفلة عن المكائد:

ليس من الحكمة أن يغفل الإنسان عما يراد به من قبل أعدائه، فالحكيم وحامل الحكمة تكون فطنته حاضرة في كل شيء، لأن الحكمة هي فعل ما ينبغي، كما ينبغي في الوقت الذي ينبغي.

فكيف يفعل ما ينبغي كما ينبغي إذا كان لا يدرك ماذا ينبغي؟

16 . اللبس والغموض:

إنّ التباس الأمور والقضايا تجعل الرؤية مشوشة وغير واضحة، وبالتالي فإنّ الذي لا يستطيع أن يميز الأمر في غموضه والتباسه فإنه لا يمكن أن يتخذ قرارا بشأن القضية التي يعالجها، وإن اتخذ قراره في حالة الغموض والالتباس فإن القرار سيكون خاطئا لا محالة وذلك لعدم التمييز.

17 . الغلظة والعنف:

وما وجدت الفظاظة في شيء إلا شأنته، وما نزعنا من شيء إلا زانته، ويكفي لبيان ذلك أن نتأمل قوله تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفُضِّبَ لِقَابُكَ}1014. فسرعة الغضب والانفعال من خوارم الحكمة وقوادحها.

1014 - آل عمران 159.

وراثة سليمان فصل الخطاب:

إنَّ الله تعالى أكرم نبيه داوود صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالحكمة وفصل الخطاب اللذان ورثهما سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقد تناولنا الحكمة التي تعني الإصابة في الأمور ووضع الأشياء في مواضعها. وأمَّا فصل الخطاب فهو قطع الأمور بتلك الحكمة وإظهار حقيقتها عن طريق القول للسامع والمتلقي في كلِّ شيءٍ ممَّا:

أُمر به

ينوي فعله

يُعرض عليه

يُسال عنه

يدعو له

لذلك، دخل في فصل الخطاب كلُّ ما يتعلق بالإنسان في دينه ودينياه، وهذا الخطاب الفصل كان لداوود، وورث سليمانُ داوود عليهما الصلّاة والسّلام.

وعليه: كلُّ ما صدر عن سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أمور الدنيا والآخرة هو فصل للخطاب لا رجعة عنه لأنه:

حقّ

عدل

صدق

إنصاف

ولذا فإنّ فصل الخطاب يحمل بين طياته دعوة التوحيد والأحكام والقوانين والمعاملات والأحوال الشخصية والأخبار والقصص في كلّ ما هو حقّ وعدل وصدق وإنصاف وذلك لقوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ وَمَا هُوَ بِأَهْرَاقٍ} 1015. لما فيه من إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى.

آ . إيجاز اللفظ

قال تعالى: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} 1016.

قال تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} 1017.

وهنا ننف على فصل الخطاب في الحكم الذي هو القصاص بحيث أصبح القصاص حياة عظيمة بأقلّ كلمات لكثرة معانٍ، لأنهم كانوا يقتلون الجماعة بالواحد، وكان يُقتل بالمقتول غير قالته فتثور الفتنة ويقع التشاجر والهرج والمرج وينعدم الأمن، فلما فُصل الخطاب بتشريع القصاص كانت فيه حياة كثيرين، لأنه:

إذا علم القاتل أنّه يُقتل إذا قتل لا يقدم على القتل

إذا قتل فقتل ارتدع غيره

فكان القصاص سبب حياة نفسين أو أكثر وهذا فصل الخطاب في حكم وقضية كبرى يحمل غاية الفصاحة والبلاغة والبيان والوضوح

1015 - الطارق 13، 14.

1016 - النمل 30.

1017 - البقرة 179.

بأقل الألفاظ من حيث جعل الشيء محل ضده، فإن ضدية شيء
لآخر تستلزم أن يكون تحقق أحدهما نافيا للآخر.

والقصاص لا يعنى القتل بحال من الأحوال، وإنما يعنى الحقوق في
المحافظة على الحياة، فكان القصاص حاجزا ومانعا للقتل.

القصاص يحمى الحياة

الضد حاميا لضده

فصل الخطاب في القصاص

ب . إصابة المعنى:

قال تعالى: {أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} 1018.

وقال تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ
ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ
أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ
بِحُجْرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي
أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْتِبَاءِ مِنَ
الرِّجَالِ أَوْ الْوَالِدِينَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ
بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} 1019.

من المعلوم في اللغة العربية أن الخطاب الموجه للمذكر يدخل فيه
المؤنث ما لم تأتي قرينة موضحة تخرج المؤنث منه، وسواء أكانت القرينة

1018 - النمل 31.

1019 - النور 30، 31.

لفظية في النص أم عقلية في الاستنتاج، وحتى لا يلتبس الأمر لأهمية الحكم، كان فصل الخطاب يستوجب الاستطراد والتفصيل في كل جزئية، على عكس آية القصاص التي كان فصل خطابها في الإيجاز المتمثل في (الحياة قصاص).

بينما كان فصل الخطاب في آية المحارم يكفي لذكر المذكر قال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} 1020.

ولو أعاد ذكر المؤنث في الحكم لكان ذلك من العي، فلا يصح أن يخاطب المؤنث بعد ذلك بتحريم:

الآباء

الأبناء

الأخوة

الأعمام

الأخوال

لأن ذلك واضح بالقرينة العقلية من خلال ما حُكم به للمذكر، فكان فصل الخطاب بعدم ذكر محارم الإناث لذكر محارم الرجال.

1020 البقرة 32.

والخطاب في اللغة المخاطبة التي تحمل مضمون الخطاب فالمعنى واحد على حقيقة اللغة أنه يفصل في الكلام ويقطع القول بالخطاب الذي آتاه الله إياه وفصل الخطاب هو البيان الفاصل بين الحق والباطل.

ومثل ذلك في فصل الخطاب ما كان خطابا للخصوص إلا أن القرينة اللفظية دلت على شمول عموم الأفراد قال تعالى: { يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ اتَّقِيْنَ فَلَآ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } 1021.

فالخطاب بالأوامر والنواهي جاء خاصا بنساء النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أن القرائن اللفظية التي جاءت بعد التخصيص وهي:

المسلمات

المؤمنات

القانتات

الصادقات

الصابرات

الخاشعات

المتصدقات

الصائمات

الحافظات

الذاكرات

فقد أدخلت هذه القرائن جميع المسلمات في أحكام الأوامر والنواهي التي تخص النساء.

فطبيعة هذه التعاليم من خلال القرائن عامة لسائر المسلمات، وليس فيها ما يدعو إلى أن تكون خصوصية لنساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وإنما جاء الخطاب لهن خاصة، تشريفا لهن، وإلماحا بأنهن أولى النساء بالالتزام بهذه الأوامر والتعليمات كونهن في بيت النبوة.

فقد فصل الخطاب بدلالة الآيات وصريح البيان، على أنّ ذلك التبرج الذي كانت قد تعودت عليه المرأة في جاهليتها، قد أصبح أمرا محظورا وسلوكا محرما، وأن عليها ألا تكشف من زينتها ومفاتها أمام الغرباء إلا ما يظهر منها بطبيعة الحال وتقع في حرج وضيق من محاولة ستره.

ونلاحظ كيف وضع فصل الخطاب الإلهي هذا الحكم ضمن إطار بارز من الخطورة والاهتمام، عندما عدد أصناف الأقارب والناس الذين يستثنون من عموم هذا الحكم، صنفا صنفا، وبتفصيل لا مزيد عليه،

مع ما يغلب على الأسلوب القرآني من الاعتماد على الإجمال في بيان معظم الأحكام الشرعية، وترك التفصيل فيما لا حاجة لتفصيله.

وأما كلمة (أما بعد) التي تأتي بعد مقدمة الخطاب من أجل الدخول في القضية المقصودة من الخطاب واعتبروها فصل الخطاب بين المقدمة والموضوع فهو بعيد كل البعد عن معنى فصل الخطاب على غرار ما جاء في كتب كثيرة أخذت هذا المعنى:

"قال الله تعالى في حق داود عليه السلام مبينا عن شرف ما أجزل له في العطاء وأطاب وآتيناها الحكمة وفصل الخطاب ذكر أن فصل الخطاب هو (أما بعد) في الخطبة وأنه أول من قالها، وقالت العرب إنّ أول من قالها قس بن ساعدة الأيادي وأول من خطب بها لقمان بعد داوود عليه السلام وبه يضرب المثل في الحكمة والموعظة الحسنة"1022

وللد على هذا الرأي نقول:

أنّ داوود ولقمان لم يتكلّما بالعربيّة

لقد تكلّما بلغتهما

هل أنّ اللغة التي تكلّما بها لها نفس خصائص اللغة العربيّة؟

إنّ لكلّ لغة خصائصها في البناء

لكلّ لغة معانيها في التركيب

لكلّ لغة أسلوبها في المعاني

ولو قبلنا هذا جدلا:

1022 - غرر الخصائص، ج 1، ص 80.

هل كلّ من قال (أمّا بعد) وصل إلى فصل الخطاب

هل كلّ من لم يقل (أمّا بعد) لم يؤت فصل الخطاب

وإذا كانت هذه الكلمة تمنح الخطيب فصل الخطاب فهناك تناقض كبير لدى من ذهب إلى هذا المعنى وحمل المصطلح على الخطباء الذين نسبوا إليهم فصل الخطاب كعمر بن الخطاب وزياد والحجاج ثم قالوا: (تشبه زياد بعمر فأفرط، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك التّاس).

فكيف يكون فصل الخطاب لشخصين أحدهما مفطر والآخر مهلك، والذي نراه أن نسبة المصطلح إليهما لأنهما التزما شروط الخطاب في الخطبة الإسلامية وهي:

الحمد لله تعالى والثناء عليه

الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلّم

كلمة أمّا بعد للفصل بين المقدمة والموضوع

تزيين الخطبة بشيء من القرآن

ومع هذا فقد ذكروا أن معاوية بن أبي سفيان: "استعمل زيادا على البصرة وخراسان وسجستان، ثم جمع له الهند والبحرين وعمان، فقدم زياد البصرة في آخر شهر ربيع الآخر من السنة، فدخلها والفسق فيها ظاهرٌ فاشٍ. فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها"1023

ومع أنّ هذه الخطبة التي ينسب إلى قائلها الفصاحة والبلاغة وتضمنت كلمة (أمّا بعد) ولكن كيف يكون له فصل الخطاب وخطبته:

1023 - نهاية الأرب، ج 5، ص 407.

لم يحمد الله فيها

بتراء

غير مكتملة

لم ترضِ الجميع

تتضمن كلمة أمّا بعد

فالقول الفصل لا يعترض عليه أحد، لا لأنّه يحتوي على كلمة دون أخرى أو تعبير دون غيره، بل لأنّه يأتي على الحقائق ويصيب الغاية ويحقّق الهدف.

ولكي يحقّق الخطاب القول الفصل ويؤتي أوكله في كلّ حين، ينبغي على صاحب الخطاب أن يراعي:

البيئة

العادات

التقاليد

الأعراف

الأحكام

القوانين

وصاحب الخطاب الفصل يعلم مقدار التزام المخاطب بأقواله وأحكامه قبل أن يفصل فيها القول، لأنّه يعلم نوع المخاطب وما يناسبه من أنواع الخطاب، وهذا يعني اختلاف الخطاب باختلاف المخاطبين على مستوى أفراد أو أقوام

لأنّ من مقتضى معرفة ذلك يكون حسن التصرف في التعامل مع
المخاطب في:

إنزال النَّاس منازلهم

نصيحة الأمي غير نصيحة المتعلم

نصيحة الحاكم غير نصيحة المحكوم

الطائع غير العاصي

المؤمن غير الكافر

وما يلزم ذكره لشخص يختلف عما يلزم لآخر، والخطاب مع من
تكرر منه المعصية غير من يتكرر منه الطاعة وهكذا.

صفات الخطاب الفصل:

1 . التأثير:

قدرة الخطاب على التأثير في أذواق المخاطبين وفي أنفسهم، من
أجل الرقي بهم نحو الأهداف المقصودة والقبول بمقتضيات الخطاب
وإقناعهم بالغاية على المستوى:

الفردى

الجماعى

الأخلاقى

السىاسى

الاقتصادى

المادي

المعنوي

وقد اجتمع ذلك في قوله تعالى على لسان سليمان: {فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ اذْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ} 1024.

لقد فصل سليمان الخطاب بهذه القضية لما يحمل خطابه من دلالات مادية ومعنوية ونفسية اجتمع فيه جميع التأثيرات لأن هذه الأنواع من التأثيرات تحقق وحدة البنية الاجتماعية في فهم المقاصد وفي توحيد ظواهرها المتنازعة بحيث تقترب العلاقات والمفاهيم التي تنتمي إلى مجال الظاهرة وتختصر المسافات فيما بينها من خلال فصل الخطاب، حتى يصبح فصل الخطاب هو الصنو الملازم للمجتمع، ويتقدم عليه فيما يحوزه من مساحة وفيرة في كل المجالات. وغير خاف أن هذا مسوغ للعلاقة القائمة في المجتمع على مستوى الأفراد الذي يعالج الواقع الموضوعي من خلال علاقات التأثير والتأثر القائمة بينهما في هذا الواقع نفسه.

2. الترتيبية:

هو أقرب أنواع الخطاب للترتبية وتعديل السلوك وتعليم الناس؛ حيث إنه يرقى بالتفكير والقلب والسلوك من خلال أساليبه المختلفة، كالأساليب النوعية مثل:

الحوار

الجدل

الحديث

الذي تمثل في قوله تعالى: { قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا
قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } 1025.

أو الأساليب البيانية مثل:

التشبيه

الاستعارة

المجاز

قال تعالى: { وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ
كَرِيمٌ } 1026.

أو الأساليب التي تخص علم المعنى مثل:

الدعاء،

الاستفهام

التسوية

النداء

التمني

المقارنة

1025 - النمل 38.

1026 - النمل 40.

الأمر

النهى

قال تعالى على لسان سليمان: {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 1027.

أو الأساليب البديعية مثل:

المحسنات

المطابقة

المقابلة

التورية

المبالغة

وهي أساليب تنبه الحس الجمالي والمتعة في النفوس، وتحمل الفائدة المرجوة في ثنايا الخطاب الممتع، فتوصلها بطريقة محببة بعيدا عن أساليب الجدل الجاف الذي لا تصبر له النفوس ولا ترغب فيه.

3 . قدرته على الديمومة:

الخطاب الفصل لا يؤثر عليه تقلب الزمان ولا تغير المكان، ولذلك هو أكثر تأثيرا وخلودا من أساليب (العلم، الجدل، الخبر) المتقلبة لتطورها وتغيرها المستمر وجفافها، فرمّا تقرأ الخبر لمرة واحدة، ولا ترغب في العودة إليه، بينما يبقى الخطاب الفصل متميزا:

بالحكمة

الجمال

المتعة

الحيوية

الفائدة

وكذلك له صفات الاستمرار في دائرة الممكن المتمثلة:

بالبقاء

الثبات

الخلود

فلا يؤثر على قيمته أو دلالته أو جاذبيته تقادم الزمان والمكان وتقلب الأجيال، لأنه لا يؤدي إلى الملل الذي تقع فيه الأساليب الأخرى، فالنفس لا تملّ من تكرار الاستماع له أو تذكره لأنه مكّمل بالجمال الذي يجذب إليه النفوس.

4 . القدرة على إيصال المحتوى:

يمتاز الخطاب الفصل بقدرته على إيصال محتواه إلى طبقات المجتمع على اختلاف شرائحها ليُسر أدواته (اللغة) التي يمتلكها:

الغني

الفقير

المقيم

المرتل

البدوي

المتحضر

العالم

الجاهل

ومع هذا فهو لا يكلف جهدا ولا مالا، وإنما يحتاج إلى الإصغاء والتفكير والتدبر من قبل المتلقي الذي وقع عليه فصل الخطاب.

5 . التعليم:

إنّ الله سبحانه وتعالى جعل فصل الخطاب أسلوبا لتعليم البشر فهو القول الفصل كما جاء في قوله تعالى: { إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ وَمَا هُوَ بِأَهْرَاقٍ } 1028.

التبيان

التوضيح

التوجيه

الإرشاد

التوعية

فهو شهادة من الله تبارك وتعالى على أنه أفضل أساليبهم لخطابهم والتأثير فيهم؛ ممّا يدل على أهميته وعظمته وفضله وخطره.

6 . الإقناع:

إنّ الوصول إلى فصل الخطاب هو الوصول إلى نتيجة لأنّ استنتاجاته متجددة، لذلك يكون الإقناع من أهم ما يمتاز به فصل الخطاب من حوار وجدل له القدرة على الإقناع بما يطوعه صاحب الخطاب الفصل في اختيار:

الأسلوب

المفردات

الألفاظ

المعاني

الزمان

والخطاب الفصل يطوعه الخطيب عبر اختياره لشكلٍ فني منطقي معين قادر على استيعاب الصراع النفسي بين الرغبتين الذاتية والجماعية، بحيث يوفر وسائل الإقناع من خلال منفذ فني يحمله الخطاب بما يناسب معطيات المتلقي الواقعية، وبالتالي يم الوصول إلى المعالجة في القول الفيصل بفصل الخطاب الذي يحمل صوراً سمعية معنوية للخطاب بما يناسب القضايا التي تكون:

جزئية

كلية

مفردة

مركبة

ثم يضعها في صورة سهلة من خلال التفصيلات الجزئية عبر الصور السمعية المفردة البسيطة وهي غاية الخطيب ومبتغاه لأنّها تتصف بصفات لا يختلف عليها أحد منها:

الحقّ

العدل

الصدق

المساواة

وعلى ما تقدم فلا يكون فصل الخطاب إلا مع الحكمة، ولا ينبغي لمن آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب والحجة القوية غلا أن يكون في الحقّ على الحقّ ومع الحقّ وبهذا يتجنب الظلم البغي المجانب للصواب، بل يكون من شدة الحرص على العدل والحقّ والصدق أن يربط القضايا بالعلل والأسباب للوصول إلى النتائج ليرد المتخاصمين إلى مفاهيم العقيدة السليمة لكي لا يكون همهم هو حل النزاعات والمشاكل، بل ليسيروا في حياتهم بأوامر الله ونواهيه وفق منهج الواهب للحكمة وفصل الخطاب وهذا يعني تحقيق منتهى الغاية التي يبتغيها فصل الخطاب من خلال الحكمة.

فالحكمة اسم جامع لكلّ ما ينبغي علما وعملا وفعلا وقولا، وفصل الخطاب هو القول الحقّ القاطع في كلّ الأمور لأنّه ناتج عن الحكمة، وهذا ممّا أوتيّه داوود صلّى الله عليه وسلّم وأورثه لسليمان صلّى الله عليه وسلّم.

ولقد كانت ملكة سبأ تتمتع بقدرة على فصل الخطاب ناتجة عن حكمة عندما قال الله تعالى على لسانها: {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا

قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَبَهُ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ
بِهَدْيَةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ {1029}.

قضاء سليمان:

قال تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ
فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا
حُكْمًا وَعِلْمًا {1030}.

يذكر الله تعالى خبر وقت حكم سليمان وداوود عليهما الصلاة
والسلام في وقت الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وتفرقت وانتشرت ليلا
بلا راع فرعته وأفسدته، وعلى هذا فالنفش أن ينتشر الغنم ليلا بلا راع.
فاتفق أن دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما: "إنَّ
غنم هذا دخلت في حرثي ليلا فأفسدته فقضى له بالغنم فخرجا فمرا
على سليمان وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم فقال:
كيف قضى بينكما أبي؟ فأخبراه فقال: غير هذا أرفق بالجانبين
فسمعه، داود عليه الصلاة والسلام فدعاه فقال له: بحق النبوة والأبوة إلا
أخبرتني بالذي هو أرفق فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض
لينتفع بدرها ونسلها وصوفها، والحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه
حتى يعود كما كان ثم يترادا. فقال: القضاء ما قضيت وأمضى الحكم
بذلك" {1031}.

1029 - النمل 34، 35.

1030 - الأنبياء 78، 79.

1031 - المفصل في الرد على الشبهات، ج 5، ص 290.

ومن خلال سياق الآيات في المعنى وما أوردته المصادر التاريخية من نصوص نستطيع القول أن حكمهما عليهما الصلاة السلام كان بالاجتهاد وهو جائز على الأنبياء عليهم الصلاة السلام. وقبل أن نتناول استنباط حكمنا على الحكم بأنه:

هل هو وحي من الله

أم هو اجتهاد بتفهم

نقول: قبل الوقوف على الأدلة من الآية في حكمهما عليهما الصلاة والسلام من أنه:

اجتهاد من داوود

اجتهاد من سليمان

أم أنه:

اجتهاد من داوود

وحي لسليمان

أم أنه:

اجتهاد من سليمان وداوود

إذ لا يصح أن يكون وحيًا لكليهما ويناقض حكم أحدهما الآخر.

ونحن نقول: إنّ ما ورد في النص التاريخي دليل على أن حكم سليمان ليس وحيًا بدليل:

قول سليمان عليه السلام غير هذا أرفق

قوله: أرى أن تدفع الخ... صريح في أنه ليس بطريق الوحي

طلب داوود من سليمان دليل على أنه ليس وحيا

لو كان وحيا لوجب على سليمان صلى الله عليه وسلم إظهار

ذلك

لو كان وحيا فهو محرم عليه أن يكتبه

ومع ذلك فإنه:

لم يكن مكلفا بحمل الرسالة

كان صبيا مفهّما

فإذا ثبت أنه لم يكن مكلفا بعد، ورجع داوود صلى الله عليه

وسلم عن حكمه إلى ما حكم به سليمان صلى الله عليه وسلم ووجب

من ذلك:

أن حكم داوود لم يكن وحيا

لو كان وحيا ما عدل عنه

لو كان وحيا ما عارضه سليمان

تفهم من الله لسليمان

وأما أن حكم سليمان كان وحيا فهو منتفٍ أيضا لما قدمنا من

الأدلة التي لا تسوغ ذلك.

وأما من قال: "بأن كلاً الحكيمين عن اجتهاد باطل، لأنّ حكم

سليمان نقض حكم داود عليهما السلام والاجتهاد لا ينقض

بالاجتهاد البتة، فدل على أنهما جميعا حكما بالوحي، ويكون ما

أوحى به لسليمان عليه السلام ناسخا لحكم داود عليه السلام أو كان حكم سليمان وحده بالوحي وقوله تعالى: (شاهدين ففهمناها) لا يدل على أن ذلك اجتهاد¹⁰³².

فإن كان المراد بعدم نقض الاجتهاد بالاجتهاد، هو عدم نقضه باجتهاد غيره فهو تضيق في الشريعة وهو غير جائز.

وإن كان المراد عدم نقضه باجتهاد نفسه في العدول عن الرأي، وهو عبارة عن تغير اجتهاده لظهور دليل آخر فهذا موافق لجميع الشرائع.

وبما أنّ شريعة الله واحدة لذلك نجد من الفقهاء من له أكثر من قول في القضية الواحد كمذهب الأمام الشافعي في أقواله العراقية وأقواله المصرية.

وإن قيل أنه أوحى إلى داود صلّى الله عليه وسلّم أن يرجع عن اجتهاده ويقضي بما قضى به سليمان صلّى الله عليه وسلّم من اجتهاد، فإنّ ذلك يفضي إلى التسليم بالتكرار في كلّ قضية وهو غير جائز بحقّ النبوة.

ولكن الذي نذهب إليه أن داود صلّى الله عليه وسلّم عدل عن حكمه إلى ما حكم به سليمان صلّى الله عليه وسلّم بما أوتي من علم فاستطاع بعلمه أن يصل إلى تفهيم سليمان من القياس إلى الاستحسان:

إنّ رأي سليمان عليه السلام استحسان كما ينبئ عنه قوله: أرفق بالجانبيين

¹⁰³² - المفصل في الرد على الشبهات، ج 5، ص 290.

ورأى داود عليه السلام قياس .

وعلى ما نعتقد أن داوود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أنّه لم يرَ بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت

لذلك حكم بما حكم

بحكمه أصاب العدل

بحكمه وافق الحقّ

وأما سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد رأى رأياً آخر بما فهمه الله:

حيث جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث.

عدم زوال ملك المالك من الغنم.

أوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث إلى زوال الضرر.

أوجب على صاحب الحرث رعاية الغنم من الهلاك مقابل إصلاح

حرثه.

ومهما قيل في قضية الحكم فإنّ ذلك لا يقدر في رأي داوود

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن الله تعالى يقول:

وكلاً: أي داوود وسليمان

أتينا

حكما

وعلما

اختلاف الحكم لاختلاف العلم، ومنه العلم بطريق الاجتهاد لا
لسليمان عليه الصلاة والسلام وحده، فالجملة لدفع هذا التوهم وفيها
دلالة على أنّ خطأ المجتهد لا يقدر في كونه مجتهداً وإنّ الآية دليل
على أنّ كلّ مجتهد في مسألة لا يقطع فيها بالعدول عنها فهو مصيب.

لقد ذكر الله تعالى تخصيص سليمان بفهم القضية لا بفهم الحقّ،
لأنّ داوود وسليمان عليهما الصلّاة والسّلام يفهمان الحقّ ويعرفانه،
فقوله تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ} 1033.

لا يدل على عدم معرفة داود عليه الصلاة والسلام للحقّ، لأنّ
تخصيص التفهيم لسليمان أعطى فائدة أخرى لأنّ كليهما:

أوتي حكماً

أوتي علماً

أوتي معرفة الحقّ

أوتي العدل

أوتي إصابة الحكم

ولقائل أن يقول: إنّ غاية ما في قوله تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا
سُلَيْمَانَ} 1034، هو تخصيصه الصلاة والسلام بالتفهم، ولا دلالة
على عدم ذلك في حقّ داود عليه الصلاة والسلام إلا من طريق عدم
ذكر ذلك في حقّه، فداوود صلّى الله عليه وسلّم:

أوتي علماً

1033 - الأنبياء 79.

1034 - الأنبياء 79.

أوتي حكما

فالضرورة أنّه أوتي فهما غير منصوص عليه لخصوصية القضية التي اختص في فهمها سليمان صلّى الله عليه وسلّم، وليس ذلك بالحجّة القائمة أو الدليل القاطع على عدم تفهيم داوود أكثر من سليمان في قضايا أخرى، وإنّ سلمنا أنّه حجّة غير أنّهما حكما بالنص حكما واحدا، فكان مرجح حكم سليمان هو التفهيم الذي أضيف إليه، والذي يدلّ على هذا قوله تعالى: {وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} 1035.

ولو كان أحدهما مخطئا لما كان قد أوتي في تلك الواقعة حكما وعلما وأن سلمنا أنّ حكمهما كان مختلفا، فهذا يرجح أنّهما حكما بالاجتهاد وكانا محقّين في الحكم، إلا أنّه نزل الوحي بإقرار الله تعالى على وفق ما حكم به سليمان بما فهمه الله تعالى.

وخلاصة القول: أن تفهيم سليمان كان الحكم الأنسب والأوفق في دعوى الخصمين بالمحافظة على درء أدنى ضرر ممكن

وذلك لأنّ داود صلّى الله عليه وسلّم:

كان عادلا في حكمه

حكم بتعويض الضرر

أمّا حكم سليمان صلّى الله عليه وسلّم:

كان حكما عادلا

ضمن التعويض

زاد عليه الإصلاح

وهذا الإصلاح والإعمار هو من التفهيم الذي امتاز به عن داوود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكلاهما قال الحقّ وحكم بالعدل.

الشهادة:

وقوله تعالى: {وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} 1036، جيء بها لبيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بكلّ شيء.

أي: وكنا لما حكم به كلّ واحد منهما عالمن وحاضرين بحيث لا يغيب عنا شيء ممّا قالاه.

وضمير الجمع في قوله تعالى: (لحكمهم) يعود على داوود وسليمان عليهما الصلّاة والسّلام إذا أخذنا برأي من قال إن أقلّ الجمع اثنان.

وإذا أخذنا برأي من قال لا يكون الجمع إلا بثلاثة فصاعداً، يكون ضمير الجمع عائداً على سليمان وداوود عليهما الصلّاة والسّلام وعلى غنم القوم وحرث القوم أي: وكنا للحكم الواقع بين الجميع شاهدين.

والضمير المنصوب في قوله تعالى: (ففهمناها سليمان) يعود إلى القضية أو المسألة التي عرضها الخصوم على داود وسليمان عليهما الصلّاة والسّلام.

أي: ففهمنا سليمان الحكم الأنسب والأوفق في هذه المسألة أو القضية، وذلك لأن داود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إصدار حكمه قد أصاب الحقّ ووافق العدل فيما حكم وهذا عدل فحسب.

أمّا حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء والإعمار وجعل العدل دافعا إلى البناء والتعمير، وهذا هو العدل الحقّ الإيجابي في صورته التي تضمن تمام الحقّ للخصوم، وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء.

وقوله تعالى: (وكلاً آتينا حكما وعلما) هو ثناء من الله عزّ وجلّ على داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، والمقصود من هذا الثناء دفع ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أن داود لم يكن مصيبا في حكمه.

أي: كلّ من داود وسليمان قد أعطينا من عندنا (حكما) والحكم يحمل في طياته:

النبوة

الحكمة

الحقّ

الصواب

القول

العمل

وكذلك أعطينا كلاً منهما (علما) الذي يصدر عنه أشياء كثيرة

منها:

الفقه

القضاء

المعرفة

وكثيرا ما يرد التساؤل عن هذا الحكم الذي أصدره داود وسليمان
عليهما الصلّاة والسّلام في قضية الحرث:

أكان بوحى من الله إليهما

أم كان باجتهاد منهما

والراجع من مفهوم نص الآية أنّه كان باجتهاد منهما عليهما
الصلّاة والسّلام، لا كما ذهب البعض في أنّه كان وحيا من الله تعالى
إلى نبيه عليهما الصلّاة والسّلام حيث ذكروا:

أنّ حكم داود وسليمان في الحرث المذكور في هذه الآية كان
بوحى.

أنّ ما أوحى إلى سليمان كان ناسخا لما أوحى إلى داود.

غير أنّ القرائن العقلية التي تفهم من النص نستطيع أن نبيّ عليها
حكما أقرب إلى الصواب ممّا قيل من أنّه وحى.

ففي الآية قرينتان على أنّ حكمهما كان باجتهاد لا بوحى:

الأولى: أنّ سليمان أصاب فاستحقّ الثناء باجتهاده وإصابته

الثانية: أنّ داود لم يصب فاستحقّ الثناء باجتهاده

وعدم الإصابة لا يستوجب لوما ولا ذما لأن من اجتهد وأخطأ
فله أجر، ومن اجتهد وأصاب فله أجران

لذلك أثنى الله سبحانه وتعالى على سليمان بالإصابة في قوله:
(ففهمناها سليمان) وأثنى عليهما معا في قوله: (وكلا آتينا حكما
وعلما).

فقوله: (إذ يحكمان) دلّ على:

أنهما حكما فيها معا

كلّ منهما بحكم مخالف لحكم الآخر، ولو كان وحيا لما ساغ
الخلاف.

ثم قال: (ففهّمنها سليمان) فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود،
ولو كان حكمه فيها بوحى لكان مفهّما لتلك القضية كما فهّما
لسليمان.

وقوله: (إذ يحكمان) مع قوله: (ففهّمنها سليمان) قرينة لفظية
على أنّ الحكم لم يكن بوحى بل باجتهاد وأصاب فيه سليمان أكثر من
إصابة داود بتفهم الله له.

والقرينة الثانية: هي أنّ قوله تعالى: (ففهّمنها)، يدل على أنّه
فهمه إياها من نصوص ربّما كان عندهم من الشرع، لا يفهم من التفهيم
أنّ الله تعالى أنزل عليه فيها وحيا جديدا ناسخا لحكم داود عليهما
الصّلاة والسّلام.

موت سليمان:

{فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَهَمُهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ مَا لَبِثُوا
فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} 1037.

إنّ كان ينجو أحد من الموت فسليمان صلّى الله عليه وسلّم أولى
خلق الله بذلك لما أتاه الله من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ممّا
سخره له من:

الجنّ

الإنس

الطير

الريّح

إسالة عين القطر

ما ورثه عن أبيه

ومع ذلك؛ فإنّ الله تعالى قضى عليه الموت وجرت سنة الله تعالى على عبده سليمان صلّى الله عليه وسلّم فيما يجري على الخلق أجمعين.

قضى الله الموت على سليمان صلّى الله عليه وسلّم وفارق الحياة والجنّ ماضية تعمل بأمره فيما كلفها من عمل وهي لا تعلم نبأ موته حتى جاءت معجزة أخرى من الله تعالى، فلم تعلم الجنّ نبأ موت سليمان صلّى الله عليه وسلّم حتى جاءت حشرة الأرضة تأكلّ عصاه التي كان مرتكزا عليها.

فمن خلال النص القرآني في هذه الآية نستنتج براهين كثيرة في

اتجاهين

الأول: القدرة الإلهية فيما جرت به مشيئته بعلمه تعالى منها:

. أنّ الله في خلقه شؤون

. أنّ هذه الحشرة أعلنت موت سليمان

. أعلنت نهاية رسالة سليمان

. صدقت رسالة محمّد

. أَنَّ الْغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ .

الثاني: الدلالة الاستنتاجية من السياق والمعنى وهي:

. العذاب المهين لا يتحقق إلا بطول المدة .

. الجنّ لبثت في العذاب المهين مدة طويلة بعد موته .

. العذاب المهين دليل على أنهم مجبرون فهرا .

. طول المدة دليل على أنّ أجساد الأنبياء لا تبلى .

{فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَهَمُهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ مَا لَبِثُوا
فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} 1038.

ومن الآية نعلم أنه كان متكئا على عصاه حين وافاه أجله، والجنّ تروح وتجيء مسخرة فيما كلّفها إياه من عمل شاق شديد فلم تدرك أنه مات حتى جاءت دابة الأرض وهي الأرضة التي تتغذى بالأخشاب، وهي تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراهة في الأماكن التي تعيش فيها فلا تبقى على المادة الخشبية، فلما نخرت عصا سليمان لم تحمله وتداعت العصا فخرّ سليمان صلّى الله عليه وسلّم على الأرض فعلمت الجنّ موته وعندئذٍ: (تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ).

وهذا الأمر يثبت لنا حقائق ويبطل ادعاءات

أمّا الحقائق التي يثبتها فمنها:

. أَنَّ الْجِنَّ خُلِقَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ .

. سَخَّرُوا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ

. مَحْجُوبُونَ عَنِ الْغَيْبِ الْقَرِيبِ (مُوتِ سَلِيمَانَ)

. لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ شَيْئًا

وَأَمَّا الْأَدْعَاءُ الَّتِي يُبْطِلُهَا فَمِنْهَا:

. عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي يَدْعُوهُ

. الَّذِي يَأْتُونَ بِهِ هُوَ السِّحْرُ

. السَّاحِرُونَ لَا يَفْلِحُونَ

. لِذَلِكَ لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ

وَهُنَا يَتَبَادَرُ التَّسَاؤُلُ:

إِذَا كَانَتْ الْجِنَّ مَسْخُورَةً لِسَلِيمَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَقُومُونَ
بِأَعْمَالٍ كَثِيرَةٍ تَدْخُلُ ضَمْنَ إِعْمَارِ الْأَرْضِ فَهَلْ يَكُونُ هَذَا مِنَ الْعَذَابِ
الْمُهِينِ؟

لَقَدْ وَجَدْنَا أَنَّ الْجِنَّ الَّذِينَ سَخَّرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِسَلِيمَانَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُونَ بِأَعْمَالٍ قَدْ لَا يَسْتَطِيعُهَا الْإِنْسَانُ:

قَالَ تَعَالَى: {قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ
مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ} 1039.

وَقَالَ تَعَالَى: {وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَرْغُ
مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ
وَمَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ} 1040.

فهم كانوا يقومون بكلّ ما يُطلب منهم من القيام بمهمات خاصة
أو العمل بين يدي سليمان صلّى الله عليه وسلّم في الصناعة والبناء
والفن وما إلى ذلك مثل:

. التنافس في تنفيذ الأوامر

. بناء القصور والمحارِب

. الفن في إبداع التماثيل

. صناعة الجفان كالجواب

. صناعة القدور الراسيات

أضف إلى ذلك أن الله تعالى قال: (يعملون له ما يشاء) ومعلوم
أنّ:

العمل عام

الصناعة خاصة

العمل قضية كلية

الصناعة قضية جزئية

الصناعة جزء من العمل

وطالما أنّهم يعملون فهم بالضرورة يصنعون، وسليمان صلّى الله
عليه وسلّم نبي ملك يعلم أن هذه الدنيا ميدان فسيح لمعركة لا تنتهي
إلا بانتهاؤها، والغالب فيها:

صاحب القوّة

صاحب القوّة هو صاحب الكلمة

الكلمة الحقّ يدعمها أسس

أول الأسس هو العمل

وأما الجانب الاستنتاجي التربوي بما يعملون له ممّا يشاء في
الإصلاح والإعمار من أجل التوجيه للآخرين:

. أنّ يعلم الناس أن الجد والعمل خير من تضييع الوقت فيما لا
ينتفع به

. أنّ اللهو المباح هو ما كان مع ترويجه يعين على خير أو يفتح
بابا لخير

. كلّ إنسان أن يعلم أهله وأبناءه أهمية العمل والجد

. كيفية استغلال أوقات الفراغ

. أنّ يبغض إليهم تضييع الوقت فيما لا ينفع

فسليمان صلّى الله عليه وسلّم في نبوته يحمل:

مبادئ

أهداف

غايات

فتحقيق الهدف قائم على تطبيق المبادئ الموصلة إلى الغاية عن
طريق العمل الكلّي، لأن العمل أشمل أنواع الحركة:

القول باللسان من عمل اللسان نفسه

الإقرار بالجنان من عمل القلب

التصديق للقول والإقرار من عمل الجوارح

ولذا؛ فيدخل في العمل:

الدعوة إلى التوحيد

العبادات

الأمر والنهي

الإعداد من القوة

البناء والتشييد

الصناعة والزراعة

الجهاد

ولذا؛ فإنّ الله تعالى أمر بالعمل مطلقا دون قيد أو شرط ثم ردّ تقييم ذلك العمل إليه بقوله تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} 1041.

فجنود سليمان كلّهم يحتاج إلى من يعلمهم ويهديهم، ولا يتم ذلك إلا عن طريق العمل فلا يظلم نفسه صلى الله عليه وسلم بترك تعليمهم عن طريق العمل، ولا يظلمهم بجرمانهم ممّا يعلمه من العمل الموصل إلى الهداية، ولذا فعمل سليمان نفسه من جهة وعمل جنوده

1041 - التوبة 105.

من جهة ثانية يكوّن اتحاداً في الأهداف والغايات ويتفرّد هو بالمبادئ
ومن هنا أدرك حقيقة دوره في هذه الحياة.

ومن ضمن العمل الأمر بالمعروف في الدعوة إلى الإسلام، والنهي
عن المنكر هو النهي عن الكفر، وهو أعظم أنواع العمل التي قام بها
سليمان صلّى الله عليه وسلّم. فالواجبات كثيرة والأوقات قليلة فمن
تأمل حقيقة هذه الحياة وجد واجباتها أكثر من وقتها:

. العبادات التي يجب القيام بها

. قضاء الحوائج والإحسان إلى الآخرين

. تعلم العلم وتعليمه

. الرعاية والتفقد

. إعداد العدة لإرهاب العدو

. التربيّة والتدريب

. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وكلّ واحدة من هذه الأمور تدخل ضمن العمل وإن لم تصرح به
الآية (يعملون له) فلا يفهم من هذا أنّ العمل كلّّه خالصّ لسليمان،
وإنّما الأمر بالعمل الصادر عن سليمان له ثلاثة اتجاهات:

آ . عمل لله تعالى

ب . عمل لسليمان

ج . عمل للعامل نفسه

ونحن لا نعتقد أن الهدف من عمل الجنّ هو لبثهم في العذاب المهين، وإن كان عذابهم جزء من المهمة الكلّية التي يقومون بها لأتمّها مغايرة لطبيعتهم، إنما أراد الله تعالى أن يؤكد على أهمية العمل في الحياة الدنيا، فإن كان الجنّ يعملون عملاً يؤدّي خدمة للإنس، فمن باب أولى أن يخدم الإنس نفسه ويقوم بأعمال تصلح دينه ودينه.

وربّ قائل يقول: أن الله سبحانه وتعالى شمل جميع الجنّ المسخرين لسليمان صلّى الله عليه وسلّم بالعذاب المهين بدليل الآية في قوله تعالى: (فلما خرّ تبينت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين).

وهذا يعني حسب من يظن ذلك أنّ جميع الجنّ المسخرين لسليمان:

. أمّا أنهم كافرون جميعاً .

. وأمّا أنّهم ارتدوا فاستحقّوا العذاب المهين .

. وأمّا لم يؤمن أحد منهم بسليمان ونبوته .

وعلى هذا يستطيع أن يقول من يظن ذلك، أنه مخالف لما جاءت به نصوص نقلية كثيرة تؤكد على أنّ الجنّ منهم المؤمن ومنهم الكافر لأنهم سمعوا كتاب موسى الذي هو التوراة وكتبها من بعده فأمنوا بما جاءت به تلك الكتب.

قال تعالى: { وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا

قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي
إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ {1042}.

وقال تعالى حكاية عن الجنّ: {وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ
فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا} {1043}.

والردّ على هذا الظن أو الادعاء ودفعه من أيسر الردود في فهم
واستيعاب المعنى لمن لديه أدنى معرفة باللغة العربيّة من باب إطلاق
الكلّ على الجزء إذ لا يفهم من قوله تعالى: (فلما خرّ تبينت الجنّ أن
لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين). أنّ الذين لبثوا في
العذاب المهين جميع الجنّ، بل ربّما المشمول بذلك:

. جزء منهم

. بعض الجنّ قلّ ذلك أم أكثر.

. شياطين الجنّ وسماهم باسم النوع.

ودليلنا في ذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} {1044}. فالخطاب جاء باسم
نوع النَّاس:

لأنّ هناك من لا يعبد ربّه الذي خلقه.

وهناك من يعبد ربّه.

الذين يعبدون جرى عليهم الخطاب مع عدم نفي العبادة.

1042 - الأحقّاف 29 - 30.

1043 - الجن 14.

1044 - البقرة 21.

الذين لا يعبدون جرى عليهم الخطاب لعدم العبادة.

الذين يعبدون والذين لا يعبدون دخلوا في الشمول.

قرينة العبادة أخرجت العابدين من الشمول.

القرينة نفسها حددت الخطاب لغير العابدين.

ومثل ذلك في منتهى الوضوح بما لا يدع مجالاً لشك مريب أو تردد مراتب ما قاله تعالى في حقّ جميع النَّاسِ شمولاً باللفظ واستثناءً بالمعنى قوله عزّ وجلّ: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} {1045}.

ظهر الفساد في البر والبحر.

السبب بما كسبت أيدي النَّاسِ.

وعليه النَّاسِ مفسدون.

من النَّاسِ صالحون مع ظهور الفساد.

لفظ النَّاسِ شمل الصالح والمفسد.

القرينة العقلية تخرج بعض النَّاسِ من الإفساد.

ولذلك؛ فإنّ معنى الكلام هو من باب إطلاق الجزء على الكلّ باسم النوع لأنّه ليس جميع النَّاسِ مفسدون، وإنما الفساد الذي ظهر في البر والبحر يفهم منه:

ما كسبت أيدي بعض النَّاسِ.

ما كسبت أيدي جزء من النَّاسِ.

ما كسبت أيدي قليل من الناس.

ما كسبت أيدي كثير من الناس.

بجيث يبقى الاستثناء قائما للبعض الآخر من الناس لوجود
المصلحين الذين لا يمكن أن تخلو منهم الأرض، لأن الله سبحانه
وتعالى:

يدفع فساد أولئك بصلاح هؤلاء.

ظهور الفساد لا يعني عمومه استغراقا للبر والبحر.

لو كان عاما شاملا لاستغرق جميع الناس.

لو استغرق الجميع ما بقي على الأرض من مصلح.

عدم وجود مصلح يعني قيام الساعة.

لذلك قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ
الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} 1046.

وعلى ما تقدم من الأدلة والبراهين النقلية التي جاء بها القرآن
الكريم نعلم أنه ليس جميع الجنّ لبثوا في العذاب المهين، وإنما لبث
بعضهم، وبعضهم لم يلبث على ما بيناه.

أين ملك سليمان؟:

لقد ثبت من النصوص النقلية من خلال ما بيناه في ثنايا بحثنا عن
سليمان صلى الله عليه وسلم، أن البناء المادّي الذي يدل على الحضارة
والعمران في ملك سليمان صلى الله عليه وسلم كان معظمه من عمل

الجنّ بدليل قوله تعالى: {وَمِنَ الْجِنَّةِ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ} {1047}.

فالجنّ مخلوق عاقل مكلف مثله مثل الإنسان بيد أنه خفي علينا يرانا ولا نراه وفيهم الصالح والطالح والمؤمن والكافر، وأصل الشيطان فيهم بالطبع لقوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} {1048}.

لقد عمل الجنّ في خدمة سليمان صلّى الله عليه وسلّم وفي بناء ملكه واستقراره بكلّ طاقاتهم طائعين أو مرغمين، وكان عملهم في جميع المجالات ممّا ذكرنا من:

الصناعة

الزراعة

العمران

البناء

الفن

وهذه مقومات الدولة الحضارية التي تتمثل فيها كلّ مقومات القوّة والديمومة والاستمرار في ترك الأثر المادي الذي يدل على وجود تاريخ للحضارة يتمثل في تقدمها العلمي والعمراني، إلى جانب تاريخها

1047 - سبأ 12.

1048 - الأعراف 27.

السياسي وما ينضوي تحت ذلك من ثقافة كانت أسسا لبناء تلك الحضارة الذي يمثله الملك الذي قام عليه من:

الحقّ

العدل

الإدارة

التوجيه

الاقتصاد

الدواوين

وما إلى ذلك ممّا تحتاجه دولة الملك القوية، وإن جرت عليها الحتميات التاريخية فلا بدّ أن يبقى أثرا ما يدلّ على تلك الحضارة والدولة والملك، لاسيما أنه ملك مختلف عن جميع أنواع الملك للحضارات التي سبقته أو التي تلتها، بما تهيأ له من عناصر مثل

القوّة

الخبرة

الإمكانات

المهارات

القيادة القوّة بما تتمتع به من عناصر تساعد على بقاء الملك رغم الحتميات التاريخية التي تجري على جميع الحضارات، لأنّ أيّ دولة أو ملك هو كائن عضوي حي لعلاقته بالإنسان الذي وعليه فإنّ أيّ ملك

تجري عليه الحتميات التاريخية، وما جرت عليه الحتميات جرى عليه
أثرها ولذا فهو:

يولد ويموت

له بداية ونهاية

يخضع لعوامل النمو

يخضع لعوامل الفناء

يترك أثرا

ولكي نكون واقعيين في إيصال الفكرة المقصودة نقول:

لماذا لم نجد أثرا باقيا لملك سليمان؟

حضارات وأملاك قبل سليمان أثرها موجود

حضارات وأملاك بعد سليمان أثرها موجود أيضا

ولتوضيح ذلك نقول: من المعلوم أن موسى صلى الله عليه وسلم

قبل سليمان بزمن، قلَّ ذلك الزمن أم كثر:

موسى معاصرا لفرعون

الفراعنة تركوا حضارة معروفة

ملك الفراعنة وحضارتهم قبل ملك سليمان

ملك سليمان أعظم من ملك الفراعنة

أثر ملك الفراعنة وحضارتهم باقٍ

أثر ملك سليمان لم يبقِ

ويمكن أن نقيس على ذلك حضارات وأملاك أخرى جاءت بعد
سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا نَقَفَ عَلَى آثَارِهَا وَهِيَ شَاخِصَةٌ إِلَى
الآن مثل:

الحضارة الإغريقية

الحضارة الرومانية

الحضارة الإسلامية وما ينضوي تحتها من تفرعات كثيرة:

أموية

أندلسية

عباسية

عثمانية

فهذه الحضارات منها ما كان عمادها الإيمان، ومنها ما كان
عمادها الكفر، ومع ذلك فإن كلاً النوعين:

أقل من ملك سليمان

أضعف من ملك سليمان

ملك سليمان تعزز بالنبوة

الأملاك الأخرى خالية من النبوة

كلّها تركت أثراً نقف عليه ونشاهده

ملك سليمان لا أثر له.

وملك سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ملكان:

آ . ملك موهوب من الله تعالى

ب . ملك موروث من داود

ملك النبوة الموروث لا يورث

الملك الموهوب لا ينبغي لأحد

فإذا كانت عوامل التغيير الإيجابي هي التي تساعد على بقاء أثر الملك فمن باب أولى أن يبقى أثر ملك سليمان أكثر من بقاء أثر ملك غيره، إذ أنّ هذه العوامل كانت جلية في ملك سليمان صلّى الله عليه وسلّم مثل:

عدالة الحكم

اتساع رقعة الدولة

قوة الدولة وسلطانها

تضافر الأنواع في بنائها

توفر لها ما لم يتوفر لأيّ ملك

العوامل الاقتصادية

وقد تهيأ لملك سليمان من عوامل بقاء الأثر في ذلك الملك ما لا نقف عليه في أي ملك آخر حيث تمثل ذلك في أشياء كثيرة منها:

اجتماع الأنواع وتضافرها في بناء هذا الملك وخدمته

خلوه من الأخطاء

الملك منظم ضرورة للعمران

المجتمع محافظ عليه بالتفقد

شؤونه منظمة حسب أنواعها

الظلم مدفوع عن الرعية

العدل محقق لهم

عمران الأرض وإصلاحها

إسعاد الناس في دنياهم

تهيئة الأسباب للسعادة في آخرتهم

يقوم بنظام الحكم (خليفة) يحكم وفق الشريعة الإلهية

العلم والتعلم عنصرا أساسيان في هذا الملك

ومن العناصر المهمة في بناء الملك واستمراره وما يترك من أثر بعد

ذلك، ما يقوم عليه الملك من تشريعات التي تتمثل في جانبين من

المصادر:

الأول:

أمّا أن تكون إلهية المصدر سياسة دينية

الثاني:

أمّا أن تكون من نتاج عقلاء وأكابر الدولة وأهل النظر فيها،

فهي سياسة عقلية

وبما أن سليمان صلي الله عليه وسلّم نبي ملك، فإن التشريعات

التي يسوس بها ملكه ودولته هي تشريعات إلهية نافعة في الدنيا

والآخرة.

ولذا فيجب أن يكون التمكين له أكثر من غيره، ذلك أنّ الخلق ليس المقصود دنياهم فقط، لأن الدنيا في القانون الشرعي هي لهو ولعب قال تعالى: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} 1049. فالحياة الدنيا في القانون الشرعي الإلهي:

زينة

لهو

لعب

ومع ذلك فإن الحياة تملؤها الموجبات التي تجعل الإنسان خليفة في الأرض قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} 1050.

وغاية هذه الحياة ونهايتها الموت، والله تعالى يقول: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} 1051.

ولذا ما كان الله سبحانه وتعالى ليبقي أثر لهوٍ أو لعب ظهر على يد نبيه سليمان صلى الله عليه وسلم، ليس حقيقة وإنما قياسا على الآخرة.

فالمقصود إنما هو دينهم، المفضي إلى سعادتهم في آخرتهم، وعليه فإن زوال أثر ملك سليمان استنادا للغاية القصوى وهي الآخرة، يكون

1049 - العنكبوت 64.

1050 - القصص 77.

1051 - المؤمنون 115.

ذلك أمر طبيعي وهذا أول الأسباب لعدم وجود أثر ملكٍ لسليمان
صلى الله عليه وسلم.

ولما كانت الجنّ تعمل بأمر سليمان مكرهة بما ينافي طبعها، فقد
كانوا لاثنين في العذاب المهين الذي أكرههم عليه سليمان صلى الله
عليه وسلم، فلما علمت الجنّ بموته انفكت من ذلك العذاب وعادت
إلى طبعها في عدم الإعمار والبناء والإصلاح قال تعالى: {فَلَمَّا خَرَّ
تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ
الْمُهِينِ} 1052.

وقد ثبت أنهم عقلاء ويأكلون ويشربون وهم مكلفون، وبهذا
يكونون قد شاركوا الإنس وطبقوهم في ثلاث خصال منها:

العقل

الأكل

الشرب

وقد فارقوا الإنس بالطبع لأنهم مجبولون على الإفساد أكثر من
الخير ولذا كان أصل الشيطان بالجنّ طبعاً وبالإنسان صفة قال تعالى:
{ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ
عَنَّهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا
تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } 1053.

ومن هنا كان العداء قائماً بين الإنس والجنّ، فلما قهرهم الله
سليمان صلى الله عليه وسلم وسخر بعضهم له حيث قال تعالى:

1052 - سبأ 14.

1053 - الأعراف 27.

{وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِحْفَانٍ كَالْجُتَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ} 1054.

كان ذلك خروجاً عن طبعهم في أنهم:

آ . العداة النسبي بين الجنّ والإنس

ب . فطرة الإفساد الغالب على الجنّ

ولأجل استكمال التسخير واستتبابهم لأمر سليمان صلّى الله عليه وسلّم قال تعالى: {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُغْوِصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} 1055.

وأما مسألة الحفظ ففيها احتمالات:

آ . أنّ الله تعالى وكلّ بهم جمعاً من الملائكة كانوا عليهم حفظة مثل حفظة الإنس.

ب . أنّ سليمان نفسه بتسخير من الله وكلّ بهم جماعة من مؤمني الجنّ.

ج . أنّ الله تعالى ألقى في قلوبهم حبّاً له أو خوفاً منه بإطاعته وعدم مخالفة أمره.

د . بسطان سليمان صلّى الله عليه وسلّم يفعل بهم ما يشاء.

1054 - سبأ 12، 13.

1055 - الأنبياء 82.

فهذه الاحتمالات هي حفظ لهم من عدم المغادرة والمفارقة في إطاعة الأمر وتنفيذ ما كلفوا به، وأما حفظهم عن الآخرين فيتمثل فيما يأتي:

آ . يحفظهم الله على سليمان ألا يذهبوا ويتركوه.

ب . يحفظهم من أن يؤذوا أحدا طالما أنهم مسخرون لسليمان.

ج . يحفظهم من عدم إفساد ما يقومون به من عمل، لأنّ دأب الشياطين هو الإفساد.

وعليه فإنهم لا يقدرّون على الامتناع من سليمان صلّى الله عليه وسلّم وعصيانه، فالله تعالى حفظهم لسليمان:

بقوته

بعزته

بسلطانه

وقد قضى الله تعالى الموت على سليمان صلّى الله عليه وسلّم حيث قال تعالى: {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} 1056.

وكان قضاء الموت من الله تعالى على سليمان صلّى الله عليه وسلّم أن ترتب عليه:

1 . دابة الأرض دلت الجنّ على موته

2 . جهل الجنّ بالغيب

3 . رفع العذاب المهين عنهم

4 . لم يعد لأحد سلطان عليهم

5 . عودتهم إلى ما كانوا عليه

6 . نقض ملك سليمان الذي بنوه له

والدليل على أنّهم نقضوا ملك سليمان من العمارة والبناء، أنّهم أخفوا حقيقة دعوى سليمان ورسالته وصاروا يتلون السحر والشعوذة وينسبونه لسليمان صلى الله عليه وسلّم، وقد برأ الله تعالى نبيه من عملهم بقوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} 1057.

وعليه فإنّ الشياطين من الجنّ:

نقضوا ملك سليمان المادّي

استبدلوا إرث سليمان الثقافي

وقد تحققت دعوة سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما قال:
{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ
الْوَهَّابُ} 1058.

فقوله لا ينبغي لأحد من بعدي فيه وجوه كثيرة منها:

أنّ هذا الملك لا يكون مثله لأحد

لا يكون هذا الملك لأحد من بعدي

لا يكون جزء من هذا الملك لأحد من بعدي

وبهذا، انتهى ملك سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بانتهاء حياته
عندما تسلط الشياطين على ذلك الملك وعاثوا به إفسادا وتخريبا انتقاما
لما لبثوا في العذاب المهين، غير أنّ الشياطين قد لبثوا في العذاب بعد
موته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما خربوا ذلك الملك بطلب من سليمان
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كي لا ينبغي ذلك الملك لأحد من بعده، فقامت
الشياطين بإفساده وتخريبه بناء على طلب سليمان وليس اختيارا منهم
على ما يظنون، والنتيجة التي يمكن أن نخلص إليها في انتهاء ملك
سليمان وعدم ظهور أثر كان:

بطلب من سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الشياطين قامت بتنفيذ ذلك الطلب

استمرارهم في العذاب بنقض ذلك الملك من حيث لم يحتسبوا

وعليه فإنّ أثر ملك سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زال عندما

قضى اللهُ تعالى عليه الموت استجابة لدعائه بحيث:

وهبه ذلك الملك في حياته ولم ينبغي لأحد في حياته
أزال ذلك الملك كي لا ينبغي منه شيئاً لأحدٍ بعد موته.

فلا طائل من البحث عن أثر زال، ومهما جدّوا في البحث فلن
يصلوا إلى نتيجة، لأن ذلك الملك لا ينبغي لأحد من بعد سليمان
صلّى الله عليه وسلّم.

التابوت الذي تحمله الملائكة

لقد ثبت بالدليل النقلي من القرآن الكريم أن التابوت الذي تحمله
الملائكة كان آية لطالوت تدل على أنه الملك الذي اختاره الله تعالى
ليقود بني إسرائيل في حروبهم بناء على طلبهم من نبي لهم حيث قال
تعالى: {إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ} 1059.

لمن كان التابوت؟

ما الغاية من التابوت؟

ما الذي يوجد في التابوت؟

ما هي قضية التابوت؟

التابوت كان آية تمليك طالوت

هل آل التابوت إلى داوود بعد طالوت؟

هل ورث سليمان هذا التابوت عن داوود؟

هل أن طالوت نفسه استلم التابوت من الملائكة؟

أم أن الملائكة كانت تحمله؟

وهل ما تحمله الملائكة ينبغي للبشر؟

وهل الذين يبحثون عن التابوت هم أهل لحمله؟

من المعلوم أنّ بني إسرائيل يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحقّ، وذلك ثابت في النصوص النقلية في جميع الكتب السماوية دون استثناء، ولأنّ الله سبحانه وتعالى صبور حلِيم فكان يمد لهم حيناً ويعذبهم بذنوبهم حيناً آخر.

فإذا كان الله تعالى اختار الملائكة لحمل هذا التابوت وهم مفطورون على الخير فقط، فكيف يحمله من جبل بالمعصية؟

إنّ التابوت وما فيه من سكينه وبقية ممّا ترك آل موسى وآل هارون من الطهر والقداسة بحيث لا ينبغي لأحد أن يحمله ما لم يصل إلى مستوى الملائكة من الطهر والقداسة أيضاً.

وأما الذين يبحثون عن التابوت من أجل حمله مرة أخرى نيابة عن الملائكة فقد وصف الله تعالى بصفات أعمالهم التي كانت تصدر منهم بما يأبى أي إنسان أن يحملهم أدنى خشاش الأرض لما جاء في وصفهم وأعمالهم.

فمن افتراءاتهم:

. أنهم أبناء الله وأحباؤه:

قال تعالى: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ

مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ {1060}.

. الكذب على الله تعالى:

ومعلوم أنهم لا يؤمنون حتى تأتيهم الآيات ليس من قبيل الإيمان
بالآية ولكن من باب الجدل بغير حق وقولهم على الله الكذب، قال
تعالى: {الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِنَا
بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُتِلْتُمْ
فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {1061}.

. نسبو الفقر إلى الله:

قال تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ
أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتَلَهُمُ الْآنبيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ
الْحَرِيقِ} {1062}.

. نبذهم العهود:

قال تعالى: {أَوَكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ} {1063}.

. نقضهم المواثيق:

1060 - المائة 18.

1061 - آل عمران 183.

1062 - آل عمران 181.

1063 - البقرة 100.

قال تعالى: {فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفَرْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلْتُمُ
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} 1064.

. قتل الأنبياء والعصيان والاعتداء:

قال تعالى: {وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} 1065.

وقد أردنا من هذا التقديم أن نبين أن هؤلاء الذين يدعون وجود
تابوت موسى في هيكلك سليمان ويجدون البحث عنه من أجل أن
يستفتحوا به، فلن يجدوه مهما طال بهم الزمن والجهد والهديان وسنين
ذلك تباعا.

إن التابوت الذي فيه السكينة وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل
هارون كانت تحمله الملائكة آية وعلامة دالة لتمليك طالوت عليهم
بناء على طلبهم عندما قالوا: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ
مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ ائْتِنَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ لِنَكُونُ مِنْ
عَسَائِرِكَ إِن كُنْتُمْ عَلَى كُنُفِكُمْ الْقِتَالَ إِلَّا تَقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا
إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} 1066.

1064 - النساء 155.

1065 - آل عمران 112.

1066 - البقرة 246.

فالملاً جماعة يجتمعون للتشاور سموا بذلك لأنهم أشرف يملؤون
العيون مهابة والمجالس بهاءة لا واحد له من لفظه كالقوم لا واحد له
من لفظه أيضا.

فقال الملاً (ابعث لنا ملكا) أي: أقمه لنا ونصبه سلطانا علينا
يتقدمنا ويحكم علينا في تدبير أمور الحرب، وليس المقصود بالملك هو
التمليك من حال الملك، فقد طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكا،
فبعث الله لهم ملكا، ولأن نبيهم يعرف طبعهم ومواقفهم في التردد
ونقض المواثيق ونبد العهود فقد أجابهم وفق معرفته بهم فقال: (هل
عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا)؛ فالأمر كما كان يتوقعه أنهم
لا يقاتلون، ولذلك قال هل عسيتم أن لا تقاتلوا لأنه كان يتوقع ذلك،
فأدخل (هل) مستفهما عم هو متوقع عنده وأنه صائب في توقعه بدليل
مجادلاتهم ورفضهم فيما بعد حتى جاءهم معجزة.

ومع هذا فإن نبيهم سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكا فقال
تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى
يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ
قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي
مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} 1067.

لأنهم رفضوا أن يملكوه لذلك جاء التكليف من الله تعالى بآية
معجزة للدلالة على أنه أمر من الله وهو يختار من عباده من يشاء، وأن
آية ملكه أن يأتيهم التابوت.

فقد اختار الله تعالى (طالوت) ليكون الملك الذي له تدبير الأمور العسكرية في القتال والحرب، إلا أنهم ما لبثوا أن اعترضوا تملكه عليهم انطلاقاً من المقياس المادي الدنيوية:

الحسب

النسب

المال

لم يكن من أبناء الملوك

لم يكن من أصحاب الغنى

دنو الدرجة الاجتماعية

ووفق هذه المقاييس رأوا أنّ أيّ واحدٍ من الملاء هو أحقّ بالملك من طالوت، لذلك جاء جوابهم معترضين ومستبعدة تملكه بصيغة الاستفهام الإنكاري (أنى يكون له الملك علينا).

ثم عززوا ذلك الاستبعاد بقولهم: (ونحن أحقّ بالملك منه) كأهمّ يرون أنّ الملك لا يكون إلا كائناً عن كائناً، وأنّ طالوت لم يسبق لأحد من آباءه أنّه تولى الملك بخلافهم وهم عليه القوم:

الملوك كانوا منهم

كيف جاءه الملك!؟

لم يؤت سعة من المال

وعلى هذا فإنه:

أمّا أن يكون فقيراً

وأما ليس لديه سعة من المال

ومن هنا كان الاعتراض على تملكه عليهم وقد عللوا ذلك

بسببين:

الأول: سبب اجتماعي لأنه غير معروف من الملاء وليس عنده

حسب ولا هو من أبناء الملوك

الثاني: سبب مادي

ليس عنده مال فهو ليس من الأثرياء الذين يُخضعون الناس

بأموالهم.

ولكن هناك فرق كبير بين قول نبيهم: (إنّ الله قد بعث لكم

طالوت) حيث عبر باللام الدالة على أن هذا الملك بُعث لمصلحتهم

لأنّ الله بعثه، وبين قولهم: (أنيّ يكون له الملك علينا) حيث أشاروا إلى

أنّ بعثه كان لغرض السيطرة عليهم.

وفرق كبير بين المقاييس البشرية والمقاييس الإلهية، فالله تعالى:

اصطفاه عليهم

اختاره لهم

زاده بسطة في العلم

زاده بسطة في الجسم

فزيادة العلم من أجل تدير الملك الذي يحتاج إلى الحكمة والحنكة

والرأي ممّا جعله الله تعالى مفضلاً عليهم من هذا الجانب.

وزاده بسطة في الجسم التي تعطي معنى الضخامة والقوة والشجاعة التي يحتاجها القائد العسكري الذي يملأ العين مهابة، وبهذا اجتمعت فيه أهم صفات القيادة وأعلىها مرتبة بحيث يجب أن يتمتع بها أي قائد عسكري منها:

القوة المعنوية

القوة العقلية

القوة البدنية

ومما تقدم نستنتج الآتي:

. أن نبيهم وافقهم على أن يبعث إليهم ملكا ليقاتلوا في سبيل الله فدعا الله عز وجل فاستجاب له.

. كمال تعظيم الأنبياء لله تعالى، وحسن الأدب معه لقول نبيهم: (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) ولم يقل: إني بعثت.

. أسند نبيهم الفضل إلى أهله لقوله تعالى: (إن الله قد بعث لكم)

. أن الله قد يعطي الملك من لا يترقبه بصرف النظر عن الغنى والحسب والنسب

. خطاب نبيهم لهم باختيار الألفاظ التي يكون بها إقناع المخاطب، وتسليمه للأمر الواقع لأن قوله: (إن الله قد بعث لكم)؛ فإنه أبلغ في الإقناع والتسليم من قوله: إني بعثت لكم.

. أن المعترضين ذكروا وجه اعتراضهم بقولهم: (أنتي يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال).

. أن استفهام الملاء يحتمل منه:

أَنَّ يكون المراد به الاعتراض

ويحتمل أن يراد به الاستكشاف

البحث عن السبب بدون اعتراض: كيف يكون ملكا ونحن أحقّ

بالمملك منه؟

لم يؤت سعة من المال؟

فإن كان الاحتمال الأوّل فإن ذلك يقضي إلى الحكم بجهلهم،

فكيف يعترضون عليه وهم الذين طلبوا أن يبعث لهم ملكا!

وإن كان الاحتمال الثاني فهو اعتراض على النبوة لأنهم طلبوا

ذلك من نبي!

. لقد تسلسل نبيهم في مخاطبتهم بما يصل بهم إلى الإقناع بادئا

بالأهم فالمهم:

إنّ الله اصطفاه عليكم وهذا ما لا جدال فيه لأنه اختيار من الله

تعالى

إنّ الله زاده بسطة في العلم:

لتدبير الأمور في الحرب والقتال

والرأي الصائب في المواقف وهي مهمته الأساسية

إنّ الله زاده بسطة في الجسم الذي يشمل:

القوة

الطول

المهابة

وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي يُؤْتِي مَلِكَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وَفَعَلَهُ هَذَا لِأَبَدٍ
وَأَنْ يَكُونَ مَقْرُونًا بِالْحِكْمَةِ: فَلَوْلَا أَنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ طَالُوتَ
هُوَ الْمَلِكُ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَلِكَةَ، وَأَنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ:

فهو ذو الفضل الذي يمدّه إلى من يشاء من عباده

فله أن يتفضل على من يشاء

الله أعلم حيث يجعل رسالته

الله أعلم حيث يجعل ملكه

. إِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يُوطِدُ أَرْكَانَ الْمَلِكِ يَجِبُ أَنْ يَحْمَلَ وَفْقَ مَا يَرُونَ

من مفاهيم بشرية تحمل مزايا منها:

الحسب

النسب

المال

بدلالة قوله تعالى: (أَتَى يَكُونُ لَهُ الْمَلِكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ

منه ولم يؤت سعة من المال).

غير أنّ الله تعالى اصطفى طالوت عليهم لأنّه:

1 - بعثه لهم مهيا

2 - مستعدا لنشر العلم

3 - يمتلك إرادة الفعل

كلّ ذلك من أجل قيادة تنظيم اجتماعي يتعلق بالجانب

الإنساني، وكما أنّ الآيات تشير في تلك الفترة إلى:

وجود نبي بين أظهرهم

الملك سمّي والنبي لم يسمّ

(إذ قالوا لنبي لهم) تحتمل تعدد الأنبياء

عظم هذا النبي في بني إسرائيل

الثقة فيما يقول نبيهم

. فكان اصطفاء الله لطالوت عندما زاده بسطة في العلم والجسم له

دلالات:

العلم الذي يحمل أشياء كثيرة منها:

العدل

الحقّ

المعرفة

القضاء

وأما زيادة بسطة الجسم ففيها:

القوّة

مواجهة الآخر

بدلالة قوله تعالى: (إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم

والجسم)

فتقدير الله عزّ وجلّ فوق كلّ تصور لقوله تعالى: (إنّ الله اصطفاه

عليكم) مع أنّهم قدّحوا فيه من وجهين:

أَتَمَّ أَحَقَّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ

وَأَنَّهُ فَقِيرٌ

غير أنّ الشرط الأساسي في الاختيار هو معرفة أمور الناس، لذلك
زاده بسطة في العلم لينال:

الاحترام

التقدير

الاعتراف

أمّا الفقر فليس عيباً ولا يقدر في شخصية الفقير، وإمّا الذي
يقدر في شخصية الإنسان هو جهله وعدم معرفته أمور الناس
ومعاملتهم.

فبيّن نبيهم أن الله اصطفاه عليهم بما تقتضيه الحكمة.

وذلك لأنّ كلّما كان ولي الأمر ذا بسطة في العلم، وتدير الأمور،
وبسطة في الجسم والقوة كان أقوم لملكه، وأتم لإمرته؛ لقوله تعالى: (وزاده
بسطة في العلم والجسم).

لأنّ ملك البشر هو ملك الله لقوله تعالى: (والله يؤتي ملكه من
يشاء) فهذا الملك في مملكته هو في الحقيقة ما ملك إلا بإذن الله عزّ
وجلّ فالملك لله سبحانه وتعالى وحده يؤتيه من يشاء.

ولذا، نتبين أن ملك البشر الذي يملكونه ليس ملكاً مطلقاً
يتصرفون به كما يشاؤون، بل هو مقيد بما أذن الله به وبما نهي عنه.

وعليه: فلا يتصرف المالك فيما يملك إلا على حسب ما تقتضيه
الحكمة الإلهية، فلو أراد الإنسان أن يتصرف في ملكه كما يشاء مثل

الحرق والإتلاف فليس له ذلك البتة، لأن ملكه تابع لملك الله سبحانه وتعالى، فقد ثبتت المشيئة لله سبحانه وتعالى بقوله: (من يشاء) ومشيئته تعالى تابعة لحكمته لقوله عز وجل: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} 1068.

لأنّ الأفعال من الله سبحانه وتعالى تقع بمشيئته ولا مكره له بها، لأنّه المهيمن بالمطلق على كلّ شيء.

وبناء على ما تقدم فإنّ الملأ منهم يجب أن يكونوا على بينة من كلّ ما تقدم ذكره:

علما

معرفة

إدراكا

وذلك لأنهم على القوم وأشرافهم وأشياخهم من حيث الفهم والعقل والدراية لاسيما أنّ نبيا بين أظهرهم لا ينطق عن الهوى، وقد أتى إليهم بالمعجزة حيث قال تعالى: {وَقَالَ هُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ} 1069.

فكانت آية ملك طالوت أن جاءهم هذا التابوت علامة تدل على أن ملكه حقّ، لأن فيه ما يطمئنون إليه من السكينة كما قال تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ

1068 - الإنسان - 30.

1069 - البقرة - 248.

هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا {1070}.

ولذا؛ فقد كان في هذا التابوت:

ما يسكن نفوسهم

يهدئ روعهم

يطمئن قلوبهم

أنّ طالوت هو الملك الذي اختاره الله لهم عندما سألوا نبيهم أن
يبعث لهم ملكا.

وزيادة في السكينة والاطمئنان فإن داخل التابوت أشياء يعلمونها
لأنّها من صلب عقيدتهم التي كتبها الله عليهم، وقد ذهب البعض إلى
أن ما في التابوت:

عصا موسى

ثيابه ونعلاه

عمامة هارون

ونحن نقول:

إنّ الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام يتركون للناس أشياء لا تمت إلى
المادة بصلّة

لأنّ الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا وإمّا ورثوا العلم.

فهذا التابوت كان مفقودا، وجاء به هذا الملك الذي بعثه الله لهم،
وصار معهم يصطحبونه في غزواتهم فيه السكينة من الله سبحانه
وتعالى، بأنهم إذا رأوا هذا التابوت سكنت قلوبهم وانشرحت صدورهم،
وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون عليهما الصلوة والسلام من
النبوة في:

الحجة

السكينة

وقد جمع الله تعالى آل موسى وآل هارون عليهما الصلوة والسلام
وخصهما بالذكر لأنهما جاءا برسالة واحدة.

لقد كان هذا التابوت رحمة من الله سبحانه وتعالى دلالة على أن
الله تعالى:

رحيم

حليم

حكيم

فقد أيد الله تعالى نبيهم بالآيات لتقوم الحجة عليهم بعد إجابة
طلبهم؛ لقوله تعالى: (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه) ولو شاء الله عز
وجلّ لفعل ذلك دون آية:

يملك طالوت

يرحم المصدقين

ينتقم من المستكبرين

ولكن الله تعالى لأنه رحيم حلِيم حكِيم فقد بعث بالآيات حتى:

يصدق نبيه

تطمئن القلوب

تقوم الحجّة

ولهذا، ما من رسول أرسل، إلا وأوتي من الحجج والبراهين
والآيات بما يؤمن به البشر إلا من كان:

جاحدا

مكابرا

معاندا

فلولا الحجّة والبرهان لا يطاع نبي، ولكن من رحمة الله تعالى
وحكمته أن جعل للرسول آيات كي تقوم الحجّة ويستجيب الناس.

إنّ ما في التابوت من الآيات العظيمة، حيث كان هذا التابوت
مشتملا على ما تركه آل موسى وآل هارون من:

العلم

الحجّة

السكينة

فالسكينة لهم لينتفعوا بها، والحجّة عليهم، والسكينة تسكن إليه:

نفوسهم

قلوبهم

وبذلك يكون لهم اطمئنان قلبي من السكينة واطمئنان عقلي من الحجّة.

ولقد قدم السكينة لما لها من تأثير على القلوب، (فيه سكينة من ربكم) ثم أضاف تلك السكينة إلى نفسه عزّ وجلّ زيادة في التأكيد وتنويها إلى أن في ذلك عناية خاصة في معالجة الأمر والقضية التي أردوا استبائها، لأنّ السكينة إذا نزلت تؤدّي إلى:

اطمئنان القلب

وارتياح النفس

انشراح الصدر

وبذلك يتم القبول والرضا قبولاً تاماً لأنّه لم يعد هناك مجالاً للشك فيما سألوا عنه أو طلبوه بسبب السكينة التي في التابوت.

إنّ حمل الملائكة للتابوت فيه دلائل كثيرة (تحمله الملائكة) منها:

. أنّ الملائكة جمع

. الجمع يدل على الكثرة

. الكثرة تدل على عظمة المحمول

والعظمة هنا تأخذ جانبيين

الأول جانب مادي:

فالجانب المادي من حيث الحجم لأن تكاثر الملائكة على حمل التابوت لا بدّ أن يكون من العظم ما لم يستطع حمله إلا الملائكة.

الجانب المعنوي:

معلوم أن الملائكة هم رسل الله إلى أنبيائه ورسله من البشر، وما تحمله الملائكة ما ينبغي أن يكون ثيابا أو طعاما، وإنما الذي تحمله الملائكة رسالة الله تعالى إلى البشر من العلم والحكمة والشرائع، فهذا لا ينبغي لغير الملائكة.

فإن كانت الملائكة تحمل شيئا فهو من هذا الباب

والمحمول أمّا أن يبلغ للبشر عن طريق نبي لا ينبغي لغيره من بعده، وأمّا أن تحمله الملائكة علامة دالة على معجزة تشاهد من البشر ثم ترجع به الملائكة بعد قيام الحجّة، فيظل محمولا مع الملائكة، وبهذا ينتفع المؤمن بما شاهد (إنّ كنتم مؤمنين) لأن ذلك مقياس لدرجة الإيمان وليس استلام التابوت من الملائكة وحمله عنهم.

ولذا، جاء التأكيد على اختصاص الملائكة بحمل التابوت واختصاص من أتاهم التابوت بسبر غور إيمانهم بأدوات التأكيد المكررة:

آ . إنّ (إن آية ملكه)

ب . أنّ (أن يأتيكم التابوت)

ج . إنّ (إن في ذلك)

د . اللام (لآية لكم)

هـ . إنّ (إن كنتم مؤمنين)

إنّ تكرار أدوات التوكيد في هذه الآية التي ذُكر فيها التابوت دليل على أنّ حمل التابوت من اختصاص الملائكة، وقطع علاقة الحمل أو الملامسة للتابوت مع البشر لما جاء من تأكيد على أنّ حمل التابوت من قبل الملائكة هو:

آ . آية وعلامة دالة على تمليك طالوت

ب . حمل التابوت من اختصاص الملائكة

ج . ما ينبغي للملائكة لا ينبغي للبشر

د . ما جاءت به الملائكة آية تعود به

هـ ما تحمله الملائكة تبقى تحمله

وبعد ما ذكرنا من أدلة وبراهين حول التابوت الذي كان آية
لتمليك طالوت على بني إسرائيل بما أكده نبيهم.

التابوت تحمله الملائكة لأداء مهمة

الملائكة عادت بالتابوت محمولا بعد انتهاء المهمة

فالذين يبحثون عن التابوت إنما يبحثون عن أسطورة من
الأساطير، ولا نقصد بأسطورة وجود التابوت، لأن مجيئه كان على يد
الملائكة حقيقة واقعة ثابتة بالأدلة، وإنما أسطورة عودته واحتمالية
الحصول عليه ليست في محلها، لأنه لم يثبت أن هذا التابوت:

. بقي على الأرض

. أنّ الملائكة تركته

. لم تسلمه لداوود

. ليس التابوت ممّا امتلك داوود

. سليمان لم يكن التابوت في ملكه

. التابوت ليس في إرث سليمان

فالباحثون عن التابوت يضيفون أسطورة أخرى تتعلق بالهيكل،
يدور حولها الآن جدل ومناقشة، إنها أسطورة التابوت، ونقول أسطورة
باعتبار ما يردده اليهود عنها اليوم وإلا فإنّ التابوت الذي كان من زمان
موسى عليه الصلاة والسلام والذي حملته الملائكة في زمن (نبي لهم)
لتثبت لبني إسرائيل أحقية (طالوت) بالملك.

الملائكة كانت تحمل التابوت وتتقدم استفتاحا بالنصر (كما
يزعمون).

داوود صلى الله عليه وسلم كان مقاتلا في جيش طالوت.

سليمان لم يولد بعد.

الملائكة لم تسلم التابوت لأي من:

نبي لهم

طالوت

داوود

لأنهم لا طاقة لهم به، ولو كان لأحد منهم القدرة على حمل
التابوت لكان أولى من يحمله نبينهم الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكا.

إنّ التابوت الذي ذكر في سورة البقرة وتحمله الملائكة هو حقّ،
ولكن ما ليس حقّا أنّهم يزعمون الحصول عليه مرة أخرى، ليكون معهم
في معاركهم الفاصلة مع أعدائهم فيكون النصر حليفهم!

ونقول: التابوت آية للرسول والأنبياء، والذي يعطى للرسول والأنبياء
لا يعطى لغيرهم من حيث المعجزات، لذلك نعتقد أنّ التابوت الذي
جاءت الملائكة تحمله، إنما هو لأداء مهمة تأييدا لنبينهم بما أمرهم به.

والتابوت حسب تراثهم كان موجودا في الهيكل الأصلي، وكان يضم قطعا من ألواح التوراة وبقايا مما ترك آل موسى وآل هارون. والقرآن يصدّق هذا في قوله تعالى: {إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ} 1071.

يأتيكم التابوت تحمله الملائكة يفهم منها:

1 . آية لتمليك طالوت

2 . إقناعا لكم

3 . سكينه لكم

لا أن يبقى في الأرض باعتباره محمولا من الملائكة، ولهذا جاء الفعل المضارع دلالة على استمرارية الحمل والبقاء معجزة عند الملائكة، وهذا يدحض كل ادعاء.

غير أنّ التابوت الذي كانت تحمله الملائكة لموسى صلّى الله عليه وسلّم هو معجزة من الله تعالى لنبيه، ولما كان عندهم علم بذلك جاءتهم الآية مما يعلمون، لأنّه عندهم علم بالتابوت الذي تحمله الملائكة لموسى سكينه وطمأنينة لقومه، فقد جاء هذه الآية حتى لا ينكر أحد منهم نبوة نبيهم وملك طالوت عليهم كما هو دأبهم، ولو كان هذا التابوت جزء من سنة الله في تأييد أنبيائه ونصرهم على أعدائهم كجزء من الرسالة لظهر هذا التابوت مع أول النبوة وبقي للنبي الخاتم، فإن كان هذا الزعم حقيقة كان على الملائكة أن تحمل التابوت لأول الأنبياء ثم الذي يليه ثم الذي يليه:

آدم صَلَّى اللهُ عليه وسلّم

نوح صَلَّى اللهُ عليه وسلّم

إبراهيم صَلَّى اللهُ عليه وسلّم

موسى صَلَّى اللهُ عليه وسلّم

عيسى صَلَّى اللهُ عليه وسلّم

محمد صَلَّى اللهُ عليه وسلّم

وما بين هؤلاء الأنبياء من أنبياء، يأتيهم التابوت تحمله الملائكة، وإن كان ثمة بقاء لهذا التابوت بيد البشر، فإن النبي الخاتم هو الذي يؤل إليه التابوت ولأمته من بعده.

ولكن هذا الأمر من الأمور التي انتهت بانتهااء الرسالات والنبي الخاتم، لأنّ المعجزة لا تكون إلا لنبي تظهر على يديه أو بأمر بما يشاء له الله تعالى، ولو بقي في التابوت وغيره فضل ممّا يزعمون على افتراض بقاءه، لانتقل فضله إلى إرث الأمة الكافة، أمة محمد صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، مثلما عاد إليها إرث المسجد الأقصى والأرض المباركة من حوله.

إن الباحثين عن الهيكل الذي يضم التابوت لا يعترفون بهذا، ولا يقرون لمحمد صَلَّى اللهُ عليه وسلّم برسالة أصلا. ولهذا فإن كل ما كان مقدسا في كتبهم وديانتهم المحرفة والمنسوخة بما جاء بعدها لا يزال عندهم على صفته التي كتبوها بأيديهم وفق ما يشتهون.

وعلى ما تقدم فالهيكل لا بدّ أن يحتوي في نظر هؤلاء على تابوت العهد حتى تكتمل صفته الدينية، ولكن أين التابوت الآن؟!

هو أسطورة يتحرك شبحتها في الأفق البعيد محاولا المجيء من عالم الخيال، لأن الهيكل لا يعني أي شيء دون التابوت، والتابوت ليس موجودا تحت المسجد الأقصى كما تظن بعض الجماعات التي تبحث عنه، وكل محاولات التنقيب والحفريات التي تُجرى لن تصل إلى شيء يتعلق بهذا التابوت.

فالتابوت كانت تحمله الملائكة

التابوت بقيت الملائكة تحمله

ما يبني بأيدي الجن لا يبقى إلا في فترة التكليف

ما تبنيه الإنس يبقى عند الإنس

وأما الهيكل الذي يحوي التابوت كما يدعون فهو من بناء الجن

وعليه: ليس هناك هيكل يضم التابوت والشمعدان والخيمة وما يظنون أن سليمان ورث هذه الأشياء كابر عن كابر كما يزعمون أنها كانت تباعا:

لموسى

نبي لهم (يوشع بن نون) كما جاء في بعض المصادر

طالوت

داوود

سليمان

ولكن الذي ثبت عندنا صحته بما لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ما جاء في القرآن الكريم أنه لم يكن لداوود أو سليمان عليهما الصلاة والسلام هيكلًا أو تابوتًا وإنما الذي كان لهم:

المحراب:

قال تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ} 1072.

المقام:

قال تعالى: {قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ} 1073.

الصرح:

قال تعالى: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 1074.

فالذي ورثه سليمان عن داوود عليهما الصلاة والسلام له أثر لأنه من بناء الإنس وعملهم، فهو ما بقي من حضارة الإرث الإنساني وعليه:

ما بينه الإنسان يهدمه الإنسان

ما تبنيه الجنّ تخدمه الجنّ

1072 - ص 12-22.

1073 - النمل 39.

1074 - النمل 44.

ما تحمله الملائكة يظل محمولا

فهل يورث ما تحمله الملائكة!؟

فالتابوت الذي تحمله الملائكة لا ينبغي لغيرهم من مخلوقات:

. الجنّ

. الشياطين

. الإنس

. ما تحمله الملائكة يبقى محمولا

ثم إنّ الفعل المضارع (تحمله) يعطي معنى الاستمرار وديمومة الحمل

بيد الملائكة، وكذلك كلمة (تحمله) فيها معنى الحال بجميع وجوهها:

. تأتي به

. تتقدم به

. تسير به

. تقف به

. تذهب به

. تعود به

. تحافظ عليه باقيا

فهي لا تفرط به لأنها مكلفة حيث جاء في صفة الملائكة قوله

تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ

وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ
مَا يُؤْمَرُونَ {1075}.

ولو سلمنا جدلاً بأنّ التابوت قد آل إلى داوود ومن بعده دخل
في ميراث سليمان عليهما الصلّاة والسّلام، وبهذا أصبح جزءاً من ملك
سليمان، وسليمان صلّى الله عليه وسلّم نبي مجاب الدعوة، دعا دعوة:
{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ
الْوَهَّابُ} {1076}.

وعلى هذا الافتراض يكون التابوت من جملة الملك الذي لا ينبغي
لأحد من بعد سليمان، وإن كان ثمة تابوت لسليمان ورثه من داوود -
وهو ما أثبتنا عدم صحته - فإنه لن ينبغي لأحدٍ من بعده.

إنّ ملك سليمان صلّى الله عليه وسلّم يتمثل في الآتي:

ملك موهوب من الله تعالى

ملك موروث من داوود صلّى الله عليه وسلّم

ملك صنعه له الإنس

ملك صنعه له الجنّ

ملك بناه له الإنس

ملك بناه له الجنّ

ليس له ملك من الملائكة

الملائكة لا تملك

1075 - التحريم 6.

1076 - ص 35.

ولأنّ الميراث يعني:

آ . توريث ما كان بين اليدين من ملك

ب . ما بين يدي الملائكة لا يورث

ج . لم يكن التابوت بين يدي داوود

د . الميراث يأتي من علاقة النسب

ج . لا نسب بين الملائكة وداوود

هـ . كيف يورث داوود شيئاً لا يملكه

وإلا هل هناك من يقول غير ذلك.

الملائكة تحمل من ملك الله ما يأذن لهم به

الله تعالى أذن للملائكة بحمل الآتي:

آ . عرش الرحمن:

قال تعالى: {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ
يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ} 1077.

قال تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا
فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} 1078.

قال تعالى: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 1079.

1077 - الحاقة 17.

1078 - غافر 7.

ب . حمل التابوت:

وقال تعالى: {إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ} 1080.

وفي جميع هذه الآيات ظاهر أن الملائكة مؤتمنة على ما تحمله،
والذي تحمله الملائكة:

خاص بالملائكة

لا ينبغي لغيرهم

فوق طاقة الإنس

فوق طاقة الجنّ

لا تدعه

لا تفرط به

لا تعطيه لأحد

لا يورث لأحد

وعلى هذا فهناك علاقة بين السماء والأرض، وهذه العلاقة لا
يستطيع أن يديمها مخلوق غير مؤهل لهذه المهمة، وهنا تبرز معطيات
جديدة منها:

التهيؤ

الاستعداد

1079 - الزمر 75.

1080 - البقرة 248.

الإرادة

الفعل

القدرة

وإن كانت الإنس والجنّ لديها إمكانية هذه المعطيات، إلا أنّ نوعية المعطيات تختلف باختلاف نوعية الخلق.

فالملائكة تحمل التابوت من السماء إلى الأرض لمهمة محددة.

تحمله من الأرض إلى السماء بعد انتهاء المهمة.

فهي لا تتركه، وهذا يعني أنها لا زالت تحمله، لأن الفعل يعطي معنى الاستمرار والديمومة باتصال الملائكة بحمله.

ولذلك فالملائكة الذين يحملون التابوت لن يكونوا:

على الأرض

تحت الأرض

وإلا هل هناك من يعتقد أن الملائكة تحمله تحت الأرض؟!

فالبحث عن الهيكل المزعوم الذي يضم التابوت وأشياء أخرى لا وجود له إلا في سخف تفكير من يستجير من الرمضاء بالنار.

ولذا:

فالشيء الذي يكون من الله مباشرة لا يمكن أن يكون بين يدي البشر إلا للرسل.

(ما يؤتى للرسل لا يؤتى لغيرهم)

(ما أوتي سليمان لا يؤتى لغيره)

وعليه:

لكلّ نبي ملك لا ينبغي لأحد من بعده إلا في التورث كما هو حال سليمان مع داوود عليهما الصّلاة والسّلام استثناءً.

وبعد ما تقدم:

لابدّ من القول أنّ هناك مفاهيم خاطئة وافتراءات كاذبة لا مناص من دحضها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

إنّ قضية الهيكلّ والتابوت وما يدعون من أنّهم إذا حصلوا عليها سيعود لهم الملك بأنهم سيقدمون التابوت أمامهم في مسيرهم ليملكوا به العالم.

إنّ تقديمهم التابوت بين أيديهم مفتقر إلى إثباته بالأدلة الشرعية العقدة، ونحن لا نقبل أن وكذلك أهل العلم يقبلون أن يقوم الدليل التاريخ المزيف مقام الدليل العقلي بحال من الأحوال.

لقد جعل هؤلاء مقالات بعض المؤرخين وما كتبوه ممّا نقله الإخباريون عنهم مقام النصوص التي يستدل بها على القضية العقلية وهذا باطل.

من المعلوم أن الأحداث والقضايا التاريخية يمكن أن يستدل عليها بالدليل التاريخي الذي ثبتت صحته، ومع ذلك هناك كثير من الأدلة التاريخية التي يستدل من خلالها على القضايا والأحداث التاريخية بإثبات بطلانها بما يأتي:

العقل والمنطق

الدليل المعارض

تساوي الإثبات والنفي

عدم وجود دليل الإثبات

فقله تعالى: { وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ } 1081.

لا يحمل دليلا من الأدلة

اللفظية

العقلية

الاستنباطية

المنطقية

على أنهم كانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة.

وفرق كبير بين الدعوى والدليل وبون شاسع بين الادعاء والبرهان، ولو كان الأمر كذلك لأثبتته الآية الكريمة، فالآية لا تحمل ما يثبت ادعاءاتهم سواءً من:

الأدلة

البراهين

الحجج

أما ادعاؤهم ومن يقول معهم أنهم كانوا ينصرون ببركته ففي هذا افتراء على الله تعالى وعلى العلم وسنين ذلك في الأدلة الآتية:

أولاً:

أنّ الآيات ليس فيها إلا إنكارهم ملك طالوت لكونه ليس من سلالة الملك، فقال لهم نبيهم إن آية صحة ملكه أن يأتيكم التابوت تسكنون لصحة كونه آية.

ثانياً:

فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، تستدلون بهذه البقية على صحة الدليل الأول بأنه أحقّ منكم بالملك.

ثالثاً:

أنّ الملائكة تحمل هذا التابوت آية وعلامة من الله (اختصاصاً).

رابعاً:

بعد وضوح البرهان من لم يطع الأمر يخرج من الإيمان (إن كنتم مؤمنين).

وعليه:

لا يوجد إشارة قريبة أو بعيدة يستطيع من خلالها الركون إلى ما يفترون على الله وعلى عباده.

علاقة سليمان بملكة سبأ:

كان لملكة سبأ شأن عظيم في قومها ودولتها، حيث أوتيت من الملك والنعم الشيء الكثير، وكانت تعبد الشمس هي وقومها:

{وَجَدْتُمَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} 1082.

هذه المملكة كانت ذات قوّة تمثلت في العتاد والعدة والمنعة في
زمانها. وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم دون التصريح باسم ملكتها،
حيث عاصرت نبي الله سليمان صلّى الله عليه وسلّم الذي آتاه الله
الملك، وحشر له جنوده من أنواع مختلفة من الإنس والجنّ والطير، وآتاه
الله علمًا، وعلمه منطق الطير قال تعالى: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ
الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} 1083.

لقد تحدث القرآن الكريم عن ملكة سبأ فأنثى عليها وعلى ولايتها
وطريقتها في الحكم، فقد كانت تحكم بمؤسسة الشورى لا بالولاية
الفردية حيث قال تعالى حكاية عنها: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفُنُونِي فِي
أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ} 1084.

فأمرها في الحكم كان قائما على المشاورة بينها وبين الملأ من
قومها، فالملأ هم عليّة القوم وأهل الرأي وقولها ما كنت قاطعة أمرا حتى
تشهدون يتجلى به:

مبادئ الشورى

أنّ الملكة لا تقطع بأمر حتى يشهد الجميع

أن يدلوا برأيهم فيما تستشيرهم به

1082 - النمل 24.

1083 - النمل 17.

1084 - النمل 32.

إنّ ملكة سبأ قادت قومها إلى الفلاح والأمان بحكمتها وذكائها، وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن ملكها أنه كان في غاية الأبهة والفخامة وشدة الأركان، حيث جاء وصفه على لسان الهدهد بقوله تعالى: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ} 1085.

وقد جاء الهدهد إلى نبي الله سليمان عليه الصلّاة والسّلام يخبره بأخبار ملكة سبأ، ولكن نبي الله سليمان صلّى الله عليه وسلّم لم يقتنع حتى يتأكد من ذلك ببرهان مبين، فقال: كما جاء في القرآن الكريم: {قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} 1086.

فالتأكد على حيثيات القضية وعدم الحكم من خلال النبأ أو الخبر دون التأكد من صحة المعلومة يفضي إلى الحكم بالظن والتقدير اعتماداً على الخبر والنبأ بدلاً من:

الدليل الواضح

البرهان الصادق

الحجّة القاطعة

فهذا التصرف السليم، مبني على المنهج الاستدلالي الذي انطلق فيه من مبدأ عام في حسن التصرف باتخاذ القرار في قضايا تنتج عنها أحكاماً سليمة دون أن يمر بالتجربة لأنه تسلسل في حيثيات القضية من مبدئها إلى منتهاها:

نبأ

1085 - النمل 23.

1086 - النمل 27.

خبر

دليل

برهان

حجّة

نتيجة

قرار

وأما حكمته في العلاقات والتعامل مع الآخر فقد تجلّى بعض من جوانبها في قصته مع ملكة سبأ، وقد تركزت حكمته صلّى الله عليه وسلّم في جميع مراحلها في تفعيل العلم الصحيح لأنه أمضى من قوّة السلاح وغيره، فإنه لما جاء الهدهد بخبر قوم سبأ تثبّت عليه الصلاة والسلام:

من صحة الخبر

لم يستفزه طمع

لم يسيطر عليه غضب

وإنما طلب الانتهاء إلى ما أخبر عنه وتحصيل علم ما غاب من ذلك حتى يغيره بالحقّ ويرده إلى الله تعالى، لذلك قال: { قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } 1087.

1087 - النمل 27، 28.

لذلك؛ فإنّ ملكة سبأ عندما ألقى إليها كتاب سليمان صلى الله عليه وسلّم وصفته بالكتاب الكريم قبل أن تعرف سليمان أو تعرف طبيعة دعوته وحقّيقة منهجه، غير أن الكتاب أوقفها على حسن التعامل الإنساني في العلاقة، فوقع في قلبها أنه لا يدعو إلا إلى خير قال تعالى: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ} 1088.

فهذا من أبلغ كلام تكلمت به وثيقة أو رسالة، وهي التي أرسلها سليمان إلى ملكة سبأ لما فيها من:

غاية البلاغة

الإيجاز في الطلب

الفصاحة في اللغة

الوضوح في المعنى

فإنّه حصل ذلك بأيسر عبارة وأحسنها، ولهذا وصفته الملكة بأنه كتاب كريم لحسن مضمونه وبلاغته وإصابته المعنى.

فهذا الكتاب غاية في الإيجاز من تأدية المراد في الطلب، وسليمان نبي ملك أرسل كتابه إلى ملكة، ورسائل الملوك عادة ما تقتصر على الطلب وعندما وصل إليها الكتاب كان الأمر على النحو التالي حيث قالت:

هذا كتاب من سليمان يقول فيه:

آ . بسم الله الرحمن الرحيم

ب . لا تتكبروا عليّ

ج . عليكم أن تأتوني مسلمين

ومع أنّ سليمان ملك، ومعلوم أنّ رسائل الملوك تفتتح بأسمائها في مستهل الكتب، إلا أن هذا الكتاب في نظر ملكة سبأ قد خالف العرف بالاستهلال، ممّا أوقع في خلدها أنّ هذا الاسم الذي استهل به الكتاب لا بدّ أنّه أعظم من سليمان ومن ملكه، ومضمون الكتاب أيضا لا يعبر عمّا تبتغيه الملوك من بعضها سواءً في حالة الرضا أم في حالة السخط، لذلك فإنّ أموراً كثيرة قد أثارها هذا الكتاب لدى ملكة سبأ منها:

أ أنّ الكتاب أُلقي إليها إلقاءً فهو مغاير لرسائل الملوك.

ثم وصفت الكتاب الذي أُلقي إليها بأنّه كريم وهي غاية الوصف، فلم تقل كتاب خطير لأسباب كثيرة منها:

. أنّه مفتتح باسم الله الرحمن الرحيم.

. هو غاية اللطف والسّلام لما فيه من الرّحمة.

. أنّه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم فعظّمته إجلالا لسليمان عليه السلام.

. أنّه جاء بطريقة غير معهودة إذ كان الرّسول طيرا.

. أُلقي إليها إلقاءً.

. أنّه تضمن لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عزّ وجلّ.

. لم يتدئ باسم المرسل لأن العظماء إذا كتبوا لمن هو أدنى منهم
يتدئون بأنفسهم.

ودليلنا على أن الكتاب لم يتدئ باسم سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وسَلَّمَ كما ذهب البعض، يوضحه سياق الآية ويقبله المنطق السليم،
لأنها بداية عندما أعلمت الملاء من قومها فقد وصفت لهم طريقة وصول
الكتاب بدقة فقالت:

ألقى إلي كتاب كريم.

وهنا يجب أن نقف على الأسلوب الذي خاطبت به الملاء من
قومها، فقد بُني الفعل للمجهول ولم يُصرح بالفاعل لسببين:

الأول: إظهار الطريقة الغريبة التي وصل بها الكتاب وهي الإلقاء.

الثاني: عدم التصريح بالفاعل حتى لا تتهم بعقلها أنّ طائرا ألقى
إليها الكتاب.

وهنا ينصرف ذهن المتلقي إلى استفسارات واستيضاحات تنصب
على الكتاب ومرسله يُستبعد منها الرسول وخاصة أنها لم تلتفت إليه.

فما ينبغي لهم أن يسألوا عنه تأدبا مع الملكة، إذ البديهي أنّ هذه
الاستفسارات وأجوبتها ستكون على النحو التالي:

ممن الكتاب؟

من سليمان.

ما يقول فيه؟

بسم الله الرحمن الرحيم.

ثمّ ماذا؟

لا تتكبروا.

هذه نصيحة وماذا بعد؟

أن تأتوني مسلمين.

وعلى هذا فإنّ الكتاب مفتتح باسم الله تعالى، وليس باسم سليمان صلّى الله عليه وسلّم، ولكن طبيعة الحوار يجب أن تكون على هذه الصورة لتوضيح طبيعة الأمر، لأنّ أوّل ما يسأل بهذا الصدد عن:

مرسل الكتاب (سليمان)

مفتتح الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم)

مضمون الكتاب (الدعوة إلى الإسلام)

الجواب على الكتاب

وعلى الاحتمال الأوّل ما كان لسليمان صلّى الله عليه وسلّم أن يقدم اسمه وهو يدعو إلى الله تبارك وتعالى، وأمّا هي فقد قدمت سليمان لأنها تحسب له حساباً وأخرت اسم الله لعدم معرفتها به، وعلى هذا فقد جاء اسم سليمان أوّلاً حكاية عن الملكة وهو جواب السائل في التسلسل المنطقي لاستفهام تتبع الأحداث التي ينطوي عليها أي كتاب، إذ ليس من المعقول أن يُسأل عن مضمون الكتاب قبل السؤال عن مرسل الكتاب، وهذا سبب ذكر سليمان قبل اسم الله تعالى من قبل الملكة وليس في نص الكتاب، وعليه كان تقديم سليمان حكاية عن لسانها لا نصاً في الكتاب الذي وصفته.

لذلك رأت أنّها وضعت في درجة المساواة مع رفض الاستعلاء من
الطرفين:

ألاّ تعلو عليّ

لا تتكبروا عليّ

مسلمين غير مستسلمين

هي دعوة للعقيدة

ليست دعوة للحرب

لم تستشعر الذل في الكتاب

لو كانت الدعوة استسلاما لكانت خاصّة بها، ولكن الدعوة إلى

الله فشملت جميع قومها

يترتب على هذه الوصف:

التفاؤل باستقراء الخير.

الافتتاح الاستهلاكي الغريب لهذا للكتاب.

الأمر بعدم التكبر.

لم يطلب صلحا أو معاهدة.

اقتصر على الأمر دون التهديد.

إذن هي ثقة عالية.

فيه دعوة إلى الإسلام.

ما هو الإسلام؟

هذه التساؤلات تدفع العاقل إلى المشورة للوصول إلى رأي مشترك تكون المسؤولية فيه جماعية كونها قضية مصيرية تتعلق بأمن وعقيدة المملكة ورعاياها، وقد دلّ على رجاحة عقلها عندما جمعت أركان دولتها وطلبت منهم المشورة: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ} 1089. غير أنهم فوضوا الأمر إليها بعد أن أطلعوها على ما يتمتعون به من استعداد لمواجهة جميع المواقف والمتغيرات: {قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأَوْلُو بِئْسَ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ} 1090 وهنا ثلاثة أمور لا بدّ من ذكر في الرأي والموقف الذي توصلوا إليه:

آ . أنهم يتمتعون بقوة مادية بالعدد والعدة.

ب . أنهم أصحاب بأس وشدة وهي قوة معنوية تدل على الثبات.

ج . إظهار السمع والطاعة لما تتخذه الملكة من قرار.

وهنا تظهر الحكمة بدفع البلاء بلا خسائر، لأنّ الصراعات بصرف النظر عن الإمكانيات المتاحة في المواجهة والنتيجة التي تسفر عنها فلا بدّ من الخسائر لذلك قالت: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} 1091.

إنّ الحقيقة التي ذكرتها ملكة سبأ ممّا يصدر عن الملوك في تصرفاتهم وسلوكهم عندما يدخلون أيّ بلد من الإفساد فيها وإذلال أهلها هي حقيقة راهنة لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ممّا دفعها إلى اختبار سليمان صلّى الله عليه وسلّم وذلك من أجل:

1089 - النمل 32.

1090 - النمل 33.

1091 - النمل 34.

استبيان حقيقة أمره.

ما الغرض من هذا الكتاب؟

ما الذي يريده على وجه التحديد؟

حرابًا؟

صلحا؟

جزية؟

موقفًا؟

عقيدة؟

تساؤلات كثيرة تداعت في أفكارها، وبخاصة أنّها لا تستطيع إعادة الجواب مع الرسول الذي حمل الكتاب إليها إذ لا سبيل لها إلى ذلك. فلما استشارت الملكة ملاءها (قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ).

فأحست منهم الميل إلى المواجهة والحرب، فرأت أن تستخدم المال بدلا من القوة فكانت الحكمة إرسال الرّسل للوقوف على الأمر: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} 1092.

وهنا، تبين لسليمان صلّى الله عليه وسلّم قصدها من الهدية في أنّها تخادعه لتصرفه عمّا تضمنه كتابه بهذه الهدية، وقد أرادت أن تستشف من خلال الهدية جلاء الموقف الذي اتضح بقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ

1092 - النمل 35.

أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا
وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ {1093}.

ولتوضيح معنى (أتمدوني) نقول: هو استفهام إنكاري، أي أنتم
تزيدوني مالا على الرغم مما تشاهدونه من ملكي، حيث أبدى إنكاره
لهذا التصرف لأنّ الهدية لها مبررات حتى لا تخرج عن مقصدها منها:

. أن تكون بين المتعارفين.

. أن يكون هناك علاقة صداقة ومودة بين من يهدي ومن يُهدى
إليه.

. أن يكون من يُهدى إليه صاحب فضل وإحسان سابق على
مرسل الهدية.

فإن لم تتوفر هذه الأسباب فإن الهدية تخرج عن حقيقتها لأغراض
أخرى منها:

الرشوة

ثني العزيمة

مساومة

شراء موقف

لذلك، أظهر بهذا الجواب الإنكاري قلة الاكتراث بتلك بالهدية.

فكان جوابه (فما آتاني الله خير مما آتاكم) أي ما أعطاني من الإسلام والملك والنبوة خير مما أعطاكم من المال وزينة الحياة الدنيا لذلك أنتم تفرحون في الدنيا.

فالله تعالى آتاه خير الآخرة الذي هو السعادة القصوى، وآتاه من الدنيا ما لا مزيد عليه، فكيف من كان هذا حاله يستمال بعرض الدنيا بمثل هذه الهدية.

لذلك كان جوابه بل أنتم تفرحون بما يهدى إليكم، أمّا أنا فحالي خلاف ذلك.

وهنا يجب أن نقف عند جوابه:

بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون، وفيه أكثر من معنى نحاول أن نقف على أيها أقرب للواقع:

هو بلا شك لم يقبل تلك الهدية، بقيت قضية فرحهم على أي شيء كانت؟

هل كان الفرح على قدرتهم أن يقدموا مثل هذه الهدية العظيمة لسليمان؟

أم أنّهم فرحوا لأنها ردت إليهم؟

أم أنّهم يفرحون عندما تقدم إليهم الهدايا؟

أم أنّهم فرحوا بقدرتهم على الإهداء؟

أم فرحوا لأنهم فهموا منه: بل أنتم من حَقِّكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها؟

أم أنّهم يفرحون بما يهدى إليهم حبًا بزيادة المال وظنوا ذلك
بالآخرين؟

أم أنّ فرحهم ناتج عن كونهم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا؟

أم أنّ الهدية من عظمها كانت من نفس الملكة بمكان؟

أرادت أن تصرف سليمان عن عزمه فيما هو مقدم عليه.

بالهدية تحافظ على الملك

تتجنب الصدام والمواجهة

أم كان فرحهم بردّ الهدية؟

وعليه نقول: أنّه مهما تبادر لأذهانهم من أسباب الفرح التي
ذكرناها، فإنّ لم تكن كلّها فقد راودهم جلّها، غير أن سليمان صلّى الله
عليه وسلّم قد نفى كلّ ذلك بما آتاه الله تعالى، لأنّ الدنيا أصغر قدرا
عند سليمان صلّى الله عليه وسلّم من أنّ يفرح بشيء منها أو يجزن
على شيء فيها.

والمسألة التي لم ينتبه إليها أحد في هذا الموقف وخاصة أنّ الآية
ذكرت الفرح، والذي نظنه أنّ الفرح لم ينتابهم في هذه اللحظة برد
هديتهم إليهم، وإتّما انتابتهم أشياء أخرى لا علاقة لها بالفرح وهي:

الخوف

الحرب

فقدان الملك

هذه الأمور التي راودتهم في موقفهم بين يدي سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، وإثما قضية الفرح بالهدية ترتبط بأنفسهم وليس بموقفهم في تلك اللحظة، أي بطبيعتهم من حب هذه الأشياء لأنهم أهل دنيا وهم على شرك، فغاية مناهم وهمهم الأموال والهدايا التي يفرحون بها لأنهم:

يفرحون بما اعتادوا عليه

الذي جاءهم من سليمان مخالف لما اعتادوا عليه

وعليه ينتفي فرحهم بالذي اعتادوا عليه

وهذا الفرح طبيعي لما زُين للناس من حُب هذه الأشياء حيث قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُمْنَطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} 1094

يقدم سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم درسا في التعامل الإنساني الذي يريد أن يأخذ بيد الإنسان من المتاهات المادية إلى ما هو أسمى ليجسد دوره خليفة في الأرض وأن المال ليس الهدف الذي يوصل إلى الغاية، فهم لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ولكن هناك ما هو أبعد من الدنيا وأرفع درجة وأسمى منزلة منها.

إنّ الهدية في نظر الكثيرين هي موجبة ومدعاة لأشياء كثيرة منها:

استمالة القلوب

رغبات النفوس

بناء علاقات

تواطؤ على غير حقّ

تحييد عن موقف

تجنب الصدام

ولكن النبوة وما تدعو إليه عندما يعرض لها أمر الدين في مقابلة
منافع دنيوية كثيرة ترجح طرف الدين على طرف المنافع الدنيوية
لأسباب منها:

تستقل كثرتها لأنها فانية زائلة

تستكثر من أمور الآخرة لأنها باقية

وهذا ما فعله سليمان صلّى الله عليه وسلّم لما جاءه الرّسول
بالهدية استقل كثرتها وقال: ما آتاني الله أفضل ممّا آتاكم

من نعم الدين

خيرات الآخرة

وهو خير ممّا آتاكم من الدنيا وزخارفها، بل أنتم ومن هم مثلكم
من أهل الدنيا بمثل هديتكم الدنيوية الفانية تفرحون لما خفي عليكم ممّا
أعدّه الله من النعم في الآخرة لعباده.

لقد أنعم الله تعالى على سليمان صلّى الله عليه وسلّم من النعم
الجليلة، وما خصه به من الفضل الكبير بالجمع بين النبوة والملك
الواسع، ما جعل ملكة سبأ وقومها وما يملكون، على نقيض رغبة
سليمان، فهو لا يقبل غير إسلامهم لله تعالى، وقد أسلموا في نهاية
الأمر لله ربّ العالمين. وهنا يكمن مغزى دقيق يصدر عن الجاه

والسلطان والملوك، فقد اتخذ سليمان الملك وسيلة للدعوة إلى الله وليس للمفاخرة والمكاثرة.

حكمة سليمان في تعامله مع ملكة سبأ:

عندما علم سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمر ملكة سبأ وقومها وعبادتهم للشمس من دون الله، أرسل إليها يطلبها هي وقومها مسلمين، فاستشارت ملاءها وأرسلت رسلها بهدايا ثمينة إلى سليمان:

لتصرفه عنها

أو لتعرف نيته

أو لتعلم بماذا يفكر

لقد رفض الهدية!

قال تعالى: (فلما جاء سليمان قال أتمدوننِ بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون).

عندما عادت الرُّسل بالهدية أيقنت أنه:

نبي

صديق

كريم

حكيم

لا يساوم على العقيدة

لا تُشترى موقفه بالمال

مبدئ

فصارت إليه بقومها مذعنة مستسلمة، وقبل وصولها أمر سليمان جنوده أن يحملوا عرشها إليه.

الإتيان بعرشها:

فلما أتت ملكة سبأ إلى سليمان عليه السلام طائعة واستبان له ما لهذه المرأة من حصافة ورجاحة عقل اتخذ أسلوب الحكمة في دعوته لها إلى الإيمان بالله تعالى، لأن الله تعالى أعلم سليمان أنها ستأتيه بدليل قوله تعالى: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} 1095.

وأراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يبين لملائته أنه يُتأتى بالحكمة والعلم ما لا يُتأتى بالقوة، فطلب منهم ذلك ليكون مثلاً لتغليب الحكمة على القوة وهذا واضح من قوله تعالى: {قَالَ عِفْرِيثُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} 1096.

وهذا تنبيه على أن الذي عنده علم من الكتاب أقدر من الذي يتمتع بالشدة والقوة، بحيث تغلب على العفريت مع ما فيه من شدة بقوة العلم الذي عنده من الكتاب.

1095 - النمل 38.

1096 - النمل 39، 40.

فلما وصلت وجدته أمامها وقد تبدلت فيه أجزاء قليلة، فلما سئلت عنه قالت: { فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ } 1097. فازدادت هدى و يقيناً وأسلمت مع سليمان لرب العالمين.

إنّ قدرة العفريت في جلب عرش ملكة سبأ كانت دون قدرة صاحب العلم الذي أخذ علمه من الكتاب، فتمكن من أن يأتي لسليمان صلّى الله عليه وسلّم بالعرش المطلوب قبل أن يترد إليه طرفه. فالسر في هذه القدرة الخارقة كامن في هاتين الكلمتين اللتين نُوه عنهما في قوله تعالى: (علم من الكتاب) أي العلم ومصدره الكتاب. تنكير العرش:

قال تعالى: { قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ } 1098.

قال سليمان صلّى الله عليه وسلّم لجنده: نكروا لها عرشها ببعض التغيير في مظهره عما كان عليه من الهيئة والشكل لئلا يرى هل تتعرف عليه أم لا.

فلما جاءت ورأت العرش قيل لها: أهكذا عرشك؟

قالت: كأنه هو

لقد كان العرش منكرا بين يديه

1097 - النمل 42.

1098 - النمل 41 - 43.

فقل لها: (أهكذا عرشك)

أي أمثل هذا العرش الذي ترينه عرشك الذي في مملكتك

ولم يقل: أهذا عرشك

فلو قال: أهذا عرشك لاحتمل السؤال إجابات كثيرة وفات

المقصود من التنكير منها:

. أجل هو عرشي

. ليس هو

. عرشي مثله

. لا أعرف

فكان التساؤل بلفظ (أهكذا) قد أظهر المقصود من التنكير بإبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه حتى يتبين لدى سليمان صَلَّى اللهُ عليه وسلّم حالها من النباهة ورجاحة العقل في أنه أمر مستحيل بالنسبة لها إحضار العرش بشكله وهيأته وسلامته خارج دائرة المتوقع من حيث:

السرعة

بعد المسافة

حجم العرش

إمكانية إحضاره

لقد كان تغيير معالم العرش المميزة له من أجل التعرف على مدى

فراستها وفطنتها

هل تهتدي إليه بعد هذا التنكير؟

أم يلتبس عليها الأمر فلا تنفذ إلى معرفته من وراء هذا التغيير؟

إنّ هذا الأمر اختبار من سليمان صلّى الله عليه وسلّم لذكائها وتصرفها واتزانها أثناء مفاجأتها بعرشها.

ثم إنّ مشهد الملكة لحظة الحضور كان مفاجأة عظيمة لا تخطر لها
ببال:

عرشها في مملكتها

عليه الحراس والأقفال

كيف جيء به؟

من الذي جاء به؟

وعليه:

فهل ستعرفه بعد هذا التغيير والتنكير؟!

هل تنفي أنّه هو بناء على تلك الملابس؟

أم تراها تقول: إنّّه هو بناء على ما تراه فيه من علامات وأمارات
دالة؟

وقد انتهت إلى جواب ذكي (قالت: كأنه هو) لا تنفي ولا تثبت،
مما يدل على فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة.

لذلك كانت الإجابة مساوية للسؤال: أهكذا، كأنه.

وهكذا نجد أنّ سليمان عليه الصّلاة السّلام أعمل حكمته فيما تعرفه وهو عرشها، حيث أراها ما وهبه الله من قدرة عظيمة في إحضار العرش والتصرف فيه مع عجزها عن السيطرة عليه.

واضح من خلال السرد القرآني البليغ أنّ علاقة سليمان صلّى الله عليه وسلّم بمملكة سبأ كان أمرا معجزا خارقا للعادة، يوم لم يكن معروفا من أسرع وسائل التنقل غير الخيل والإبل، لكن اللافت للنظر أن القرآن الكريم لم يعرض الواقعة بوصفها أمرا معجزا فحسب، بل عرضها عرضا متميزا يدعو للتأمل والتدبر، إذ نجده يؤكد على دور العلم في القضية، ونلمح ذلك من خلال معالجة كلّ من العفريت والذي عنده علم من الكتاب كلّ من وجهة نظره.

فالعفريت من الجنّ أراد إحضار العرش معتمدا على قدراته الجسدية التي منحه الله إياها خَلقة فقال: (وإني عليه لقوي أمين) وأمّا (الآخر) الذي أحضر العرش فعلا خلال زمن معجز، فقد لجأ إلى (العلم) الذي تشير الآية الكريمة إلى أنه (علم من الكتاب)!

دخولها الصرح وإسلامها:

ثم ترقى بها سليمان صلّى الله عليه وسلّم إلى ما لا تعلم {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ} 1099، ليثبت لها أن ملكها أمّام ملكه لا يساوي شيئا لأنّ:

الملك لله مطلقا

ملكه قائم على الحقّ

ملكها قائم على باطل

الملك الحقّ من الإله الحقّ

فالعبادة لغير الله تصدّ عن استكمال العلم وتحقّق الرشد، فإنّها لما رأت الصرح انبهرت بما شاهدت ولم تعرف حقيقة {فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ} 1100.

فلما أرادت دخول الصرح والوصول إلى سليمان صلّى الله عليه وسلّم رأت حاجزا من الماء يتموّج، فكشفت عن ساقها لئلا تبتلّ أذيال أثوابها بالماء، كما هي عادة من يخوض الماء.

فقال سليمان صلّى الله عليه وسلّم: إن ما تظنّينه ماءً ليس ماءً، بل هو صرح أملس مكوّن من زجاج، فراعها ذلك المنظر، وعلمت أن ملكها لا يساوي شيئا بجوار ملك سليمان صلّى الله عليه وسلّم، ومن ثمّ أعلنت إسلامها لما رأت من عظمة سلطانه وما آتاه الله تعالى وجلالة ما هو فيه فأقرت بنبوته قال تعالى: {قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 1101.

مميزات سليمان:

مع أنّ جميع الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام يحملون دعوة واحدة مكلفون بتبليغها إلى من أرسلوا إليهم أو بعثوا فيهم، وهي دعوة التوحيد، إلا أنّ لكلّ نبي خصوصية تناسب الرسالة التي يحملها والدعوة التي جاء بها في الزمان والمكان والعصر وأهله، ومن هنا كانت خصوصية كلّ نبي من حيث الاتفاق في الكليات والتنوع في الجزئيات من الأدعية والفضائل والقيم والحلول التي جاء بها، وإن اشترك فيها جميع الأنبياء إلا أن خصيصة من الخصائص تكون عند نبي أظهر عنده

1100 - النمل 44.

1101 - النمل 44.

من نبي آخر، أو أنها ذكرت عنده خاصة وهي عامة في جميع الأنبياء،
فمن بعض الفوائد التي ظهرت عند سليمان على سبيل المثال لا
الحصر:

. سعة علم سليمان بما آتاه الله تعالى .

. إظهار علم الله وحكمته من خلال قصة سليمان .

. شرف العلم ونفاسته، وأنه أغلى من المال وأكرم من السلطان .

. لا يتم العلم إلا بالعلم، وأن شرف العالم في التحلي بآدابه .

. منزلة سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النبوة والعلم والملك .

. الرد على من غلا في سليمان أو طعن عليه في مسألة الاستغفار .

. تبرئته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما نسب إليه من الكفر والسحر .

وغير ذلك مما رماه به اليهود .

. أنّ القرآن الكريم هو أحسن القصص وأصدقها، وأما ما ورد من

الإسرائيليات فأكثره مبدل أو مزيد أو منقوص أو محرف فينبغي أخذ

الحيطة في ذلك .

. أنّ العلم من أبلغ المعجزات التي أيده الله بها على وجه الخارقة .

. ما توصل إليه العلماء من لغة الحيوان ونحو ذلك مبني على المراقبة

والحدس، أمّا الأنبياء فإنهم يعلمون ذلك بوحى من الله .

. بيان ما ورثه سليمان من داود عليهما الصلّاة والسّلام من العلم،

وإبراز ذلك من خلال:

علم القضاء

الفصاحة

الصناعة

الحكمة

فصل الخطاب.

. معرفة الحرفة والصناعة لا ينقص من قدر المرء، بل ذلك زيادة في

الفضل.

. أن العلم وفضله وما يتصل بذلك لا يقتصر على المجالات

الشرعية.

خصائص سليمان:

لقد تبين لنا من خلال ما تقدم أن أهم خصائص سليمان صَلَّى

الله عليه وسلّم:

حبه لرعيته

حرصه على سعادتها

توفير الحرية والأمن لها

تفقدته لشؤونها

السهر على سلامتها

السائل عن غائبها

المعين لحاضرها

الشديد في الحق لا تأخذه فيه لومة لائم

الغاضب لمحارم الله إذا انتهكت

فهو المقيم للعدل بين سائر أفراد رعيته من الإنس والجنّ والطير،
إنّه لا يرى الهدهد بين الجمع الذي جمع له فيسأل عنه، ويعلن ذلك
على الملأ.

وله من الإحاطة بجميع أجزاء مملكته وكافة أفراد رعيته بما لا يخفى
عليه شيء، ويعلن غضبه من تخلف الهدهد إلا أنّ يكون عنده عذر أو
حجة مقبولة: { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ
الْغَائِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ
مُبِينٍ } 1102. وكانت المفاجأة عندما يتقدم هذا الغائب من الملك
العظيم غير خائف ولا مرتاع وفي قوّة واعتداد واعتزاز يقول: ما غبتُ
إلا لأمر هام عرفته أنا ولم تعرفه أنت أيها الملك وأحطت به ولم تحط به
أنت.

ولقد وقفنا على أمور تتعلق بسليمان صلّى الله عليه وسلّم مباشرة
منها:

1. فتنة سليمان

2. إلقاء الجسد على كرسیه كان من الفتنة

3. رجوعه إلى ربّه

4. لم يكن طلب سليمان ملكا لا ينبغي لأحد سواه من باب

الأثرة

5. إجابة دعوة سليمان عليه السلام

6 . تسخير الرّيح بهذه الصفة مخصوص لسليمان

7 . أنّ الرّيح كانت منوعة رخاء وعاصفة

8 . تسخير الشياطين لسليمان

9 . هذا التسخير من خصوصياته

10 . إطلاق يده

11 . درجته العالية في الدنيا والآخرة

12 . تسخير الرّيح والجنّ وإسالة النحاس له

13 . تعليم سليمان منطق الطير

14 . إحضار عرش ملكة سبأ

دعاء سليمان:

. المغفرة وطلب الملك:

قال تعالى: { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ
بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } 1103.

الشكر والصلاح:

قال تعالى: { أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى
وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ } 1104.

1103 - ص 35.

1104 - النمل. 19

قيم سليمان وفضائله:

الفضائل من الله تعالى التي أنعم على سليمان بها، منها ما هو موروث، ورثه سليمان عن أبيه يتمثل في الآتي:

.الأخذ بأسباب العلم:

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} 1105.

. العلم بالزبور:

قال تعالى: {وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زُبُورًا} 1106. وقد ورثه سليمان عن أبيه علما وعملا.

. الخلافة:

قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} 1107.

. تأويب الجبال في التسبيح:

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ} 1108.

. تأويب الطير في التسبيح:

1105 - النمل 15.

1106 - الإسراء 55.

1107 - ص 26.

1108 - سبأ 10.

قال تعالى: { يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ } 1109.

. إلائة الحديد:

قال تعالى: { يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ } 1110.

. صناعة الدروع:

قال تعالى: { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ
بَأْسِكُمْ } 1111.

ومنها ما هو موهوب له من الله مباشرة يتمثل في الآتي:

. حشر الجنود:

قال تعالى: { وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ } 1112.

. التفهيم:

قال تعالى: { فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا
وَعِلْمًا } 1113.

. منطق الطير:

قال تعالى: { وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ } 1114.

1109 - سبأ 10.

1110 - سبأ. 10

1111 - الأنبياء 80.

1112 - النمل 17.

1113 - الأنبياء 79.

1114 - النمل 16.

. قول النمل:

قال تعالى: {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ} 1115.

. تسخير الريح:

قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} 1116.

. إسالة عين القطر:

قال تعالى: {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ} 1117.

ومع كثرة هذه الجنود التي سخرها الله تعالى لسليمان مما كان لأبيه وآل إليه في الميراث ومما وهبه الله تعالى بسبب دعائه نقول: إنه ملك عظيم لا ينبغي لأحد من بعد سليمان صلى الله عليه وسلم، وهناك أشياء ملكها سليمان تلميحا لا تصریحا، فالبحار من ملك سليمان إشارة في قوله تعالى: {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ} 1118 وهذه الآية إشارة إلى ملك البحار.

قيم فعلية دعا إليها وعمل بها:

. الشكر:

1115 - النمل 18، 19.

1116 - الأنبياء 81.

1117 - سبأ 12.

1118 - ص 37.

قال تعالى: {وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ
وَعَلَى وَالِدَيَّ} 1119

. العمل الصالح:

قال تعالى: {وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلَنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ} 1120

. الدعوة إلى الثبوت:

قال تعالى: {قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ} 1121.

. الزهد:

قال تعالى: {قَالَ أُمِّدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرًا مِمَّا
آتَاكُمْ} 1122

. التفقد:

قال تعالى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ} 1123

. الدعوة إلى عدم الاستكبار:

قال تعالى: {أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُنُوبِي مُسْلِمِينَ} 1124.

1119 - النمل 19.

1120 - النمل 19.

1121 - النمل 27.

1122 - النمل 36.

1123 - النمل 20.

1124 - النمل 31.

وأما الحلول التي جاء بها صلى الله عليه وسلم فقد تجلت بالحكمة التي تكون حلا لجميع المشاكل في كل عصر وحين

والمقصود بالحكمة في الآيات الأنفة النبوة، والحكمة داخلة في المعنى العام للنبوة، وهو إصابة الحقّ بالعلم والعقل والعمل به، فالحكمة من المعاني الجامعة، وما سبق في هذا البحث من علم سليمان صلى الله عليه وسلم يعتبر من الحكمة، ومن أروع الصور التي بانّت فيها حكمته ذلك الملك الواسع الذي استوفى فيه تمام الحكمة، فلم يبلغ أحد من أنبياء بني إسرائيل ما بلغ ملكه، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله تعالى عن داود صلى الله عليه وسلم: { وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضْلَ الْخِطَابِ } 1125.

وقال تعالى: { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } 1126. وإنما بلغ ذلك بما وهبه الله من العلم والحكمة اللذين قام عليهما ملكه وانتظمت به حضارته التي تعتبر مثلاً للحضارة الحقّة بجميع أبعادها في العلاقات والقيم والتعامل.

1125 - ص 20

1126 - النمل 16

النبي

سليمان من السُّنة

سليمان هو بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر حتى ينتهي نسبه إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وهو أحد أنبياء بني إسرائيل عليهم السّلام، وقد رزقه الله النبوّة والملك، وقد سأل ربّه حكما لم يكن من قبل ولا من بعد فكان له، وهو عند أهل الكتاب مجرّد ملك من ملوك بني إسرائيل وليسا نبيا من أنبيائهم الكرام، وينسب إليه الهيكل المسمّى باسمه (هيكل سليمان). وقد آتاه الله ملكا متفرّدا حيث سخر الله له الجن والطير والإنس والريّح والاني له عين القطر ليحكم ويتحكم ويسيطر بقوة الله وعزّته عدلا بلا مظالم؛ فكان كما شاءه الله نبيا وملكا قد ورث ملك أبيه داوود عليهما الصّلاة والسّلام؛ فسليمان كانت له النبوّة والملك إضافة إلى ما ورثه من ملك أبيه عليهما السّلام.

وقد قيل فيه ما قيل، وهذه من سنن الحياة؛ فالمخالفون والكفرة دائما يصفون الأنبياء الكرام بما لم يكن فيهم، فسليمان مع أنّه يمتلك من القوّة المسخّرة له ما يمتلكه، لكنّه كان نبيا لئّن الجانب، وملكا عادلا لا يحكم إلّا في مشيئة الله ورضوانه ولا شيء غير ذلك.

ومع أنّه نبيا لكنّه بشر يسري عليه ما يسري على بني آدم الكرام من حياة وابتلاء وموت وبعث؛ فهو ابن الملك النبي الذي ورث ملك أبيه، إنّّه من سلالة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام؛ وهو من أطاعه الجن والطير كما سخر الله له الرّيح آية.

وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: "كَانَ لِداوُدَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِسْعَةَ عَشَرَ وَلَدًا فَوَرِثَ سُلَيْمَانُ مِنْ بَيْنِهِمْ نُبُوَّتَهُ وَمُلْكَهُ، وَلَوْ كَانَ وَرِاثَةً مَالٍ لَكَانَ جَمِيعُ

أَوْلَادِهِ فِيهِ سَوَاءٌ، وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ، قَالَ: فَلَوْ كَانَتْ وِرَاثَةٌ مَالٍ
لَانْقَسَمَتْ عَلَى الْعَدَدِ، فَحَصَّ اللَّهُ سُلَيْمَانَ بِمَا كَانَ لِدَاوُدَ مِنَ الْحِكْمَةِ
وَالنَّبُوَّةِ، وَزَادَهُ مِنْ فَضْلِهِ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ" 1127

ولأنَّه نبياً وقد أُوتِيَ ملكاً لن يكون لأحد من بعده؛ فكانت له من
القُوَّةِ المسخِّرة ما توصف بالخوارق وستظل الخوارق التي لم ولن يبلغها
أحد من بعده؛ فهو المتحدث مع الجن المسخَّر له طاعة، وهو الذي
يعرف لغة النمل ومنطق الطير، أي أنه يعرف (كيف يفكِّر الطير وكيف
يحتاج)، ولهذا فإنَّ تسخير الشياطين لسليمان عليه السَّلام آية خارقة
للعادة، وكذلك إسالة عين القطر وتسخير الرياح هي الأخرى آيات
كريمات، وغيرها كثير استجابة لدعائه: { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي
مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ
بِأَمْرِهِ رُجَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ وَأخْرَيْنَ
مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ
عِنْدَنَا لَكُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ } 1128.

ولأنَّ سليمان نبياً فقد سأل ربَّه أن يغفر له حيث لا كمال إلا لله
تعالى، ثمَّ بعد ذلك طلب مبتغاه وهو أن يهب الله له حكماً لا ينبغي
لأحد من بعده، وفي سؤاله كان واثقاً أنَّ الله وهَّاب وسيهب له ما
سأله؛ فكانت الإجابة.

روى النسائي وابن ماجه وأحمد أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قال " لما بنى سليمان بيت المقدس سأل ربَّه عزَّ وجلَّ خِلالاً ثلاثاً
فأعطاه اثنين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سأله حُكْمًا يُصَادِفُ
حُكْمَهُ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وسأله مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ،

¹¹²⁷ تفسير القرطبي، 13، ص 164.

¹¹²⁸ ص 35 . 40.

وسأله أيّما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلّاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمّه، فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطاه إياه".

دعوة سليمان:

سليمان عليه الصلّاة والسّلام نبيا ورسولا وملكا، ورسالته توحيد الله، حيث لا شريك له، ولا أرباب يعبدون من دونه، فقد أعطاه الله سبحانه وتعالى من الملك ما لم يعط لغيره.

ولأنّه نبيا مرسلا للهداية كانت رسالته ملكة سبأ خير دليل على ذلك؛ فهي الرّسالة التي بدأت باسم الله الرّحمن الرّحيم؛ أي أنّ الأمر المرسل لم يكن من عند سليمان، ولهذا قال: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} 1129 وهنا علينا أن نتمييز بين أمرين:

الأمر الأوّل: (إنّه من سليمان).

الأمر الثاني: (وإنّه بسم الله الرّحمن الرّحيم).

ولتوضيح الأمرين أقول:

. إنّه من سليمان يعود على المرسل (ما حمّله الهدهد)

. وعليه فإنّ قوله: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} 1130 فهو الرّسالة التي حمّلها المرسل، والمرسل لا أعني به الهدهد، بل ما حمّله بين مخالِبِ رجله أو ما حمّله بين فكي منقاره. وفي هذا المشهد لو كان الهدهد هو المرسل لكانت

¹¹²⁹ النمل 30 . 31.

¹¹³⁰ النمل 30 . 31.

الرّسالة قد قيلت له أوّلا ليقولها ثانية، ولهذا فالرّسالة التي احتواها المرسل لا يعلم الهدهد فحوها مع أنّه حاملها، وهنا أُستخدم الهدهد وسيلة نقل ليس إلّا.

ولهذا فقوله: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأَثُونِي مُسْلِمِينَ) تعني ممّا تعنيه: أنّ سليمان عليه السّلام يقول: هذا المرسل الذي أرسلته إليك يا ملكة سبأ هو أمر قد أمرني الله به، وما أنا إلّا رسول مبشر ومنذر، ولهذا قال بسم الله الرحمن الرحيم، أي أنّ هذا الأمر ليس مني بل هو من عند الله، ولأنيّ رسول الله؛ فليس لي إلّا الطّاعة وتنفيذ الأمر وبأيّ أسلوب يمكّنني من النجاح في أداء الرّسالة التي أنبأني بها الله عزّ وجلّ.

وفي قوله: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأَثُونِي مُسْلِمِينَ) رسالة وفيها رسالة، وذلك من حيث الآتي:

. رسالة لأثّها كتبت على الورق المرسل الذي حمّله الهدهد من سليمان عليه السّلام إلى ملكة سبأ، وجاء قول سليمان: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ) مقدّما على (بسم الله الرحمن الرحيم) للتمييز بين دور سليمان وأمر الله لسليمان؛ فدور سليمان التبليغ، أمّا المبلّغ به فهو أمر الله تعالى. أي: الأمر بتبليغ رسالة الإسلام إلى ملكة سبأ وقومها الذين يعبدون الشمس من دون الله تعالى.

ولذا فتقديم قوله (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ) فسليمان بشر لو لم يكن نبيا مرسلا ما قام بهذه المهمة، وحتى لا تفهم ملكة سبأ وقومها، أنّ سليمان ملكا ويريد غزوهم أو احتلال أراضيهم أو النيل منهم وفقا لرؤيته الخاصّة؛ فقد بينّ سليمان أنّ الأمر المرسل به هو: أن يؤمنوا بالله

لا بغيره. ولهذا قال (إنه من سليمان) ليطم التمييز بين دور الرسول (سليمان) وبين أمر الله وهو (أن يسلموا إليه تعالى).

. ولأنها رسالة؛ فقد أرسلت عن طريق الهدهد، ولأن فيها رسالة؛ فهي تدعو إلى الإسلام، ولأنها رسالة وتحمل رسالة؛ فهي لا تقبل العلو على الإسلام، ومن ثم فهي تحمل إنذارا شديدا بمعنى: لا تفكروا أنكم قد تعلو على سليمان؛ فسليمان له من القوة ما له؛ فله قوة الحجّة وهي الهداية للإسلام والتي هي أحسن، وله من القوة القاهرة لأيّ قوة إذا أبقيت أنفسكم ضالين على عبادة الشمس من دون الله تعالى.

مُلك سليمان:

سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَى عَلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَخَّرَ لِي الرِّيحَ وَسَخَّرَ لِي الشَّيَاطِينَ يَعْمَلُونَ لِي مَا شِئْتُ مِنْ مَحَارِبٍ وَمَتَائِلَ وَجَفَانٍ كَالْجُؤَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ، وَعَلَّمَنِي مَنَاطِقَ الطَّيْرِ، وَأَتَانِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَضْلًا، وَسَخَّرَ لِي جُنُودَ الشَّيَاطِينِ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَتَانِي مُلْكًا عَظِيمًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، وَجَعَلَ لِي مَلَكِي طَيِّبًا لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ" 1131.

فمُلك سليمان لا مثيل له، ولن يكون لأحد من بعده؛ فقد خدمته الطير وسخرت الريح له، ودانت له ملوك الإنس، وخضعت له عفاريت الجن، وورث ملك أبيه إلى جانب ما آتاه الله من ملك، {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} 1132.

¹¹³¹ تفسير ابن كثير ط العلمية، 5، ص 32.

¹¹³² النمل 16.

ومن هنا؛ فقد ورث سليمان الملك والنبوة معا، ووراثة النبوة تعبير مجازي؛ لأن النبوة اختيار إلهي محض، والمراد منها أن الله جعل النبوة له بعد أبيه؛ فكان عهده وأبيه أزهى العهود التي مرت على بني إسرائيل على الإطلاق، وذلك لما أوتيته هذان النبيان الكريمان من العدل والحكمة مع الطاعة والعبادة لله عز وجل¹¹³³. قال تعالى: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} 1134، كان يستعرض جنوده من الجن والإنس، والطير من فوقهم تظلمهم¹¹³⁵.

وكانت الدولة في عهد سليمان تدار بأسلوب النبوة والملك الذي يستوجب تفقد أحوال الرعية مباشرة، {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَىٰ أَمْ كَانَ مِنَ الْعَائِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّيَ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ} 1136، وما يترتب على التفقد يجوز أن يكون توبا أو عقابا، فالهدد إن لم يأتي بعذر بين سيعرض نفسه للمعاقبة الشديد، وإن كان له عذرا فليبينه بلا تأخير؛ وهكذا تضبط الدولة وهكذا تحمل المسؤولية.

خاتم ملك سليمان:

عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنِ مُجَاهِدٍ: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ} 1137 يُقُولُ: "شَيْطَانًا، يُقَالُ لَهُ أَصِفًا، فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: كَيْفَ تَفْتِنُونَ النَّاسَ؟ فَقَالَ لَهُ أَصِفُ: أَرِنِي حَاتَمَكَ أُخْبِرْكَ، فَلَمَّا أَعْطَاهُ سُلَيْمَانُ حَاتِمَهُ نَبَذَهُ أَصِفُ فِي الْبَحْرِ، فَسَاحَ سُلَيْمَانُ وَذَهَبَ مُلْكُهُ، وَقَعَدَ أَصِفُ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَمَنَعَ اللَّهُ أَصِفًا نِسَاءَ سُلَيْمَانَ

¹¹³³ دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص 53.

¹¹³⁴ النمل 17.

¹¹³⁵ دروس الشيخ أحمد فريد، 50، ص 4، بتقييم الشاملة آليا.

¹¹³⁶ النمل 20، 21.

¹¹³⁷ ص 34.

فَلَمْ يَفْرَهُنَّ، فَأَنْكَرْتُهُ أُمُّ سُلَيْمَانَ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ يَسْتَطْعِمُهُمْ، وَيَقُولُ: لَوْ
عَرَفْتُمُونِي أَطَعْتُمُونِي، أَنَا سُلَيْمَانُ فَيُكَدِّبُونَهُ، فَأَعْطَتْهُ امْرَأَةً يَوْمًا حُوثًا
يُنْظَفُ هَا بَطْنُهَا فَوَجَدَ خَاتَمَهُ فِي بَطْنِهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ مُلْكُهُ، وَدَخَلَ
آصِفٌ فِي الْبَحْرِ فَأَرَا"1138.

مع احترامي لكل التفاسير في هذا الأمر، ولكي أرى أنّ ملك
سليمان أعظم من أن يكون خاتماً في أصبع، فهو نبي الله، وله من
الآيات العظام ما له (طير وجن وإنس وإسالة القطر إضافة إلى ما ورثه
من ملك من أبيه داوود عليهما الصلوة والسلام، ولأنّ ملك سليمان
كان ملكاً لا إمكانية لتكراره فهو عظيم، وذلك لأنّه من عند الله الذي
بيده كلّ شيء وهو على كلّ شيء قدير سبحانه.

هيكل سليمان:

ولأنّ سليمان هو من بني بيت المقدس، وجعل فيه القدسية لله
تعالى، فارتبط الاسم به، وبقي الهيكل بناءً عظيماً حتى جاء "بمختصر
الذي احتل أورشليم وأحرق هيكل سليمان وهدمه، ثمّ دمر الإمبراطور
الروماني تيطس (هيكل سليمان) مرّة ثانية وقتل وسبى عدداً كبيراً من
اليهود"1139، قال تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ
لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا
مَفْعُولًا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ
أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ

1138 تفسير مجاهد، ص، 574.

1139 موجز تاريخ اليهود والرد على بعض مزاعمهم الباطلة، ص 257.

وَعُدُّ الْآخِرَةَ لَيْسُوهُوا وُجُوهُكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَلِيُتَبَّرُوا مَآ عَلَوْا تَتَبِيرًا {1140

وبعد أن خُصَّ سليمان من بناء البيت قَرَّبَ قربانا فتقبل، ودعى
الله تَعَالَى بِدَعْوَاتٍ، مِنْهُنَّ: "أَيُّمَا عَبْدٍ مُؤْمِنٍ زَارَكَ فِي هَذَا الْبَيْتِ، تَأْتِي
إِلَيْكَ، حَتَّى يَنْتَصِلَ مِنْ حَطَايَاهُ وَذُنُوبِهِ، أَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْهُ، وَيَنْزَعَهُ مِنْ
حَطَايَاهُ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ" 1141.

كتاب سليمان ملكة سبأ:

أرسل سليمان رسالة إلى ملكة سبأ يدعوها وقومها إلى التخلي
عن عبادة الشمس من دون الله وأن يعبدوا الله واحد أحد ولا شريك
له، فقال: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ
وَأَنْتُنِي مُسْلِمِينَ} 1142، وحمل الهدهد بهذه المهمة؛ فطار بها إلى
ملكة سبأ، قال مقاتل: "حمل الهدهد الكتاب بمنقاره فطار حتى وقف
على رأس المرأة، وحوّلها القادة والجنود، ففرغ ساعة والناس ينظرون
حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها. وقال ابن منبّه وابن
زيد: كانت لها كوة مستقبلة الشمس، تقع الشمس فيها حين تطلع،
فإذا نظرت إليها سجدت لها، فجاء الهدهد تلك الكوة فسدها بجناحه
فارتفعت الشمس ولم تعلم، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى
بالصحيفة إليها؛ فأخذت بلقيس الكتاب وكانت كاتبة قارئة عربية من
قوم تبع بن شراحيل الحميري، فلما رأت الخاتم على الرسالة ارتعدت
وخضعت لأنّ ملك سليمان (عليه السلام) كان في خاتمه، وعرفت أنّ
الذي أرسل هذا الكتاب هو أعظم ملكا منها، ذلك لأنّ ملكا ورسوله

1140 الإسرائ 4 . 7.

1141 القدر للفريابي محققا، ص، 76.

1142 النمل 30، 31.

الطير لا شكّ إنّه عظيم، فقرأت الكتاب وتأخّر الهدهد غير بعيد فجاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملاء من قومها؛ فجاءوا وأخذوا مجالسهم؛ فقالت لهم بلقيس: يا أيّها الملاء إني ألقيني إليّ كتابٌ كريمٌ (إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم ألاّ تغلّوا عليّ وأتوني مُسلمين) 1143. فاستجابت بلقيس مع قومها لطلب سليمان بعد أن أقنعتهم بألاّ طاقة لهم بمواجهة جنود سليمان، وآثرت بكمال عقلها وفطنتها السلم والمصالحة والمسائلة والموادعة على الحرب والقتال، بالرغم من توافر قوّة عسكرية كبيرة عندها (نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ)؛ فشيّد لها سليمان صرحا عظيما ومردّ أرضه بالزجاج، وهذا فنّ مستحدث لا عهد لأهل اليمن به، ثم لما دخلته حسبته ماء، فكشفت عن ساقها لخوض الماء لثلا تبتل ثيابها بالماء، ثم أحضر لها عرشها من بلاد اليمن إلى بلاد الشام، ليكون دليلا على صدق نبوته، ومعجزة على صحة رسالته، وآية على قدرة الله العجيبة في خرق العادات وتجاوز المحسوسات، ممّا لم يكتشف العلم سره ونواميسه إلى الآن، فما كان من بلقيس إلاّ أن أسلمت وآمنت برسالة سليمان، {قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 1144.

كانت الرّسالة تحمل اللين والشدّة معا؛ فهي باسم الله الرحمن الرحيم تحمل اللين، أمّا في إظهار القوّة والشدّة جاء في قوله (ألاّ تغلّوا عليّ وأتوني مُسلمين) ومن هنا كان من عقل سليمان اللين والفطنة والحذر ولفت الانتباه ودقة التدبير، في استجلاب قلوب المدعوين إلى الدّين واستخدام نعم الله في دلالة الخلق على الله ومحاطبة الناس بالكيفية التي تستهوي قلوب عوامهم وتجلب احترام خواصهم، فسليمان

¹¹⁴³ تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 7، ص 205.

¹¹⁴⁴ النمل 44.

لما بلغه خبر مجيء ملكة سبأ في جمع من حاشيتها وجنودها، أراد أن يعلمها مدى ما أعطاه الله من قوّة حتى أنّ عرشها الذي تركته في حماية عظيمة وحرس كثيف يسبقها إليه، وقد أسلمت ملكة سبأ لله بعد أن سمعت من سليمان عليه السّلام ما سمعت من حكمة وعظمة.

فتنة سليمان:

سليمان عليه السّلام نبيا عظيما بعظمة الله الذي اصطفاه نبيا ورسولا، وقد أتاه من الملك ما لم يؤتى أحد من قبله ولا من بعده، ومع ذلك فقد وضع سليمان موضع الاختبار؛ فكان الابتلاء الذي لم يزد سليمان إلّا تمسّكا برسالته التي اصطفاه إليها الله تعالى، يقول الشعراوي: "وقد أعطى الله سليمان مُلكا عظيما لا ينبغي لأحد من بعده، فسحّر له الطير والجنّ والإنس والريّح يأتمرون بأمره، ولكن يبدو أنّه قد أخذه شيء من الزّهو أو الغرور، فأراد الحقّ سبحانه أن يلفته إلى مانح هذا الملك ويُذكّره بأنّ هذا الملك لا يقوم بذاته، إنّما بأمر الله القادر على أن يُقعدك على كُرسيّك جسدا، لا حركة فيه ولا قدرة له حتى على جوارحه وذاته" 1145.

وَذَكَرُوا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ} 1146 قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى فَتَنَّا سُلَيْمَانَ أَي أَتَيْنَاهُ مِنَ الْمَلِكِ مَا اخْتَبَرْنَا بِهِ طَاعَتَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى مُصَدِّقاً لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى {إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَافِرِينَ} 1147 إِنْ مِنَ الْفِتْنَةِ مَنْ يَهْدِي اللَّهُ مِنْ يَشَاءُ

¹¹⁴⁵ تفسير الشعراوي، 15، ص 9360.

¹¹⁴⁶ ص 34.

¹¹⁴⁷ الأعراف 155.

فَهَذِهِ الْفِتْنَةُ هِيَ الْاِخْتِبَارُ حَتَّى يَظْهَرَ الْمُهْتَدِي مِنَ الضَّالِّ؛ فَهَذِهِ فِتْنَةُ
اللَّهِ تَعَالَى لِسُلَيْمَانَ إِنَّمَا هِيَ اِخْتِبَارُهُ حَتَّى يَظْهَرَ فَضْلُهُ "1148

علم سليمان:

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} 1149

فقوله: (عِلْمًا) جاءت غير مقيّدة بما يدلّ على العلم الواسع من
العليم الواسع، ومع أنّه العلم الواسع لكنّه قد أدرك علما تاما وواسعا
من قبل داوود وسليمان عليهما الصّلاة والسّلام. أي أنّ العلم المدرك
هو العلم الذي تمّ استيعابه وإدراكه بيّنة وحجّة، ولهذا كان الحمد مرتبطا
بإدراك العلم الذي أوتي لداوود وسليمان عليهما السّلام.

ومع أنّ الله قد أتى داوود وسليمان علما واسعا، لكنّه أيضا
خصّهما بعلم منطق الطير، {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ}؛ ولهذا؛ فالَّذِي عَلَّمَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ مَنْطِقِ
الطَّيْرِ هُوَ مَا يُفْهَمُ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ مِنْ مَقَاصِدِهِ وَأَغْرَاضِهِ 1150.

وعليه:

علم المنطق ليس علم لغة، بل هو علم المعرفة وبخاصّة معرفة
الكيفية التي بها يفكّر الطير، ولهذا أن تتعلّم اللغة فهذا ليس بالصعب،
ولكن أن تعلّم كيف يفكّر الطير فهذه آية، وقد أعطيت لسليمان عليه
الصّلاة والسّلام.

¹¹⁴⁸ الفصل في الملل والأهواء والنحل، 4، ص 15.

¹¹⁴⁹ النمل 15.

¹¹⁵⁰ تفسير الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، 24، ص 547.

تسخير الرِّيح لسليمان:

التسخير يعني ممّا يعنيه التجنيد، أي تجنيد الرِّيح لتكون تحت أمر سليمان عليه الصّلاة والسّلام، الذي لا يقدم على فعل شيء إلا في مرضاة الله تعالى، وهذا يعني أنّ سليمان يأمر والرِّيح تعمل، ولأنّنا نتحدث عن معجزة؛ فالمعجزة مأمورة من الله لتكون طاعة لأمر سليمان، ولهذا فالرِّيح طاعة لأمر الله تطيع أمر سليمان عليه السّلام. قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} 1151. قَوْلُهُ: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ) مَعْطُوفٌ عَلَى مَعْمُولٍ (سَخَّرْنَا) فِي قَوْلِهِ: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ} 1152، أَيْ وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ فِي حَالِ كَوْنِهَا عَاصِفَةً. أَيْ شَدِيدَةً الْهُبُوبِ. يُقَالُ عَصَفَتِ الرِّيحُ أَي اشْتَدَّتْ، وَقَوْلُهُ (تَجْرِي بِأَمْرِهِ) أَيْ تُطِيعُهُ وَتَجْرِي إِلَى الْمَحَلِّ الَّذِي يَأْمُرُهَا بِهِ. والمراد بتسخيرها له أن تكون تحت مراده، وتأتمر بأمره، فتسير حيث شاء يمينا أو شمالا، فهي لا تهبُّ على مرادات الطبيعة التي خلقها الله عليها، ولكن على ما يريده سليمان 1153.

وإن كانت هذه الرِّيح الرُّخاء تحمله في رحلة داخلية في مملكته، فهناك من الرِّياح ما يحمله في رحلات وأسفار خارجية، كالتى قال الله تعالى عنها: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ} 1154 رحلة طولها شهر وبسرعة الرِّيح العاصف ألا تكون دورة تامة حول العالم بل دورة حول الكون كله، ريح يجوب بها في الكون كيف يشاء

1151 الأنبياء 81.

1152 الأنبياء 79.

1153 الجموع البهية للعقيدة السلفية، 2، ص 531.

1154 سبأ 12.

{فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ بَحْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ} 1155، ثمّ يقول
تعال: {وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} 1156 أي عندنا علم نُرتَّب به
الأُمور على وَفْق مرادنا، ونكسر لمرادنا قانون الأشياء فَنُسَيِّر الرِّيح كما
نحبّ، لا كما تقتضيه الطبيعة 1157. نعم أنّها لغة المعجزات ربح تجري
من الغداة إلى منتصف النَّهار مسيرة شهر، ومن منتصف النَّهار إلى
الليل مسيرة شهر!

إسالة عين القطر لسليمان:

القطر هو: (النحاس) وهذا لا استغراب فيه كونه معدنا،
الاستغراب أن يكون النحاس الصّافي ينبوعا يجري أمام أعين الناس،
ويكون ينبوع آية على يدّ سليمان عليه السّلام، وألا يكون حارقا
لأيدي سليمان الذي يعمل به ما يشاء {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ
الْقَطْرِ} 1158، قوله (وَأَسَلْنَا لَهُ) تعني أنّ ينبوع النحاسي قوي جدّا
مثله مثل الأودية الجارية عندما تسيل مطرا. حدثني علي قال: ثنا أبو
صالح قال: ثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله (وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ
الْقَطْرِ) يقول: النحاس. وحدثني محمّد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني
عمي قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله (وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ)
يعني: عين النحاس أسيلت 1159

حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله
{وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ} قال: "الصّفّر سال كما يسيل الماء، يعمل به

1155 ص 36.

1156 الأنبياء 18.

1157 تفسير الشعراوي، 15، ص 9613.

1158 سبأ 12.

1159 تفسير الطبري، جامع البيان ت شاكر، ص 364.

كما كان يعمل العجين في اللبن"1160. وَقَالَ قَتَادَةُ: وَكَانَتْ عَيْن
الْقَطْرِ بِالْيَمَنِ، فَكُلُّ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ مِمَّا أَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى لِسُلَيْمَانَ، عَلَيْهِ
السَّلَامُ1161.

بناء بيت المقدس:

بناء القبلة لا يمكن أن يكون هينا؛ فبناؤها لا يكون إلا سرا لا
يعلمه يقينا إلا الله، أما البناء من فوقها ولإظهارها ورفع القواعد؛ فلا
سرّ فيه، ولهذا نحن نعلم من رفع القواعد ومن بني بيت المقدس كما
شاؤهُ اللهُ، ولا نعلم يقينا متى وكيف وضعت القواعد وعلى يد من؟

ومن ثمّ فقد عرفنا أنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلّاة والسّلام،
هما من رفع قواعد البيت الحرام، وكذلك عرفنا إنّ سليمان عليه السّلام
هو من بني بيت المقدس، وهذا لا يعني أنّه أوّل من وضع قواعده؛ وهنا
تكمّن الأسرار. "أَنَّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ الَّذِي نَسْتَقْبِلُهُ فِي صَلَاتِنَا هُوَ أَوَّلُ
بَيْتٍ وُضِعَ مَعْبَدًا لِلنَّاسِ، بَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ وَوَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ
لِأَجْلِ الْعِبَادَةِ خَاصَّةً، ثُمَّ بَنَى الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى بَيْتَ الْمُقَدَّسِ بَعْدَهُ
بِعِدَّةِ قُرُونٍ، بَنَاهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ"1162.

وهناك من يرى أنّ داوود هو من أوصى ابنه ببناء المسجد
الأقصى المبارك لأسباب سبق ذكرها عندما كتبنا عن داوود عليه
السّلام، فهناك من قال: "ابتدأ سليمان في عمارة بيت المقدس وإتمامه
حسبما أوصى به أبيه؛ فبنى المسجد الأقصى بالرخام الملون وسقفه

¹¹⁶⁰ تفسير الطبري، جامع البيان ت شاكر، 20، ص 364.

¹¹⁶¹ تفسير ابن كثير ت سلامة، 6، ص 499.

¹¹⁶² تفسير المنار، 4، ص 6.

بألواح الجواهر الثمينة ورصع سقوفه وحيطانه بالآلئ واليواقيت؛ فكان
قبلة للمصلين¹¹⁶³.

ولهذا يعدّ "التابوت من مقدّسات بني إسرائيل وهو صندوق من
الخشب يزعمون أن الله أمر موسى عليه السلام بصنعه على هيئة
خاصة وكان بنوا إسرائيل يحملونه أمامهم في التيه ولما بنى سليمان عليه
السلام بيت المقدس جعله فيما يسمونه (قدس الأقداس) وهي حجرة
صغيرة يستقبلونها في الصلاة. وقد ذهبت جميع هذه المقدسات بعد
تدمير الهيكل زمن غزو بختنصر".

وقد ذكروا أن سليمان عليه السلام حين فتح التابوت لم يكن فيه
سوى لוחي الحجر اللذين وضعهما موسى عليه السلام¹¹⁶⁴.

الجن لا تعلم الغيب:

وقصة الجنّ الذين سخرهم الله للعمل بين يدي سليمان عليه
السلام، يذكر القرآن الكريم أن سليمان بعد أن مات أعمى الله موته
عن الجن، ولو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا مدّة من الزمن، وهم يعانون
من مشقّة الأعمال التي ألزمهم بها سليمان عليه الصلّاة والسلام. قال
تعالى: { فَلَمَّا فَصَيَّنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا
فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ }¹¹⁶⁵.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "يذكر تعالى كيفية موت
سليمان عليه السلام، وكيف عمى الله موته على الجنّ المسخرين له في

¹¹⁶³ روح البيان، 7، ص 273.

¹¹⁶⁴ دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص 80 . 82.

¹¹⁶⁵ سبأ 14.

الأعمال الشاقة، فإنه مكث متكئا على عصاه، وهي منسأته، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والحسن وقتادة، وغير واحد مدة طويلة، نحو من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض، وهي الأرضة ضعفت وسقطت على الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، وتبينت الجن والإنس أيضا أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك"1166.

هكذا كانت الجن قد سُخِّرَت إلى سليمان، وقد خضعت لسيطرته فطاعته، حتى وإن كان من بينها من خالف حيث لكل قاعدة شدّ عنها، ومع ذلك فالله تعالى فضل الإنسان على ما خلق، ففضله على الملائكة والجن عندما أنباء الله آدم بما لم يعلموا؛ فسجد الملائكة لآدم وعصى إبليس أمر ربّه عليه اللعنة من الله تعالى. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وَلَوْلَا دَعْوَةُ أَخِي سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَأَصْبَحَ مَوْثِقًا حَتَّى تَرَاهُ النَّاسَ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُوْتِقَهُ إِلَى سَارِيَةِ حَتَّى تَصْبَحُوا فَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ"1167.

النملة لغة ومنطق:

حكى الله تعالى قول النملة التي رأت سليمان عليه السلام وجنوده: فقال: { وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ

¹¹⁶⁶ منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، 1، ص 143.

¹¹⁶⁷ آكام المرجان في أحكام الجنان، ص 32.

وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ {1168}.

وقد قال بعض العلماء: "إنّ هذه الآية من عجائب القرآن، لأنّها
بلفظة (يا) نادى (أيّها) نبّهت (النمل) عينت (ادخلوا) أمرت
(مساكنكم) نصّت (لا يحطمنكم) حدّرت (سليمان) خصّت
(وجنوده) عمّت (وهم لا يشعرون) ثمّ عذرت" 1169

ويفهم من هذه الآية أنّ سليمان قد علم أنّ النملة كانت متخوّفة
من بطش أقدام الجنود في ركب سليمان، ولهذا فسليمان في مملكته كان
حريصاً على كلّ كبيرة وصغيرة، ومن هنا سلمت النملة ومن معها من
بني جنسها من النمل.

أي أنّه لقد سمع كلامها، وتفهم شكواها، فتبسم من قولها، فرقّ
لها قلبه، رفقا لجرمها الصّغير، فرحمها وأخواتها، وشكر ربّه الذي علّمه
منطق الأسرار من هذه المخلوقات ومن غيرها.

هدهد سليمان وإسلام ملكة سبأ:

الهدهد طائر له لغة كغيره من الكائنات التي انطقها الله وقد اسلم
لله وسُخر لسليمان ليرشده إلى حيث توجد المياه في باطن الأرض،
وعندما فصل سليمان عليه السّلام عن وادي النمل حيث وقع سليمان
مع جنوده في أرض جدباء لا ماء فيها؛ فعطش الجيش؛ فسألوه الماء،
وهذه من وظيفة الهدهد في جيش سليمان عليه السّلام؛ فهم إذا أعوزوا
الماء واحتاجوا إليه في القفار والصحارى في حال الأسفار أن يجيء
الهدهد فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء، حيث كان ينظر إلى الماء

¹¹⁶⁸ النمل 17 . 19.

¹¹⁶⁹ منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، 1، ص 380.

تحت تخوم الأرض، وكأنه يرى الماء في الأرض كما يرى الماء في الزجاج، ولكن في تلك اللحظات كان الهدهد غائبا، ثم أقبل حاضرا إلى سليمان عليه السلام، فلما سأله عن غيبته أخبره بأنه اطلع على ما لم يطلع عليه، وأخبره بخبر يقين وهو أنه كان في مدينة سبأ، وأن هناك ملكة على هذه البلاد ولها عرش عظيم مزخرف بأنواع الزينة والجواهر مما يبهر البصار، ثم ذكر لسليمان عليه السلام كفرهم بالله تعالى وعبادتهم الشمس والسجود لها من دون الله، قال تعالى: {فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} 1170؛ فعند ذلك بعث سليمان عليه السلام كتابا ليوصله إلى هذه الملكة مختبرا صدق الهدهد، وكان هذا الكتاب يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله ورسوله والخضوع لملكه وسلطانه قال تعالى: {قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ} 1171 وحمل الهدهد كتاب سليمان عليه السلام وجاء إلى قصر ملكة سبأ فألقاه إليها وهي على سرير عرشها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتاب سليمان عليه السلام، وأخذت الملكة الكتاب فقرأته ثم جمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها 1172. ثم قالت: {يَا أَيُّهَا} قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ

1170 النمل 22 . 26.

1171 النمل 27، 28.

1172 البيهقي وموقفه من الإلهيات، ص 116.

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ قَالَ نَكَّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتِنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِهْمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {1173}

إنه سليمان نبي الله وصاحب المعجزات العظام والملك الذي لم يكن لأحد من بعده. إنه سليمان الذي يعرف لغة النمل والجن ومنطق الطير، فذات مرة كما أخرج أبو الشيخ عن عبد الحميد بن يوسف

¹¹⁷³ النمل 29 . 44.

قال: "صاح ديك عند سليمان عليه السلام فقال سليمان: هل تدرّون ما يقول هذا؟ قالوا: لا قال: فإنّه يقول: اذكروا الله يا غافلين"1174.

ظلال الطير:

في قصة النبي داود عليه الصلّاة والسّلام دخل عليه رجل والأبواب مقفلة ولم تفتح؛ فإذا برجلٍ قائم وسط الدّار؛ فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب؛ فقال داود: "أنت إذن والله ملك الموت، مرحبا بأمر الله، ثمّ مكث مكانه حتى قبضت روحه، فلما عُسّل وكفّن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلي على داود فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال سليمان للطير: اقبضي جناحا جناحا. قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: فطفق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يرينا كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيده"1175.

وإلى جانب ذلك فالطير يظل جيوش داود عندما تتحرك نهارا كلّما لزم الأمر تجنّباً للشمس، وتيسير للحركة والتنقل. وأنا لا استغرب ذلك فأمر الأنبياء عظيم، وآيات الله على أيدهم معجزات متحقّقة. فالطير الذي يجادل ويحاور ويحمل الرّسائل ويقول: {أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ}1176 ألا يكون الظل بالنسبة له من أيسر الأعمال؟ وبخاصة نحن نشاهد بين الحينة والأخرى آلاف الطيور تطير وترسم تشكيلات عظيمة وكأنّها تتحدّى عقولنا وتفكيرنا ومقدرتنا على النظام والانضباط.

1174 الحبائك في أخبار الملائك، ص، 82.

1175 حياة الحيوان الكبرى، 2، ص 89.

1176 النمل 22.

منطق الطير:

المنطق غير اللغة؛ أي أنّ سليمان عليه السلام فوق تعلّمه لغة الطير أنّه تعلّم منطق الطير؛ أي أنّه تعلّم كيف يفكر الطير، وهذه ليست بالأمر السهل، فمعرفة الكيفية التي بها يفكر الطير تمكّن من السيطرة على الطير وانقياده دون تعسير، قال تعالى: {عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} 1177.

عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ " أَي تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْنَا عَلَى مَا وَرَثْنَا مِنْ دَاوُودَ مِنْ الْعِلْمِ وَالنَّبُوءَةِ وَالْخِلَافَةِ فِي الْأَرْضِ فِي أَنْ فَهَّمْنَا مِنْ أَصْوَاتِ الطَّيْرِ الْمَعَانِي وَالْقَوَاعِدَ الْمُنطِقِيَّةَ الَّتِي عَلَى ضَوْئِهَا يُولِّدُ الطَّيْرُ أَفْكَارَهُ وَكَيْفِيَّةَ تَدَبُّرِهِ أَمْرَهُ. قَالَ مُقَاتِلٌ فِي الْآيَةِ: كَانَ سُلَيْمَانُ جَالِسًا ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ مَرَّ بِهِ طَائِرٌ يَطُوفُ، فَقَالَ لِجُلَسَائِهِ: أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ هَذَا الطَّائِرُ؟ إِنَّهَا قَالَتْ لِي: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُسَلِّطُ وَالنَّبِيُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ! أَعْطَاكَ اللَّهُ الْكِرَامَةَ، وَأَظْهَرَكَ عَلَى عَدُوِّكَ، إِلَيَّ مُنْطَلِقٌ إِلَى أَفْرَاجِي ثُمَّ أَمْرٌ بِكَ الثَّانِيَّةِ، وَإِنَّهُ سَيَرْجِعُ إِلَيْنَا الثَّانِيَّةِ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ إِنَّهُ يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُسَلِّطُ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لِي كَيْمَا أَكْتَسِبَ عَلَى أَفْرَاجِي حَتَّى يَشْبُوهَا ثُمَّ آتَيْكَ فَافْعَلْ بِي مَا شِئْتَ. فَأَخْبَرَهُمْ سُلَيْمَانُ بِمَا قَالَ، وَأَذِنَ لَهُ فَانْطَلَقَ. وَقَالَ فَرَقْدُ السَّبْحِيُّ: مَرَّ سُلَيْمَانُ عَلَى بُلْبُلٍ فَوْقَ شَجَرَةٍ يُجْرِكُ رَأْسَهُ وَيُمِيلُ ذَنْبَهُ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ هَذَا الْبُلْبُلُ؟ قَالُوا لَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ: أَكَلْتُ نِصْفَ ثَمَرَةٍ فَعَلَى الدُّنْيَا الْعَفَاءُ. وَمَرَّ بِهُدْهِدٍ فَوْقَ شَجَرَةٍ وَقَدْ نَصَبَ لَهُ صَبِيٌّ فَحَا فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: احْذَرِ يَا هُدْهُدُ! فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! هَذَا صَبِيٌّ لَا عَقْلَ لَهُ فَأَنَا أَسْحَرُ بِهِ. ثُمَّ رَجَعَ سُلَيْمَانُ فَوَجَدَهُ قَدْ وَقَعَ فِي حِبَالَةِ الصَّبِيِّ وَهُوَ فِي

¹¹⁷⁷ النمل 16.

يَدِهِ، فَقَالَ: هُدُّهُ مَا هَذَا؟ قَالَ: مَا رَأَيْتُهَا حَتَّى وَقَعْتُ فِيهَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ.
قَالَ: وَنَحْكَ! فَأَنْتَ تَرَى الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ أَمَا تَرَى الْفَحَّ! قَالَ: يَا نَبِيَّ
اللَّهِ إِذَا نَزَلَ الْقَضَاءُ عَمِّي الْبَصْرُ¹¹⁷⁸.

وعليه فالمنطق لغة يعني: مستويات التفكير، ومن هنا يتضح الفرق
بينه وبين اللغة ككلام ونطق وحركة، فالمنطق محاكاة موضوعية بين
المتحاورين يعتمد على مبررات وحقائق وليس على جملة من التعبير
والخطابات البلاغية والبيانية والكلمات المأخوذة من القواميس، وفي
المفهوم العربي المنطق حجة مقنعة لاعتماده على إظهار الحقائق،
والحوار المنطقي هو المعتمد على الموضوعية المستندة على مبررات
ومعطيات ومقدمات تحمل في أحشائها النتيجة المتوصل إليها.

قد عرّف عبد الرحمن بدوي المنطق في الموسوعة الفلسفية بأنه
"العلم الباحث في المبادئ العامة للتفكير الصحيح. وموضوعه البحث
في خواص الأحكام، لا بوصفها ظواهر نفسية، بل من حيث دلالتها
على معارفنا ومعتقداتنا"¹¹⁷⁹. وقد عرّفه أما نويل كنت بأنه "علم
القوانين الضرورية للذهن والعقل"¹¹⁸⁰. لقد أرتبط المنطق بالتفكير
وملكات العقل ومستوياته، وقد تميّز عن اللغة الناقلة له، ومع ذلك كاد
البعض لا يفصل بين المنطق واللغة، وهنا يكمن المشكل الذي يواجه
المتحاورين، والذي نسعى لكشفه في هذا المؤلف.

منطق الحوار أسلوب عقلي ومعرفي يدرك الحقيقة ويعمل بها، ولأنّه
عقلي؛ فهو يرتبط بمستويات التفكير الإنساني، حيث يتميّز تفكير

¹¹⁷⁸ تفسير القرطبي، 13، ص 165.

¹¹⁷⁹ عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية الجزء الثاني. بيروت: المؤسسة العربية للنشر

والتوزيع، الطبعة الأولى، 1984، ص 474

¹¹⁸⁰ المصدر السابق، ص 474.

الصبي والطفل عن تفكير الرجل والشيخ، ويتميّز تفكير المتعلّم عن تفكير الجاهل، وتفكير السياسي والاقتصادي عن غيرهما ممّن لا يعرفون شيء عن السياسة والاقتصاد؛ فمنطق الحوار ليس لغة كما يعتقد البعض، بل هو الحجّة التي يستند عليها المتحاورون أو البرهان الذي له الإثبات على أرض الواقع، وما اللغة إلّا وسيلة لنقل المنطق وليس مصدرا لتوليدته، وفي هذا اللبس وقع الكثيرون من الساسة والمفكرين ورواد الفكر الإنساني حيث أنّهم حلّوا اللغة محل المنطق في حواراتهم السياسية والدينية والحضارية والاقتصادية والاجتماعية، ممّا جعل استمرار اختلافهم وكأنّه الحلّ الذي تنتظره أطراف الحوار.

الحوار المنطقي يُمكن عقل الإنسان وتفكيره من التنقل من المعلوم إلى المجهول، ومن المتوقّع إلى غير المتوقّع، فتزداد المعارف وتتسع دائرتها بما يمكن استيعاب البعض للبعض الذي تعجز عن تحقيقه اللغة الخالية من المنطق. فالمتوقّع كلّ الناس تدركه، وتسعى إلى الوصول إليه أو تفاديه حسب كلّ حالة وظرف، أمّا غير المتوقّع؛ فهو الذي لا يدرك مباشرة ولكنّه يدرك بالاستنباط والاستدلال بما هو مدرك في ذاته، فالجهاد على سبيل المثال: لا يدركه إلا المؤمن، أمّا سواه فلا يدركه إلّا قتالا، والمؤمن يعرف أنّ لكلّ شيء تمن معلوم، ويعرف أنّ في الحياة الدنيا لا ثمن للروح التي علمها عند ربّي، ويعرف أنّ قيمة الأشياء ليس دائما في ذاتها، بل بما يعود منها من خير؛ فالموت كلّ الناس سيموتون دون أن يدفع الناس ثمنا مقابل موتهم، ولكن المؤمن يعرف أنّ ما يقوم به من خير سيجاز عليه في الحياة الآخرة، أمّا غير المؤمن فقد لا يقع في حسابات عقله ما يتوقّعه المؤمن، ولذا ما هو متوقّع عند المؤمن قد يكون في حيز غير المتوقّع بالنسبة لغيره.

وعليه؛ فالمنطق لا يُسَلَّم بأنَّ حدوده تنتهي عند حدود المتوقَّع فقط، بل يدرك أنَّ في مستويات التفكير الإنساني مسافات لاستيعاب المتوقَّع وغير المتوقَّع، ومن يحاول أن يقصر تفكيره على المتوقَّع فقط فقد يفاجئه غير المتوقَّع بما لا يحمد عقباه. فالجنَّة غير المتوقَّعة عند البعض هي في دائرة المتوقَّع بالنسبة للمؤمن، وبالتالي تُعدُّ في دائرة المدركات العقلية التي لا يشوبها الشكُّ، والسعي لأجل الوصول إليها هدف وضرورة رئيسة في الحياة الدُّنيا، ودخول اللجَّة لا يقتصر تحقُّقه بالجهاد والاستشهاد، بل بفعل الخير كلِّ الخير، من الكلمة الحسنة إلى الفعل الحسن.

ولذا فالجهاد ليس غاية في ذاته، بل الغاية من ورائه حجز بطاقة دخول الجنَّة، والثَّمَن الذي يدفع لأجل نيل شهادة الاستشهاد هو قبول الموت المباشر لكسر حاجز الخوف الذي يعيق البعض من دخول الجنَّة، هذه السلسلة من التفكير المنطقي لا تقع في دائرة المتوقَّع بالنسبة لغير المؤمن بالله تعالى، وفي الوقت ذاته لا تخرج عن دائرة المتوقَّع بالنسبة للمؤمن، ولأجل التفاهم والتفهّم والوصول إلى الحلِّ المرضي لأطراف الحوار لا ينبغي قصور التفكير على المتوقَّع فقط.

إنَّ منطق الحوار هو الضرورة لحلِّ المعضَل بين العرب والمسلمين (أتباع رسالة محمَّد عليه الصَّلَاة والسَّلَام)، وبين اليهود والمسيحيين (المسلمين برسالة موسى وعيسى عليهما الصَّلَاة والسَّلَام)، أو بين الشعوب الأوروبية والشعوب العربية والشرقية الأخرى، ولأجل ذلك ينبغي مراعاة الآتي:

أولاً: حصر القيم التي تشكل الإطار المرجعي للحوار المنطقي: وهذه تستوجب اعتبار وتقدير الأديان والمعتقدات والأعراف والتقاليد والعادات لكلِّ شعب أو أُمَّة من الأمم المتحاورة، أو السَّاعية للحوار،

وإذا لم يتحقق الاعتبار لكلّ إطار قيمي مرجعي فلا بدّ أن يكون الانحياز المؤدّي بالضرورة إلى الاختلاف والتباين الذي هو في حاجة إلى الاحتكام بالمنطق المقدر لكلّ إطار قيمي مرجعي دون تمييز. فالكرم كقيمة مفضلة عند العربي وبخاصة في المجتمعات البدوية والريفية، تعد لدى الأوروبي عملية إسراف خالية من القيم المحببة والمفضلة عند العربي، تقابلها قيمة الرقص عند الأوروبي، التي لا تعدّ على سلم القيم في المجتمع العربي، وهذا لا يعني أنّ العربي لا يحبّ الرقص أو لا يرقص، بل أنّ هذه القيمة لا تُحظى بالتقدير والتفضيل على سلم القيم الاجتماعي.

ثانيا: صياغة جملة من المعايير المشتركة التي تحافظ على كيانات الجميع دون أن ينتهي طرفا على حساب آخر، أو أن يكون على حسابه، نظرا لانعدام وحدة القياس القيمي وهي المعايير المشتركة بين العرب والمسلمين من جهة وبين الشعوب الغربية والشرقية من جهة أخرى، فانعدام وحدة المعايير بين أطراف الحوار يؤدّي بالضرورة إلى تقديرات قيمية مختلفة، فما هو مفضّل ومحبوب لدى الشعوب الأوروبية قد لا يكون كذلك لدى العرب والمسلمين، كأكل لحم الخنزير على سبيل المثال، معظم الأوروبيون يتوقعون كلّ الناس آكلة للحم الخنزير، أو أنّها تقبل بأكله، ومعظم المسلمون لا يتوقعون الناس تقدم على أكل لحم الخنزير. فعلى المتحاورين الأخذ في الاعتبار للمتوقع وغير المتوقع، اعتمادا على قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 1181 فعلينا أن نقبل بتعدد المعايير على مستوى كلّ خصوصية، دون أن نكيل بمكيالين، ولكن كيف؟

1181 البقرة 256.

أقول:

أن نقبل بحرية الاختيار ولا نعمّم المعايير على من لا تنطبق عليهم مقاييسها.

ثالثاً: وضع مقاييس تبرز التفضيلات لدى الجميع ومستوياتهم القيمة عند الأفراد والجماعات والمجتمعات، على أن تسمح هذه المقاييس بحرية الحركة والتفاعل والاختيار دون أيّ إجبار أو إكراه من طرف على آخر. فعلى سبيل المثال: في المجتمعات العربية لا يقبل أن يعيش الشاب الغريب مع الأسرة ويُعدّ عيباً وبخاصة إذا كان لها بنات مراهقات أو حتى بالغات في المنزل، أمّا في المجتمعات الغربية فإنّ أبناء العرب والمسلمين عند تعلّمهم اللغة يفضل العربي أن يختار لأبنه أسرة، ويفضل أن يكون لها أبناء لأجل تيسير تعلمه اللغة، فذلك لا يعدّ عيباً في الثقافة الغربية، وهكذا في المجتمعات الأوروبية الفتاة البالغة التي لم يكن عندها صديق لمعاشرتها تعدّ في حالة من التخلف، أمّا في المجتمعات العربية فإنّ ذلك يعدّ محرّماً، وبناء على هذه المقاييس المختلفة ينظر الأوروبي للعربي والمسلم تجاه هذه الأفعال بأنّه متخلف وغير ديمقراطي ويعاني من أزمة انعدام الشفافية، وفي المقابل ينظر العربي والمسلم إلى غير المسلمين بأنّهم يعانون من أزمة أخلاقية بل ويصف تلك المجتمعات بالمنحلّة.

ولهذا؛ فمنطق الحوار يتطلّب التقدير، تقدير الثقافة والدين والعرف والعادة، دون نظرة نقيصة من أحد لأحد، وإلاّ لماذا قبلنا بمقاييسنا الأخلاقية أن يعيش أبناءنا مع أسرهم (أسر أهل الغرب)

ويختلطون ببناتهم، ولا نقبل أن تمارس بناتهم الحرّية الشخصية مثلما همّ
يرون؟ ألا يكفي قول الله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} {1182}؟

اشتراطات وماخذ منطقية:

أولا الاشتراطات المنطقية: ويقصد بالاشتراطات المنطقية
الضرورات اللازمة لأطراف الحوار الواجب توفّرها وهي:

1 . التفهّم: تفهّم ظروف كلّ طرف من قبل الطرف الآخر، وهي
الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتي
هي في حقيقة أمرها ليست في حالة تساوي، وبالتالي ينبغي أن تقدّر
الظروف وتراعى ولا داعي للتعميم.

2 . التقبّل: كلّ طرف ينبغي أن يتقبل الطرف الآخر كما هو، لا
كما ينبغي أن يكون عليه، وإذا لم يسود مبدأ التقبّل بين المتحاورين لا
يمكن أن يصلوا إلى المعرفة التي تمكّنهما من التفهّم والتواصل والتفاعل
الاجتماعي والإنساني.

3 . الاستيعاب: بالتفهّم والتقبّل يحدث الاستيعاب الذي يدلّ
على تقدير كلّ طرف للطرف الآخر، وفي مرحلة الاستيعاب يتمّ
التجاوز عن الأخطاء دون مكاشفة بالرّغم من معرفتها ومعرفة مبرراتها.

4 . الصّدق: قول الحقّ دون تردّد، بالرّكون للحجّة وليس بالبحث
عن مفردات قابلة للتفسير في أيّ ظرف زماني أو مكاني، ولأنّ الصّدق
قول حقّ، فيجب أن يسود الحقّ كلّ حجّة من حجج الحوار المنطقي.

1182 الكافرون 6.

5 . الإرادة: من شروط ممارسة الحرّية أن يكون لأطراف الحوار إرادة متساوية، فإذا لم تتساو أطراف الحوار في تملك الإرادة وممارستها لا يمكن أن يكون الحوار نافعا ولا شفافا.

6 . الثقة: عندما تصبح الثقة متبادلة بين المتحاورين، تنعدم الخيانة وتُزال الشكوك التي تؤسس على علامات التعجّب والاستغراب، فبالثقة يأمن كلّ طرف جانب الطرف الآخر.

ثانيا المآخذ المنطقية: ويقصد بالمآخذ المنطقية التمسك بمسببات الفرقة أو بكلّ ما هو محرج بين أطراف الحوار، وهي:

1 . الأحكام المسبقة: إنّ الاحتكام بما هو سماعي على أحد أطراف الحوار قد يعدّ عيبا منطقيا عندما لا يبيث للحقيقة بصلة، لذا ينبغي أن تتاح الفرص للمعرفة المباشرة دون وسطاء، فالوسطاء في بعض الأحيان قد تتعارض مصالحهم مع مصالح الالتقاء بين الأطراف المتحاورّة، والأخبار السماعية هي الأخرى في كثير من الأحيان تكون مزوّرة، فالسماح بإتاحة الفرص المتساوية للمعرفة يؤدّي إلى إنجاز المهام وتحدي الصعاب.

2 . التفسير: في المنطق العلمي لا تفسّر المعلومة إلا بعد تحليلها والوصول إلى نتائج مثبتة، ومن يقوم بتفسير المعلومة دون أن تحلل بموضوعية فقد يقع في أخطاء غير متوقّعة، إنّ تفسير المعلومات تأويلي، والتأويل قد يحيد بالكلم عن مواضعه، ولهذا فلا ينبغي أن تفسر قبل أن تعرف عن كتب. والحوار الذي تسبقه التفسيرات قد ينساق ورأى هوامش التفكير بدلا من التمرکز على بؤر اهتمامه.

3 . النظرة الدّونية: الحوار يتطلّب تساوي كفتي الميزان العادل، وعندما تميل كفة على حساب أخرى لأسباب اقتصادية أو تاريخية

وحضارية أو ثقافية، يحدث التمايز بين المتحاورين، فالنظرة الدّونية للآخر، تجعله أو تضطرّه إلى الرّفْض أو التمردّ على كلّ مبررات الحوار، حتى لا يسود منطق التعالي عليه من قبل الطرف الآخر للحوار.

4 . التعميم: تعميم الأحكام السّالبة على كلّ الإطار المرجعي للقيم، أو على كلّ أعضاء الحوار لا يجانبه المنطق من قريب ولا من بعيد، وبالتالي التعميم لا يعدّ ظاهرة علمية ولا منطقية، سواء للحسنات أو السيئات.

5 . التناقض: التناقض يبطل حجّة منطق الحوار، ويدلّ على انعدام مصداقية البرهان، ولا يؤدّي إلى استنباط النتائج من المقدمات.

6 . الرّفْض: الحجّة المنطقية لا ترفض، والحقيّة لا ترفض، ومن يقوم بممارسة فعل الرّفْض يُرفض الحوار معه.

الفرق بين منطق الحوار ولغة الحوار:

دائماً تحديد المفاهيم يساعد على إزالة اللبس والغموض الذي قد يعلق بذهن أو تفكير المتحاورين، وعدم تحديد المفاهيم يؤدّي بالضرورة إلى اللبس. فالمنطق محتوى ومضمون مترابط بقوة الحجّة المثبتة للحقيّة، والمبرهنة عنها. أمّا اللغة فهي الكلم أو النطق الصّوتي المسموع والمكتوب والمقروء. والحوار قد يكون مجردا باللغة، وقد يكون ذوقيا بالمنطق الذي ترتسم به البهجة والفرحة والبسمة على شفاه ووجوه المتحاورين، فيكون التناغم هو الحوار الذي يضيف ثوب التفاعل الوجداني بين أطراف الحوار فيؤدّي إلى التقارب والاندماج الذي يذوب فيه الفرد في الآخر، وقد يتعلّق به محبة وقدوة.

لقد عرّف البعض لغة البعض في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب، وأجادوا نطق لغات بعضهم البعض، وتعلّم كلّ طرف القراءة

والكتابة بلغة الآخر، وحدث الالتقاء، وتكونت الصداقات والمعارف، ومع ذلك لم يحدث التفاهم بعد، وقد يتساءل البعض:

لماذا حدث كل ذلك ولم يحدث التفاهم؟ لا استغراب في ذلك؛ فاللغة للتخاطب وليس للتفاهم، ولهذا فنحن باللغة ترتفع أصواتنا، وخلافاتنا، ومشاداتنا، ومع ذلك لم تنهذب أخلاقنا ولم ترتق أذواقنا، حيث أنّ ذلك لا يعد من وظيفة اللغة المرمّزة بالأحرف والمرسومة بها، بل أنّه من وظائف المنطق الذي لم يستخدم بعد في الحوار بين شعوب الشرق وشعوب الغرب، أو بين العرب والمسلمين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى وبخاصة الإبراهيمية منها.

فاللغة كرموز ومفاهيم تعد واضحة بين المتحاورين، أمّا المنطق كمحتوى قيمي فلا، وهنا تكمن المشكلة وهي غياب المنطق عن ميادين الحوار العلمي والموضوعي بين شعوب الشرق والغرب والشمال والجنوب.

إذن لغة الحوار رموز، أمّا منطق الحوار فأساليب تعتمد على التفكير لا على الكلام، ولغة الحوار كلامية، أمّا منطق الحوار تعليلي، فاللغة تعتمد في الحوار على معرفة المصطلحات والمفاهيم المستخدمة، والمنطق يعتمد في الحوار على ملكات التفكير وكيفيته والإدراك الواعي بالمقدمات والمعطيات، ولذا يتمّ التركيز على معرفة الكيفية التي يتمّ بها التفكير، وليس على الكيفية التي يتكلّم بها المتحاور. فعلى أطراف الحوار أن تركز على كيفية التفكير وليس على كيفية الكلام.

لغة الحوار تحاسب على المواقف التي تُرتكب، فعندما يسرق الفرد أو الجماعة، يُجرّ بهم في السّجون، وعندما يخمر الفرد يسخر منه، وإذا كذب لا يثق أحد فيه مستقبلاً، وعندما يقوم بعملية تزوير يُعزّم أو

يسجن، كلّ هذه الأحكام نتيجة حوار اللغة، أمّا المنطق؛ فيهدف إلى معرفة الأسباب التي جعلت من الفرد السوي منحرفا، وغاية المنطق الإصلاح، وتفهم الظروف التي يمرّ بها الإنسان سياسية أم اقتصادية أو اجتماعية أو صحية، ولذا في الوقت الذي تحاسب فيه اللغة على الموقف، فإنّ المنطق يحاسب على الأسباب التي كانت ورأى الموقف أو الظاهرة. ولهذا فإنّ حوار اللغة يتطلّب حُسن الإصغاء في مقابل حُسن الإلقاء، وحوار المنطق يتطلب حُسن التفهم، في مقابل حُسن التقدير، واللغة لا تولي اهتماما بالظروف، أمّا المنطق فيهتم بتقدير ذلك ويعتبره من غاياته.

غايات لغة الحوار أن تُحلّ المشاكل الآنية، باتفاقيات مؤقتة، وحلّ المشكل بأية طريقة، حتى وإن كانت على حساب آخرين، وهذا ما لم يرتضيه المنطق، ففي لغة الحوار يلاحظ في الحديث المراوغة والمخادعة والمنافقة، وانعدام حسن النية، وحوار هذه معطياته هل يُعدّ حوارا عادلا أو منصفًا؟ بالتأكيد لا.

إذن وما الحلّ؟

الحلّ الالتقاء والبدء بالمنطق الذي يجعل من الالتقاء صلة، ويجعل من التنافر تفاعل بين بني البشر بمختلف أعراقهم وأديانهم وعاداتهم وتقاليدهم، وذلك بغاية تحقيق الآتي:

1 . الاعتبار: طربي الحوار في حالة مساواة، وأنّ كلّ منهما في حاجة للآخر، وأنّهما لن يكونا مثلا ما لم يعملوا معا، وأنّ لكلاهما طاقات وإمكانات لا يمكن الاستهانة بها، ولذا في حالة الاختلاف والفرقة قد يضرّ كل منهما الآخر، ولكي تعمّ المنفعة ويزول الضرر يجب أن يتمّ الحوار المحقّق للاعتبار. {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ

سَوَاءَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ} 1183. والكلمة سواء هنا تعني: كلمة الحق التي نستوي
أمامها بالطاعة باعتبار المتحاورين أو المستهدفين بالحوار هم
الإبراهيميين. إذن الاعتبار أن تجعل لي مكانة عندك ونجعل لك مكانة
عندي، وأن لا يستهين بعضنا ببعض أو يسخر منه.

2. التقدير: تعدد الأدوار وتنوع من مجتمع لآخر، ومن ثقافة إلى
أخرى باختلاف المعتقدات والأعراف، وفي مجملها متكامل وتتم
بعضها البعض عندما تلتقي أطراف الحوار بمختلف حاجاتها وأساليب
إشباعها، وهذه تجعل أطراف الحوار في مستويات غير متساوية إذا لم
تُقدّر أثناء الحوار ومن بعده أيضا فلن يكون للحوار أهمية، فمنطق
الحوار يحسّسك بأهميتك في الوجود، وأهمية إطارك المرجعي، وأهمية
قضيتك قيد البحث والحوار، فعندما يتم الحوار المؤسس على المنطق،
تجد نفسك في حالة تقدير، ولهذا كل الناس تسعى لنيل التقدير من
الآخرين. ومن هنا فتقدير الظروف بين المتحاورين أساسي، وإن لم
تقدّر الأطراف ظروف بعضها البعض، لا تتمكن من الاستيعاب الذي
يؤدّي إلى التفاهم وحلّ التآزّات.

3. الاعتراف: يعدّ الاعتراف منطق التسليم بالحقيقة، وهو حاجة
لكلّ إنسان على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي، ومن لم يتم
الاعتراف بوجوده وبإمكاناته، وبقضيته، سيكافح حتى النصر، والنصر
هنا تحقيق الاعتراف من قبل الآخر الذي كان يرفضه، ولهذا يرى كلا
من هيجل وفرنسيس فوكو ياما في أنّ رغبة الإنسان في نيل الاعتراف
ككائن بشري له كرامته التي زجّت به في فجر التاريخ في معركة دامية

¹¹⁸³ سورة آل عمران، الآية 65.

من أجل المنزلة هي المطلب الذي ينبغي أن تتم تلبيته من الآخر. ومن ثم؛ فالسيد دائما يودّ من العبد أن يعترف له بالسيادة، وذلك باعتباره عبدا في منزلة دنيا، وحتى الذي يرتضي العبودية نتيجة الحاجة، يودّ من سيده أن يعترف له بدوره المخلص في خدمته وخدمة أبنائه وحيواناته من بعده، فالاعتراف يزيد من درجة الإخلاص والتفاعل بين أطراف الحوار حتى ولو كان بين عبدٍ وسيده، وهكذا كلّ من يجتهد ويجهد يودّ من ذوي العلاقة والآخرين أن يعترفوا له باجتهاده، وتفانيه في العمل والإنتاج، وأن يعترفوا بأنّه المتفوّق على أقرانه الذين لم يتمكنوا من تحقيق النجاح الذي تمكّن من تحقيقه، والأب الذي أشرف على تربية أبنائه بنجاح يودّ من المجتمع أن يعترف له بقدراته على تحقيق هذا النجاح، وأطراف الحوار هي الأخرى إذا لم يعترف كلّ طرف إلى الطرف الآخر بأنّه ذا خصوصية تستوجب التقدير، يصبح كلّ طرف يسعى تجاه الآخر إلى أن ينال منه الاعتراف بقدراته وإمكاناته واستعداداته وثقافته التي تميّزه عن غيره، وعندما يتمّ الاعتراف والتقدير يصبح التفاعل ميسراً عن ذي قبل بين أطراف الحوار. فعلى سبيل المثال: اعتراف الإسرائيليين بحقّ الفلسطينيين في إقامة دولة لهم على أرض آبائهم وأجدادهم فلسطين، جعل الفلسطينيين هم الآخرين يبادلون الإسرائيليين نفس الاعتراف بأنّ لهم الحقّ في إقامة دولتهم على نفس التراب الذي تواجدوا عليه أبناء العمومة الأعداء، وجعل الطرفين يقبلون الجلوس المعلن على موائد حوار التقسيم الجغرافي للدولتين، وهذا الاعتراف جعل الآخرين يعترفون بأنّه الحلّ، ويدعمونه بالأساليب السياسية والاقتصادية، التي تتأثر بين الحين والحين بمخططات السياسة الدولية.

وعليه فإنّ المنطق الذي يؤدّي إلى نشوب الحرب أو الصدام والاختلاف أو الاتحاد أو الانفصال، هو في معظمه لأجل نيل

الاعتراف؛ فكبسولة تنشيط الجهاز التناسلي عند الرجال (ألفياجرة) التي صُنعت لتمكين الذكور من ممارسة الجنس الذي فقده نتيجة ضعف وعدم مقدرة، أصبحت هذه الكبسولة في معظم الأحيان تؤخذ لأجل الاعتراف بالمقدرة والتفاخر بإثبات الرجولة وليس بالذكرورة فقط. الاعتراف مطلب وسيظل إلى أن يتم الحصول عليه بإرادة.

4 . التّقة: التّقة هي الأخرى مكن الإخلاص، فعندما تتوقّر بين أطراف الحوار، يتم الاستئناس والاطمئنان الذي يسرع بعجلة التفاهم والتفاعل الاجتماعي المفيد، فالتّقة تعني إزالة الشكوك من صدور ونفوس المتحاورين، فبالثقة تدوم العهود، وتستمرّ العلاقات وتوثق الرّوابط بين بني الإنسان. فالتّقة حزام آمان للمتحاورين، أي كلّما توقّرت كلّما زاد التفاعل بينهم، وتوصّلا إلى اتفاق لا تنفصم عراه من بعد. وعليه يقول فرنسيس فوكو ياما: "أهم العبر التي نستخلصها من دراسة الحياة الاقتصادية، هي أنّ إصلاح حال أية أمة والحفاظ على قدراتها التنافسية في السّوق الاقتصادية يبقيان مشروطين بتوقّر سمة ثقافية وحيدة وراسخة ألا وهي التّقة ومدى توقّرها وتأصلها في المجتمع" 1184

ولأنّ غايات منطق الحوار تحقيق الاعتبار، والتقدير والاعتراف والثقة، إذن فهو يختلف عن لغة الحوار بكلّ وضوح، ففي الوقت الذي تعتمد فيه لغة الحوار على معرفة الإجابة على أداة الاستفهام لماذا؟ في الوقت ذاته يسعى منطق الحوار إلى معرفة الإجابة على أداة الاستفهام كيف؟ وهذا يعني أنّ لكلّ من اللغة والمنطق فلسفة تميّز كلّ منهما عن الآخر، ففلسفة لغة الحوار تسعى إلى معرفة الإجابة على السؤال: لماذا

Francis Fukuyama. Trust: Social Virtues 1995 P 9.¹¹⁸⁴
and Creetin of Prosperity London: Hamish

تفكر؟، لماذا تحاور؟، لماذا لم تستسلم؟، لماذا تجاهد؟ ولماذا تنتحر؟ وماذا تتعلم؟ أما المنطق فيستبدل الأداة لماذا؟ بالأداة كيف؟ كيف تحاور؟ كيف تفكر؟ كيف تجاهد؟ وكيف تتعلم؟، قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ} 1185 أي: يا بني آدم، لا تستوقفوا عقولكم عند المشاهد، بل مددوا نظركم إلى الكيفية التي عليها وبها خلقت الأشياء؛ فالنظر إلى الإبل والسما والجمال والأرض ضرورة، لكن الأعظم من ذلك النظر إلى الكيفية التي بها خلقت الإبل، والكيفية التي بها رُفعت السماء، والكيفية التي بها نصبت الجبال، وسطحت الأرض.

هذه الآيات أنزلت بلغة التعجب (أفلا ينظرون)، فلو نظر بنو آدم لعرفوا، ولو عرفوا لتدبروا، ولأنهم لم ينظروا؛ فلن يتذكروا ما يعظمهم، ولن يتدبروا ما يفيد أمرهم، ولن يفكروا فيما يجب، وهذه من الغرائب والعجائب. وهكذا، ولهذا فإن اللغة إعلامية إخبارية، أما المنطق فتحليلي وتفسيري، وهذه الأسباب جعلت من اللغة تعبيرية ومن المنطق تفكيري.

فقوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} 1186. أي: لا ينبغي أن يتوقف التفكير الإنساني عند مشاهدة الإبل (الكائن المخلوق)، بل عليهم أن ينظروا إلى الكيفية التي خلقت عليها؛ أي عليهم أن يفكروا ويتأملوا حتى يبلغوا المستحيل؛ فبلوغ المستحيل ليس بمستحيل، بل المستحيل هو ما لا يتمكن المخلوق من خلقه. ذلك لأن

1185 الغاشية 17 . 21.

1186 الغاشية 17.

المستحيل لا يُخلق إلا فعلا (حيث لا جهد يبذل)، أما الممكن فيُخلق عملا (حيث الجهد يبذل).

ولهذا فقله تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) قول استفهامي (الاستفهام في هذه الآية استفهام إنكاري، بمعنى ما الذي يمنعكم من النظر في خلق الإبل؟)، أي: لم لا تنظرون إلى الكيفية التي خُلقت عليها الكائنات التي بين أيديكم؟ أي: انظروا حتى تروا المعجزات، واعملوا حتى تفقوا عاجزين، وحينها تتيقنون بأنه لا إمكانية أن يخلق المخلوق نفسه.

ولذلك؛ فأول ما يجب أن يفكر فيه العاقل، هو: النَّظَرُ إلى الخلق والتأمل فيه بلا حدود، حتى تُدرك الكيفيّة التي عليها المخلوقات لتُستثمر بما يفيد ويمكّن من الارتقاء، ومع ذلك فمهما نظرنا إلى المخلوقات أو الكائنات الحيّة التي منها الإبل، ستظل الكيفيّة التي خُلقت عليها علم غيب وبلوغه مستحيل، ولكن لأجل المعرفة ينبغي أن ننظر، وهو عمل العقل الذي لا ينبغي أن يقف عند حدود المشاهد، بل ينبغي أن يتجاوزه إلى معرفة الملاحظ والمجرد (الكيفيّة)، ولذلك؛ فلا ينبغي أن يوضع سقف على العقل والتفكير الإنساني؛ فالله لو شاء للسقف أن يوضع لوضعه، ولكن الله جعله على التخيير؛ فلا إكراه، بل يجب أن يمكّن الإنسان من المعرفة الواسعة، ويترك له الاختيار، ومع ذلك، فإن اختار ما يسيء لخلقه؛ فالعيب لا يلحق إلا من لم يضع البيّنة بين يديه بيّنة.

ومع أنّ معرفة الكيفيّة الخلقية، أمر مستحيل، ولكن النظر إليها بأعمال العقل يمكّن الإنسان من معرفة المزيد، الذي يحفز على البحث بلا توقّف، ويدفع إلى الارتقاء تدبّرا.

ولأنّ النَّظْرَ إِلَى الكَيْفِيَّةِ الخَلْقِيَّةِ يُمَكِّنُ من معرفة المستحيل؛
فكذلك النَّظْرَ إِلَى الكَيْفِيَّةِ التي بها رُفِعَت السَّمَاءُ يدفع إلى كلِّ ما يمكن
من الارتقاء، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} 1187.
ولأنّ علاقة الوجود البشري مع الوجود الخلقى هي:

علاقة خَلْق (مستحيل)، ونشوء (نمو)، وارتقاء (ممكن)، إذا؛
فالنَّظْرُ إِلَى الشَّيْءِ ليس هو الغاية، بل الغاية أن يتدبَّر الإنسان أمره عن
معرفة وبيّنة، ولهذا، وجب النَّظْرُ إِلَى الكَيْفِيَّةِ التي بها رُفِعَت السَّمَاءُ؛
فالنَّظْرُ إِلَى الكَيْفِيَّةِ التي بها رُفِعَت يمكن الإنسان من معرفة المزيد
استكشافاً؛ فمعرفة الكَيْفِيَّةِ متى ما أُمِّمَ بها الإنسان تمكن من الصَّعُودِ
وبلوغ المزيد من الارتقاء حيث لا موانع في دائرة الممكن أمام المقدرة،
أي: بما أنّ بني آدم يمتلكون المقدرة؛ فليرتقوا إلى السَّمَاءِ بلا تردّد، ومتى
ما عرفوا كَيْفِيَّةَ الارتقاء عرفوا إمكانية المزيد منه حتى يبلغوا معطيات
ذلك الانفتاح العظيم، ومعطيات كَيْفِيَّةِ رتقه من جديد. وحينها
سيكتشفون ما لم يسبق لهم اكتشافه؛ فلينظروا إلى السَّمَاءِ، ثمَّ ينظروا إلى
الكَيْفِيَّةِ التي بها خُلِقَتْ وارتقت إلى هناك بعيداً عن الأرض التي فتقت
منها. فالنَّظْرُ إِلَى الكَيْفِيَّةِ التي بها رُفِعَت السَّمَاءُ يُمَكِّنُ من معرفة الكَيْفِيَّةِ
التي بها فُتِقَت السَّمَاوَاتُ والأرضين أكواناً، والتي عندما يتمّ التعرّف
عليها يصبح الارتقاء قَمَّةً متجاوزاً لإحداث النُّقْلة المأمولة.

ومن ثمّ؛ فلا داعي للتأخّر؛ بل ينبغي الإسراع بلا تسرّع، والنَّظْرُ
في الكَيْفِيَّةِ التي رُفِعَت السَّمَاءُ الدُّنْيَا عن الأرض الدُّنْيَا، كما رفعت بقية
السَّمَاوَاتِ والأرضين طباقاً؛ فلا ينبغي أن يغفل الإنسان عن معرفة
الكَيْفِيَّةِ التي عليها الخَلْقُ (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) ولا

1187 العاشية 17 . 20.

يغفل عن النَّظر إلى الكيفيَّة التي بها تمَّ الارتفاع (وإلى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)، أي: لا ينبغي أن يغفل عمَّا يمكِّنه من الارتفاع عن كلِّ دونية، ذلك لأنَّ التفكير فيما يؤدِّي إلى الارتفاع يمكِّن من معرفة ما يفيد وينفع ارتقاء.

إنَّ النَّظر إلى الكيفيَّة التي رُفعت السَّماءِ يُمكن من معرفة الكيفيَّة التي بها يتمَّ تجاوز الجاذبيات جاذبية بعد جاذبية؛ فهي لم تكن شيئاً مستحيلاً، حتى وإن كانت على الصَّعوبة، ولذلك فالنَّظر إلى الكيفيَّة يُمكن من تحدي الصَّعاب التي جاء خلقها نعمة للعقل البشري؛ أي: لو لم تكن الصَّعوبات لكان مستوى العقل الآدمي مستوى حيوانياً، لا يفكر إلا فيما يشبع نهمه، بمعنى: لو لم تكن الصَّعاب ما كان التذكُّر واعظاً، ولا التدبُّر موقظاً، ولا التفكير مرشداً.

ولأنَّ العقل الإنساني يمكِّن من الفُسحة في كيفية الخلق والنشوء والارتقاء؛ فهو الممكِّن من معرفة ما يؤسِّس للعمل أو ينشئه عملاً، ولكن يظل عقل الإنسان في حاجة لما ينبهه ويستفزّه تذكُّراً وتدبُّراً وتفكُّراً، ولهذا جاء الخلق مشاهداً وملاحظاً حتى يُرى ويُنظر إليه دون التوقُّف عنده وكأنَّه النِّهاية، بل وجوده مشاهدٌ وملاحظٌ جاء محفِّزاً على ما يمكِّن من تجاوزه بناء وإعماراً، ولهذا؛ فالنَّظر إلى كيفية خلق الإبل يمكِّن من معرفة المستحيل الذي لا يكون إلا بفعل الخالق، والنَّظر إلى كيفية رفع السَّماءِ يمكِّن من معرفة قدرة الخالق، وما فسحه من آفاقٍ أمام العقل البشري إن أراد ارتقاء، وهنا تكمن العلاقة بين الممكن الصَّعب والمستحيل؛ فالمستحيل (ما لم يتمَّ بلوغه) بالرَّغم من فسح كلِّ شيء أمام العقل البشري، أمَّا الصَّعب؛ فهو الممكن بالرَّغم من صعوبته المحفِّزة على قبول التحدي. ولذلك؛ فالنَّظر إلى السَّماءِ كيف رُفعت،

نظر إلى (مستحيل وممكن في وقت واحد)، ولهذا، بدأ الإنسان مؤخرًا بغزو الفضاء، وهو يعلم أنّ أمامه المزيد ممّا هو أعظم ارتقاء.

أمّا النَّظَرُ إلى كيف نُصبت الجبال (وإلى الجبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) فيمكن من معرفة ما يرشد إلى البناء والإعمال، أي: يُمكن من علم الهندسة في التصميم وال عمران؛ فقولُه دلالة: أفلا ينظرون إلى الجبال كيف نصبت؟ هو قول يُمكن من التدبّر، أي: وكأنّه يقول: عليكم بمعرفة الكيفيّة التي عليها أنشأت الجبال؛ فأنشئوا ما شئتم من بيوت، وصمّموا ما تشاءون؛ فالنشوء في دائرة الممكن وإن كان صعباً؛ فهو ليس بمستحيل؛ فانظروا إلى الجبال، واجعلوا جبالاتاً من الأبراج إن استطعتم. وفوق ذلك، لا ينبغي الإغفال عن العلاقة وكيفيّتها بين رفع السماء ونصب الجبال، أي: لا ينبغي التوقّف عند رؤية الجبال، ولا السماء، بل يجب التفكير فيها، وكيف خلقت ورفعت ونُصبت؟ ثمّ التفكير في الكيفية التي بها سطحت الأرض، (وإلى الأرضِ كَيْفَ سَطِحَتْ) حتى تعرفوا كيف تعمروها وتستخلفوا فيها علماً وحضارة وارتقاء؟ وكيف تنشئون فيها حياة تمهد لعلاقات إنسانية مؤسّسة على فضائل وقيم وعمل منتجاً يمكن من إحداث النُّقْلة.

إنّ النَّظَرَ في أيّة كيفية هو نظر تفحص من أجل التبيّن الذي به تتم المعرفة الواعية بما هو كائن وما يجب أن يكون، ممّا يستدعي ملكات العقل إلى التفكير الممكن من صياغة فروض أو تساؤلات تمكّن من معرفة الجديد وإنتاج ما هو أجد. ولذلك؛ فمعرفة كيف سطحت الأرض معرفة علم وتخطيط واقتصاد وبناء وإعمار وإنتاج، ومنافسة لا تغفل عن أهمية القيم في تحقيق كرامة الإنسان.

فمتى ما عرف الإنسان الكيفية التي بها سطحت الأرض، عرف الكيفية التي بها يتمكّن من العمل، الذي لا مستحيل أمامه سوى

المستحيل، الذي بمعرفته يرتقي الإنسان إلى معرفة الخالق إعجازاً، حيث لا خَلْقُ إِلَّا بفعل الخالق.

وعليه فمنطق الحوار يبني على الحجّة، ولغة الحوار تبني على الكلمة، إذن في المنطق يعتمد الحوار على الحجّة بالحجّة والحقيّة بالحقيّة، والواقعة بالواقعة، والفعل بالفعل، أمّا في اللغة فيعتمد الحوار على الكلمة بالكلمة، والجملّة بالجملّة، والخطاب بالخطاب والنصّ بالنصّ والمشاهد والمشاهد.

في اللغة يعدّ الحوار غاية في ذاته، أمّا في المنطق؛ فالحوار وسيلة لغاية، ولذلك في الوقت الذي تبحث فيه اللغة عن المباشر يبحث المنطق فيه عن المستنبط والمستنتج، ولذا فعندما يقتصر الحوار على اللغة المستخدمة يصبح الحوار وكأنّه غاية في ذاته، وعندما يمتدّ الحوار إلى معرفة المستنتج والمستنبط بالضرورة يصبح الحوار وسيلة لتحقيق غاية أهم؛ فعقل الإنسان وملكاته هي التي تصوغ أساليب الحديث، ولكن ليس بمنعزل عن الفكر والثقافة اللذين ورأى تهذيب الأخلاق، وهذه المبررات تجعل العقل الإنساني قادر على التمييز والتفضيل، ولهذا يعتمد منطق الحوار على الاستقراء في تنقله من المعلوم إلى المجهول؛ فعندما يكون الجهاد على سبيل المثال: هو المعلوم، فإنّ المجهول واجب التعرّف عليه، وهكذا حتى العقاب في الدين الإسلامي مبني على المنطق {دُعْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} 1188.

¹¹⁸⁸ سورة النحل، الآية 126.

وبناء على ذلك فإنّ المقاومة لأجل ردّ العقاب، لا عيب فيها، فعندما تُستعمر بلدك على سبيل المثال فما عليك إلا بالجهاد من أجل معاقبة المستعمر الذي احتلّ بلدك بالقوّة ولأجل تحريرها من المعتدين. أمّا في حالة عدم الاعتداء وارتكاب المظالم، فالحوار يجب أن يؤسّس على الحكمة والموعظة الحسنة، بمعنى أن يؤسّس على المنطق لا على سواه، فلا داعي لاستخدام القوّة، ومن يستخدم القوّة في غير محلها ينبغي أن يقاوم لأنّه يتعارض مع الحكمة والموعظة الحسنة.

ولأنّ اللغة رموز وحركات؛ فهي تعتمد على التعبير والصّور البيانية والبلاغية، من أجل أن تُحسّن ذاتها وليس من أجل تحسين المستهدف، ولذلك فاللغة تترجم، ويتمّ تعلّمها، أمّا المنطق لا يترجم كما هو حال اللغة بل يُستنبط من المقدمات والمعطيات، فالمنطق هو علم القدرات والملكات العقلية الذي تتولد به الأفكار، واللغة دائما صائغة للأفكار وغير منتجة لها كما هو حال المنطق، وعليه لا يمكن أن يوّلد المنطق التناقض، ولكن اللغة في صياغاتها كثيرا من التناقض.

وفي الوقت الذي تُعد فيه اللغة وسيلة كلامية تُنطق وترسم، فهي ذات أهمية في حفظ الأفكار وتزيينها أو تشويهها، تفيد للدعاية أكثر ما تفيد في إظهار الحقيقة مولودة المنطق. ولهذا ليس كل لغوي قادر على إجادة الحوار، أو إدارته؛ فهو قد يجيد التحدث، ولكنّه قد لا يجيد أو يحسن استيعاب الفكرة أو استخدامها وتحليلها واستنباط النتائج منها. إنّ ذلك يتطلّب مقدرة عقلية ومعرفية ووعي بأساليب البرهنة، ولا يتطلّب معرفة مخارج الكلمات وكيفية نطقها، فهناك من يمتلكون لغة ممتازة ولكنهم لا يمتلكون المقدرة على التفكير والتدبّر، فهؤلاء وما يمتلكون من رصيد لغوي قد يفتقدون إلى منطق الحوار.

ولأنّ منطق الحوار يستهدف إظهار الحقيقة، فإنّ الحقيقة ليست دائماً موجبة، فالسارق والكاذب والمزور والمختلس والمرشحي، الحقيقة بالنسبة لهم الاعتراف بالفعل الذي يعاقب عليه القانون والأعراف وتحريمه الأديان، ولهذا فهم يخفون الحقيقة وذلك من أجل أن لا يعاقبوا، وهذه ليس بمنطق. ولهذا أصبح المنطق أسلوباً لتفاهم، واللغة أسلوباً للتخاطب، فاللغة قد تصوغ ما لم يكن حقيقة بأنّه حقيقة (الظاهر غير الباطن)، وهذا ليس عيباً في اللغة، بل أنّه عيباً في مستخدم اللغة، ففي كثير من الأحيان تصاغ المواضيع والنصوص في غير محلّها، ومن يعتمد على اللغة وهي بهذه الصورة قد يجد نفسه مشاركاً في تزييف الحقائق، ومن يريد الوصول إلى نتيجة أو حلّ فلا يركن إلى اللغة في الحوار يركن إلى المنطق الذي يعتمد على الحقيقة الكامنة في المقدمات والمعطيات والبراهين الدالة عليها.

ومن هنا؛ فعندما تكون اللغة مسوّقة للمنطق يصبح المنطق معللاً لها، فجمال اللغة في صورها الناقلة للمنطق، وجمال المنطق في كونه في المعنى الذي تحمله اللغة، إنّه الأسرار والكنوز التي تجعل للأفعال قيمة، وللكلمة أهمية ومعنى، فاللغة بلا منطق قد تعدّ سفاهة، والمنطق بلا لغة قد يضل سراً لا يعرف.

وعليه تعدّ اللغة دليل إثبات الهوية، عربية، هندية، صينية، تركية، فرنسية، وإنجليزية وغيرها من الهويّات العالمية، والمنطق دليل إثبات الحجّة، ولهذا في إجراء الحوارات قد يتمّ الاعتراض على اللغة، ولكن لا يمكن أن يتمّ الاعتراض على المنطق، وهكذا يمكن أن يتمّ الانتقاد للغة، ولكن لا يمكن أن يتمّ الانتقاد للمنطق. وعليه فالمحاور يمكن أن يكون على أحد الحالات الآتية:

1 . يمكن أن يكون للمحاور موضوعا ولغة، ولكن ليس له منطق، هذه مشكلة منطقية تستوجب تغيير المتحاور بأخر يلم بالموضوع، ويجيد اللغة، وأن يكون له منطق.

2 . أن يكون له موضوع، وله منطق، وليس له لغة، هذه المشكلة هي الأخرى تحتاج إلى المتحاور الذي يجيد اللغة إلى جانب إلمامه بالموضوع والمنطق.

3 . أن يكون له موضوع، ويجيد اللغة، وله منطق، ولكن ليس له إرادة، هذه المشكلة تحتاج إلى من يتوفّر فيه الشرط المنقوص في الحوار وهو الإرادة، وإلا سيكون أحد الأطراف غير ممّائل للطرف الآخر الذي تكتمل به الاشتراطات، وفي هذه الحالة لن تصلا الأطراف إلى نتائج موجبة ومشاركة.

إذن هناك عناصر رئيسة للحوار الفعّال هي:

1 . موضوع.

2 . طرفين أو أكثر.

3 . لغة.

4 . منطق.

5 . إرادة.

وبناء على ما سبق يقول جونسون: "يعتمد المنطق الحوارى على تحليل الفكر ومبادئه وصوره ومضمونه"، ويقول كينز: "إنّ المنطق يهتم بطريقتنا في التفكير". لذا على أطراف الحوار أن يتعرّفوا على الطريقة التي يفكر بها الطرف الآخر وإلا لن يصلوا إلى التفاهم وحلّ المعضلات،

فعندما يتعرّف كلّ طرف على الطريقة والكيفية التي يفكّر بها الطرف الآخر فإنّهم يتمكّنون من معرفة أنساق التفكير وقواعده ومبادئه وأصوله ومرجعياته التي يتأثّر بها.

ولذا يُعدّ المنطق فن التفكير *The art of thinking* فمن يجيده يوصف بالمفتن، وذلك لامتلاكه المقدرة على استقراء المقدمات والمعطيات، والوصول إلى النتائج والبراهين المثبتة، ومن لا يجيده لن يوصف به.

ووفقاً لهذه المعطيات قد علّم سليمان منطق الطير، حتى تمكّن من تسييره والتحكّم في أمره بأمر الله تعالى.

وفي الوقت الذي يعتمد فيه منطق الحوار على الفكرة العابرة (الفكرة التي لا تستوقفها حدود)، في الوقت ذاته تعتمد لغة الحوار على المحليّة والوطنية، التي في بعض الأحيان تجعل من المتحاورين متمسكين بالمرور الذي لا يسمح باستيعاب الآخر. وهذا لا يعني أن ينسلخ المحاور عن قيمه ومعتقداته وتاريخه الذي كان سبباً في استقلاله أو تحرره، ولكن عندما تسود الموضوعية فلا داعي للتعصّب الذي يؤدّي إلى الفرقة، ولا داعي للاندماج الذي يلغي فضائل الخصوصية الخيرة وقيمها الحميدة.

إذن فالقبول بمنطق الحوار يؤدّي إلى قبول التصحيح والتصويب والتقويم، ولهذا يهدف المنطق إلى كشف الفكر السالب وكشف الفكر الموجب، والتأكيد على ما هو موجب بغضّ النظر عن مصدره، والتخلّص ممّا هو سالب لدى أطراف الحوار دون تحييز أو مجاملة، ولا داعي للتشبّث المسبق والرفض المسبق، وكلّ شيء قابل للقبول أو الرفض بعد إخضاعه لمعايير المنطق، المستمدّة من الاعتبار، والاعتراف

والتقدير المتبادل، والثقة المتبادلة، والإرادة والمساواة بين الأنا والآخر في الحقوق والواجبات والمسؤوليات.

وعليه؛ فالمنطق ليس اللغة، { وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } 1189 قال سليمان عليه الصلاة والسلام علمنا منطق الطير، ولم يقل علمنا لغة الطير، أو صوت الطير وكلامه، فمعرفة اللغة لا تعدّ شيء صعب ولا حتى شيء مستحيل، الصّعب هو أن يعرف سليمان الكيفية التي بها يفكر الطير وهو المقصود بمنطق الطير، ولهذا فالحوار الذي تمّ بين سليمان والهدهد هو في حقيقته حوار مناطق، وليس حوار متكلمين، حوار الحجّة بالحجّة، والفكرة بالفكرة، والاستنباط بالاستنباط، والاستنتاج بالاستنتاج. إذن علّمنا منطق الطير تعني لقد كان سليمان متمكّنًا من معرفة الطريقة التي يفكر بها الطير، لقد عرف مستويات التفكير العقلي عند الطير، وبالتالي فإنّه يعرف مصداقية الأفكار التي سينطق بها الطير وبدون أي لبس أو غموض، إنّها مسألة متقدّمة في التفكير والتدبّر الإنساني.

ولهذا فمنطق الحوار استدلالي، ولغة الحوار إشارية، تشير إلى الموجود، ولا تعدّ جزءا منه، فهي خارج عمّا تشير إليه. أمّا منطق الحوار فضمني، داخل محتوى النصّ وداخل الخطاب المستخدم أثناء الحوار أو الاتصال، والاستدلال المنطقي يعتمد المحاجّة، بين الأشياء التي ينطلق منها الحوار، فيستند على الشيء بالشيء، (يستند على النتائج بالمقدّمات)، فالحوار المنطقي ليس خيالي، فبه يتمّ تصور المواضيع قبل حدوثها، وهكذا أيضا يستدل على ما ينبغي أن يكون ممّا هو كائن بالفعل. فالحوار المنطقي استرشادي، يسترشد بالأشياء على الأشياء.

¹¹⁸⁹ سورة النمل، الآية 16.

والاستدلال عملية عقلية إدراكية، تعتمد على ملكة التذكر والتدبر والتفكر، التذكر الآتي من التأريخ، الذي يتطلب العودة من الزمن الآن إلى الزمن الماضي، لأجل إظهار الصلة التي يستدل بها المتحاورون في أخذ العبر من قصص السابقين في حركة التاريخ الإنساني، أما التدبر فهو لا يكون إلا في الزمن الحاضر الذي فيه الجهد يبذل عملاً وفعلاً، أما التفكير فيمتد من الزمن الآن والظرف الآن إلى الزمن المستقبل والظرف المستقبل، وفي كل الأحوال (التذكر والتدبر والتفكير) فإن للتاريخ عبر، والزمن كفيل بتغيير المواقف والظروف والحالات مما هي عليه إلى ما يجب أن يكون أفيد وأنفع.

وهنا يعتمد الحوار المنطقي على التدبر الذي لا يكون إلا حاضراً؛ ولهذا فالتدبر يستوجب معرفة الحكمة التي تكمن فيها الحلول والمعالجات، سواء أكانت للوقت الآني أم السابق أم اللاحق، وهكذا تستمد الحكمة بالاستدلال المعرفي والاستنباط Deduction والاستقراء Induction من المشاهد إلى الملاحظ، أو من الملاحظ إلى الآخر، فمن مقومات الموضوع أو مستهدفاته أو فلسفته التي هو عليها يمكن للمحاور أو الباحث أن يستنبط النتائج أو العواقب المترتبة على اتخاذ القرار أو ارتكاب الفعل، ويمكنه أيضاً تفادي المحاذير أو العواقب. وإذا لم يتم التدبر عن وعي منطقي فقد تقع الواقعة الكامنة في المستنبط منه، ولذا فإن انتهاج المنطق يعني اتباع الحكمة والتدبر الذي يمكن من الاستقراء والاستنتاج العلميين.

وللغة أهمية في الاتصال ونقل المعلومات الغنية بالمنطق والمعلومات الفقيرة إليه، ولها أهمية فوق ذلك في تحقيق التكيف بين الأنا والآخر؛ فاللغة كوسيلة للتخاطب هي ذاتها وسيلة للقمع، فباللغة يتحقق التكيف، وبالقمع كذلك، وباللين يتم الاستيعاب المرضي، وبالقمع يتم

الاستيعاب الكرهى، فالسجين على سبيل المثال: بعد فترة من الزمن
سيتكيف مع السجن، ولكن لا يمكن أن يكون متوافقا معه ولا مع
السجان. والحمد لله رب العالمين.